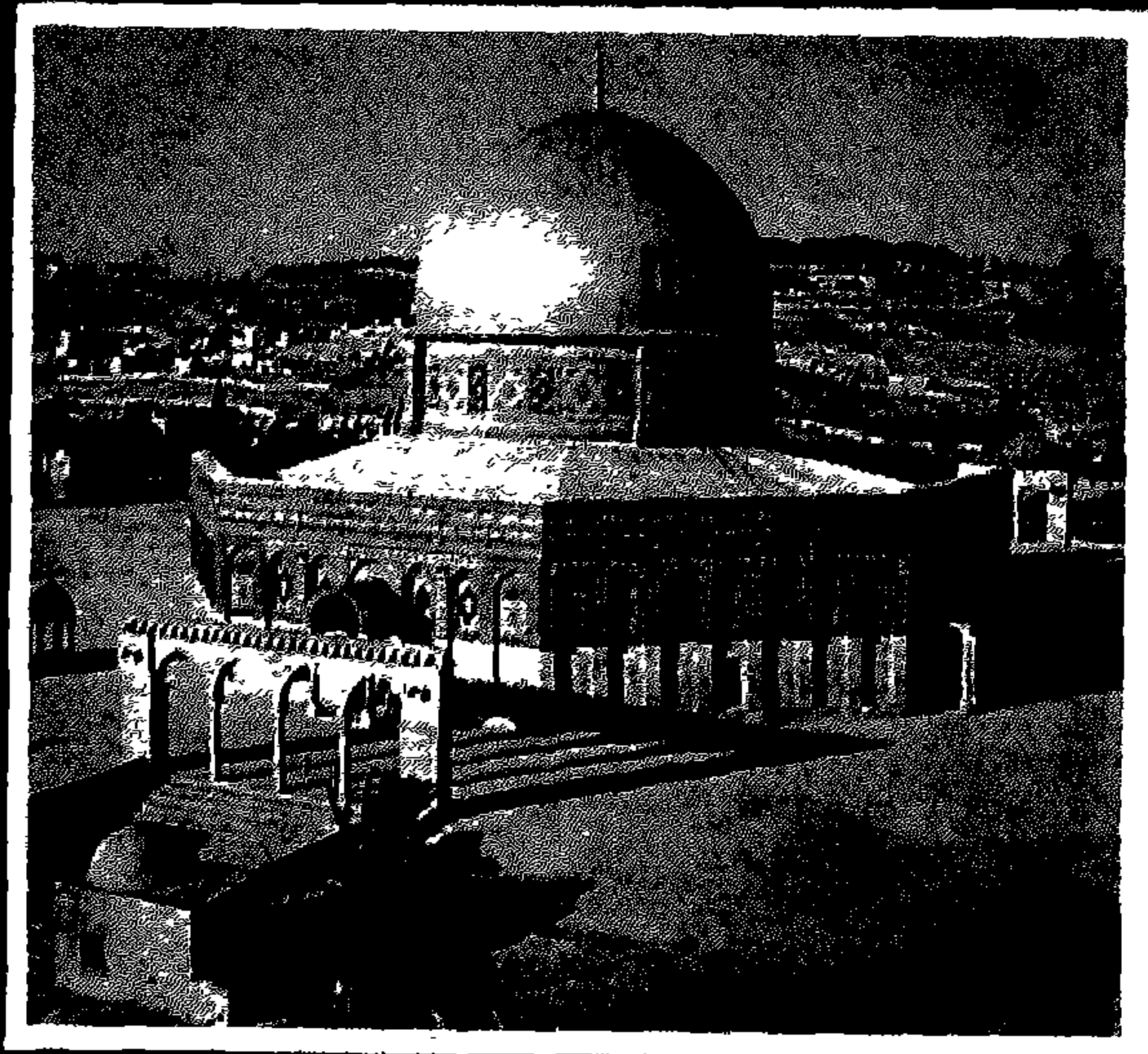


كتاب

القمرى

ومعآركنا الكبرى



محمد صبيح

كتّابنا

القُدس

ومَعَارِكنا الكُبْرى

من اليدِ .. حتى نرأية الحروب الصليبية

« الطبعة الثانية »

مُحَمَّد صَبِيح



الفلاف - الفنان :
جميل شفيق



رئيس قطاع الإعلانات :
ابراهيم أبوالخير



سكرتارية التنفيذ :
هناء عبدالمنعم





مؤسسة دار التعاون
للطباعة والنشر

التعاون
كتاب

رئيس مجلس الإدارة:

محمد رشاد

رئيس التحرير:

سعيد نور الدين

٦ شارع عبدالقادر حمزة - جاردن سيتي - القاهرة - تليفون ٣١٣ ٣٥٤٣

محمد صبيح

الرائد .. والمعلم

أستاذي الجليل .. محمد صبيح .. يحق لي أن أشعر
بالفخر والإعزاز لأنني ثمرة من ثمار غرسكم .. فقد غمرتني ..
أيها العملاق .. بالكثير من علمك وخبرتك ومحبتك .

أستاذي العظيم .. ستظل أبدا علما خفاقا في سماء الوطنية
والحرية والديمقراطية .. وسوف تنتقل رايتك خفاقة من جيل
إلى جيل تحمل بين طياتها أروع النماذج في عالم الكلمة الحرة
والوعي المستنير .. وسوف تظل دار التعاون إحدى العلامات
المضيئة في سجل تاريخك الحافل بالكفاح الوطني والإنجازات
الرائدة في مجالات الدراسات التاريخية والاسلامية
والتعاونية .. لقد كنت يا أستاذي مدرسة وطنية وصحفية
وتاريخية .. أثريت الحياة السياسية والصحفية بعطائك
الفياض على امتداد أكثر من أربعين عاما .

أستاذي ومعلمي .. لقد كنت أستاذ أجيال وأجيال من
الصحفيين ليس في مؤسسة دار التعاون وحدها ولكن في كل دور

مكتبة التراث والدراسات الإسلامية

الصحافة المصرية والعربية .. لقد كان لي وللكتيرين من زملائي شرف العمل معك .. والتقدم على يديك .. كنت تقف إلى جوارنا .. تدفعنا إلى الأمام .. وتغدق علينا من غزير خبرتك وعلمك وإنسانيتك .. كما كنت تحنو علينا كأبنائك وتغرس في نفوسنا الإصرار والصمود وتفتح أمامنا طريق النجاح والتفوق .. كنا نرى السعادة تغمرك عندما يتألق ابن من أبنائك وتلاميذك في عمله أو عندما يحقق نصرا صحفيا في مجال تخصصه .. واستطعت بأبوتك ومحبتك وأستاذيتك أن تجعل من أسرة دار التعاون نموذجا للأسرة الصحفية التي يحتذى بها .

أستاذي .. إن حياتك لم تكن سهلة .. بل مليئة بالمصاعب والأشواق .. فقد جلبت لك شجاعتك الكثير من المتاعب .. وكنت لاتعترف بالهزيمة .. ولاتتكسر أمام الخصوم ولاتستسلم أبدا أمام التحديات .. لقد كنت يا أستاذي جزءا من النسيج الشامخ للصحافة المصرية .. كنت عظيما في أمتك .. مخلصا لدينك .. ولعروبك .. ولوطنيتك .

أستاذي الجليل .. بكل الحب والعرفان بالجميل .. أشهد أنني تعلمت منك الكثير وأنتى أحببتك محبة الإبن لأبيه .. والتلميذ لأستاذه .. والصديق لصديقه .

واليوم يسعد « كتاب التعاون » الذي كان لك السبق في إصداره والذي أتشرف برئاسة تحريره أن يعيد طبع مؤلفك التاريخي الرائع - القدس ومعاركنا الكبرى - في فترة نحن في أشد الحاجة فيها إلى فكرك وقلمك وشجاعتك .. ولعل ذلك يكون

بداية لإعادة طبع المزيد من مؤلفاتك التاريخية والإسلامية
الخالدة .

أستاذى .. محمد صبيح .. إن الكتيبة الصحفية التى
اخترتها بنفسك .. ودربتها وعلمتها .. وكنت تزهبها على
الدوام .. تعاهدك بالحفاظ على إنجازاتك وأفكارك حتى تظل
قلعتك التعاونية « دار التعاون » التى أسستها بجهدك
وعرقك .. مُنارة لكل من يطلب الزاد الصحفى والثقافى
والتعاونى إلى ما شاء الله .

رحمك الله رحمة واسعة .. وأغدق عليك من عطائه الفياض
جزاء ما قدمت لوطنك وللعروبة والاسلام .

« سعيد نور الدين »

رئيس تحرير كتاب التعاون



تقديم :

قال لى أستاذى :

محمد صبيح

كان المرحوم الأديب العملاق محمد صبيح ، واسمه بالكامل محمد صبيح عبدالقادر مناضلا وطنيا كبيرا ، كما كان واحدا من الصحفيين المصريين الذين وهبوا أنفسهم وأقلامهم فى سنوات مبكرة من الحركة الوطنية ، وبالضبط فى الثلاثينيات دفاعا عن حق شعب مصر فى التحرر من نير الاستعمار الانجليزى الذى كان جائئا على ارض مصر ..

وكان أحد الاقلام الشريفة التى أعلنت الحرب على الإقطاع الذى يلهب ظهور الفلاحين فى بلادنا ..

وكانت للرجل أفكاره وأسلوبه فى التعبير عن آرائه السياسية التى كانت السبب دائما فى اعتقاله عشرات المرات ..

ولم يتوقف الإنتاج الأدبى لمحمد صبيح طوال سنوات نضاله الوطنى ، وأظنه قد قام بتأليف ونشر حوالى ٦٥ كتابا ..

وكانت بدايته إصدار سلسلة كتاب الشهر فى أوائل الثلاثينيات ..

وكما قال لى مرة ، كانت غالبية كتب هذه السلسلة تاريخية ، وقد أراد بها أن يأخذ شبابنا منها العبرة والمثل الطيب ، وكانت دروسا بأسلوب مبسط فى التاريخ والوطنية ، ولم يكن سعر النسخة الواحدة من كتب هذه السلسلة يزيد على القرشين ..

وكان الفنان الكبير المرحوم عبدالسلام الشريف يرسم بريشته متطوعا اغلفة هذه الكتب ..

وهكذا أراد المرحوم محمد صبيح ان تصبح هذه المجموعة من كتبه التاريخية والوطنية في متناول الجميع ، وخاصة طلاب المدارس .. . واعتقل محمد صبيح طوال سنوات الحرب العالمية الثانية ، فقد كان يعمل في ذات الايام سكرتيرا عاما لحزب مصر الفتاة ، وقد أوصى الانجليز باعتقاله ، وكان في رأيهم انه قنبلة موقوتة. يمكن ان تعرقل مجهوداتهم الحربية . وخرج الرجل من المعتقل مع نهاية الحرب ليصدر في الأربعينيات مجموعة أخرى من الكتب التاريخية منها : روسيا والنيل وغيرها ..

ودفعه نجاح مشروعه الثقافي لتبسيط التاريخ للدخول في تجربة جديدة هي إصدار عدد من الموسوعات التاريخية الهامة ، وفي مقدمتها موسوعته عن كفاح شعب مصر في القرنين التاسع عشر والعشرين .. . وكانت هذه الموسوعة من أهم إصداراته لاحتوائها على مذكرات الزعيم محمد فريد التي كانت قد اختفت مع وفاة الزعيم الكبير ، ثم ظهرت فجأة على صفحات هذه الموسوعة التاريخية :

وكانت من بينها أيضا موسوعة كتابه : أيام وأيام .. وموسوعة أخرى اسمها مواقف حاسمة في تاريخ القومية العربية ، وكتابه عن الفريق عزيز المصري ..

واذكر أنه أصدر في الأربعينيات أيضا سلسلة كتب للأطفال بعنوان : يُحكى أن .. وكانت غالبية أغلفة هذه الكتب بريشة الفنان الكبير حسين بيكار ..

وجاءت مرحلة الصراع العربي ضد الصهيونية العالمية في منتصف الأربعينيات ، ولم ينتظر وبادر بإصدار مجموعة كتب عن اليهود ، ومنها كتاب بعنوان : المعتدون اليهود .. من أيام موسى إلى أيام ديان .. وكتاب آخر بعنوان : اذا عدتم عدنا ..

كما أصدر كتابه : القدس .. ومعاركنا الكبرى ، وهذا الكتاب هو الذي قررت دار التعاون إعادة طبعه باعتباره وثيقة تاريخية ووطنية هامة ..

وعندما طلب إليّ الزميل والصديق محمد رشاد رئيس مجلس إدارة دار التعاون والصديق سعيد نورالدين رئيس تحرير كتاب التعاون ان أقوم بكتابة تقديم للطبعة الجديدة من الكتاب الذي صدرت طبعته الأولى منذ حوالي ثلاثين سنة ، لم أتردد لحظة واحدة في المبادرة بكتابة هذا التقديم وفاء للرجل الذي

أعطى الكثير لبلاده ، ولم تمنحه مصر للأسف الشديد ماكان يستحقه من تقدير ..

قال لى محمد رشاد إن دار التعاون « قررت إعادة إصدار هذا الكتاب باعتباره دراسة جادة ووثيقة تاريخية تكشف بالدليل القاطع ان مدينة القدس عاشت دائماً عربية ، ولم تكن حياة اليهود فيها إلا طارئاً ، ولفترة سنوات محدودة ، ولم يكن لهم فيها على عكس مايدعونه أى استقرار »
وصحيح ان المرحوم محمد صبيح الذى عرفته عن قرب وتلمذت على يديه فى مستهل حياتى الصحفية قد أضاف بمؤلفاته الكثير الى المكتبة العربية إلا ان كتاب « القدس ومعاركنا الكبرى » كان فى رأى دائماً عبارة عن تحقيق صحفى تاريخى كشف عن أضخم عملية تزوير قام بها حاخامات إسرائيل للتلمود ، كتاب اليهود المقدس ..

وأذكر ان المرحوم محمد صبيح الذى ولد فى ٥ ديسمبر سنة ١٩١٠ ، ومات فى ابريل سنة ١٩٨٢ كانت له عادة ان يتوجه بعد ظهر كل يوم جمعة الى مكتبة لبيع الكتب القديمة كانت تقع فى زقاق وراء مبنى محلات عمر أفندى فى شارع عبدالعزيز ، وانه كان يقضى فى هذه المكتبة عدة ساعات بحثاً عن بعض هذه الكتب القديمة ..

وفى احد الايام وقعت عيناه على نسخة من كتاب التلمود ، كتاب اليهود المقدس :

وعرف المرحوم محمد صبيح ، كما قال لى مرة .. ان صاحب المكتبة اشترى هذه النسخة ضمن مجموعة من الكتب كان أحد أثرياء اليهود المصريين قد عرضها للبيع ..

ودفع المرحوم محمد صبيح ١٥٠ قرشاً ثمناً لنسخة كتاب التلمود ..
واذكر أيضاً انه عكف لمدة ستة أشهر كاملة على دراسة الكتاب ، ولم تكن مفاجأة عندما تأكد ان الكثير من رواياته دخيلة ، وللدقة أدخلت أو حرفت بواسطة حاخامات اليهود ..

وخرج المرحوم محمد صبيح بعد قراءته للكتاب عدة مرات ، ومقارنة ماجاء فيه من روايات وحكايات بما جاء حول نفس هذه الروايات والوقائع فى الإنجيل والقرآن الكريم بأن الإسرائيليين الذين يدعون بأنهم يهود ، لاعلاقة لهم باليهودية كدين ورسالة سماوية ، وبالتالي يمكن القول بأن غالبية يهود اسرائيل ليسوا يهوداً ..

قلت له مرة : اذا كان هذا هو رأيك ، فمن هم اليهود الحقيقيون .
قال لى : اليهود الذين كانوا يعيشون فى الأندلس وخرجوا منه فى منتصف
القرن الخامس عشر ليعيشوا فى جنوب فرنسا ، وفى المغرب ، ومنهم أيضا الذين
استقروا فى منطقة سالونيك ليعيشوا فى رحاب الدولة العثمانية وتحت حمايتها .
قلت له : وماذا عن يهود أوروبا ؟

قال لى : فى رأى إنهم مجموعة من المرتزقة الذين تأثروا كثيرا بما جاء فى
كتاب التلمود الذى قام حاخامات بنى اسرائيل بإدخال تعديلات كثيرة عليه ،
وهى تعديلات تعتبر تحريفا ولا تمت للديانة اليهودية الأصيلة بصلة ..
وبمعنى آخر .. لم يعملوا بتعليمات الرب ووصاياها العشر الى سيدنا موسى
عليه السلام ، ولكن بما أدخله الحاخامات على هذه التعليمات من تحريف ..
وفى تصورى ان المرحوم محمد صبيح خرج بهذا الرأى بعد دراسة عميقة
ومقارنة للروايات والوقائع التاريخية كما جاءت فى كتاب التلمود بعد التحريفات
التي أدخلت عليه ، مع نفس الوقائع والروايات كما جاءت فى الانجيل كتاب
المسيحية المقدس ، وأكدها القرآن الكريم .

وفى رأى ان كتاب القدس ومعاركنا الكبرى يحتوى على أكثر من فصل
يؤكد بالدليل القاطع عملية التحريف التي أدخلها حاخامات اسرائيل على كتاب
التلمود (الفصل السادس) ..

واذكر اننى كنت مع الزميل انيس منصور فى زيارة للمرحوم محمد صبيح
قبل وفاته بغدة أسابيع ، ولا أعرف كيف لمح أنيس نسخة كتاب التلمود التي
اشتراها المرحوم صبيح من مكتبة بيع الكتب القديمة ، فى مكتبة الأديب
الراحل ، فبادر باستئذانه فى استعمارة نسخة هذا الكتاب واعداد بإعادتها بعد
قراءتها .

ورحب المرحوم محمد صبيح بإعارة نسخة الكتاب الى أنيس .. ولم تعد هذه
النسخة مرة أخرى الى مكتبة محمد صبيح !

والذى لا يعرفه كثيرون ان المرحوم محمد صبيح كانت تربطه علاقات قديمة
بالكثيرين من أعضاء مجلس قيادة ثورة الجيش فى يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ،
وعلى رأسهم الرئيس جمال عبدالناصر ، والرئيس محمد أنور السادات ..
وعندما قامت ثورة ٢٣ يوليو كان المرحوم محمد صبيح يعمل رئيسا لقسم
الأخبار بجريدة « الأساس » التي كانت تنطق بلسان الهيئة السعدية ، وهى

الحزب السياسى الذى انشأه احمد ماهر باشا ومحمود فهمى النقراشى باشا بعد اختلافهما مع حزب الوفد ، وقد قامت الثورة فى شهر سبتمبر سنة ١٩٥٢ باعتقاله هو والاستاذ الكبير الدكتور على الرجال ، وكان رئيسا لتحرير الجريدة فى مبنى الكلية الحربية مع عدد من زعماء الاحزاب السياسية فى مصر قبل الثورة ، وبقي المرحوم محمد صبيح فى المعتقل ٩٠ يوما ، ولما أفرج عنه وجد نفسه فى الشارع بلا عمل ..

وروى لى رحمه الله انه ذهب فى تلك الأيام الى الاستاذ أحمد ابو الفتح ، وكان يرأس تحرير جريدة المصرى قبل ان يصدر قرار مجلس قيادة الثورة بإغلاقها ..

كان يريد أن يعمل بالجريدة ، وكانت مفاجأة عندما قال له الاستاذ أحمد ابو الفتح .

روح لجمال عبدالناصر هات موافقة على تعيينك فى الجريدة قبل أن أوافق على السماح لك بالعمل فيها .. !

وابتسم محمد صبيح ، ولم يقل شيئا لصديقه أحمد أبو الفتح .. وذهب محمد صبيح فى تلك الأيام إلى المهندس سيد مرعى لتهنئته بمناسبة تعيينه مشرفا على تنفيذ قانون الاصلاح الزراعى ..

وكانت مفاجأة عندما عرض عليه المهندس سيد مرعى العمل مستشارا اعلاميا لمشروعات الاصلاح الزراعى ..

وعرف أن الرئيس جمال عبدالناصر قال للمهندس سيد مرعى :
- إن اختيارك لمحمد صبيح موفق للغاية :

وأنقل عن المرحوم فتحى رضوان ، وكان واحدا من الزعماء السياسيين الذين جرت عملية اعتقالهم ايضا ، أنه نقل بالطائرة بعد الافراج عنه لمقابلة أعضاء مجلس قيادة الثورة .

وقال فتحى رضوان بالحرف الواحد :

- عندما التقيت بأعضاء مجلس قيادة الثورة لم اكن أعرف أحدا منهم فيما عدا البكباشى محمد انور السادات إلا اننى فوجئت بواحد منهم ، وكان طويلا وله شخصية مهيبة ، وهو يقول لى : استاذ فتحى أنت لاتذكرنى .. أنا كنت عضو فى مجلس مصر الفتاة ، وكنت رئيسا لشعبة الحزب فى باب الشعرية ، وكان رئيسى المباشر هو محمد صبيح ..

وقال فتحى رضوان : عرفت أن هذا الشاب هو جمال عبدالناصر .
واذكر اننى سألت المرحوم محمد صبيح مرة عن الحقيقة حول ما رواه
فتحى رضوان فأكد لى ان جمال عبدالناصر كان فعلا عضوا لعدة سنوات فى
حزب مصر الفتاة ، وقال انه كان فعلا رئيسا لشعبة الحزب فى باب الشعرية ..
وكان محمد صبيح يعمل فى تلك الأيام سكرتيرا عاما للحزب ، كما كان
يرأس تحرير جريدة الحزب منذ إنشائه حتى اختلف مع المرحوم أحمد حسين
مؤسس الحزب فاستقال فى عام ١٩٤٥ من جميع مناصبه فى الحزب ليتفرغ
للكتابة والعمل فى الصحافة .

وروى لى محمد صبيح رحمه الله مرة انه كان يستقل قطار أعضاء مجلس
قيادة الثورة أثناء احدى رحلات توزيع اراضى الاصلاح الزراعى على الفلاحين
عندما انتهز الفرصة ليوجه سؤالا الى الرئيس جمال عبدالناصر ..
قال : أريد ان أعرف .. لماذا قرر مجلس الثورة اعتقالى وأنت تعرف اننى
من الثوريين دائما ولست من الاقطاعيين أو الرجعيين ..
وكانت مفاجأة عندما رد عليه جمال عبدالناصر قائلا :
- الذى صوت لاعتقالك من مجلس الثورة هم أصدقاؤك .. أما أنا فقد كان
صوتى ضد اعتقالك !

وأدرك رحمه الله .. ماذا كان جمال عبدالناصر يعنيه ..
والذى لايعرفه كثيرون ان الرئيس أنور السادات كان صديقا حميما لمحمد
صبيح ، وأنه كان يختفى فى شقة كان رحمه الله يعيش فيها فى ناحية العباسية
عندما كان رجال القلم السياسى يفتشون عنه للقبض عليه ..
وعندما رُشِّحَ محمد صبيح لعضوية مجلس النواب عن دائرة العباسية فى
الانتخابات التى أجراها المرحوم أحمد ماهر ، كان منافسه فى الترشيح لنفس
الدائرة هو الدكتور أمين سامى ابن خالة رئيس الوزراء ..
وكانت تعليمات رئيس الحكومة بأن ينجح ابن خالته بأى ثمن وبالتالي عدم
نجاح محمد صبيح ..

واضطر أنور السادات لان يغطى رأسه بكوفيه وان يخرج من مخبئه لأول
مرة للمشاركة فى الحملة الانتخابية الى جانب محمد صبيح ..
ولا أريد ان أقول انه تطوع لحراسته أثناء جولاته الانتخابية فى شوارع
وأزقة حى العباسية !..

وكان آخر ما يتصوره رجال القلم السياسى ان يكون الرجل المثلث الذى يسير
في ركاب محمد صبيح أثناء حملاته الانتخابية هو أنور السادات !

ولعلها أول مرة التى يُعَرَفُ فيها أن الرئيس جمال عبدالناصر كلف محمد
صبيح في أواخر عام ١٩٥٤ بكتابة القصة الكاملة للملك فاروق ردا على بعض ما
كان مصطفى أمين ينشره في صحف ومجلات اخبار اليوم تحت اسم الفساد في
ايام الملكية ..

وكان ان طلب اليه ان يتوجه الى قصر عابدين الذى أصبح اسمه القصر
الجمهورى الآن للاطلاع على ما يريد من الوثائق والمستندات وكتابة سلسلة من
المقالات عن حياة الملك فاروق ..

ووافق محمد صبيح ولكنه اشترط السماح له بالاستعانة باللواء امام
ابراهيم رئيس القلم السياسى أيام الملك فاروق لتحليل بعض الوثائق والتقارير
التي كانت ترفع الى القصر الملكى ..

ووافق الرئيس جمال عبدالناصر على ان يقوم اللواء امام ابراهيم بهذه
المهمة لينشر محمد صبيح سلسلة من التحقيقات في جريدة الجمهورية تعتبر من
أبرز وأدق ماكتب عن أيام الملك فاروق قبل الثورة .

وأنقل عن فتحى رضوان رواية أخرى وهى ان الرئيس جمال عبدالناصر
كان يرشح محمد صبيح رئيسا لتحرير جريدة الجمهورية عند انشائها ، ولكن
أنور السادات صديق صبيح القديم وكان قد وقع عليه الاختيار للإشراف على
جريدة الجمهورية اعترض على هذا الترشيح وهو يقول إن صبيح دماغه
ناشفة ، ولا يمكن التفاهم معه ..

وفي هذا قال فتحى رضوان بالحرف الواحد :

- دخلت على الرئيس جمال عبدالناصر لأجد أنور السادات جالسا معه وكان
يبدو ان مناقشة حادة كانت تدور بين الاثنين ، فقد كان وجه جمال عبدالناصر
مكفها . وكان يبدو عليه الانفعال الشديد ..

والتفت عبدالناصر ناحيتى بمجرد ان رأنى وقال لى :

- تعال .. يافتحى .. أحكم بينى وبين أنور ..

قلت له : خير ياريس ..

قال : مارأيك فى تعيين محمد صبيح رئيسا لتحرير الجمهورية .. أنور

ياسيدى مش موافق ..

ورد فتحى رضوان على جمال عبدالناصر قائلاً :
- مافيش أحسن من محمد صبيح لهذا المنصب !..

وذهب أنور السادات ليحل صلاح سالم مكانه فى الاشراف على جريدة
الجمهورية .

وكان محمد صبيح قد قام بإنشاء دار التعاون ، وكانت مشكلته انه لايجد
مكانا ليكون مركزا لها ..

ونجحت الدار الجديدة فى اصدار المجلة الزراعية وجريدة التعاون من
حجرتين كانتا مخصصتين لجهاز الاعلام الذى كان يشرف عليه فى هيئة
الاصلاح الزراعى فى مبنى ملحق بقصر عابدين .

واقترح محمد صبيح ان تقوم الدار الصحفية الجديدة باستئجار مبنى دار
الشعب ، وهونفس المبنى الذى كانت جريدة المصرى تشغله قبل ان يصدر قرار
مجلس قيادة الثورة بإغلاقها وأصبح ملكا لدار التحرير التى تصدر عنها جريدة
الجمهورية .

ولم يوافق صلاح سالم على تأجير مبنى دار الشعب لدار التعاون ..
ولعلها أول مرة التى يُعْرَفُ فيها ان الرئيس جمال عبدالناصر أصدر فى عام
١٩٥٨ قرارا بتعيين محمد صبيح رئيسا لتحرير جريدة الجمهورية ..

وكان هذا يعنى ان يصبح اسمه واحدا فى قائمة رؤساء تحرير الجريدة ،
وكان على رأسهم المرحومان حسين فهمى وكامل الشناوى .
ولم يعلن هذا القرار وعرف ان صلاح سالم وضع القرار بعد ان تلقاه من
رئاسة الجمهورية فى درج مكتبه ثم أغلق الدرج بالمفتاح ، ووضع المفتاح فى
جيبه .

وقيل إن المرحوم كامل الشناوى قال لصلاح سالم بالحرف الواحد :
- محمد صبيح رئيس تحرير للجمهورية (تبقى مصيبة) كما قيل إنه
استطاع إقناع صلاح سالم بأن صبيح لن يهدأ قبل أن يزيحه من منصبه ليحل
مكانه .

وذهب محمد صبيح فى تلك الأيام إلى صلاح سالم لمحاولة إقناعه بالموافقة
على تأجير مبنى دار الشعب اليه .. وكانت مفاجأة عندما ثار صلاح سالم فى
وجهه ، وهو يقول له :

- إنت عاوز تورثنى بالحياة ..

وابتسم محمد صبيح ، وهو يرد على صلاح سالم قائلاً :

- دار الشعب أصبحت مهجورة ، وانتقال دار التعاون إليها حينورها .

وأصر صلاح سالم على رأيه . وهنا قال له محمد صبيح :

- عيب ياصلاح بيه . أنا عارف إن فى درج مكتبك قرار من الرئيس

عبدالناصر بتعيينى رئيساً لتحرير الجمهورية ، وأنا لا أريد هذا المنصب ، وكل

ماأريده هو أن توافق على تأجير مبنى دار الشعب لدار التعاون .. إهتز صلاح

سالم فى مكانه ، وهو يقول :

- خلاص أنا موافق .. ولكن بشرط أن تخبرنى من الذى أخبرك بهذا

القرار ..

ورد محمد صبيح على صلاح سالم قائلاً : .

- مستحيل .. أخبرك عن مصدرى لأنه سر المهنة ..!

وخرج محمد صبيح من مكتب صلاح سالم وفى جيبه عقد إيجار مبنى دار

الشعب ..!

إن الحديث عن الكاتب الاديب محمد صبيح لاينتهى ..

وأعود الى كتاب « القدس ومعاركنا الكبرى » .. إن الكاتب الراحل يقول ..

لكل حضارة درع يقيها ومنطقة أمان لابد من توافرها مثل غلاف الهواء الذى

يحيط بالكرة الارضية ، ومابين أرض النيل .. وأرض الرافدين توجد منطقة

الامان لمصر والمصريين ، ومثل هذه المنطقة إذا تحكم فيها عدو فلابد من دفعه

والقضاء عليه .

واستطرد يقول : إن اليهود الذين يريدون زرع أنفسهم فى منطقة الامان ،

وهى الشام وفلسطين جزء منها جاءت بهم المعركة ، ويريدون أن يستمروا فى

المعركة والاعتماد على الحرب وحدها لايجاد مايطلقون عليه اسم الامة اليهودية

ولتحقيق الاستقرار لهذه الامة ..

وقال إن هذا الكلام سمعناه من النازية التى ولدت فى ألمانيا معتنقة مبدأ

الحرب للحرب ..

وسمعناه من موسولينى حاكم إيطاليا فى العشرينيات والثلاثينيات فقد كان

يقول : إن الحرب وحدها هى التى تفجر جميع الطاقات البشرية ، وهى التى

تكمل بالنصر الشعوب التى تمتلك القدرة على الحرب الدائمة .

وتتكرر التجربة التي خاضتها النازية والفاشية .. إذ تدفع الصهيونية العالمية حزباً عسكرياً لكي يخطف أرض فلسطين بقوة السلاح ، ويحسب هؤلاء أن الحرب قادرة على أن تصنع منهم دولة وأن تزرع هذه الحفنة المضللة من قومهم في جسم الأمة العربية ، وفي منطقة الأمان اللازمة للشعب المصري .. وقال : لقد رأينا شعوباً ركزت وجودها على الدرع العسكري فإذا بضربة تأتيها من حيث لا تدرى ، ولا تقدر ، تحطم الدرع وتذوب من تحت الأمة كلها ، وقد حدث هذا بالضبط للأشوريين والفرس واليونانيين والفينيقيين في العصر القديم . وهو ما حدث للصليبيين والتتار في العصر الوسيط ، وهو ما حدث أيضاً لامبراطوريات الأتراك والألمان والإنجليز والنمساويين والاطالبيين والفرنسيين بعد الحربين العالميتين في القرن الحالى .. واستطرد قائلاً :

- عندما نستعرض مسيرة التاريخ ونخرج بعبرته نقول في ثقة و يقين : إن مصر إذ تقوم بدورها التاريخي في رد العدوان عن نفسها ، وعن نطاق أمنها الضروري لحياتها عبر حدود سيناء ، إنما تعبر عن فلسفة وجودها في هذه المنطقة من العالم .

ونقول .. لقد تكلف رد الصليبيين عن القدس في معارك المائتى عام حوالى مليونين من الشهداء ، وتكلف رد الفرنسيين عن القاهرة ربع مليون شهيد في معركة الالف يوم :

ولم يجزع أحد من كثرة الضحايا ، ولا طول المعارك وضراوتها ولا هزائمها ، ثم انتصاراتها ..

هذا هو قدر مصر ، ولكن القدس جزء من معركتها لا طمعا في راية ترفعها على جبل الزيتون ، ولكن لكي يتنفس صدر مصر دون أن يجثم عليه ثقل يعوق حركتها ..

وهكذا كانت فلسفة محمد صبيح عندما قام بتأليف كتابه : « القدس ومعاركنا الكبرى » ..

إنه حديث طويل دفاعاً عن الأمن الاستراتيجي المصري .. تماماً كالدفاع عن أمنها الاستراتيجي في العمق السوداني أو الليبي .. وكان تركيزه في هذا الجزء من الكتاب على المرحلة التاريخية .. من نشأة المدينة حتى نهاية الحروب الصليبية .. وكما قال المرجوم محمد صبيح .. إن الكتاب لا يزال مفتوحاً .. أى أن الحديث له بقية ..

وكان في نيته .. أن يكتب الجزء الثاني من الكتاب وكانت بدايته : « القدس هدية للصليبيين » ثم يواصل البحث التاريخي الممتع ليصل الى ما أصبح اليه الجال ، وهو اليهود في القدس وحريق المسجد الاقصى ! وللأسف الشديد .. توفي الكاتب الكبير أستاذنا محمد صبيح قبل أن يفرغ من كتابة الجزء الثاني من الكتاب .. عسى أن يقوم أحد تلاميذه باستكمال الرسالة إيضاحا للحقيقة ، ومن أجل أمانة التاريخ ..

« جميل عارف »

مقدمة :

هذا الكتاب :

دار في ذهنى سؤال حرت في الجواب عليه أسابيع كثيرة ؟ هذا

السؤال هو :

- هل أمضى في تأليف كتابى هذا ، أم أعدل عنه ، أم أرجئه الى حين

يطول ويقصر حسب الظروف ؟ !!

كنا في مطالع الصيف من عام ١٩٧٠ ، وكانت مقدمة أخرى للكتاب

قد أعدت ودفعت الى المطبعة وجاءت تجاربها .. واذا بدوى وضجيج يبدأ

ثم يتعالى ، حتى يملأ أقطار الشرق الأوسط ، والجميع من أهل المنطقة ،

ومن خارجها يتصايحون بالكف عن القتال تسعين يوما لاتزيد ، توضع

أثناءها قواعد تسوية سلمية بين العرب والمعتدين اليهود .

وذهبت الى الاسكندرية وأقمت على شاطئ البحر ، ماشاء الله أن

أقيم ، أفكر فيما يحدث ، وما يمكن أن تكون له من نتائج .. وكنت قد

تعودت على أزيز الطائرات النفاثة ، وهى تتدرب على الطيران المنخفض فى

سرعة هائلة ، تكاد أجنحتها تبتل من رذاذ الماء الذى يدفعه الموج الى

أعلى .. وكنت أجد لذة كبيرة فى متابعة شبابنا وهو يدفع طائراته فى هذا

التدريب لتكون له وللوطن وقاء ، وتكون للعدو دمارا ونكالا .. وتمنيت لو

أن هذا الجهد بذل قبل عشر سنوات ، اذن لما كانت هناك حرب يونيو

ومرارتها اللاذعة ، ولمضيت أكتب عن مد التاريخ وجزره ، وقيام

الحضارات من حولنا وسقوطها ، والعناصر التى عصمت بلادنا من الزوال

والاندثار ، كما زالت واندثرت حضارات كثيرة من حولنا ، مثلما حدث

لليونان والرومان والفينيقيين والآشوريين والفرس .

وهذه الدراسة هي قياس لأبعاد النفس المصرية ، وتحديد لمعالم قوتها ومكامن ضعفها ، ولفت لنظر المعاصرين منا ، والذين يزثون أرضنا وما عليها ، الى أنهم مرحلة في بناء ، وحقبة من تاريخ ، وأن من واجبهم أن يتمثلوا في ذهنهم وقلوبهم منظر الغابة كلها ، لأنهم اذا وقفوا عند شجرة أو أشجار منها استنفدت جهودهم التفاصيل وتعثروا في متاهاتها .

وأخيرا .. أضاء الله بهدأيته الطريق .. فلنمض في هذا القسم من الدراسة التي بدأنا من ثلاث سنوات ، والتي بدأنا أقسامها كلها من ثلاثين سنة . وليكن من أمر الحرب والسلام ما يكون . فالنتيجة التي نطمئن اليها ، ولا خلاف عليها بين مفكر ومؤمن ، أن المصريين والعرب سوف يبقون في أرضهم ، مابقى نهرا النيل والفرات وما بينهما . وأن المعتدين اليهود سوف يزولون ، مهما طالت مكابرتهم ، وتعددت أساليب احتياليهم على البقاء .

المصريون ، وأهل منطقة الصراع الحالي ، لم توجد لهم حيث هم الصدفة ، فلم يكونوا قبائل رحلوا ، وتاهوا ، ثم استقروا .. ولكنهم أبناء حضارة أصيلة قديمة أنشأها على مر الزمن نهر النيل العظيم ، والرافدان دجلة والفرات ، وحيث توجد الأنهار الكبرى تستقر الحياة وتنمو .. هذه سنة من سنن الطبيعة ، مثل التمدد بالحرارة ، والانكماش بالبرودة .

ولكل حضارة درع يقيها ، ومنطقة أمان لا بد من توافرها ، مثل غلاف الهواء الذي يحيط بالكرة الأرضية . وما بين أرض النيل ، وأرض الرافدين توجد منطقة الأمان ، التي اذا تحكمت فيها عدوان ، فلا بد من دفعه والقضاء عليه ، حتى تزكو الحياة وتنمو .

واليهود الذين يريدون زرع أنفسهم في منطقة الأمان - وهي الشام وفلسطين منها - جاءت بهم المعركة ، ويريدون أن يستمروا بالمعركة . والاعتماد على الحرب وحدها ، لإيجاد أمة ، ولاستقرارها ، أمر نادى به في العصر الحديث بعض متعصبى المفكرين الغربيين ، جهلا منهم وغرورا ..

فهذا « فون مولتكة » الألماني كتب في القرن الماضي يمجد لقومه البروسيين الحرب كخلق وأسلوب حياة ، حين قال : « الحرب عنصر من عناصر النظام الالهى الذى وضعه للكون . وأحسن فضائل الانسان ، وأنبأها تظهر في الحرب مثل البشاعة ، والاخلاص للواجب ، والتصميم

الذى لا يتراجع أمام التضحية بالحياة نفسها . ولولا الحرب لغرق العالم في لجج المادية ! » .

وأقام نيتشه فلسفته على هذا المعنى .. وولدت النازية في ألمانيا معتنقة مبدأ الحرب للحرب ، فماذا كانت النتيجة ؟ .. هزيمة وانهيار في حربين عالميتين لشعب يعد من أكثر الشعوب جدا وقدرة ، لولا هذه الفلسفة اللعينة التى عاش عليها .

وسمعنا نفس هذا الكلام من « موسوليني » حاكم ايطاليا في العشرينات والثلاثينات ، المعلق من قدميه قتيل فاشيته في الأربعينات .. كان يقول : « ان الحرب وحدها هى التى تفجر جميع طاقات البشرية . وهى التى تكمل بالغار الشعوب التى تمتلك القدرة على الحرب الدائمة ! » .

وتتكرر التجربة التى خاضتها النازية والفاشية ؛ اذ تدفع الصهيونية العالمية ، حزبا عسكريا لكى يختطف أرض فلسطين ، بقوة السلاح ، ويتابع اشعال المعارك ، حتى بلغت ثلاث حروب فى أقل من عشرين سنة ، ويحسب هؤلاء أن الحرب قادرة على أن تصنع منهم دولة ، وأن تزرع هذه الحفنة المضللة من قومهم فى جسم الأمة العربية ، وفى منطقة الأمان اللازمة للشعب المصرى ؟ !

ومرة أخرى هؤلاء اليهود شغلوا بالشجرة أو الأشجار القليلة ، فغاب عنهم حجم الغابة كلها .. إن معركة وثلاثا وعشرا لاتستطيع أبدا أن تكون أساسا تستقر عليه أمة .. وما جاء بالمعركة يضيع بها .. وقد رأينا شعوبا ركزت وجودها على الدرع العسكرى ، فاذا بضربة تأتىها من حيث لاتدرى ولاتقدر ، نحطم الدرع ، وتذوب من تحته الأمة كلها وقد حدث هذا بالضبط للأشوريين والفرس واليونانيين والفينيقيين فى العصر القديم . وهو ما حدث للصليبيين والتتار فى العصر الوسيط . وهو ما حدث لامبراطوريات الأتراك والألمان والانجليز والنمساويين والايطاليين والفرنسيين بعد الحربين العالميتين فى القرن الحالى ..

ونحن هنا ، اذ نستعرض مسيرة التاريخ ، ونخرج بعبرته ، نقول فى ثقة ويقين إن مصر ان تقوم بدورها التاريخى فى رد العدوان عن نفسها ، وعن نطاق أمانها الضرورى لحياتها عبر حدود سيناء ، انما تعبر عن فلسفة وجودها فى هذه المنطقة من العالم ... هذا قدرها الذى اختارته لها

العناية الإلهية .. قامت بهذا الدور من أقدم العصور ، وهو حماية نفسها ، ورد العدوان الأجنبي عن منطقة أمانها .. ولا يهم في أداء هذا الواجب عنصر الوقت طال أو قصر .. أو عدد المعارك التي تخوضها ، ولكن النتيجة واحدة .

لقد تكلف رد الصليبيين عن القدس في معارك المائتى عام ، حوالى مليونين من الشهداء .. وتكلف رد الفرنسيين عن القاهرة ربع مليون شهيد في معركة الألف يوم .

لم يجزع أحد من كثرة الضحايا .. ولا طول المعارك وضراوتها ولا هزائمها ثم انتصاراتها .

ألم نقل من قبل ان هذا قدرنا ، خلال سبعة آلاف سنة أو تزيد ؟ !!

وإذا لم يقم الأقدمون والمحدثون من أجيال شعبنا بهذا الدور ، فأين كان يفد ابراهيم الخليل ، واسحاق ويعقوب ويوسف ، وهل كان موسى الكليم يجد لكلمته طريقا الا لأن المصريين هنا في هذا المكان من العالم .. وعيسى كلمة الله وأمه مريم البتول والشجرة المصرية التي أظلتهم حتى زال الخوف وانقضى ، ألم يوجد الله مصر لتقوم بهذا الدور الخالد . ودعوة التوحيد المحمدية التي اعتصمت بمصر من أيامها الأولى ، وامتدت منها غربا وجنوبا ، ثم اعتصمت بقاهرتها الأبية ، هي جزء من اختيار الله وتكليفه . حتى اذا مضت القرون الى يومنا هذا لا نجد لضمير البشرية الحائر المعذب بالمعتدين والآثمين من عاصم ، الا أن يكون لمصر دور ، وعليها واجب ..

وهذا الدور في العصر الحديث بدأ عام ١٩٤٨ في تكاسل ، ثم تحرك وئيدا وئيدا ، وعندما يأذن الله سوف يبلغ الكتاب أجله ، وتستأنف البشرية سيرتها في منطقتنا ، يسودها الأمن ، ويعبد فيها الله الواحد الأحد بغير خوف ، ولا ارهاب ، وتواصل سبعة آلاف سنة من الحضارة في منطقتنا مسيرتها آلاف أخرى من السنين .

هذا هو دور مصر .. وتعد القدس جزءا من معركتها ، لا طمعا في راية لها تُرْفَعُ على جبل الزيتون ، ولكن لكي يتنفس صدر مصر دون أن يجثم عليه ثقل يعوق حركته .. ؟

جريمة .. باسم العلم :

ولماذا القدس بالذات ، اخترنا أن تدور حولها دراستنا هذه ، وتتشعب يمينا ويسارا ، ثم تستقر عندها ؟

حدث في ربيع عام ١٩٧٠ أن دعيت الى زيارة للولايات المتحدة ، ورحبت بالرحلة وصممت على أن تكون كل دقائقها محاولة جادة لكي أحصل على جواب لسؤال يتردد في كل وقت وأن : هل يكرهنا الأمريكان أبناء الولايات المتحدة ؟ وهذا ماتدل عليه سياسة حكومتهم ، ولماذا يكرهوننا !!

التقيت هناك بكثيرين : بأساتذة في الجامعات ، وكبار من رجال الأعمال ، وأفراد من عامة الشعب ، وشباب من الجنسين ، وغيرهم .. وغيرهم وأدهشني ، بل هالني مارأيت وسمعت ..

إن كمية المعلومات الخاطئة والمضلة التي تحجب الحقائق البسيطة عن أذهان الشعب الأمريكي ، تكاد تشبه الجبال علوا ، وثقلا ...

هل تصدق أن كثيرا من الأمريكان يحسبون أن « هتلر » هو الذي طرد اليهود من أرض فلسطين ، وأنه لا عيب في أن تساعد حكومة الولايات المتحدة على تصحيح خطأ ارتكبه هتلر بطرد العرب المغتصبين لفلسطين واعادة أصحابها اليها !!؟

هل تصدق أن كل مايتعلمه شباب الولايات المتحدة في دراستهم الثانوية ، ومعظم مراحل دراستهم الجامعية عن الشرق الأوسط كله لايتجاوز صفحة من كتاب أو بعض صفحة ؟!

هل تصدق أن قطبا صناعيا كبيرا ، عجب لجرأتنا في مصر على ايران اذ نريد أن نستولى على عاصمتها « طهران » .. وبعد جهد جهيد فهمت أنه وغيره يخلطون بين جزر تيران في خليج العقبة ، وبين عاصمة الايرانيين لأن اللفظين يتقاربان في النطق الأجنبي .. ولما أصلحت خطأه نظر إلى في شك مريب ، ومازال غير مصدق .

حتى اذا انتهت بي رحلة العودة الى بلدة تاريخية في جزيرة قبرص اسمها « سلامس » سألت بعض المهتمين بالتاريخ القديم من أهل قبرص ، ونحن وقوف عند أطلالها ، عما اذا كانوا يعلمون سبب دمار هذه المدينة ذات العظمة الغابرة والآثار الباقية .. وكان الرد : ان الرومان هم الذين دمروها ! وعجبت ، وقلت لهم : بل اليهود الذين طردوا من فلسطين في القرن الأول الميلادي هم

الذين دمروها ، وقتلوا من أهلها الذين دانوا بالمسيحية حديثا أكثر من مائة ألف ! وألححت على رفقاء الرحلة أن يراجعوا بعض الكتب الكبيرة المعتمدة ، أو يكتفوا بدائرة المعارف البريطانية !

وبعد أسابيع تلقيت رسالة شكر على تصحيح معلوماتهم عن أكبر مدينة أثرية في جزيرة قبرص ، وقالت الرسالة في استحياء إنها تريد أن تجدد بعض معلوماتي عن الحادث التاريخي الفاجع ، فان عدد من ذبحوا من أهل سلامس بحراب اليهود وسيوفهم كان مائة وستين ألفا على وجه التحديد ، وأن المسيحيين في الاسكندرية ، في هذه الفتنة لقوا نفس المصير ، على يد اليهود ، وأكدوا أن طبقات جديدة من كتب قبرص الدراسية سوف تتضمن هذا البيان .

وهكذا ذهبت دسائس اليهود - باسم العلم - فأضافت الى معلومات الأمريكان أن هتلر هو الذى زرع العرب في فلسطين ، وأن « الرومان » هم الذين خربوا سلامس القديمة ، وذبحوا جميع أهلها من المسيحيين !!

ورجعت إلى بعض الكتب الحديثة التى ألفها أساتذة من اليهود ، لهم سمعة في دوائر البحث العلمى ، وتعد دراساتهم مراجع ، وتزدحم المكتبات بما يؤلفون ، فوجدت فيها أعجب المفتريات تروى باسم العلم بغير حياء ، وتتناقلها بعد ذلك الترجمات والتفسيرات على أنها حقائق ، وماأبعدها عن الحق والواقع ..

ولنضرب لهذا اللون من التضليل باسم العلم ، مثلا أو مثلين .. هذه مجموعة من الدراسات الجادة تشرف عليها منظمة اليونسكو المنبثقة من هيئة الأمم المتحدة عن : « تاريخ التطور العلمى والثقافى للبشرية » وتمهيدا لهذا التاريخ كلفت منظمة اليونسكو بعض كبار العلماء بإعداد مجموعة من البحوث في شكل كتب دورية ، تعرض على اللجنة الدولية ، حتى إذا اعتمدت ، دخلت في الموسوعة التاريخية ، وعندما جاء دور اليهود ، كلف اثنان من أساتذة الجامعة العبرية بالقدس هما « بن ساسون » و « س . اتينجر » بوضع الخطة العامة لكتاب من هذه السلسلة تحت عنوان : « الحياة والقيم الاجتماعية للشعب اليهودى » .

وقد سارعت المجامع اليهودية بتقديم العون المادى لإعداد هذا الكتاب ، وتم صدوره ، وورد في مرحلة العرض التاريخى ، ماياتى عن فتح المسلمين لفلسطين أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب :

« لم يكن فرح يهود تلك البلاد (فلسطين) بتحرير المسلمين لسكانها من

نير فارس وبيزنطة بأقل من فرح الآخرين ، اذ لم تكد تسقط عاصمة فلسطين السياسية في ذلك الوقت في يد المسلمين ، حتى سارع (صفرونيوس) ، وسلم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مفاتيح أورشليم بعد أن عاهده عمر على ترك اليهود في أمن وسلام .. وقد عم الفرخ والسرور اليهود ... الخ » .
وليس هناك كلام أبعد عن الصواب من هذا الادعاء الجريء الوقح على الحق . فقد ورد بنص صريح واضح في عهد عمر بن الخطاب للبطريك صفرونيوس ، ألا يسمح لأحد من اليهود بالاقامة في « ايلياء » (القدس) . وهذا النص وارد بتمامه ، وبوضوح واضح في المراجع الاسلامية وعلى رأسها تاريخ الطبرى ..

من أين جاء اذن فرح اليهود ، ومن أين جاء أمان أمير المؤمنين عمر لهم !!! انه جاء في مخيلة وتزييف عالمين يهوديين معاصرين ، يعلمان من غير شك أنهما يكذبان ، ولكن لعل أحدا لا يتنبه الى هذه المفتريات ، وغيرها عشرات بالذات فتمضى الى مؤلفات « اليونسكو » وتصبح بعد حين من مراجع التاريخ . ومن حسن الحظ أن الجامعة العربية تنبعت الى هذا الكتاب وكلفت عالما فاضلا من أساتذة جامعاتنا هو الدكتور فؤاد على حسنين بعمل رد علمي يقدم لليونسكو عن هذا الكتاب .. وقد وجد الكثير جدا مما يستحق الرد والتصويب ، وان كانت وثيقة الطبرى التي أبعدت اليهود من القدس لم ترد في دراسته . بل ان نسختها المحرفة بأيدي اليهود تسربت الى مطبوعاتنا الرسمية ، وتلقينا وعدا بتصويبها .

وهذا كتاب آخر لمؤلف يشغل منصب الأستاذية للتاريخ المعاصر بالجامعة العبرية هو الدكتور فريد لاندر واسم الكتاب : « تأملات حول مستقبل اسرائيل » .

ان كمية الخبث والكذب التي تضمنها هذا الكتاب كثيرة جدا ، ومن ذلك أنه يقول :

« يقال لنا ان الصهيونية فرضت نفسها على عالم عربى مجمع على عدائها ، وذلك بفضل مساندة الدول الأوربية العظمى . وهذا خطأ (كذا ..) فمن المؤكد أن حلقات عريضة من الشعب العربى في فلسطين تشعر بعداء مستمر للحركة الصهيونية . ولكن هناك اتجاه الى نسيان أن الزعيمين التاريخيين للقومية

العربية الحديثة - الشريف حسين أمير مكة ، وابنه الأمير فيصل - قد قبلا صراحة في نهاية الحرب العالمية الأولى استيطان اليهود في فلسطين ، وإنشاء وطن قومي لليهود في هذه البلاد ، بشرط ألا يتطور هذا الوطن الى دولة يهودية . وفي يناير ١٩١٩ قبل الأمير فيصل الذي كان يمثل وقتها العالم العربي ، ضرورة النظر الى فلسطين نظرة خاصة ، لطابعها العالى .

وهكذا خلص المؤلف العالم ، والأستاذ الجامعى ، الى أن فيصل الأول كان لايعتبر فلسطين أرضا عربية بصفة أساسية ! وأن الطابع العربى لفلسطين لم يكن مبدأ مقدسا !!

هذا هو الأسلوب الذى يسير عليه «الفكر» اليهودى في أعلى مستوياته .. فقد صح لديهم أن فيصل الأول هو العرب جميعا ، وعلى الرغم من التحفظات الكثيرة التى أبداها ابن الشريف حسين على مبدأ الهجرة ، فانها صلحت لدى هذا العالم كى يطرد العرب من ديارهم ، وتقوم دولة اسرائيل !

وإذا كان موقف ما ، قد ذكر لواحد من أمراء العرب في فترة حرب ، وفي فترة وقوع في شبك الوعود البريطانية الكاذبة أثناء وبعد الحرب العالمية الأولى ، فكيف نسى هذا المؤلف موقف شريف مكة قبل وعد بلفور بربع قرن فقط ، عندما هاج واستنفر انعالم العربى والعالم الاسلامى كله ، لأن ثلاثين يهوديا ، بقيادة ألمانى منهم اسمه «فريدمان» ، أراد أن يستقر في جنوب النقب ، - مدين - واتخذ السلطان عبدالحميد موقفا حازما ، اضطر هذا العدد الضئيل من اليهود الى حمل متاعهم والعودة من حيث جاءوا ..

وكيف نسى هذا «العالم» أستاذ التاريخ الحديث ، عدم استجابة السلطان عبدالحميد لكل المغريات والضغوط اليهودية في أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحالى لكى يسمح بإنشاء مزرعة أو مزارع قليلة لليهود يستوطنون فيها ، وبذلوا في هذا السبيل وعودا بالمال الوفير وماكان أحوج السلطان لهذا المال ، بل لقد طلبت وساطة امبراطور ألمانيا لتحقيق هذا الأمل ، ولكن معرفة الإمبراطور ، يعقيدة الرفض - رفض الوجود اليهودى في فلسطين - جعلت الامبراطور بدوره يعتذر عن الوساطة حتى بعد أن عرض اليهود أن يجعلوا مستعمراتهم الزراعية تحت سلطة الألمان مباشرة .

وأیضا كيف نسى أن حفيد أخى فيصل الأول ، هو حسين بن طلال ملك الأردن وأنه حارب ويحارب ليعود الفلسطينيين إلى أرضهم ، وديارهم ، وأن

الأمة العربية كلها على رأى رجل واحد فى أن فلسطين ملك لعربها ، ومن أجل هذه العقيدة قامت فى المنطقة ثلاث حروب ، وأن آخرها معركة لاتزال مستمرة تستنزف الدماء ، وتدمر العتاد والأموال !!

الأكذوبة الكبرى :

والأمثلة على أكاذيب اليهود وتدليسهم باسم العلم ، لاتعد ولا تحصى ، مهما وضعوا تحتها من أسماء وألقاب علمائهم . فالكذب عندهم سلاح هام من أسلحة معاركهم ضد العرب ، وضد المسيحية ، ووضد البشرية كلها . وقد بدأت هذه الصناعة ، صناعة التزييف والتحريف بالتوراة نفسها كما سنرى فيما بعد ..

الا أن أكبر أكاذيبهم ، وأكثرها شيوعا فى العصر الحديث ، أنهم ينفردون بمزايا لايدانيهم فيها جنس آخر من أجناس البشرية ، هو الذكاء ، والطاقة العقلية والعلمية غير المحدودة ولا المسبوقة ، ولا المتبوعة ، فأكبر العلماء ، وأعظم الادباء ، وأقدر الفلاسفة ، وأجل المخترعين ، وقادة الفكر والفن والرياضة فى كل ميدان هم اليهود ، وكأن إلههم خصهم بمزايا تفردوا بها دون سائر الناس ..

وفى العصر الحديث ، أضافوا الى هذه المزاعم ميزة أخرى ، وهى أنهم أقدر المحاربين وأشجع مع ارتداد ميادين القتال والصدام ، ودليلهم على هذا حروب السنوات العشرين فى المنطقة العربية !

وقد برعت وسائل دعايتهم فى ترويج هذه الافكار ، بما يملكون من وسائل الاعلام الشاملة والمتنوعة ، وبردوا فى طريق ترويجها ، إلى أن تملك عقدة النقص عن مستواهم الكثير من الشعوب ، ومنها بعض البيئات العربية .. بل العلمية ..

وليس هناك أبعد عن الحق من هذه المفتريات ..

فاليهود - خلال فترة اقامتهم القصيرة فى فلسطين من بعد موسى بن عمران ، كانوا قبائل متخلفة قاصرة عقليا ، وروحيا مما سنفصله بعد حين ، فى وقت قامت حولهم حضارات - باذخة زاخرة بالعلم والعرفان ، فلما تشتتوا ، وقاموا بمذابح سلامس فى قبرص والاسكندرية وبرقة ، ضد المسيحيين الجدد ، تنبه العالم الى خطر احقادهم وسواد نفوسهم ، فنبذهم أينما كانوا ، وألزمهم بالاقامة فى حوارى المدن ، وأدنا أحيائها . اللهم الا العالم الاسلامى ، الذى

قبل اندماجهم في بيئاته ، ولاسيما الأندلس ، ومد لهم في حرية العبادة ، فطوروا عقائدهم بما تعلموه من المسلمين ، ووصلوا في مناسبات الى بعض المناصب المسئولة .. ولكن أوروبا نبذتهم تماما ، وحاصرتهم المسيحية ، وصبت عليهم عذاب الهون ..

واضطر اليهود الى أن يجودوا الحرف ، التي لا تكلف جهدا عضليا ولا عقليا ، وهي صناعة الصياغة ، تعلموها من المصريين القدماء عند اقامتهم في مصر ، وحافظوا على ماتعلموه بعد ذلك .. وعاش اليهود على هامش الأسواق تجار خامات ، وتجار تجزئة ، حيثما سمحت لهم قوانين البلاد التي يقيمون فيها بذلك ، ودأبوا على تجارة المال ، أى الاقراض بالربا الفاحش ، حتى صور شكسبير في قصة « تاجر البندقية » طباعهم ، وجشعهم بصورة رائعة ، وعميقة التعبير . وكأن شكسبير فيما أبدعه يعكس رأى المجتمع الأوروبى لا الانجليزى وحده ، في اليهود .

فلما هاجر بعضهم مع المهاجرين الأول الى الولايات المتحدة ، منعهم حاكم نيويورك الهولندى (بيتر ستفنسون) من العمل في التجارة ، ولاسيما الأقمشة والثياب ، فتسللوا الى تجارة تليق بهم ، وهى الثياب القديمة ، ينقلون ما يستغنى عنه أهل بلد إلى بلد آخر ، ومن هنا بدأت مكاسبهم في العالم الجديد ، وظلوا يثابرون بالحيلة تارة ، وبالرشوة تارة أخرى ، حتى أزالوا القيود التي فرضت عليهم . وأمکنهم مع نمو المواصلات أن يتداخلوا في تجارة المواد ، وبمقتضى الثقة التي توفرت بينهم - أينما وجدوا - بحكم أنهم أقلية مسحوقة ولكنها متماسكة . وبعد قليل أصبحوا يحتكرون أصنافا بعينها ، ويتحكمون في أسعارها . وابتعدوا نهائيا عن التداخل في التصنيع ، حتى لا يكون لهم احتكاك مع العمال ، وعناصر الحركة في الرأى العام . وعندما نمت الحياة الصناعية في أوروبا وأمريكا وتوافر الانتاج ، ابتكروا وسيلة البيع بالتقسيط ، وافتتحوا متاجر التجزئة الضخمة المتعددة الفروع ، مثل محلات ماسى وسيرز في الولايات المتحدة ، وسلفريدج وولورث في انجلترا وفروعها في العالم الغربى كله .. وحتى يحكموا قبضتهم على التجارة ، تداخلوا في وسائل الترويج والاعلام بحيث لا تنتشر سلعة لا يكونون هم موزعوها . وتجمعت في يدهم ثروات هائلة ساندها تداخلهم في نظام البورصات وتجارة الاوراق المالية وسيطرتهم وتملكهم لعدد كبير من البنوك ..

وفي الولايات المتحدة لا يوجد إنسان لاتمتص داخله أنظمة التقسيط ،

بأرباحها العالية ، ومنذ أن يولد الفرد منهم ، وهو أو أسرته مطالبون بأداء أقساط معينة لدار الولادة ، حتى إذا مضت رحلة حياته وهو مطالب بأقساط لتعليمه وسكنه وسيارته وطعامه وعلاجه ، فإذا أدركته الوفاة فإن أقساط دفنه واجبة الاداء أيضا .. وكل هذه الاقساط ، تصب فوائدها الربوية في الخزانة اليهودية ، وقد سببت ، ولا تزال تسبب هما دفيننا ، وقلقا عميقا للمجتمعات الغربية ، ولاسيما الامريكية . وعندما أخذ هنرى فورد الكبير منشئ صناعة السيارات في الولايات المتحدة - أوائل هذا القرن - في التصدى لهذه المحنة التي يعانها الشعب الامريكى . ويفند مزاعمهم عن العبقرية اليهودية ، في كتاب نشره باسمه .. ما كاد يفعل هذا حتى امتدت الاظافر اليهودية تنهش لحمه . والعظم معا ، فاضطر للاعتذار عما صنع ، بل التنكر له !!

وفي ظل هذه الثروات ، ويجب أن نضيف اليها صناعة الترفيه وتجارة الأسلحة ، أخذ اليهود يتدخلون في سياسات الدول ، وينشئون مراكز التجسس التي تعمل لحساب كل من يدفع الثمن . وكانت النتيجة أنهم أغرقوا العالم في حروب صغيرة وحربين عالميتين .

ونتيجة لوفرة المال ، وغفلة الشعوب والدول ، بدأت الخديعة الكبرى ، وهي أن العنصر اليهودى عنصر متفوق ، وأن أهم اختكاراته ، الذكاء ، والكفاءة .. وقد يكون من بين السلالات اليهودية بعض الرجال الممتازين مثل اينشتين وكارل ماركس وفرويد .. وأى جماعة في العالم يمكن أن يظهر بينها الأفيان ، والعبقرية لاتحكمها ظروف ثابتة ، ولكنها فلتات طبيعية . الا أنه من المؤكد أن آلاف وألآفا من هؤلاء الأفيان ظهوروا من بين الجماعات غير اليهودية في مشارق الأرض ومغاربها ، وكان لهم تأثير بالغ في سير البشرية ، ونمو الحضارة الانسانية .. الا أن الشعوب المعاصرة لا تملك أبواق الدعاية التي يملكها اليهود . ولاتجرؤ على ترديد هذه الكميات الهائلة من الأكاذيب التي يكررها اليهود . ممسين ومصبحين ، حتى تصبح بفعل التكرار عقيدة ، أو رأيا يعتنق على مر السنين ..

ألم يقولوا لنا عن معجزات الانتاج في مزارعهم الجماعية بإسرائيل ، ويدعون لزيارتها الاقطاب والمسؤولين في الدول الافريقية النامية .. هذه مجلة « فورشون » الامريكية ، كبرى مجلات الغرب الاقتصادية ، وليست أيضا بعيدة عن التأثير الصهيونى في توجيهها ، نشرت هذه المجلة في عدد أبريل سنة

١٩٧٠ دراسة في داخل اسرائيل مجدت فيها ماشاءت . ولكنها اضطرت الى الاعتراف بأنه منذ أنشئت المزارع الجماعية الاسرائيلية ، وخسارتها تتوالى عاما بعد عام ، وتكبد اعانتها خزانه حكومتها نفقات كبيرة ، وذلك باستثناء مزرعتين تتوازن ميزانيتيهما بالكاد ! أما الصناعة في اسرائيل فهي انتاج تافه ، لا يثبت لأى منافسة عالمية ولا يقيم أود شعب ، والصناعة الوحيدة التي يعتد بها ، هي صناعة قطع الماس وتشكيله ، ومنذ قرون كان اليهود يحتكرونها ، وقد جمعوا أخيرا صناع هذه الحرفة من هولندا وجنوب أفريقيا وغيرها لأداء هذه المهمة ..

وواضح جدا من دراسة البناء الاقتصادي داخل اسرائيل ، أنه يقوم على الاعانات الخارجية ، وأن حربين قام بهما اليهود ضد الدول العربية ، كان الهدف النهائي منهما فتح الأسواق العربية ، بعد أن أصبح ثمن اقامة هذه الدويلة أغلى مما تطيقه أى اعانة !!

ففى مسيرة التاريخ الأمين الصادق ، المدعم بالأسانيد والمراجع سوف نتتبع الوجود اليهودى منذ نشأته ، وعلاقاته بالمنطقة العربية ، والتي استدارت حلقاتها لتتركز حول القدس .

إن معارك مصيرية كبرى وقعت فى المنطقة ، قبل ميلاد المسيح عليه السلام وبعده ، وعند قيام الاسلام وبعده قيامه ، وكانت القدس بكنائسها ومساجدها ، وهى قابضة فى سفح جبل الزيتون ، تسجل هذا كله ..

ونحن أبناء هذا القرن - العشرين الميلادى - نشهد حلقة جديدة ، من حلقات الصراع حول القدس ، تتحرك لها أدوات المعركة ، من أنجز وأخطر ما ابتكره الانسان للقتل والدمار ، سابحا فى الماء ، أو متحركا على الأرض ، أو مندفعا فى الهواء ، أو منطلقا بين موجات الأثير ، أو محلقا فى أقمار صناعية .. القدس مرة أخرى .. ومصر حاميتها الكبرى مرة أخرى ..

ولن نفهم مايجرى الآن ، الا اذا فهمنا مامر من أحداث ، منذ أضى الله على القدس قداستها ، وإنه سبحانه لقادر على أن يردها من غربتها ، وأن يودع فى قلب المحاربين عنها من الايمان ما يهزم كل عدوان . والله المستعان .

« **بشهادت بيبى** »

□ الفصل الأول □

إبراهيم الخليل أبو التوحيد

نحن الآن في جنوب العراق ..

والقرن الذي نطل عليه هو القرن العشرون قبل الميلاد ، أى أن فترة من الزمن
تفصلنا عنه تقرب من أربعة آلاف سنة ..

والموقع الجغرافي الذي نقف عنده يقع على نهر الفرات الى الجنوب قليلا من
مدينة الحلة الحالية ، ورقعة الأرض الضيقة التي تمتد من شاطئ الفرات شرقا الى
شاطئ دجلة كانت طريق بلدان البحر المتوسط الى شط العرب والخليج العربى ..
وفي هذا الموقع قامت في القديم مدينة « بابل » .

واسم « بابل » انطلق من أعماق التاريخ ، ليكون على السنة الناس في كل
العصور . فقد اقترنت بها الحقائق مع الخرافة ، ولا سيما عندما يذكر « برج بابل »
الشهير الذى أريد به أن يكون سلما الى السماء ، وحدائق بابل المعلقة ، التى عدت
من عجائب الدنيا السبع . الى أن قامت فى النصف الأول من هذا القرن حفريات ،
أثبتت أن معظم ما ذكره عنها المؤرخ الإغريقى « هيروdot » لم يكن من وحى
الخيال ، بل كان وصف شاهد زار ورأى ..

ولعل الفارق بين آثار المدنية البابلية ، والمدنية المصرية القديمة ، أن مصر كانت
لديها مناجم الحجر والجرانيت تأخذ منها ماتشاء ، وتدون عليها أنبائها ، أما
البابليون فقد عاشوا فى سهل منبسط ، لا جبال فيه ، وكانت مبانيهم من قوالب
الطمي المحروق .

وما كان يمكن لحضارة تقوم على شواطئ الأنهار الكبرى ، الا أن تعنى عناية
فائقة بإنشاء شبكة من قنوات الري والسدود والخزانات تنظم الزراعة ، وتزيد فى

ثروة الدولة . ومن الدخل الزراعى ، ثم التجارى أمكن اقامة المباني الضخمة ، والمعابد الهائلة والطرق العريضة التى تحفها تماثيل المعبودات ، وكأنها حيوانات الأساطير .

وترك لنا تاريخ « بابل » اسما من ملوك هذه الدولة أولهم سرجون .. وتدهشنا قصة وصوله الى الملك ، فهى تروى أنه ترك على شاطئ النهر رضيعا ، وأنقذ ليتربى ويصبح بستانيا ، ويكافح ليصبح ملكا يمد سلطانه الى شمال العراق (آشور) ، وسوريا وآسيا الصغرى ..

واسم ثان من ملوك بابل ، تلا سرجون بعد حوالى ثلاثة قرون (١) قد تزيد ، ولكنه أوسع شهرة ، وأرفع ذكرا ، هو حامورابى ، وأهمية حامورابى ترجع الى أمرين ، أولهما أنه صاحب الشرائع المشهورة المقترنة باسمه ، وثانيهما أن سيدنا ابراهيم الخليل ظهر فى عصر قريب من عصره .

ولا يرجع تاريخ الحضارة البابلية التى ولد فى أحضانها أبو الأنبياء وعاش فترة من الزمن الى أيام ملكين كبيرين ، بل لاتسمى هذه الحضارة باسم عاصمتها ، ولكن باسم شعبها كله ، وهو الشعب « السومرى » .. فقد اثبتت الحفريات التى قام بها الاثريون ، فى الثلث الأول من هذا القرن أن فيضانا هائلا قدمت أمواجه من أقصى الشمال وغمرت تحتها مدن العراق فى فترة تدفقه ، وأغرق كل شىء فيها ، فلما انحسر عنها ترك كميات من الطمي غطت كل شىء ، وارتفعت فوق المدن والقرى والنخيل وغيره ، طبقة طميية علوها حوالى ثلاثة أمتار ، وتعالى الركام فوقها عشرين مترا ، ثم بدأت تنشأ مدن جديدة ، ويعمر الانسان أرضا ، لا يعلم ان مدنا وحضارة وخلقنا كانوا أسفل مايسير هو فوقه ، ويبنى ويعمر .. وبهذا صدق ماقاله أبو العلاء : « ما أظن أديم الأرض الا من هذه الأجساد » ..

منذ كم من القرون حدث هذا الفيضان المروع الذى هبط من جبال « أارات » فى شمال العراق ، والذى تحدثت عنه الكتب السماوية ، ووردت اشارات فى القصص القديم والأساطير عن الأقوام الذين عاشوا قبل الفيضان .. وعن الفئة التى أنقذها فلك نوح قبل أن يغرق الماء كل شىء وكل حى ؟ ولعل أعظم الحفريات هى التى تمت فى مدينة « أور » احدى مدن الدولة

(١) بعض المراجع تجعل الفترة الزمنية بين سرجون وحامورابى حوالى سبعة قرون . كماورد فى كتاب Sir Charles Marston السير شارلز مارستون (ق ٢٧٥١ ق . م الى ٢٠٦٧ ق . م) فى حين ان كتاب الحضارات السامية يجعل حامورابى عاشا عام ١٧٠٠ ق . م الا ان دائرة المعارف البريطانية تعطيه مدى غير محدد وهو القرن الثامن عشر قبل الميلاد .

البابلية ، وهي بالذات التى ولد فيها سيدنا ابراهيم ، وبدأ حملته الكبيرة ، دعوة الى اله واحد .

ان الكنز العظيم الذى وجد فى خرائب وبقايا « أور » ، وليس ذهباً ولا فضة ولكن مجموعة كبيرة من الألواح نقش عليها الكثير من قواعد الحياة وظروفها بين الحكام والرعية ..

واحد من هذه الألواح موجه من الحاكم الى كبير الكهنة ، يأمره « ألا يدخل حديقة امرأة فقيرة ، لكى يستولى على خشب ، أو يأخذ فاكهة من شجرها » باسم النذور طبعاً .. وكانت هناك رسوم يتقاضاها الكهنة على دفن الموتى ، خفضها الملك الى الخمس ، أما الهبات والقرايين للمعابد ، فليست حقاً لكبار الكهنة والموظفين وحدهم ، ولكنها حق عام .. وواحد من هذه الألواح ، يشيد بما قدمه الملك لشعبه من الحرية .

وكانت مدينة « أور » على نهر الفرات مركزاً تجارياً ، أفاء عليها ثروات كثيرة ، ساعدت على إقامة المعابد ، وملاؤها بتمائيل الآلهة المعبودة وأهمها مردك ، وشمشى .

هكذا نجد ملامح حياة مادية تصل بعد ذلك الى قمة لاتدانى ، حتى جعلت من بابل عاصمة العالم ، ومركز المعجزات فى البناء والتشييد ..

زار المؤرخ الاغريقى هيروdot بابل بعد قرن ونصف من عصر « نبوخذ نصر » ، ودون مشاهداته . قال ان السور الذى يحيط بها طوله ٥٦ ميلاً ، ويبلغ من العرض ما يسمح لعربة تجرها أربعة جياد أن تجرى فوقه . وكانت المباني الكبيرة كلها تقريباً من الآجر ، الذى يغطى بالقرميد المنقوش البراق ذى اللون الأزرق أو الأصفر أو الأبيض المزين بصور الحيوان وغيره من الصور البارزة المصقولة اللامعة .

وكان أول ما يشاهده القادم الى المدينة ، صرح شامخ كالجبل يعلوه برج عظيم مدرج من سبع طبقات ، جدرانه من القرميد المنقوش البراق ، يبلغ ارتفاعه ٦٥٠ قدماً (أكثر من ٢١٠ أمتار) ، فوقه ضريح يحتوى على مائدة كبيرة من الذهب الخالص ، وسرير مزخرف تنام عليه كل ليلة إحدى النساء فى انتظار ارادة الله .. وكان فى أسفل هذا البرج الهائل هيكل عظيم لـ « مردك » الاله المعبود فى بابل وحاميتها .. وكان يمتد بين الهياكل القائمة فى المدينة طريق واسع مرصوف بالأسفلت يعلوه بلاط من حجر الجير ، وكسوة من الحجر الأحمر ، لتسير الآلهة فوقه ، فلا يعلو التراب أقدامها . وكان على جانبى هذا الطريق الواسع جدران من القرميد الملون ،

تبرز فيه تماثيل لمائة وعشرين أسداً مطلية بالألوان الزاهية تزمجر لترهب الكفرة فلا يقتربون من هذا الطريق . وكانت نقوش الأزهار والحيوانات ، يخيل الى الناظر أن الحياة تسرى فيها من فرط اتقانها .

وعندما تزوج هذا الملك - نبوخذ نصر - أميرة من الشمال ، لم تتعود على حر بابل فأنشأ لها حدائق كل طبقة منها مقامة فوق غيرها ترفعها أعمدة . وكانت طبقات الطمي فوق كل حديقة تسمح بنمو النبات ، حتى الأشجار الضخمة كانت تنمو في هذه الحدائق المعلقة . وبهذا نعمت الأميرة بجورطب وجمال لا يدانى . وكان الماء يرفع اليها عن طريق سواقٍ يديرها الرقيق والأسرى . وكان ارتفاع قمة هذه الحديقة ٧٥ قدماً ، ولا ارتفاعها كان نساء القصر يسرن في حرية تامة لأن الأعين لا ترقى إليهن ..

واسمى اليونانيون هذه الحدائق ، بحدائق سميراميس ، على اسم الأميرة . اذن فنحن بازاء برج تعلقته على قمة الهرم الأكبر ، وبازاء حدائق معلقة عدت من عجائب الدنيا السبع . وهذه ثمرة واضحة من ثمرات حضارة العراق القديمة فاذا أضفتنا اليها حياة اجتماعية ناضجة ، وصفها أحد النقوش ، فيما تباهى به أحد ملوكهم بقوله : « في خلال سبع سنين كانت الخادمة نداءً لمخدومتها ، وكان العبد يمشى بجوار سيده ، وقد استراح الضعيف في بلدى الى جوار القوى » .. اذا كان هذا هو مستوى الحياة ، فان مايزيد في تحديد صورتها الراقية ، أن نلقى نظرة على أجل مخلفات هذا العصر القديم وهو شرائع جامورابى ..

العقل والقلب :

الشرعية الناضجة المعيرة عن حاجة مجتمعها ، المنظمة لعلاقاته ، هي قمة من قمم النضوج العقلي . وشرائع جامورابى التى ظهرت قبل أربعين قرناً من وقتنا هذا ترتفع الى هذا المستوى .

قدم جامورابى لقوانينه بمقدمة كشف عن نصوصها عام ١٩٠٢ فى انقاض مدينة « السوس » القديمة ، وكانت لحسن الحظ محفورة على حجر الديوريت الصلب ..

قالت المقدمة بعد أن ذكرت أسماء الآلهة التى دفعت الملك الى اصدار قوانينه « .. أنا جامورابى الأمير الأعلى ، عابد الآلهة ، لكى أنشر العدل فى العالم ، وأقضى على الأشرار والآثمين ، وأمنع الأقوياء من ظلم الضعفاء ، وأنشر النور فى الأرض ،

وأرعى مصالح الخلق .. أنا الذى أعان شعبه فى وقت المحنة .. وأمن الناس على أملاكهم فى بابل ، حاكم الشعب ، وخادم الآلهة .. » .

وهذه القوانين تنقسم الى ٢٨٥ فصلا ، منها ما خص الحياة الأسرية والعلاقة بين الأزواج والزوجات ، وما خص الثروات الثابتة والمنقولة ، ونظم التجارة والصناعة ، وما تعلق بعقوبات العدوان على الأبدان والأموال والافساد فى الأرض . وكانت أحكام الاعدام تطبق على جرائم متنوعة منها : هتك العرض وخطف الأطفال ، وقطع الطرق والسطو ، ودخول كاهنة خمارة ، واللجبن فى ميدان القتال ، وسوء استعمال سلطة الوظيفة .

وعقوبة « النفس بالنفس والعين بالعين » كانت تتناول أحوالا طريفة فاذا انهار بيت وقتل من اشتراه ؛ حكم بالموت على المهندس أو اليانى . فاذا تسبب سقوط البيت فى موت ابن الشارى أعدم ابن البائع . واذا ضرب انسان بنتا وماتت حكم بالموت على بنت الضارب ! ولكن بعض هذه العقوبات استبدل بعد ذلك بالدية أى دفع غرامات مالية توازى الجرم الذى ارتكب .

ومما يستوقف النظر فى هذه الشرائع أن عقوبة الرجل المذنب اذا كان من الطبقة العليا ، تزيد وتتضاعف على عقوبة رجل من الطبقة الدنيا اذا ارتكب نفس الجرم .. فان مراكز الشرف تقتضى الترفع عن الآثام . وكان طبيعيا فى مجتمع طبقى قديم أن تتضاعف عقوبة من يرتكب جرما فى حق رجل من الأشراف . واذا تسبب طبيب أثناء عملية جراحية فى موت مريض أو فقد عضو من أعضائه نتيجة اهماله عوقب الطبيب بنفس الضرر الذى أحدثه . ولعل كثيرا من الأطباء اليوم لا يتمنون أن يكونوا من أهل ذلك الزمن الغابر ، ولا سيما أن القانون كان يحدد قديما أجر الطبيب فى أنواع العمل الطبى الذى يقوم به حتى لا يستغل المواطنين . كما حدد القانون أجور الحرفيين كل بحسب مهنته ومدة العمل .

وفى المواريث كان الأبناء يرثون بالتساوى أما الزوجة فلها الحق فقط فى مهرها وهدية عرسها ، مع بقائها ربة البيت طوال حياتها .

وحتى يتخلص المجتمع من القضايا الكيدية وشهود الزور قرر قانون هامورابى عقوبة الاعدام على من يقترب هذا الاثم ..

ولعل هذه الفقرة التالية من تشريعات هامورابى ، تصل فى الرقى الى ما لم يصل اليه قانون حديث فى مجتمعنا المعاصر .. تقول : المادة :

« اذا ارتكب رجل جريمة السطو ، وقبض عليه ، حكم على المذنب بالاعدام . فاذا لم يقبض عليه ، كان على المسروق منه أن يدلى - فى مواجهة الآلهة - ببيان

مفصل عن خسائره . وعلى المدينة التي ارتكبت السرقة في داخل حدودها ، والحاكم الذي ارتكبت في دائرة اختصاصه ، أن يعوضا المجنى عليه عن كل ما فقده . فاذا أدى السطو الى خسارة في الأرواح ، دفعت المدينة ، ودفع الحاكم تعويضا الى ورثة القتيل « !

وهكذا تقرر في العصر البابلي ، مبدأ تكافل الجماعة ، والدولة عن الخسائر الثابتة للأفراد الذين يتعرضون لعدوان . وهو أمر لم يصل اليه الآن . وهكذا تمضى هذه الشرائع ، حاملة سمات عصر قديم ، مع ادراك مستنير لنظم الجماعة ، وما يصلح عليه أمرها . وقد ختم حامورابى شرائعه بقوله :
« هذه هي الشرائع العادلة التي رفع منارها الملك الحكيم حامورابى ، والتي أقام بها في الأرض دعائم ثابتة ، وحكومة طاهرة صالحة .. أنا الحاكم الحفيظ الأمين عليها ، في قلبي حملت أهل وقومى ، وبحكمتى قيدتهم ، حتى لا يظلم الأقبوياء الضعفاء ، وحتى ينال العدالة اليتيم والأرملة » .
ومد حامورابى فكره الى الأجيال المقبلة من شعبه ، وناشد ضمائر الذين يخلفونه من الحكام أن يتمسكوا بالحكمة والعدالة .. قال :

« فليأت كل مظلوم له قضية أمام صورتي - أنا ملك العدالة - وليقرأ النقش الذى على تمثالى ، فلعله يكون هاديا له في قضيته ، ولعله يناجينى قائلا : يا حامورابى ، انك حكمت كوالد حق لشعبه .. لقد جنّت بالرخاء مدى الدهر كله ، وأقمت حكومة طاهرة صالحة .. ولعل الملك الذى يكون في الأرض فيما بعد ، وفي المستقبل ، يرمى ألفاظ العدالة التي نقشتها على أثارى » .

هذا هو الجو الحضارى الذى ظهر وولد فيه سيدنا ابراهيم ، ونما وترعرع .. ترف مادي وثراء ، وفكر ناضج وحكم عادل ، ربما كان قد بدأ قبل الطوفان ، ثم جدد نفسه بعد ذلك ، حتى ظهر فيه من الحكام على تعاقب القرون ، أمثال سرجون ، وحامورابى ، ونبوخذ نصر .. وقد ولدت هذه الظروف حياة أدبية وفنية ، تتمثل في أساطير « جلجميش » التي سبقت الطوفان ، واستمرت بعد ذلك في صور متعددة ، وروح فنية تجلت في النقوش الملونة الرائعة بالفسيفساء ، والمباني البذخة ، والتمائيل الهائلة لعبوداتهم الخرافية ..

وهنا يخطر لنا سؤال كبير . كبر هذه الحقبة العريضة من تاريخ الشرق الأوسط القديم .. وهو :

لماذا أصرت هذه الحضارة على عبادة آلهة ، يرمز لها بتمائيل مرعبة ، وثابرت

على عبادتها ، دون أن تتنبه لحقيقة الوجود الكبرى ، وهى وجود خالق واحد أحد ،
يبدأ كل شيء ، واليه المرجع واليه المصير !؟

ألم يكن للعقول التى تشرع وتبنى قلوب تدرك وتعى ، وتمتد أفاقها الى ما وراء
الحياة وما بعدها !؟؟

سوف نعرض بعد حين للحضارة المصرية ، وعلاقتها بروح الكون ومبدعه ،
ولكننا عندما نقف هنا ، نجد نوحا فى أقصى الشمال من أرض العراق ، لم يجد إلا قلة
تؤمن بربه ورب الكون ، حتى بعض أهله كان عملا غير صالح . وحتى بعد أن هددهم
بهول الموت من فيضان يغرق كل ما فوق الأرض فانهم أصموا قلوبهم وسخروا منه ..
هل هى العادة ، والتعلق بما كان عليه الآباء ؟

هل هو الكبرياء من أن يستمعوا الى رسول السماء ، وهو واحد منهم لا يرون له
فضلا عليهم من جاه أو ثراء أو حكم وسلطان ؟
ربما كان هذا وذاك ..

ونحن نعلم قصة سيدنا ابراهيم مع هذه الأصنام ، ولكن فلنقرأها معا ، تحت
هذا الضوء الذى سلطناه على الحياة فى جنوب العراق ، فربما ثبت فينا معانى
متجددة ..

ورد فى سورة الأنعام تفصيل لحوار ابراهيم مع نفسه ثم حوارهم مع أبيه وقومه -
هذا بيانه :

« واذ قال ابراهيم لأبيه أزر أتتخذ أصناما آلهة انى أراك وقومك فى ضلال
مبين . وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن
عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا
قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى
الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون .
انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين . وحاجه
قومه قال أتحاجونى فى الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به الا أن يشاء ربى شيئا
وسع ربى كل شيء علما أفلا تتذكرون . وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون انكم
أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فإى الفريقين أحق بالأمن ان كنتم تعلمون .
الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون . وتلك حجتنا
آتيانها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ان ربك حكيم عليم . »

ولم تقتصر دعوة ابراهيم على القريبيين منه اذ يبدو ان دعوته وجداله عن عقيدة
التوحيد وصل الى ملك من ملوك بابل . وفى ذلك قال القرآن الكريم فى سورة البقرة :

« ألم تر الى الذي حاج ابراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال ابراهيم ربي الذي يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال ابراهيم فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين » .

وقد لاحظ ماسبيرو في تأريخه لفجر الحضارة ، أن رجال الفلك بما لهم من سلطان لدى الملوك والسادة كانوا يسيطرون على مقدرات البلاد ، لأنهم يتحدثون الى النجوم ، ويسمعون لها ، وتنبئهم من أنباء الغيب بما يشاء لهم هواهم أو يمليه عليهم احساسهم . وفي كل معبد كانت توجد مكتبة الفلك ، مدونة على ألواح من الطين المحروق . وقد عثر على واحدة من تلك المكتبات ، وكانت تضم سبعين لوحا ، يظن أنها ترجع الى عصر الملك سرجون . ولم يكن استقراء النجوم هو قمة العلم في ذلك الوقت فقط ، بل كان سر المعابد المحجوب .

ولهذا لا نعجب اذا رأينا ابراهيم الخليل يبدأ تأملاته ، واستقلها ماته الروحية بأقصى ما وصل اليه عصره من علم ، وهو علم الفلك . ومن هنا كان اصطدامه بثقافة عصره عنيفا وحاسما ..

كذلك كان الحال مع موسى الكليم ، وكهنة المعابد المصرية كما سنفصله بعد حين .

اذن فقد مهدت الحضارة البابلية لظهور دعوة التوحيد الابراهيمية فيها ، ولكنها صمت عنها آذانها .. ولعل الكلدانيين ، أهل العراق القدماء ، ظلوا على اباؤهم لدعوة التوحيد ، أو أى دعوة الى المسيحية ، اللهم الا القبائل العربية التي هاجرت الى هذه الأرض ، وظلت أرضهم تتداولها حروب الآشوريين من الشمال والاعريق من الشمال الغربى ، والفرس من الشرق ، دون أن تنفتح قلوبهم لدعوة السماء . وحتى بعد ان جاءتهم سلالة ابراهيم أسرى من فلسطين ، لم يأبهوا لما هم عليه من دين ، الى ان قامت دعوة الاسلام ، التي جددت عقيدة سيدنا ابراهيم ، وعندها ، وعندها فقط ، عرفت بقايا العراقيين القدماء دعوة السماء الى اله واحد . وهكذا بدأ التوحيد في شمال العراق بدعوة من نوح ، دون أن يجد أرضا خصبة ، ثم بدعوة من ابراهيم لم تلق غير الكيد والنار تهديدا وعقابا ، حتى نزح عنها مع بعض أهله الى فلسطين .

ويستوقفنا هنا معنى طال حوارنا فيه مع بعض المفكرين والباحثين المعاصرين وهو ان الدعوات الكبرى في تاريخ الانسانية ، لا تظهر من فراغ ولكنها تبدأ نتيجة نمو عقلى وعاطفى يكون مساعدا على نموها .. فدعوة ابراهيم الى التوحيد ، رفضت

في العراق ، ولكن أسبابا كثيرة أدت الى ظهورها فيها ، وليست الصدفة وحدها هي التي أوجدتها .. وقد قبلت هذه الدعوة في مصر في حدود وظروف معينة وبعد قرون عدة كما سنشرح فيما بعد . ودعوة المسيحية كان موطنها في فلسطين وأسباب قيامها كانت تمهيدا طبيعيا لها ، بل نفس معجزات المسيح عليه الصلاة والسلام كانت تحديا لقدرات اليهود الطبية ، ولظروفهم التمييزية .. ونفس الأسس هي التي مهدت لظهور الدعوة الاسلامية في الحجاز ، حيث بلغ النمو المادي ، والتأثر النفسي بالدعوات السماوية مبلغا يساعد على أن تتخطى الدعوة الحواجز التقليدية التي تحاصرها وليس مصادفة أن تقوم دعوة ابراهيم في العراق وتستقر في فلسطين ، وتقوم دعوة المسيح في فلسطين وتهاجر وتستقر في بلدان بعيدة عنها قبل ان تدين بها فلسطين نفسها ، وتقوم دعوة الاسلام بين القرشيين في مكة ، وتهاجر الى يثرب لتجد الأرض الخصبة الصالحة لنموها ثم نجاحها ..

ان الحضارة المادية داعية الى مزيد من التأمل والتفكير والتطلع ، وهي في نفس الوقت مانعة من اعتناق النتائج الطبيعية لسبحات الأرواح النيرة ، لتمسك القوم بما درجوا عليه ، واستقامت عليه حياتهم ..

يقول العقاد ، في تأريخه لسيرة ابراهيم الخليل :

« كانت دعوة ابراهيم هي الفتح الجديد في تاريخ العقيدة . فلم يبدأ ابراهيم عقيدة التوحيد ، ولم يبدأ عقيدة الفداء ، ولم يبدأ عقيدة البناء ، ولكنه بدأ بالدعوة النبوية ، فاصطبغت العقائد بصبغتها ، حتى كأنها لم تسمع قط قبل ذلك في عهود الكهانات والهيكل » .

« وقد أصابت النكسة كل عقيدة نادى بها الخليل قومه في عصره ، فانقلبوا الى عبادة الأصنام ، وجهلوا سر الفداء وسر البقاء ، ولكن البداية قد بدئت ، وسارت في طريقها ، ولولا أنها بدئت لما تبين أحد موضع النكسة فيما بعد ذاك » ..

« ان هذا التوحيد قد رفع مكانة الانسان في ميزان الخليقة ، فليس في الكون الا خالق ومخلوق ، وهو أشرف مخلوق عند الله ، بفضيلة واحدة وهي فضيلة الضمير الذي يميز بين الخير والشر ، وعمل الخير هو وسيلته الى الله » .

مسيرة الخليل .. ولماذا فلسطين :

عندما وطد ابراهيم العزم على تبليغ دعوته لقومه من الكلدانيين بادئا بأهل بلده « أور » كان قد بلغ من العمر الخامسة والسبعين ، أي أنه كان رجلا كهلا . وقد وصفه « يوسفوس » أقدم مؤرخي اليهود بأنه كان رجلا متيقظ الذهن ، قوى

الحجة ، أدرك من حقائق الفضائل ما لم يدركه سائر البشر .. واعتزم أن يصحح الأفكار التي شاعت بين قومه عن الله وأن يغيرها .. فكان أول من اجترأ على المناداة بأن الله خالق الكون واحد . وانه اذا وجد كائن آخر ينفع الناس ، فانما يفعل ذلك باذنه ، ولا يفعله بقدرة من عنده .. وقد أثارت عليه هذه الأفكار الكلدانيين والعراقيين فرحل الى أرض كنعان .

هذا المؤرخ اليهودي الذي سجل سيرة قومه من أقدم العصور ، لم يجد حرجاً في أن يذكر أن دعوة التوحيد الأولى ، كانت موجهة الى الناس كافة ، وليس الى أسرة ابراهيم وحدها ، الى أبيه أزر (أوتارح) . أو الى زوجه وبنت أخيه سارة ، أو الى ابن أخيه لوط فقط .. لا ، وانما كانت موجهة الى « الناس » كافة .. وقد كان ما بين هذا المؤرخ اليهودي والدعوة الابراهيمية عشرين قرناً كاملة . فاذا جاء اليهود وأغلقوا عليهم الدعوة الابراهيمية ، بوصفهم الشعب المختار ، بل أغلقوها على فرع واحد من أبناء ابراهيم ، وهو يعقوب بن اسحاق دون نسل بقية البنين ، ومنهم اسماعيل فهذا أمر لم يكن معروفاً بهذه الصورة عند تدوين أول تاريخ لهم ، وان كانت التوراة التي وصلت الينا تلح على هذا المعنى وتردده ، وهو أن اليهود من بنى اسرائيل هم وحدهم الناس ، وأن غيرهم من البشر لا يستحقون دعوة التوحيد ، لأنهم خلقوا على صورة الانسان لسبب واحد ، وهو أن يكونوا خدماً لهم ، لا أتباع عقيدة واحدة .

رحل ابراهيم وأسرته الى أرض كنعان في فلسطين .. والكنعانيون هم عرب هاجروا من جنوب شبه الجزيرة العربية الى شمالها ، واختلطت بهم هجرات متعاقبة من كل مكان حولهم من السومريين والآشوريين والفينيقيين والمصريين والحيثيين والآراميين (١) ، ثم جاءتهم هجرات على شكل غزوات من جزر البحر المتوسط ولا سيما قبرص وكريت لتنشئ على الساحل منطقة الفلسطينيين . وتسمى أقوام بأسماء لصقت بهم مثل اليبوسيين في منطقة اورشليم .. والمقطع الأول من اسم اورشليم وارد من بلاد الرافدين . ولا ننسى أن « أور » هي مسقط رأس ابراهيم أما « شليم » فاسم لواحد من عشرات الآلهة الوثنية التي كانت تعبد في المنطقة كلها . ولا علاقة لهذا الاسم بكلمة « شالوم » العبرية التي تعنى سلام ، وان كان اليهود نسبوا الاسم كله للغتهم حتى يثبتوا قدم علاقتهم بالمدينة المقدسة أو القدس أو ايلياء كما كانت تسمى أيام العرب .

(١) اسماء القبائل التي استقرت في فلسطين كثيرة فمنهم اهل مدين والادوميون والمؤابيون والعمرنيون .

أما لماذا كانت هذه الهجرات الكثيرة الى هذه الأرض التي أصبحت الآن سوريا ولبنان وفلسطين ..

السبب هو الموقع . فهذه الأرض في شرق البحر المتوسط أحيطت بشعوب وأقوام قوية وغازية ، في أرض الرافدين (دجلة والفرات) وآسيا الصغرى ، ومصر . ومن وراء هذه الدائرة نجد الفرس والاعريق والرومان ثم العرب . وكل هؤلاء زحفوا ، والتحموا فوق هذه الأرض ، كى يصلوا الى أرض شعب من الأقوياء ، كانت تدور معاركه في فلسطين الكبرى ، أو الشام الكبير ، أى الإسمين تختار .

يقول كتاب الحضارات السامية القديمة (١) :

« حددت الظروف الطبيعية المصير التاريخى لمنطقة سوريا الفلسطينية الساحلية . فتركز طرق المواصلات الأساسية بين ثلاث قارات في هذا القطاع الضيق من الأرض ، كان يعنى أنه قدر لهذا القطاع أن يكون مسرحا لسلسلة من الهجرات والغزوات ، دون أية فرصة دائمة لانشاء نظم سياسية قوية . كانت المنطقة أرض تجارب للمطامع والمنافسات التجارية والحربية للدول الكبيرة التى كان يقع بينها . وكانت الشعوب المهاجرة تتدفق عليه مرة بعد أخرى ، لأنه كان منطقة جذابة في حد ذاتها لخصبها ، يمكن دخولها من كل جانب ، والانتقال منها في كل اتجاه . وكانت مفتوحة أمام مصر ، وأرض الرافدين وآسيا الصغرى والبحر المتوسط . فضلا عن الصحراء التى جاء منها البدو الساميون ... ولم يكن العبريون حين فتحوا فلسطين حوالى آخر الألف الثانى قبل الميلاد ، أول شعب سامى في ذلك الميدان . فقد أقامت فيه شعوب سامية أخرى قبلهم بزمن طويل . »

اذن فلم يكن غريبا أن يرحل ابراهيم وأسرته إلى فلسطين ، ناجيا بعقيدته الجديدة من عسف بابل ، يلمس في مغرب الأرض راحة لنفسه ، ومزيذا من التأمل والتعمق فيما هداه الله له . وكان قدرا مقدورا ، وفترة تحول فيها تاريخ البشرية ، أن تكون هذه الهجرة الى فلسطين بداية مسيرة هائلة يتحرك فيها الضمير البشرى الى منطقة النجاة من ادغال الوثنية ، ومظاهرها الرهيبة . وطقوسها الدامية .. انها حركة بدأت بابراهيم الموحد الطائع المنيب لارادة الرحمن ، ومستمرة الى واحد من أحفاده هو موسى الكليم ، وحائه خطوها بعد ذلك الى حفيد آخر هو عيسى كلمة الله ورحمته ، وواقفة وقفة أخيرة الى ثالث

(١) تاليف سبتيانو موسكاني ترجمة الدكتور السيد يعقوب بكر .

الأنبياء وخاتمهم من نسل ابراهيم محمد بن عبدالله .. وكانت دائرة الظهور هي الهلال الأكبر من فلسطين ، ومن مصر ، ومن الحجاز .
وفي الموقع الذي هاجر اليه ابراهيم ، وفيه انتهت حياته .. والموقع الذي سعى اليه موسى ووقف عند حدوده .. والموقع الذي جاهد فيه عيسى ومنه رفع .. والموقع الذي اتجهت اليه أبصار محمد ، ثم أسرى به اليه ليلتقى بكل أنبياء التوحيد .. في هذا الموقع العزيز بتاريخه ، الكريم بقداسته ، دارت وتدور أعنف معارك الدهر كله ، لكي تبقى له حرية الوجود ، وحرية العقيدة ، بعيدا عن تعصب المتعصبين ، وغلاة الطامعين .
انه فلسطين .. وقلبها الخفاق ، القدس .

من فلسطين الى مصر .. والعودة :

يرجع الى شعب سوريا وفلسطين الفضل في اختراع الحروف الأبجدية ، ونقل الكتابة من صور ورسوم كانت أساس الكتابة الهيروغليفية إلى كتابة ثابتة القواعد . والفينيقيون الذين شاركوا في هذا التطور ، هم الذين انتقلت وسيلة الكتابة الأبجدية الى أوروبا عن طريقهم . وقد ذكرت أساطير الأغريق أن أحد أبطالهم واسمه « قادموس » (١) ملك فينيقيا هو الذي قام بمهمة نقل الأبجدية الى اليونان ، ومنها انتقلت الى أوروبا .

تقول التوراة فيما تقص من أبناء ابراهيم انه « اختار سكنه من شكيم (نابلس الحالية) الى بلوطة مورة ، وفيها الكنعانيون . وظهر الرب لإبرام وقال : لنسلك أعطى هذه الأرض ، فبنى هناك مذبحا للرب الذي ظهر له ، ثم انتقل من هناك الى الجبل ، ونصب خيمته شرقا من بيت ايل .. ثم والى رحلته الى الجنوب . وحدثت مجاعة في الأرض ، فأنحدر ابرام الى مصر .. »

وتستوقفنا قصة المذبح الذي بناه ابراهيم للرب ، وكأن التوراة تريد أن تلمح في زوعنا أن ابراهيم كان لا يزال متأثرا بفكرة تجسيد الرب ، أي نزوله في صورة انسان يخاطب الناس ، وأنه أيضا كان يتقبل الضحايا على المذبح . وقد ظلت العبادة اليهودية مقترنة بالتجسيد ، وبالدم الذي يسيل فوق المذبح من

(١) يوجد فندق في بيروت يحمل اسم « قادموس » . وكان سبب ذهبه إلى اليونان ان زيوس كبير ارباب الاغريق اختطف الأميرة « اوروبا » ، اخت « قادموس » ، فذهب إلى اليونان لأحضرها ، وحمل معه اصول الأبجدية . وقام بمغامرات ، وكانت بقرة مقدسة قد اختلطت بمغامراته حتى انشأ مدينة طيبة الاغريقية . ومن هذه الاسطورة استمد الفنان فتحي محمود خطوط التمثال الذي أصبح شعرا لاسكندرية .

دماء الضحية (١) ، ولم ترتق إلى فكرة التجريد ، أى تجريد الله سبحانه وتعالى من أى شبه آدمى أو غير آدمى . مع أن التجريد هو الامتداد الضرورى للتوحيد .

وكانت البيئة التى أقام فيها زاخرة بالعديد من المعبودات الوثنية ، وأهمها « ايل » و « بعل » . وقد اقترن اسم الإله ايل بكثير من الأسماء المتداولة وقتها ، ولا تزال . مثل اسماعيل أى سميع الله ، وميخائيل ، وجبرائيل .. الخ أما بعل فمعناه سيد . وكذلك كان يوجد من المعبودات « العلى » و « اللات » و « أدونيس » .. الخ .

ويبدو أن ابراهيم لم ينشط فى هذه المرحلة للتبشير بدين التوحيد وذلك لأن سنوات من الجذب ألت بأرض فلسطين جعلت الحياة عسيرة .

ومضى ابراهيم إلى مصر ، مع زوجه سارة ، فمصر كانت بلد الرخاء ، اذ أوفى النيل وفاض ماؤه .. وكان ذلك فى عهد حكم الهكسوس لمصر ، وربما فى أوائل عهد الأسرة السادسة عشرة (٢١١١ - ١٥٨٣ ق . م) .

وكانت رحلة ابراهيم إلى مصر مغامرة شاقة . اذ كانت زوجه ذات جمال يلفت النظر ، وخشى ابراهيم على نفسه التلف من أعوان حاكم مصر اذا هو أعلن أنها زوجه ، فزعم أنها أخته ، ودعا الله أن ينجيها من الكيد . وكذلك حدث .. فقد عصمها الله من سوء ، ومنع عنها أى عدوان ، بل أهداها الحاكم المصرى جارية هى هاجر المصرية .

واذا لم يكن ابراهيم الخليل قد وجد فى مصر مجالا لدعوته - وان كان أقام فى مصر عشرين سنة كما تروى المصادر اليهودية - ، فحسبه أن عاد بسيدة من المصريات ، ما لبثت زوجه أن أهدتها له ، عسى أن تلد له ولدا يفرح به فؤاده ، بعد أن بلغ من السن ما بلغ .

وعندما عاد ابراهيم الى فلسطين هذه المرة ، كان مقامه فى موقع قريب من الرملة .

وتروى التوراة عن عودة ابراهيم الى فلسطين من مصر :
« وعاد إبرام الى بيت ايل ، حيث كانت خيمته قبل انحداره الى مصر ولم تحتل الأرض إبرام ، ولوطا ، ومن معهما من حاشية وماشية ، واستؤجر

(١) تسربت إلى العقيدة اليهودية طقوس التضحية بدماء الاطفال غير اليهود عندما تنزل بهم الكوارث . وقد وصف كتاب « صراخ البريء » ، الذى طبع فى مصر فى اواخر القرن الماضى قضايا حوكم فيها يهود لانهم قلعوا بهذه الجريمة . وذلك فى عهد حكم محمد على وغيره .

رعاتهما وحولهم الكنعانيون والفرزيون . فقال ابرام لابن أخيه (لوط) : لا تكن مخاصمة بينى وبينك ، وبين رعائى ورعاتك . اننا أخوان . أليست الأرض أمامك ؟ فاذهب حيث شئت . ان ذهبت شمالا ، ذهبت أنا إلى اليمين . وان ذهبت يمينا ، ذهبت أنا إلى الشمال . ونظر لوط فرأى أمامه أرضا مخصبة كأرض مصر ، فاختر دائرة الاردن وارتحل شرقا ، ونقل خيامه الى سدوم ، وأهلها جد أشرار .. وبقي إبرام في كنعان .. ونقل ابرام خيامه ، وأقام عند حبرون (الخليل) وبني فيها مذبحا للرب .

ولاينسى كتاب التوراة ان يضيفوا أمنيتهم القديمة منسوبة إلى الرب (طبعا !!) الذى قال لابراهيم فيما دونوه : « ارفع عينيك ، وانظر في الموضع الذى أنت فيه ، من مشرقه إلى مغربه من شماله الى جنوبه . فإننى معطيك جميع الأرض التى تراها ولنسلك من بعدك . واجعل لك نسلا كتراب الأرض لا يحصيه الا من استطاع أن يحصى ترابها ، فاضرب فى الأرض طولاً وعرضاً كما تشاء . »

ان هذه الأمنية اليهودية ، التى أضيفت الى احداث التوراة ، نراها تتكرر ، وتزداد اتساعاً بعد ذلك فيما سيمر من أحداث حتى تشمل ما بين النيل والفرات . ويكتشف المحدثون من اليهود أن هذا ليس كافياً ، فيضيفون شبه الجزيرة العربية كلها ، ويعدون الخرائط تشمل الشرق الأوسط كله جنوب جبال طوروس حتى المحيط الهندى .. ولانستبعد طبعة مقبلة من التوراة يعدلون فيها نطاق المطالب حتى تطابق التوراة الخرائط !

ولم تكن قبيلة ابراهيم فى ذلك الوقت أكثر من ٣١٨ رجلاً قادراً على القتال من أقاربه وعبيده .

وشكا ابراهيم الى ربه أنه لا يوجد من نسله من يرثه . فتنبأ له الرب بما سيحدث .. تنبأ له بذهاب قبيلته الى مصر ، وإقامتها ٤٠٠ سنة ، وخروجها على المصريين . ولم تنس النبوءة فيما دونه التوراتيون معاهدة بين الرب و ابراهيم تقول : « وفى ذلك اليوم قطع الرب مع ابراهيم ميثاقه قائلاً : لنسلك أعطى هذه الأرض ، من نهر مصر الى النهر الكبير نهر الفرات .. » .

واستجاب الرب لشكاة ابراهيم فولد له من هاجر الجارية المصرية ابن هو اسماعيل ، وكانت سنه ٨٦ سنة (ليس شاباً كما ذهب كتاب الأنس الجليل) . وبعد ولادة اسماعيل غير الرب اسم ابرام الى ابراهيم .. كما غير الرب اسم زوجته العراقية من ساراي الى سارة ، ووعده بأن يزرع منها بابن ، وهى فى سن

التسعين ، ويكون ابراهيم قد بلغ المائة عام من عمره .. وقد ولد له ابنه الثانى اسحاق ، وكان ابنه الأول اسماعيل قد بلغ الرابعة عشرة من عمره .. وهنا تأتى قصة الغيرة التى دبت فى قلب الشيخة سارة ، اذ طالبت ابراهيم بأن يقصى هاجر وابنها اسماعيل بعيدا .. فكانت الرحلة المشهورة الى الحجاز ، وهى الرحلة التى تنكرها التوراة ، اذ لم تشر اليها مطلقا ، ووقفت بها عند بئر سبع فقط . وكان ابراهيم قد أعطى هاجر المصرية زادا وماء ودفع بها الى الصحراء فمضت الى هذا الموقع . وكان ابراهيم قد حفره ، ودفع سبع نعاج لشيخ المنطقة شهادة على أن البئر ملكه ، ولهذا اسمى الموقع (بئر سبع) أى سبع نعاج .

وقد ماتت سارة فيما تروى التوراة وهى بنت ١٢٧ فى مدينة حبرون ، أو الخليل ، من أرض كنعان ، واشترى ابراهيم لها قطعة أرض دفع ثمنها ٤٠٠ مثقال من الفضة ، ودفنها فيها .

وهكذا نرى أن ابراهيم - بشهادة التوراة المتداولة نفسها - لم يكن يملك فى فلسطين حتى قطعة أرض فيها مغارة يدفن فيها زوجه أو تكون له مدفنا بعد وفاته . وكان كل ما يملكه ابراهيم خيمة أو خياما له ولأسرته وقطيع الماشية ، على نحو مات فعل القبائل الرحل .. وعلى الرغم من ان اقامته فى هذه المرحلة بالقرب من مدن عامرة مثل سدوم وعمورية اللتين دمرتا ، وزلزل زلزالهما .. أو بالقرب من الخليل أو الرملة أو نابلس (شكيم قديما) ولكنه لم يفكر فى أن يكون صاحب مزرعة ، أو يستقر به القرار فى مكان بعينه .. ومع ذلك فقد أجرى اليهود على لسانه وعلى لسان الرب تملك الأرض ، أرض فلسطين كلها .. ثم أرض الشرق الأوسط كله !! و ابراهيم برىء من كل ذلك ..

لقد كانت عناية مؤلفى التوراة بالتمكك والسيطرة بالغة التأثير على تفكيرهم ، حتى أنهم نسوا مهمة ابراهيم الأولى ، وهى الدعوة للتوحيد ونبذ عبادة الأصنام وهى أصل وجوده ، وأساس رسالته ، ومن أجلها فر من العراق وقدم الى فلسطين (١) ... لاشيء من هذا مطلقا . فما يعنى التوراة ماتطلبه السماء من نبيها ابراهيم ، ولكن يعنيها ويعنى قومها ما يطمعون فيه من أرض الكنعانيين و المدينيين واليبوسيين والفلسطينيين وغيرهم من سكان هذه الأرض

(١) ارسل ابراهيم ابن اخيه « لوطا » الى اهل سدوم وعمورية مبشرا فرفضوا دعوته وقللوا يرتكبون المنكرات . فدمر الله المدينتين تدميرا .

التي هاجر اليها ابراهيم ولم يتخذ له فيها دارا غير بعض خيام ، وأمتار في مغارة يأوى اليها جسده وجسد زوجه بعد الممات !

ولم تكن سارة ، ثم هاجر ، هما كل زوجات ابراهيم . فقد تزوج من سيدة كنعانية ، اسمها « قطورة » انجبت له ستة اولاد . فتكون جملة من أنجبه من البنين ثمانية .. وقد كون كل منهم أسرة ، وأنجب اولادا وأحفادا اختلطوا بسكان فلسطين مع نمو اعدادهم .. ولكن التوراة لاتعترف بأحد من نسل ابراهيم أنه يحمل رسالة التوحيد ، الا أسرة حفيده يعقوب بن اسحاق . ماذا حدث لاسماعيل وسلالته .. وماذا حدث للأخوة الستة الآخرين ؟ هذا ماسكتت عنه التوراة تماما . وان كانت قد اضطرت كما سنرى الى أن تعترف بوجود قبيلة كبيرة هي أسرة « عيسو » الأخ الأكبر ليعقوب .

وهكذا انسحب الصمت التوراتي على سلالة اسماعيل في الحجاز وسلالة غيره من الأسرة الابراهيمية .

وأمر يستوقف النظر في أعمار هذه الأسرة .

فقد ذكرنا ان اسماعيل أول الأبناء لابراهيم وهو في سن ٨٦ سنة واسحاق ، وهو في سن المائة . وولد له الستة الباقون في خمس وسبعين سنة تالية .

أما بقية أعمار السلالة فان « اسحاق » عاش مائة وثمانين سنة ، وعاش « يعقوب » مائة وسبعا وأربعين سنة . وعاش ابنه « لاوى » مائة وسبعا وثلاثين سنة ، وعاش ابنه « قاهات » مائة وسبعا وعشرين سنة ، وعاش « عمران » مائة وستا وثلاثين سنة ، وعاش « موسحا » مائة وعشرين سنة . وهكذا يكون ما بين ولادة ابراهيم ووفاة موسى ٥٤٥ سنة .

ويندر ان نجد في سير الملوك والشخصيات المعاصرة في مصر أو بابل من طالت أعمارهم ، واستمر نسلهم الى هذه السن الكبيرة ، وقد سجلت سنيهم على الآثار . حتى رمسيس الثانى الذى حكم مصر ٧٦ سنة وأنجب العديد من الذرية من زيجاته الكثيرة ، لم يطل عمره الى هذا المدى ، لأنه تولى الحكم فتى صغيرا ..

الى الحجاز :

أشرنا من قبل الى ميلاد اسماعيل بن ابراهيم من أمة المصرية هاجر ، وكان قد بلغ السادسة عشرة عندما ولد اسحاق بن ابراهيم من أمه العراقية سارة .

وبعد أن شب الابن الصغير قليلا عن طفولته ، وجد أبوه لهدوء باله من الغيرة التي ملأت قلب سارة أن يبعد اسماعيل وأمه . وروت التوراة انه أشار لها صوب الصحراء ، وتركها تلقى مصيرها .. أما القرآن فنحا نحو آخر في ابعاد هاجر وابنها ، أليق بنبي كان من أعز صفاته كرم النفس والنجدة والمروءة .. حتى ان التوراة نفسها قالت ان الابرار بعد موتهم يذهبون الى صدر ابراهيم ليرحب بهم . فكيف لا يكون بارا بأكبر ابنائه وأمه وقد أشاعا في صدره البهجة والحنان ، وكانا ثلثي مساكنيه في خيمته ستة عشر عاما ؟ !

واتجاه ابراهيم الى الحجاز مع أكبر أولاده ، انما قصد به أن يكون بدوره قبيلة وان ينشئ فرعا مستقلا للأسرة الابراهيمية ، في مكان لاتنازع عليه بين القبائل الفلسطينية القوية التي كانت تسكنها ، أو تغير على أهلها ولعل ابراهيم كان في شك من امكان استقرار أى من ابنائه وأحفاده في فلسطين نفسها والحروب فيها لاتنقطع .

ووقع اختيار ابراهيم على واد غيزدى زرع حتى لا يكون هناك قتال عليه . والأرض المنزرعة لا يمكن أن نحددها بما نشاهده الآن من عامر وغامر ، أو من منزرع وقاحل . فالساحل المصرى من الاسكندرية حتى برقة الذى تغطيه الرمال الكثيفة ، كان من ألفى سنة فقط من أخصب مزارع مصر وأكثرها نماء . وروى المقرئى ان زراعات القمح فيه ، كانت تفسر آية السنابل ذات المائة حبة من وفرة محصوله ! وفي منطقة الحجاز الشمالية ، وهى أرض مدين ، كانت زراعات العنب تغطى مساحة كبيرة ، وتجدها الآن صحراء أكثر مواتا من الموت نفسه . وقد تعددت الروايات عن عمر اسماعيل عندما قدم مع ابيه ابراهيم ، وأمه هاجر الى الحجاز ..

روى البخارى أن اسماعيل كان طفلا رضيعا حين وفد به أبواه الى مكة . وان زمزم حفرتها الملائكة ، بعد ان كادت الأم وابنها يهلكان عطشا . أما المؤرخ أبو الفداء فذكر ان سارة طلبت نفى اسماعيل وأمه بعد ان انجبت اسحاق ، أى بعد ستة عشر عاما ، وذلك حتى لا يرث ابن « الامة » اى الجارية مع ابنها .

وشعائر الحج التي توارثتها الاجيال قبل الاسلام وبعده ترجح الرواية الاولى . وهناك خلاف يسير في قصة الفداء ، وهل كان اسماعيل أم اسحاق هو الذى أمر الله ابراهيم بذبحه ؟ لقد حاول اليهود أن يجعلوا الابن الذى كان بطل القصة هو اسحاق ، وتسربت هذه الرواية الى بعض المصادر الاسلامية . ولكن

حفاوة الاسلام كله باسماعيل وثبوت قصة الفداء ، وكونها من شعائر الحج
الاسلامية ، تبعد نهائيا ما درج اليهود على ذكره من ان الذبيح هو جدتهم ، وذلك
امعانا منهم في طمس سيرة اسماعيل ، وتجاهل وجوده ، وتجاهل دوره في بناء
عقيدة التوحيد .

ان المؤامرة على اخفاء انباء اسماعيل في التوراة ، الا ماندر منها ، تحاول
ان تقول ان ميراث عقيدة التوحيد انما ألقى على اسحاق ومن بعده يعقوب .
واين اذن ذهب اسماعيل ، وهو أكبر البنين ؟ .. واين أيضا ذهب الابناء الستة
لابراهيم ، من زوج ثالثة ذكرنا انه اقترن بها بعد وفاة هاجر في الحجاز وسارة في
فلسطين ؟ ..

لقد توزعت فكرة التوحيد بين فلسطين والحجاز توزيعا إلهيا حكيما وما أن
صادفها ماعاق ثباتها ونموها على يد السلالة الاسرائيلية - كما سنرى فيما
بعد - حتى وجدت الصيانة والبقاء في الحجاز .. ولعل بناء الكعبة بوحي من الله
سبحانه وتعالى ، واشتراك اسماعيل مع أبيه ابراهيم في اقامتها كان الدليل
الباقى ، والاشارة التي لا تخطيء على ان في هذا المكان سر الإله الأعظم ، وهو
وحدانيته (١) .

ومن عجب ان المؤرخ اليهودي القديم يوسيفوس يقول ان اسماعيل تزوج
من أم مصرية ، مثل أمه ، فولدت له اثني عشر ولدا في حين أن المصادر العربية
زوجته من قبائل جرهم العربية .

على أى حال ، فقد كرم القرآن الكريم اسماعيل تكريما كبيرا . فقد ورد
ذكره في آيات كثيرة منها : « واذكر في الكتاب اسماعيل انه كان صادقا الوعد ،
وكان رسولا نبيا ، وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا » .

وجاءت النهاية :

روى كتاب « تاريخ الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل » (٢) ان
ابراهيم هو أول من هاجر من وطنه في ذات الله تعالى ، حفظا لايمانه . ولما نزل
بالموضع الذي يعرف بوادي السبع ، وهو شاب لا مال له ، فأقام حتى كثر ماله ،

(١) ذكر العقاد في كتابه عن ابراهيم ان الصابئة يدخلون الكعبة في عقائدهم ، يحسبونها من البيوت
السبعة التي تناظر الكواكب السبعة ، ويقولون إنها بيت أشرفها دارا ، وهو زحل ، وستبقى في الأرض مابقي
زحل في السماء .

(٢) تأليف قاضي القضاة ابو اليمن مجير الدين الحنبلي .

وشاخ وضاق على أهل البلد مواضعهم من كثرة ماله ومواشيه ، فقالوا له :
ياشيخ أحل عنا ، فقد أذيتنا بمالك أيها الشيخ الصالح ، وكانوا يسمونه بذلك .
فقال لهم : نعم أرحل عنكم . فلما هم بالرحيل ، قال بعضهم لبعض : انه جاء
عندنا وهو فقير ، وقد جمع عندنا هذا المال كله ، فلو قلنا له أعطنا شطر مالك ،
وخذ الشطر (النصف) . فقالوا له ذلك ، فقال لهم : يا قوم صدقتم ، جئتمكم
ركنت شابا ، واليوم صرت شيخا ، فردوا على شبابي ، وخذوا ماشئتم من
مالي !!

وليس هناك مايؤيد هذه القصة ، فان الشباب في تقدير أصحاب الأعمار
الطويلة يبدأ وينتهي على غير مانع أو نقدر . فصدى القوقازى الذى يعيش
الآن فى القاهرة متجاوزا الثمانين ، وكان يتلقى من أبيه حتى عهد قريب رسائل
تنعته بانه « طفله العزيز » والأب عاش مائة وأربعين سنة !!

المهم فى هذه القصة ، أن ابراهيم الخليل عاش عيشة البدو الرحل ، مع
أسرته ، بعد أن أودع فرعا منها فى الحجاز ينمو فى حوض الصحراء ، وذلك لأمر
أراده الله ، وهو أن تتجدد رسالة ابراهيم بعد خمسة وعشرين قرنا أو نحوها ،
وأن نسمع من مجدد الرسالة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام أنه أقرب
الناس شبها بابراهيم الخليل .

فلما اقتربت النهاية .. نهاية رحلة ابراهيم فى هذه الحياة ، ولم يكن يملك
أرضا.. أية أرض .. اختار فى موقع « حبرون » مغارة يودع فيها جثمان أول
زوجاته ، سارة . وكان ملك هذه المنطقة رجلا خيرا ، اسمه « عفرون » فأباح
لابراهيم أن يتخذ المغارة مدفنا لأسرته . ولكنه أصر على شرائها بالثمن ، وقد
اتسعت المغارة لجثمان سارة ، والخليل من بعدها ثم ريقة زوجة ابنه اسحاق ،
ثم اسحاق نفسه ثم يعقوب حفيده الذى اسمى اسرائيل فيما بعد ، وكذلك
زوجه . وقد ميزت القبور بعلامات تدل على أسماء أصحابها ، واقفلت المغارة ،
قرونا طويلة ، حتى جاء الرومان بعد أن اعتنقوا المسيحية ، وأقاموا كنيسة ،
مالبت أن زالت ، وحل مسجد بالقرب من مغارة الخليل .. وقد وجد نقش كتبه
اليونانيون القدماء على المغارة يؤكد انها لابراهيم وأسرته . وقد ورد عن بعض
زوار هذا المكان أن مدفن الخليل فى منخفض من المغارة ينزل اليه بعدد من
السلالم .

وقد حث الاسلام على الاحتفاء بالخليل ابراهيم ، وكان نبي الاسلام أكثر
الناس تأثرا بابراهيم وظل يتعبد على دينه حتى جاءت النبوة . وورد فى الحديث

عن أنس بن مالك أن رجلا جاء الى النبي محمد صلى الله عليه وسلم وقال له :
ياخير الناس . فرد عليه : ذلك ابراهيم عليه السلام . وعنه عليه الصلاة
والسلام انه قال : « من لم يمكنه زيارتي (في المدينة المنورة) فليزر قبر أبى
ابراهيم الخليل عليه السلام » .

ولاتقف حفاوة المسلمين عند ابراهيم الخليل ، فان زيارة قبر اسحاق وابنه
يعقوب (وهو الذى سمي اسرائيل) من تمام الزيارة لمسجد ابراهيم ، ويقول
الزائر من المسلمين : السلام عليكم أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة . وفي
الصلوات الخمس كل يوم يتلو المسلمون « التحيات » ويوجهون دعاء خاصا الى
ابراهيم وآل ابراهيم . وذلك ايمانا من المسلمين واعتقادا بأن دعوة الاسلام
احتوت الرسائل السابقة كلها ، فهى لاتحمل الا كل الخير للسابقين عنها بدعوة
التوحيد ، ولا تعرف التعصب ، فكل رسل الله مقدسون .

ومن أجمل التقاليد التى توارثتها أجيال حول قبر ابراهيم ومسجده التذكير
الدائم ، بانه كان من أكثر الناس كرما . وقد خصص المسلمون أوقافا ينفق من
دخلها على اطعام الزائرين .. وفي عصر السلطان المصرى الناصر محمد بن
قلاوون كانت تدق الطبول بعد صلاة كل عصر دعوة للناس الى المائدة
الابراهيمية .. يروى كتاب الانس الجليل عن هذه المائدة ، وقد اسمها
« السماط » : « وهذا السماط من عجائب الدنيا يأكل منه أهل البلد ،
والواردون ، وهو خبز يعمل فى كل يوم ، ويفرق فى ثلاثة أوقات : بكرة النهار
وبعد الظهر لاهل المدينة وبعد العصر ، تفرقة عامة . ومقدار مايعمل فيه من
الخبز كل يوم أربعة عشر ألف رغيف أو أكثر اذا زاد الزائرون . ولايمنع من
السماط أحد من الاغنياء ولا من الفقراء . واما السبب فى دق الطبول كل يوم ،
فسببه ان سيدنا ابراهيم لما كانت تأتية الضيوف ويصنع لهم ما يأكلون ،
ويكونون جماعة متفرقين فى المنازل التى أنزلهم فيها ، فاذا أعد طعامهم دق
الطبل يستدعيهم ، . فصارت سنة بعده . ولاعداد الطعام بنيت ثلاثة أفران
كبيرة ، وأعدت مخازن للقمح والشعير والوقود يؤخذ منها طول العام ، وزود
بالطواحين لاعداد الدقيق .. » .

وهكذا دخل الخليل ابراهيم فى عقائد المسلمين منذ بدأ نبى الاسلام على
دينه الحنيف ، واستمر ذلك طوال أربعة عشر قرنا ..
وعندما نقول الآن القدس ، وقبة الصخرة ، ومسجدها الأقصى فاننا أيضا
نقول مدينة الخليل .

ولعل خير ما نذكر به القراء لهذه الدراسة ، أن ابراهيم لا يقف في عقائد المسلمين عند محرابه وفراره في فلسطين ، ولكنه كما ذكرنا أودع قطعة منه ، هي أكبر أبنائه في الحجاز ليمتد الخط الروحي بين المكانين .. وفي ذلك يقول القرآن الكريم في سورة البقرة ..

« وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود . وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره الى عذاب النار وبئس المصير . واذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم . ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا .. وإنه في الآخرة لمن الصالحين . إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين . ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون » .

□ الفصل الثاني □

مصر .. منها .. وإليها

عرضنا من قبل للصرح الحضارى الذى أقامته حياة الاستقرار..، فى حوض الرافدين : دجلة والفرات . وجاء الآن دور الحضارة التى نشأت على ضفتى النيل ، وسنرى هل اصطدمت بعقيدة التوحيد كما حدث فى العراق أم سايرتها ، وأخذت منها وأعطت .

لم تكن مسيرة الاستقرار فى مصر متعرضة لما تعرضت له الحياة فى العراق ، من قيام دولة آشور فى الشمال ، ودولة بابل فى الجنوب ، وإلى الشرق قيام دولة فارس وإلى الشمال الغربى دولة الحيثيين ، وكانت احدهما تبلغ من القوة الحد الذى تغير فيه على جيرانها ، فتدك معالم العمران فيها .. ولعل معركة وحيدة حدثت فى مصر ، هى التى وجدت الدلتا مع الصعيد فى عصر مينا ، وبهذا أصبحت بلاد النيل كتلة واحدة فى الداخل ، وان كانت قاعدة الحكم قد تنقلت فى أماكن كثيرة على مر الزمن الطويل من الدلتا الى منف الى مراكز أخرى فى الصعيد أدناه وأعلىه .

ولامجال هنا للتحدث عن معالم الحضارة المصرية القديمة ، فهى باقية الى الآن تتحدى الزمن . وذلك لأن قدماء أهل النيل رزقوا مع ماء النهر الخالد ، أحجارا على الشاطئين ، لم ترزق العراق بمثلها ، والبناء بالحجر ، والنقش عليه صان الكثير من صور الماضى ..

وحديثنا الآن عن الميراث الروحى والفكرى للمصريين ، والبحث عن تأثير هذا الميراث وتأثره بدعوة التوحيد ، التى ظهرت أول ما ظهرت على نهر الفرات ، ثم تحركت فرارا ، الى فلسطين والحجاز ، مع سيدنا ابراهيم ، ووصل بها الى مصر ، وقيل ان مقامه فيها كان عشرين عاما ..

والرأى الأرجح ان ابراهيم وفد الى مصر في عهد الهكسوس ، وهناك خلاف كبير بين المؤرخين حول أصل الهكسوس ، ومدة حكمهم لأجزاء من مصر .
واذا أخذنا برأى « برستد » شيخ مؤرخى المصريين ، فان هجوم الهكسوس على مصر كان سنة ١٦٧٥ قبل الميلاد ، وقد نجحوا في غارتهم لأن وباء كان قد حل بالبلاد ، وضعف حكمها ضعفا خطيرا ، كما أن الهكسوس قدموا الى مصر بقوة منظمة ، تستعمل العجلات الحربية لأول مرة في تاريخ هذه الحروب القديمة . واتخذوا من مدينة في شرق الدلتا عاصمة لهم لتكون أقرب الى موطنهم الآسيوى الذى قدموا منه . واسم هذه العاصمة الهكسوسية هوارس أو هواره .
وقد وصف المصريون هؤلاء الغزاة بأنهم رعاة ، وسجلوا عنهم في آثارهم ما عبر عن حقيقة رأيهم فيهم فقد نقل « برستد » أحد النقوش المصرية القديمة عن هذه الفترة وقد جاء فيه : « وأصبح القطر المصرى في أيدي قوم قذرين غاصبين ، وتعذر على المصريين أن يملكوا على أنفسهم أحدا منهم .. » .
أما أقدم المؤرخين المصريين « مانيتون » ، فقد قال عن الهكسوس : « .. أتى الى القطر على غير انتظار قوم شرقيون وضيعون ، فاجأوا أهله بالاغارة عليهم ، واستولوا على الوجه البحرى بلا معارضة كبيرة ، لأن أهل مصر وقتها كانوا في ثورة وهياج ... وكان ملك الهكسوس يخشى على حكمه من الآشوريين الذين كانوا أقوى الأمم وقتئذ ، فخاف أن يتطلع هؤلاء القوم الى مصر ، ويضموها الى أملاكهم ، ولذلك شيد القلاع وأقام الحصون في الجهات التى ينتظر الاغارة منها .. » (١)

وهناك مؤرخ مصرى معاصر هو الدكتور باهور لبيب ، أعد رسالة للدكتوراه أثبت فيها أن الهكسوس هم اليهود العبرانيون . وعلى الرغم من عنائه في الدراسة وجمع الحجج ، الا أن نظريته لا تثبت لأى نقد . فلو أن اليهود هم الذين حكموا مصر قرابة قرن ونصف قرن حسب رأيه ، أو فترة أقل حسب رأى المؤرخين الكبار ، لما غفلت توراتهم عن هذه الواقعة ، اذ الثابت أن الهكسوس قدموا غزاة ، وخرجوا بعد معارك طاحنة بينهم وبين المصريين . فمن أين لهم - ان كانوا هم اليهود - هذه القوة العسكرية الضخمة التى مكنتهم من السيطرة على الدلتا ، وعلى الصعيد حتى القوصية . وقد ذكر مانيتون أن حاميتهم حول عاصمتهم ، التى تأهبوا بها لمنازلة الآشوريين قاربت ربع مليون جندى .. ثم من أين لنا هذا الخيال الذى يتسع لقبيلة

(١) تاريخ مصر لبرستد ص ١٤٠ .

ابراهيم كى تنجب ، وتتناسل بهذه الكثرة الهائلة ليتكون منها جيش غزوي فاجيء مصر ، ويستولى عليها ، الا أن يكون ذلك تم في ألفى سنة أو تزيد !^٦ وقد هاجم الدكتور أحمد بدوى في كتابه « في موكب الشمس » ، فكرة أن الهكسوس هم اليهود هجوما عنيفا ، ومرجعها الأول الى ما ذكره يوسيفوس ، اليهودى . قال الدكتور بدوى : « والعجيب أن يوسف اليهودى الذى عاش قبل ثمانية عشر قرنا ، لم يكن يختلف كثيرا عن أبناء جلدته في مختلف العصور ، فهو قد تجرأ ونقل ، ولم يرع الأمانة فيما نقل ، فحرفه لحاجة في نفسه ، فكذب على المؤرخ المصرى « مانيتون » ، وكذب على التاريخ ، وكذب على الدنيا كلها ، حين زعم أن « مانيتون » كان يقرر أن اليهود هم الذين هاجموا مصر ، فدخلوا دون حرب ، وأخضعوا أمراءها ، وحرقوا مدائنها .. الخ » .

ومن رأى الدكتور بدوى ان حكم الهكسوس في أجزاء من مصر استمر قرنا ونصف قرن .

حقيقة ، لا يزال أصل الهكسوس مجهولا ، ولكن أصل اليهود لم يكن في وقت ما مجهولا ولا مسيرتهم التاريخية اكتنفها غموض كثير . وعلى أى حال ، فإن ابراهيم الخليل قدم الى مصر والهكسوس يحكمونها ، وحاكم منهم هو الذى دارت بينه وبين سارة القصة المعروفة ، التى انتهت بامتناعه عنها ، فقد عجز عن الاقتراب منها . واذا كانت مصر في عهد هذا الاحتلال ، بلدا تسوده الفوضى في جهاز الحكم ، فان حكمة المصريين ، وتراثهم الحضارى ابتداء من عهد الأسر الحاكمة حتى الأسرة الثانية عشرة ظل محفوظا ، ومحفوظا ومصونا في المعابد ، ولدى كهنتها ومدارس الفكر والفن المختلفة فيها .

ومن المؤكد أن ابراهيم الخليل اطلع على كثير من مظاهر هذا التقدم الحضارى خلال اقامته في أرض النيل ، وهو تقدم ينافس بحق ما وصلت اليه بابل التى غادرها الى غير عودة ، وأشور فى شمالها .

بتاح حتب .. وميراث الدولة القديمة :

على الرغم من مضى أكثر من عشرة قرون على عصر ابراهيم الخليل ، ونشأة الحضارة المصرية التى خلفت الأهرام بعظمة تكوينها وأبا الهول .. الا أن الميراث الفكرى الذى اعتنقته الأجيال المصرية عبر القرون ، لم يكن يقل جلالا بل لعله يزيد في قوة التأثير ، وتأكيد الوجود المصرى واستمراره لأنه يوجه الضمير ويحدد قواعد السلوك .

ولعل أهم ما حدد مسيرة السلوك في تلك الحقبة القديمة ، هو ما يحدث للانسان بعد الحياة .. ان اهداء أبناء النيل الى فكرة البعث كان لها أقوى دور في صياغة وتكوين حياتهم اليومية . ان الاحساس والايمان بأن هناك حياة ثانية فيها حساب ، وفيها ثواب وعقاب تجعله يلتزم بقواعد معينة . في معاملاته . والتسليم بأنه عند الحساب يستطيع أى انسان أن يقدم شكواه ، وأن يحصل على العدالة ، تجعل للعدالة قيمتها الكبرى ، وتجعل الحق في ذاته مرموقا .

ولا نكاد نتصور أن يكون الايمان بالبعث والحياة الثانية مسيطرا على العقيدة الدينية ، ولا يهتدى المؤمنون به الى وحدة الإله . لقد بدأ الأثريون المحدثون يشكون في فهم الجيل السابق عليهم من العلماء لما تدل عليه أسماء الآلهة المتعددة في المعابد ، وهل هي رمز لصفات اله واحد . تأخذ أشكالا ، وصورا ، حسب أسلوب التعبير الكتابي والفنى عندهم . اننا عندما نصف الاله بأنه عادل ، أرحيم ، أوسميع ، أو منتقم ، فإننا نعدد نواحي القدرة الإلهية ، وان كنا لا نحصيها . ولقد عبدوا في ذات الإله عدله ، ورحمته ، وقدرته ، ومثلوها في التماثيل وسجلوا رموزها في معابدهم ، وهكذا كان التجسيد للقدرات الالهية قائما وموجودا ، دون التجريد الذى كان يحس به ابراهيم الخليل وهو يهتدى الى سر الكون الأعظم .

ولقد تكررت كلمة العدالة في الكثير من النصوص القديمة ، وعبر عنها بكلمة « ماعت » فيقولون مثلا : الملك يخرج في يومه هذا ، ليتمكن من احضار العدالة « ماعت » معه .

ولعل « بتاح حتب » الوزير الأول لأحد ملوك الأسرة الخامسة المصرية ، نال شهرة ، فاقت شهرة أعظم الغزاة ، لأنه صاغ قواعد للسلوك والتعامل ، ظلت متوارثة ، ومسجلة أحقابا طويلة . وتبذل الآن مجهودات كبيرة للكشف عن مقبرة هذا المفكر الواعى ، الذى فاز باحترام الدنيا بأسرها في عصره وبعد عصره .

وسبب تدوين هذه الحكم ، أن الوزير « بتاح حتب » الذى عاش مائة من السنين وعشرا ، طلب من الملك بعد أن أدركه الهرم أن يدرب ابنه على عمله ، وكتب له وصايا يسير على هديها .

قال « بتاح حتب » في وصايا لابنه :

● لا تكونن متكبرا بسبب معرفتك . شاور الجاهل والعاقل ، فلا حد للعلم يقف عنده الانسان . وليس هناك عالم بلغ حد الكمال . والكلمة الطيبة نادرة مثل الحجر الأخضر الكريم . ولكنك قد تجد هذا الحجر الكريم عند الجوارى اللائى يعملن في ادارة رحى الطاحون .

- أحسن صفات الانسان أن يكون مستمعا ، حتى يفوز بحب الاله . أما الذى لا يحسن الاصغاء ، فانه مبعوض من الله ، وقلبك هو الذى يهديك لكى تسمع لغريك أو تنصرف عنه . ان أعظم ثروات الانسان عقله . وما أفضل الابن عندما يستمع لأبيه . فاذا وعى ما يلقي عليه لن يضل أو يخيب ، فاذا كنت أنت المتحدث ، فاعط سامعك خيرا تعلم .
- كن حيا في مخاطبة الناس ، ولا سيما من هم أكبر منك . ولا تكن ثرثارا ولا متكبرا .
- اذا كان رئيسك من أصل وضيع ، فاحترمه ، لما أصبح فيه ، لأنه لم يصل الى مركزه عفوا . واذا تحدث جاهل أمامك ببعض الحماقات في ساعة غضب ، فلا تنقلها عنه . واعلم أن فن الكلام أصعب من أى فن آخر .. فاذا تحدثت فأوجز ، وكن ثابت الجنان طوال كلامك .
- اذا عظم قدرك بعد أن كنت صغيرا ، واذا صرت صاحب ثروة بعد أن كنت فقيرا ، فتذكر دائما ماضيك ، ولا تنس أنك ارتفعت واغتنيت بفضل الإله .
- احذر ما قد يأتى به المستقبل . وكن سخيا على أصدقائك مخلصا في ودهم ، فما من أحد يعرف مصيره اذا فكر في الغد . واذا حدث لك ما تكره فان هؤلاء الأصدقاء هم الذين يقولون في وقت شدتك : مرحبا .
- لكى تميز حقيقة من تصادق ، فاقترب منه ، وتعامل معه ، وامتنحن قلبه بالمحادثة . فاذا أفشى سرا لك ، أو أتى أمرا يجعلك تخجل منه ، فاحذر منه ، ولا تتجاوب معه .
- اذا كنت رجلا ناجحا ، فأسس لنفسك بيتا . واتخذ لك زوجة تكون سيدة فؤادك . وأحبها كل الحب ، ووفر لها طعامها وكساءها . وقدم لها العطور والدهون . واجعل قلبها فرحا مادامت حيا ، فهى الحقل المثمر لزوجها .
- اذا رزقت ولدا ، اكتسبت رضا الإله . فاذا عمل صالحا وتخلق بخلقك وسمع نصائحك ، وازدهر بيتك بوجوده فلا تضن عليه بشيء لأنه قطعة منك .. ولكن اذا جنح ابنك الى السوء ، فابعدده لأنه يكون عملا غير صالح .
- اذا كنت شريكا مع أسرتك في ثروة ، فلا تكونن شرها في القسمة ، وانبذ الطمع حتى فى حقك ، ولا تطمع فى مال أقاربك .. والكلمة الطيبة تجدى أكثر من القوة . والقليل الذى يؤخذ بالخدیعة يولد العداوة .
- من كمال الأخلاق أن تحرر نفسك من الرذائل . واعلم أن الطمع مرض عضال لا يرجى شفاؤه ، ولا تعيش معه الصداقة ، اذ تتحول حلاوتها الى مرو علقم .

- إن الطمع يبعد من كل محل ثقة عن سيده ، ويجعل كلا الأبوين وكأنهما غرباء ، ويمزق شمل الأخوة والأزواج .. الطمع يابنى حزمة تجمع الشرور كلها . والطماع لا قبر له ، فإنه يضيع دنياه وآخرته .
- إذا أردت أن تحافظ على الود في بيت تدخله ، سواء كنت سيديا ، أم أخا ، أم صاحبا ، فلا تخالط نساء هذا البيت .. ان ألف رجل يهلكون بسبب متعة برهة قصيرة تضيع كالحلم . ولا يجنى الانسان من مخالطة النساء غير الهلاك .
- كن بشوش الوجه مبتسما ، مادمت حيا .. ولا تيك على ما ضاع منك ، فما أعاد البكاء ما أريق من الاناء .
- عندما يواتيك الثراء ، فتمتع به .. فما أفاد الثراء أحدا لا يتمتع به ، ويصبح صاحبه ويمسى معذبا بثروته .
- إذا كنت حاكما ، فكن رحيفا حين تسمع كلام المظلوم ، ودعه يفضى بكل ما في صدره .. وإنها لفضيلة يزدان بها القلب أن تستمع مشفقا عطوفا الى شكاة مظلوم .
- الحق جميل ، وقيمته خالدة . وإذا كنت حاكما وأردت أن تصدر للناس أمرا ، فابحث عن كل سابقة حسنة وسر على أثرها ، تبقى لأوامرك قيمتها .
- كلمة الحق ، لن تمحى من أفواه الناس ، وتبقى على الأرض الى الابد . والرجل العاقل يعرف بعمله ، وقلبه ميزان للسانه اذا نطق ، وشفته تنطقان بالحق اذا تكلم ، والعدالة نبراسه في كل ما يقضى به .

تعليق برستد :

تبلغ قائمة النصائح والحكم التي وجهها « بتاح حتب » الى ابنه ٤٣ نصيحة يتناول نصفها تقريبا سلوك الانسان مع الجماعة ، والباقي يتناول سلوكه في عمله أو مع نفسه .. حتى آداب المائدة كان لها نصيب عندما يقول لابنه اذا ما دعى الى تناول الطعام مع رئيس : « خذ ما يقدم لك حينما يوضع أمامك دون أن تنظر الى ما وضع أمام صاحب الدعوة ، واذا نظرت اليه فلتكن نظرتك عابرة ، وتكلم حين يرحب بك ، واضحك حينما يضحك .. » .

ويقول برستد ان عصر بناء الأهرام في مصر كان مليئا بالرجال العظماء من السياسة والحكماء والفنانين والمهندسين والمعماريين ، وهم الذين جعلوا من مصر منذ خمسة آلاف سنة مضت بلدا يضم عجائب المباني . وظهور هؤلاء الرجال ذوى الشخصيات العظيمة لم يكن وليد الساعة ، بل كان ثمرة التجارب ،

والحياة المستقرة على مدى ألف سنة سابقة عليهم من تاريخ البشر . فكانوا أول رجال أمكنهم الرجوع بالبصر ليجيئوا أنظارهم في ذلك الماضى حيث يشرفون على مشهد عميق من حياة الانسان الأولى . ولابد أنهم كانوا أثناء قيامهم بذلك يتلمسون فى الظلام أحسن تعبير يعبرون به عن آرائهم نحو نظام البشر .. وقد انتهى بهم الأمر ، فعثروا على أمـنيتهم فى التعبير بكلمة واحدة جامعة حوت فى ثناياها كل معانى السمو والرفعة فى الحياة البشرية . تلك الكلمة هى « ماعت » التى تعد من أقدم التعابير المعنوية ذات المعانى المتعددة التى وصلت إلينا من كلام بنى الانسان منذ الأزمان الغابرة . وهذه المعانى هى : « الحق » و« العدل » و« الصدق » . وظل مضمون « ماعت » يتسع تدريجيا حتى صار يشمل معنى واسعا عظيما ، فلم تكن تعنى نقيض الباطل فقط ، بل تعنى نقيض الأخطاء الخلقية على وجه عام أيضا .. وهكذا شملت نظاما خلقيا متكاملًا للأمة واللفرد .

والى هذه الفضائل الممثلة فى سيادة « ماعت » وخلودها يقول حكيمنا « بتاح حتب » : ان « ماعت » عظيمة ، وتصرفها باق ، فلم تخذل منذ خلقها الله . وفى عالم التجسيد القديم ، تصوروا « ماعت » فى هيئة الهة أنثى ، وجعلوها بنت الشمس ..

ويمضى برستد فى تحليله يقول : لم يكن من باب المصادفة أن كان ثانى الشعوب اهتداء الى عقيدة التوحيد المذكورة ، أقرب جيران مصر عبر حدود آسيا ، فى فلسطين . وعندما نقرأ فى التوراة قولها : « اليكم يا من تخافون اسمى ، ستشرق شمس العدالة تحمل الشفاء على جناحيها » . فان هذا التعبير فيه إشارة واضحة الى إله الشمس المصرى القديم الذى يرسم عادة بصورة قرص الشمس المجنح .

وهكذا نعود الى ما بدأنا به ، وهو أن الايمان بالبعث ، لابد وأن يؤدى الى التوحيد ، وإن يكن عقيدة غير مجردة ، ويشوبها التوسل بكثير من الوسطاء والأولياء ، اذا صح أن نطلق هذا التبسيط على الحياة الروحية لقدماء المصريين . ولعل أرقى ما تؤدى اليه عقيدة البعث والحساب ، هو محاولة التزام العدل . فان فرعون نفسه ، كان يمثل أمام إله الآخرة (أوزوريس) ، فمنصبه الرفيع لم يكن يعفيه من السؤال ، وكان لابد له من أن يلتزم جادة العدل والاصلاح ، ويبتعد عن الظلم والافتئات على الحقوق ، حتى تصلح له آخرته ، كما صلحت له دنياه .

وقد سارت المعانى التى صاغها « بتاح حتب » عبر الأجيال ، وصار الناس الى الدولة الوسطى أصحاب حس مرهف ، وذوق أدبى راق فيما خلفوه من كتابات . ففى نقوش الأسرة الحادية عشرة (حوالى سنة ٢١٠٠ ق .م) نجد اشادة كبيرة بالعطور ، وثياب الكتان الرقيقة النظيفة ، والموسيقى . ويشير واحد منها الى الحياة الثانية بقوله فى عبارة فلسفية : « اصنع ! لم يأخذ انسان متاعه معه .. ولم يعد انسان ثانية ممن رحلوا الى الآخرة » .

وليس معنى قولنا : ان الفضائل التى تدل عليها كلمة « ماعت » سادت . فان الطبيعة البشرية ، تقبل الخير كما تقبل الشر . وكثيرا ما تحدثت النقوش عن شكايات المظلومين ، وأناتهم بأسلوب مؤثر عميق .. فهذا واحد يسأل : « لمن أتكلم اليوم ، والرجل المهذب يهلك ، والأصدقاء غير جديرين بالحب ؟ » .

« لمن أتكلم اليوم ؟ والرجل المهذب يهلك ، وصفيق الوجه يروح ويجيء كما يشاء ؟ » .

« لمن أتكلم اليوم ؟ فان البشوش سمح الوجه قد صار بئسا ولا أحد يحفل بالخير والخيرين ؟ » .

« ويختم صاحبنا شكاياته الطويلة ، بأنه لا يوجد رجل عادل ، والظلم يعم الأرض كلها ..

ولعل قصة الفلاح الفصيح ، لمحة من أروع لمحات الآداب القديمة . ومؤداها أن فلاحا من احدى قرى الفيوم حمل بعض حاصلات مزرعته على قطيع من الحمير ليبيعهها فى مدينة اهناسية عاصمة الدولة فى ذلك الوقت . وفى الطريق اغتصب منه واحد من موظفى الدولة حميره وحاصلاته . بحجة أن حميره التهمت من الحقول بعض زراعاته . وحاول الفلاح أن يقنع ذلك الموظف برد حقه له دون جدوى ، فسار الى حيث يوجد رئيسه الذى يحمل لقب « مدير البيت العظيم » ، ولكن التحقيق السريع أدى الى تغطية الجريمة بحجج واهية ، وهى أن ما اغتصب كان مقابل ضرائب لم يؤدها الفلاح . ولفت نظر المدير الأسلوب الأدبى الفصيح الذى يعرض به الفلاح شكواه .. كان مما قاله هذا المظلوم :

« لأنك والد اليتيم ، وزوج الأرملة ، وأخ لمن هجره الأهلون ، وستر لمن لا أم له .. دعنى أضع اسمك فى هذه الأرض فوق كل قانون عادل .. يا أيها القائد الذى لا يشوب أخلاقه طمع .. يا أيها الرجل العظيم الذى يتجنب الصغائر ،

ويحطم الظلم ، ويثبت الحق ، هلا أجبته على الصيحة التي ينطق بها فمى ،
وإذا تكلمت ، فهلا اسمتعت لى . أقم العدل ، وارفع عنى الضر ، فانى أحمل
أثقالا لا أطيعها .

ولما فى هذه التعبيرات من طرافة ، فقد ذهب « مدير البيت العظيم » الى الملك
وأخبره بقصة هذا الفلاح . وقد راق الأمر لفرعون ، فطلب من أحد كتبه أن
يدون ما يقول صاحب الشكوى ، وأن يتباطأ المدير فى انصافه ، حتى تتجمع
مدونة أدبية فى باب المظالم ، فكانت ثمانى قطع ، أمر فرعون أن تذاغ منها
نسخ ، وتسجل فى نقوش المعابد .. ومن ذلك قول الفلاح الشاكى :

« يا أيها المدير العظيم للبيت الملكى . انك تشبه رع إله السماء مع
حاشيتك . ان أقوات بنى الانسان منك لأنك كالفيضان . وأنت إله النيل الذى
يخلق المزارع الخضر ، ويروى الأرض العطشى . أيها المدير : هلا ضيقت
الخناق على اللصوص ، وحميت المظلوم . ولا تكونن كالسيل يكتسح صاحب
الشكوى .. احذر ، فان الأبدية تقترب . وخير الناس من تكون أنفاسه هى
حركته فى اقامة العدل « ماعت » . ونفذ العقاب فيمن أذنب .. ليس هناك شىء
يعادل استقامتك . انك الميزان ، فهل يخطىء الميزان . وهل تميل احدى كفتيه ؟
انك عظم ، فلا تنطق كذبا . ولا تكن خفيفا ، لأنك ذو وزن . ولا تنطق بالبهتان ،
لأنك الموازين نفسها ولا تحيدن عن العدالة لأنك الإستقامة نفسها .. أفهم يا
سيدى أنك والميزان سيان ، فاذا مالت فانك تجور . ولسانك هو المؤشر العمودى
للميزان ، وقلبك هو المثقال ، وشفطاك هما ذراعا الميزان .

وفى شكوى أخرى :

« أيها المدير : اقض على الظلم : وأقم العدل ، وقدم كل ما هو خير ، وامح
كل ما هو قبيح ، حتى تكون كالشعب الذى يقضى على الجوع ، أو كاللباس الذى
يخفى العرى ، أو كالسماء الصافية بعد سكون العاصفة الشديدة ، أو كالنار
التي تطهو الطعام ، أو كالماء الذى يطفىء الغلة » .

ولما ضاق صاحب الشكوى ذرعا بصمت المدير ، أخذ يهاجمه بعنف ..

قال :

« انك متعلم ، لا لتكون سارقا .. أنت يا من تمثل الاستقامة بين كل الناس
قد صرت على رأس البغاة فى كل البلاد . ان البستانى الذى يزرع الشر ، يروى
حقله بالظلم وزرعه يثمر البهتان . وبذلك تغمر الضيعة الآثام » .
ولما اشتد به الضيق أخذ صوته يشتعل بالغضب :

« ان أحوالك أيها المدير تخرج الناس من صمتهم الى الكلام ، وتوقظ الراقدين ، وتحول كل ملل واكتئاب الى ثورة . انك تحول الجاهل الى حكيم والغبي الى متعلم مدرك لما يحدث . انك تسرق والسرقه لا تنفع .. ان من أقيموا لمنع الظلم أصبحوا هم الظالمين » .

وأخيرا بعد أن بلغ اليأس من الفلاح الفيومي مبلغه . عرف أن الملك كتب على شكايته أنها كانت سارة لقلبه أكثر من أى شيء آخر في كل البلاد . وأنه أمر بعقاب الموظف الذى اغتصب رزق الفلاح ، وأن أملاك هذا الموظف صودرت وسلمت للفلاح كتعويض له على آلامه ، ومكافأة له على اصراره ومثابرتة ، وتحذيرا لأى موظف آخر أن يجور على حقوق الأفراد مهما صغرت منزلتهم ..

وهكذا نجد أن العدوان كان موجودا في حق الأفراد من العاملين في الدولة . ولكن هناك وسائل لرفع الظلم . وليست الحضارة ألا تقع الخطايا ، ولكن سيادة القانون ، أو روح « ماعت » كما كانت تسمى ، هى الأساس الذى يرسى المجتمع عليه قواعده ..

وقد لاحظ « ديورانت » بحق أنه لم يعثر في المجتمع المصرى القديم على وجود نظام للشرطة « ذلك أن الحياة ، والملكية ، والاطمئنان الى سلطان القانون ، تكاد تعتمد كل الاعتماد على هيئة الملك . وكانت المدارس والهيكل دعامة هذه الهيئة ، وليس في العالم كله ، أمة غير مصر (باستثناء الصين) جرؤت على أن تعتمد كل هذا الاعتماد على العوامل النفسية لحفظ الأمن في البلاد » (١) .

وقد جاء في مرسوم تعيين الوزير الأول : « ليست الوزارة حلوة ، بل هى مرة .. انها ليست وسيلة لاتخاذ الناس أيا كانوا عبيدا . أنظر ! اذا جاءك مظلوم من مصر العليا أو السفلى ، فاحرص على أن يجرى القانون مجراه في كل شيء مع مراعاة العرف السائد في بلده . واعلم أن المحاباة بغيضة الى الله .. أنظر الى من لاتعرفه .. نظرتك الى من تعرفه . وانظر الى المقربين من الملك نظرتك الى البعيدين عن بيته . وليكن ما يخافه الناس من الأمير ، أنه يعدل في حكمه ، ويرعى القواعد المفروضة عليه » .

وما أكثر ما حبب الى الناس العلم . فكل عامل في مصر له رئيس يشرف عليه ، الا العالم ، فانه سيد نفسه « ولاتكون السعادة الا في توجيه القلب الى

(١) موسوعة قصة الحضارة جزء ٢ مجلد ١ ص ٩٢ .

الكتب فى النهار والقراءة فى الليل .. واذا أردت نصيحة فخذها ممن هو أعلم منك » .

وكانت مصر القديمة غاصة بالمدارس ، وقد وردت رسالة فى احدى البرديات موجهة من تلميذ الى أستاذه يقول فيها : « لقد ضربت ظهري ، فوصل تعليمك الى أذنى » .

يقول مصدرنا السابق : كان يسمح للطالب فى الفرق الراقية بأن يستعمل الورق ، وهو من أهم السلع فى التجارة المصرية ، ومن أعظم النعم الخالدة التى أنعم بها المصريين على العالم . وحسبنا دليلاً على حسن صنعه ، ان ما كتب عليه من المخطوطات منذ خمسة آلاف سنة ، لا يزال حتى الآن باقياً متماسكاً ، سهل القراءة . وكانت الكتب تصنع من الأوراق ، بضمها بعضها الى بعض ، وإصاق الطرف الأيمن من واحدة بالطرف الأيسر من التى تليها ، فتكون منه ملفات يبلغ طول الواحد منها أحياناً نحو من أربعين ياردة . وكانوا يصنعون حبراً أسود لا يتلاشى ، أما القلم فكان قطعة بسيطة من الغاب يعالج طرفها ليكون كقلم الرسام .

وهناك أدب الرحلات الذى خلفه قدماء المصريين ، مثل قصة سنوحى الذى فر من الملك ، وتنقل فى بلدان كثيرة وصفها ، ثم أدركه الحنين الى الوطن فسجل كل ذلك فى برديات باقية . ورحالة آخر ، وصف سفينة مصرية قال : نزلت البحر فى سفينة طولها ١٨٠ قدماً وعرضها ٦٠ قدماً وفيها ١٢٠ من صفوة البحارة المصريين ، وهم خبيرون بمعالم الأرض ، ومعالم السماء ، وقلوبهم أشد بأساً من قلوب الآساد ، يتنبأون بأعاصير البحر وعواصف البر قبل أن تثور .. ووصف هذا الرحالة كارثة تحطيم سفينته ، وكيف أوى الى جزيرة كثيرة الثمر والخيرات .

واذا كان المصريون القدماء قد برعوا فى فنون العمارة ونقلوا مسلات وزن الواحدة منها ألف طن مئات من الأميال ، فان براعتهم الأكبر كانت فى الطب والجراحة . وكانت لهم قاعدة عامة وهى أن الطعام الزائد عن حاجة الجسم هو الذى يسبب المرض .. ولهذا فانا نراهم دائماً ممشوقى القوام بغير ترهل . ويقول هيروdot إن المصريين أصح شعوب العالم أجساماً .

وقد سجل الأثرى والعالم الكبير أحمد بك كمال « علوم وعوائد وصنائع وأحوال قدماء المصريين » في كتاب رائع (١) مزود بالرسوم التي يمكن أن تعلم اللغة الهيروغليفية نفسها . وفي الباب الخامس من هذا الكتاب عرض لعلم الطب المصرى القديم « وكان منهم حكماء للرأس وحكماء للأسنان ، وأطباء للبطن ، وآخرون للأمراض الباطنية ، وأيد ماسبرو وجود أطباء للعيون .. » وكان الطبيب يحاكم ويحكم عليه بالاعدام اذا أخطأ خطأ جسيما في علاج مريضه .

الأبناء والأحفاد :

في هذا الجو ، بدأت دعوة التوحيد التي تنقلت من العراق الى فلسطين ثم الى مصر ، ثم الى الحجاز ، تلقى بذورها . لعل سلالة سيدنا ابراهيم ، وجدت أقرب الناس رحما لفهم هذه الدعوة ، أو عدم الانكار لها هم أهل مصر .. وانهم على الأقل لن ينصيوا المحارق كما فعلوا في العراق .. ولكن هل تكفى دعوة التوحيد وحدها لكي تبنى مجتمعا متفتحا تأميا ؟؟ لكي تستمر هذه الدعوة ، فلا بد من أن تقترن بالايمان بالبعث ، وسنرى فيما بعد رأى السلالة الاسرائيلية في البعث ، ولا بد من أن تتفرع منها قواعد خلقية تنظم العلاقة بين معتنقيها وغيرهم من الناس ، وسنرى ما فعل اليهود مع غيرهم من الناس ، كما أنها من باب أولى يجب أن تكون قادرة على تنظيم علاقة بين أبناء العقيدة بعضهم وبعض .. وسنرى أيضا ماصنع اليهود فيما بينهم ، بعد أن باعدت الأيام بينهم وبين نبي التوحيد الأول ، سيدنا ابراهيم الخليل .. أنجب ابراهيم ولده الثانى ، اسحاق ، وهو الذى احتقلت التوراة بسيرته ، ونسبت اليه قصة الفداء كما ذكرنا ، وقالت عنه انه وحيد (٢) ابراهيم ، وانه يحبه . أما أولاده الآخرون فتقول التوراة انه صرفهم شرقا وهو بعد حى . ولم تتعب التوراة ، ولا كتب اليهود الأخرى بالبحث وراء الأبناء الآخرين لابراهيم ، وحسبهم اسحاق ..

(١) طبع كتاب احمد بك كمال على الحجر عام ١٨٩١م ، وقد اكد في كتابه هذا ان المصريين القدماء اعتقدوا بوحداية الله ، وقد ورد في آثارهم كثير من الجمل والعبارات المثبتة لوحداية الله تعالى وقدرته وافعاله وصفاته منها . كل شيء خلقه الله العظيم بنفسه .. ومنها خالق الكائنات ومنها الخالق لكل مخلوق ، الذى لم يخلق . فاطر السماء والارض . الموجد لكل ما يكون . اما ما لم يكن فهو فى مكنون علمه . ومنها الله معبود باسمه الازلى خالق الارواح فى الاشباح . ومنها : تمضى الدهور ، وهو باق دائما .. ومنها لاتدرکه الابصار . ومنها سمیع لمن يتضرع اليه ومنها الواحد الذى لا شريك له (ص ٥٢) .

(٢) سفر التكوين . الاصحاح الثانى والعشرون .

وعندما شب إسحاق ، تزوج ، وأنجب توأمين ، أولهما اسمه عيسو ،
وثانيهما اسمه يعقوب ، ومضت السنوات بإسحاق حتى هرم ، وفقد بصره ،
وأراد أن يوصي بزعامة قومه لأكبر التوأمين من أبنائه وهو « عيسو » فطلب منه
أن يذهب للصيد ويعد طعام العشاء ، يتلقى بركات أبيه ووصيته . ولكن الأم
كانت تميل الى يعقوب من دون أخيه ، فخدعت الأب ، وأعدت العشاء ، وقدمت
يعقوب ، وأوعزت له أن يحكى صوت أخيه ، ويلبس قراء ماعز ، ليماثل ملمسه
لمس الأخ الذى كان كثر الشعر ..

جازت الخديعة على الأب ، وأعطى وصيته ، وأتم دعاءه ليعقوب .. فلما
حضر الأخ المستحق لهذه الرياسة ، لم يستطع أبوه أن يصنع شيئا . وثار
البغضاء بين الأخوين ، فهرب يعقوب الى أرض بعيدة ، خشية الانتقام الذى
كان بيته له أخوه « عيسو » .

وكان منتظرا أن تسجل لنا التوراة غضب الأب على ما حدث .. وأن تحل
بمعقوب تقمة الله جزاء ما صنع .. ولكننا نجد بدلا من هذا نصا يقول : « أنا
الرب إله إبراهيم أبيك وإله إسحاق ، الأرض التى أنت مضطجع عليها أعطيتها
لك ولنسلك ، ويكون نسلك كتراب الأرض ، وتمتد غربا وشرقا وشمالا وجنوبا .
ويتبارك فيك وفي نسلك جميع قبائل الأرض ، إفعل ما كلمتك به » .

وذهب يعقوب الى خنولته وتزوج هناك ، وأنجب ابنا اسمه يهوذا ؟ هو
الذى يحمل اليهود اسمه كشعب : كما ولد له أبناء آخرون ، منهم يوسف ..
ودامت هجرة يعقوب سنين عدة . وقرر العودة الى بلد أبيه إسحاق ، وإذا
زوجه راحيل تسرق أصنام أبيها وتضعها فى متاعها . وقبل أن يصل الى بير
سبع . بث رسلا لأخيه عيسو للقاءه فى جمع من قومه .. ولكن يعقوب خشى أن
يمكر به أخوه . ويرد له دينه القديم . وخرج فى الليل ومعه امرأته وجاريتاه
وأولاده الأحد عشر ، وأخفاهم بعيدا ، وإذا بحادث يقع له تقصه التوراة على
النحو التالى :

«بقى يعقوب وحده ، وصارعه انسان حتى طلوع الفجر ، ولما رأى أنه
لايقدر عليه ، ضرب حق فخذه ، فانخلع جق فخذ يعقوب فى مصارعة معه ،
وقال : اطلقنى لأنه قد طلع الفجر . فقال لا أطلقك ان لم تباركنى . فقال له ما
اسمك ؟ .. فقال : يعقوب . فقال : لا يدعى اسمك يعقوب ، بل اسرائيل لأنك
جاهدت مع الله والناس وقدرت وسأل يعقوب وقال أخبرنى باسمك . فقال لماذا
تسأل عن اسمى ؟ وباركه هناك » .

وتستفسر أنت عن مصارع الليل ؟ وقد أجابت التوراة على هذا السؤال .
وقالت ان الذى صارع يعقوب وأذاه فى فخذه ، وتغلب عليه بعد كفاح دام حتى
مطلع الفجر لم يكن الا « الرب » نفسه !!
وأراد رجل أن يتزوج ابنة يعقوب ، ولكنه لم يكن يهوديا ، فرفضوا زواجه ،
فأخذها عنوة . فذهب أبناء يعقوب الى محلة هذا الرجل ، وقتلوا جميع من فيها
من الرجال ، ونهبوا غنمهم وحميرهم وكل ما وجدوه من ثروات ونساء وأطفال ،
على عادة الاغارات القبلية ، وعادوا بأختهم .

وهنا نتوقف قليلا ، لكى نعرف العصر الذى بدأت فيه الأحداث ، المتصلة
بمصر ، وكيف ارتبط تاريخ اليهود القديم بها ..
لامرجع أمامنا تناول تاريخ الفرع اليعقوبى (أو الاسرائيلى) من سلالة
ابراهيم غير التوراة . وروايات التوراة والكتاب نفسه محل جدل كبير سوف
نعرض له فيما بعد ..

المهم ان العلماء المحدثين الذين نقبوا فى فلسطين عن الآثار القديمة فى
النصف الأول من هذا القرن ، بذلوا مجهودا قيما فى تحديد التواريخ . فقد حدث
عام ١٩٢٧ (١) ، زلزال فى فلسطين ، تعرضت له مدينة أريحا وما حولها ،
ومناطق أخرى ، وأحدث دمارا كبيرا . وأدى تدمير المباني وانهارها إلى أن نهر
الأردن توقف عن الجريان « ٢٢ » ساعة . وقد أدى هذا الحادث الى ظهور
أنقاض مدفونة تحت الأرض ، يرجح كثيرا أنها أنقاض مدينة أريحا القديمة
التي هاجمها يشوع بن نون فى خروجه الى فلسطين من برية سيناء ، وكان يشوع
(خليفة موسى) قد أحرق المدينة ، ولكن بقيت أشياء سليمة مما يستعمله
الناس . وقد قام الاثريون (٢) بفحص هذه البقايا ، ولاسيما الأدوات
الفخارية ، واختبروها بالوسائل العلمية ، ودل ذلك على أن الحريق اليهودى لها
حدث على وجه التحديد عام ١٤٠٠ قبل الميلاد .

(١) مات سعد زغلول فى مصر عام ١٩٢٧ . فأشار حافظ إبراهيم فى رثائه لسعد الى زلزال فلسطين فى ١١ يوليو

بقوله

ان زلزالنا أجمل مصابا
فى نفوس أمن الا احتسابا

قل لمن بات فى فلسطين يبكى
قد دهيتم فى دوركم ودهينا

(٢) الذى قام بهذا الفحص هو الاستاذ جارستاج مدير مصلحة الآثار الفلسطينية فى عهد الانتداب البريطانى

ومن هذه النقطة ، وهو حريق أريحا في الحرب اليهودية الأولى . أمكن الرجوع بالأحداث للوراء ، وتحديد المعالم البارزة في حركة هذه القبيلة ، التي تناسلت من ابراهيم الخليل ، واستقرت وقتها في فلسطين ، ثم هاجرت الى مصر كما سنرى ، وهذا غير الفرع الحجازي الذي تناسل من اسماعيل بن ابراهيم . وعلى هذا الأساس أمكن تدوين التاريخ كما يلي :

قبل الميلاد

عام ٢١٦٠	ولد ابراهيم الخليل في « أور » بالعراق .
٢٠٨٥	فر ابراهيم مع أسرته الى فلسطين (أرض كنعان)
٢٠٧٦	ذهب ابراهيم الى مصر وولد له ابنة اسماعيل ابن هاجر المصرية
٢٠٦١	حدث زلزال حطم سدوم وعمورية وأهلك أهلها (قوم لوط)
٢٠٦٠	ولد اسحاق من سارة العراقية
٢٠٠٠	ولد يعقوب الذي سمي بعد ذلك اسرائيل
١٨٨٧	حملت قافلة يوسف بن يعقوب الى مصر وباعته هناك
١٨٧٠	دعا يوسف اياه يعقوب الى مصر مع قبيلته
١٤٤٠	فترة بقاء اليهود في مصر وهي ٤٣٠ سنة
١٨٧٠	
١٥٢٠	ولد موسى في مصر

وهناك اتفاق على أن البطل المصري أحمرس طرد الهسكوس من مصر ، وتأسست الأسرة الثامنة عشرة في عام ١٥٧٢ قبل الميلاد واذن فيكون عصر الهسكوس وبعض ملوك الدولة الوسطى هم الذين قدم في أيامهم ابراهيم ، ثم يوسف ويعقوب ، وذلك حسب امتداد فترة الوجود الهكسوسي في مصر طولاً وقصراً . إذ أن اختلافاً كبيراً يوجد في تقدير هذه الفترة .

ولم يكن يعقوب يملك في فلسطين أرضاً ، حتى وصل في ترحاله الى مدينة شكيم (نابلس) من أرض كنعان « فابتاع قطعة الحقل التي نصب فيها خيمته .. بمائة قسيطة » وهي العملة المتداولة ، وأقام هناك مذبحاً ، ودعاها « ايل .. إله اسرائيل » .

وقصة يوسف وحسد أخوته له معروفة فقد غاروا منه إذ هو أصغرهم ، ويفوز من أبيه بحب كبير ، فألقوا به في بئر جافة ، وحملته إحدى القوافل الى

مصر ، وكان سنه ١٧ عاما فباعوه لقصر فرعون ، حيث تربى وفي خلال ثلاثة عشر عاما تالية ، استطاع أن يظهر الكثير من المواهب التي وصلت به الى مركز الوزارة . ومن منصبه ادار تموين مصر ، بحيث وفر على الناس عناء أيام القحط ، ووفدت أسرته تشتري تموينها ، فعرفها ، واستدعى أباه وباقي أسرته .

اليهود .. في مصر :

لم تكن مصر مجال نشاط حيوى لليهود ، الا في الأوقات التي تحل بهم فيها مجاعة من المجاعات .. وقدم يوسف الى مصر وهو صبي في السابعة عشرة من عمره ، كان الطريق الذى فتح الباب أمام أسرته ، وجذبهم الى وادى النيل . واستوزر فرعون يوسف وهو فى الثلاثين من عمره ، وظل أمينا على الخزائن أربعة عشر عاما ، نصفها سنوات رخاء ، والنصف الآخر سنوات جهد وقحط . ويعد قدوم يعقوب أو - اسرائيل - أول علامة واضحة وقوية لليهود بمصر ، بعد زيارة ابراهيم الخليل لها ، ومولد ابنه اسماعيل من هاجر المصرية . وتعطى صياغة التوراة لهذه العلاقة بين يهود كنعان وأرض النيل ، تأييدا يكشف عن منشأ المطامع اليهودية ، تقول فى دعوتهم :

« خذوا أباكم وبيوتكم وتعالوا الى . فأعطيكم أرض مصر ، وتأكلوا دسم الأرض .. »

« ولا تحزن بيوتكم على أثاثكم ، لأن خيرات جميع أرض مصر لكم » . ولم تهمل التوراة فى هذه المرحلة أيضا أن تؤكد أن هجرة المجاهدين الجائعين الى مصر ، ليست الا سبيلا للقوة ، وتحقيق مؤامرة على حساب الأرض التى تستضيفهم ، قالت توراتهم :

« .. فكلم الله اسرائيل فى رؤى الليل ، وقال : يعقوب . يعقوب . فقال ها أنذا .

فقال أنا الله إله أبيك ، لاتخف من النزول إلى مصر ، لأنى أجعلك أمة عظيمة هناك .

أنا أنزل معك الى مصر . وأنا أصعدك أيضا » .

هذه هى الأوهام القديمة التى تضمنتها التوراة ، والتى سارت مع اليهود فى كل مكان بعثرتهم فيه الأحداث المتعاقبة ، خلال ثلاثين قرنا أو تزيد .

أمنياتهم كانت : أرض مصر .. وأرض الفرات ..
هذه القبيلة التي سوف يزيد عددها على تراب الأرض ورمال الشاطئ
جميعا .

كم كان عدد هؤلاء اليهود الذين استضافتهم مصر ، وكانوا نواة أحلام
وأحداث كثيرة فيما بعد .. انهم سبعون ، ومنهم يوسف وابناه منسى وفرايم .
وقد علمهم يوسف ما يقولون لفرعون ، لأنه كان يعلم عادات المصريين جيدا ،
ويريد لقومه أن يسكنوا بعيدا عن مدن المصريين لا يخالطونهم .. قال لهم :
« اذا دعاكم فرعون وقال ما صناعتكم ؟ أن تقولوا : عبيدك أهل رعى منذ
صبانا ، والى الآن نحن وأباؤنا جميعا . لكى تسكنوا فى أرض جاسان لأن كل
راعى غنم رجس للمصريين » .

ولم تنس التوراة خطة العمل التي تركها اسرائيل لمن يجىء بعده ، فقد قال
لهم وهو على فراش الموت :

« الله ظهر لى فى لوز - فى أرض كنعان - وباركنى : وقال لى : هاأنا أجعلك
مثمرا ، وأكثرك ، وأجعلك جمهورا من الأمم ، وأعطى نسلك هذه الأرض من
بعدك أبديا » .

عاش يوسف فى مصر على حساب التوراة ٩٣ سنة ، لأنه مات وسنه مائة
وعشرة أعوام ، ورأى الجيل الثالث من أحفاده . وقد أوصى أن يدفن فى مداخل
آبائه ، فحفظه المصريون وأودعوه فى تابوت .

من يوسف الى موسى :

تقول التوراة ان المصريين لايقدرن أن يأكلوا طعاما مع العبرانيين ، لأنه
رجس عند المصريين (سفر التكوين اصحاح ٤٢) . وكان يوسف قد أوصى
أسرته أن يقولوا انهم رعاة غنم ، حتى لا يختلط بهم المصريون ، لأنهم لا يحبون
رائحة الرعاة .. وهكذا عاشت الأسرة الاسرائيلية الاولى على هامش الحياة ، فى
مزارع الشرقية مع أغنامها .

ولكننا نجد التوراة تقول فجأة فى سفر الخروج ، الاصحاح الاول :
« ثم قام ملك جديد فى مصر لم يكن يعرف يوسف . فقال لشعبه هوذا بنو
اسرائيل شعب أكثر وأعظم منا .. »

وهذا بطبيعة الحال كلام غريب . فواضح من هذا النص أن يوسف كان
حيا ، والرواية تروى . وواضح أيضا من نص آخر فى التوراة ان أسرة يعقوب

التي قدمت كانت ٦٧ فردا وأبوهم الشيخ ، يضاف اليهم ابنان ليوسف انجبهما من إحدى المصريين . ومهما بالغنا في تناسل هذه المجموعة بتزاوج بعضها من بعض ، فان تعدادها لن يزيد خلال فترة تقل عن قرن زيادة تجعل المصريين يرونهم أكثر منهم .. وأيضا أعظم .. ان هذه الحفنة القليلة من اليهود التي أوتها مصر ، وحفظت عليها حياتها من مجاعة نزلت بها في فلسطين بلغ بها سوء تقديرها ، الى هذا الحد من التفاهة ، حتى تحشر في توراتها مثل هذه الأقوال . ان ما نتحدث عنه التوراة بعد ذلك عن حياة الإسرائيليين في مصر يتلخص في أمور :

١ - فرض المصريون على الاسرائيليين رؤساء يضطرونهم للعمل القاسى في عمليات البناء ، ويسومونهم الاذلال .

٢ - أحس الاسرائيليون بالخذلة ، وهم الذين تعودوا على حياة الرعى ولم يباشروا ما تتطلبه حياة المدن من عمل . فلما أكرهوا على العمل وصفوا حياتهم الجديدة ، أنها كانت حياة عبودية مرة قاسية « في الطين واللبن (الطوب) وفي كل عمل في الحقل » .

٣ - كان مع القبيلة الاسرائيلية (قابلتان) تقومان بتوليد نساء القبيلة اذا جاء وقت الوضع . وقد أمرهما ملك مصر أن يهلكا الذكور من الأطفال ويتركوا النساء . ولكنهما خالفا الأمر « ونما الشعب وكثر جدا » . فأمر فرعون أن يطرح الأبناء في النهر ويترك البنات ومن هنا تبدأ قصة موسى .. وهكذا طوت التوراة حياة اليهود في مصر ضمن سطور قليلة لاتزيد على صفحة ، مع أن اقامتهم فيها ، حتى ولد موسى بلغت ثلاثة قرون ونصف قرن . وحدثت أثناءها حرب تحرير عظيمة شنها المصريون ضد الغزاة الهكسوس .

كانت معركة طرد هؤلاء الغزاة شاقة وعنيفة بدأت من الصعيد الأوسط حتى منف ، ثم من منف الى هوراس عاصمة الهكسوس . وتولى معركة التحرير ثلاثة أبطال (١) كان أحدهم أحمس الأول أو أحموس كما تكتبه بعض المراجع . ولم تقف آخر معارك التحرير عند حدود مصر بل امتدت الى جنوب فلسطين حيث حاصر المصريون آخر معاقل الهكسوس هناك ثلاثة أعوام أو أكثر الى أن استسلمت ، وتفرق شمل هذه الجماعة القادمة في أرجح الأقوال من سوريا .

(١) البطل الأول لمعركة التحرير هو «سقن رع» ثم «ابناء كاموس» و«بليه» «احموس» .

دارت هذه المعارك الكبرى ، واليهود ، منزون على هامش الحياة المصرية على حدود مدن الشرقية ، وكانت بحيرة المنزلة ممتدة وقتها جنوبا ، كما سنرى في قصة الخروج .

أسس أحمس الأسرة الثامنة عشرة ، وعاد مجد طيبة (الأقصر) كأشهر مدائن الشرق الأوسط وعاصمته الكبرى . وخلفه عهده كثيرا من النقوش والبرديات ، لم نجد فيها ، ولا فيما تلاها أى ذكر لليهود الاسرائيليين الذين لم يكونوا شيئا مذكورا في حساب الدولة الجديدة .

وكما هى العادة ، فان اسم بطل من الأبطال كان يتسمى به المولودون الجدد ، فإننا نجد كثيرا من أركان الدولة ، ومن دونت أسماءهم يحملون نفس الاسم ، ولهم ذكر وأثر مرموق في ادارة مرافق البلاد .

واستمر حكم « أحمس الأول » من سنة ١٥٨٠ ق . م الى سنة ١٥٥٨ ق . م (١) وتلاه في الحكم امنحتب الاول ثم تحتمس الأول .

وكان طبيعيا أن يتجه نظر حكام مصر الى شرقى آسيا ، حيث جاءتهم من أرضها غارة - الهكسوس ، فيؤمنوها ، ويقضوا على أى خطر يمكن أن يأتى منها .

وقد قاد تحتمس الأول جيوش مصر ، وحطم حلفا عسكريا كان حكام العراق قد عقدوه مع بقايا الهكسوس ، وساق أمراءهم أسرى الى مصر مع غنائم كثيرة . وبلغت مصر وقتها ذروة عالية في الاستقرار ، وبنى الكرنك في أيامه .

وترك مهندس ذلك الأثر التاريخى الرائع « انينى » وصفا لهذا المعيد بعد بنائه فهو يضم (٢) بهو العمد الفاخر والعمد كانت على هيئة جذور البردى ، وعند المدخل أقام المهندس برجين عظيمين ، تخفق فوقهما الأعلام . وقد نصبت قوائمه من أخشاب لبنان وكان باب المعبد موشى بالذهب ومصراعا من نحاس قبرص . وأما رب الدار فقد سبكت صورته على الباب وكانت من الذهب الخالص . وأحضرت من أسوان مسلتان قطعتا من حجر الجرانيت الوردى ، ونقلتا إلى الأقصر على سفينة طولها ١٢٠ ذراعا وعرضها أربعون ذراعاً . وإلى الجانب الغربى من طيبة حفرت بركة ماء تحف بها الأشجار الباسقة .

(١) بعض المراجع تجعل حكم احمس الاول يبدأ من سنة ١٥٧٣ ق . م وينتهى سنة ١٥٦٠ ق . م .

(٢) موكب الشمس للدكتور احمد بدوى ص ٣٩٧ ج٢ .

وقد ذكرنا هذا الوصف القديم ، لنبين حالة الرخاء التي عاشت فيها مصر بعد أن خلصت من أيام الهكسوس السوداء ، وإن كانوا لم يصلوا إلى الصعيد الأعلى . ولم يكن رخاء مصر راجعا إلى خصب تربتها وجد أهلها على شاطئ النيل . بل امتد نفوذها وتجاريتها إلى السودان والحبشة والصومال واليمن جنوبا وليبيا غربا وسوريا الكبرى وبلاد الرافدين شرقا ، وإلى جزر البحر المتوسط وبلاد اليونان .

حتى هنا ، لانجد في تاريخ هذه الفترة ذكرا للإسرائيليين ، ولا وجودا وكما صممت توراتهم عن الاشارة إلى حياتهم على حافة الدلتا الشرقية ، كذلك أهملتهم آثار الفراعنة إهمالا تاما ، مما يقطع بأنهم لم يكونوا في حساب التكوين الحضارى لهذه البلاد ، أكثر من رعاة غنم يجبرون في المدن القريبة منهم على بعض أعمال التعمير . وكان واضحا كل الوضوح - أيضا - أن صلتهم بفلسطين لم تكن موجودة ، وإلا لورد لهم ذكر - أى ذكر - في حروب الاستقرار التي شنتها مصر شرقا . لقد نسوا أولاد عمومتهم في مدين والحجاز والأرض الفلسطينية ، ولو أن أوامر ود وقرابة ، أو علاقة رحلة وتجارة ، عقدت بين هؤلاء اليعاقبة الإسرائيليين والقبائل الأخرى من سلالة ابراهيم لوضح ذلك في خطط مسيرتهم لمصر ، كما سنفضله بعد حين .

موسى - الكليم :

بوفاة تحتمس الأول ، حدث اضطراب في ولاية الملك من بعده . فهو لم ينجب من زوجه الشرعية غير ابنة هي « حتشبسوت » . كما كان له ابن من احدى الجوارى اسماه « تحتمس » على اسمه . وكانت الأميرة على قدر كبير من الجمال والطموح ، وتطلعت إلى عرش أبيها ، وحاكت حول مولدها قصصا سجلتها على الآثار ، ومؤداها أن لها أبيا ثانيا هو الإله آمون نفسه ! وحتى تقضى على المعارضة في ولايتها العرش ، فقد تزوجت أخاها غير الشقيق ، وحمل لقب تحتمس الثانى . وجلسا معا على العرش ، ثم أنجبت بنتا ، تزوجت أميرا هو الذى أصبح فيما بعد أشهر فراعنة مصر تحت اسم تحتمس الثالث .

وفي هذه الفترة الحافلة بالاطماع كانت حتشبسوت تشترك في الحكم مع أخيها . ثم تقصيه وتستقل بأمر البلاد مؤيدة من رجال الدين ، فهي من نسل

أمون ، ثم تحكم بوصفها وصية على زوج ابنتها(١) وقد دام استقلالها الكامل بالحكم ثلاثة عشر عاما ، وظلت وصية على تحتمس الصغير (الثالث) سبع سنوات . وحتى تملأ الملكة أعين المصريين ، فقد ارتدت زى الرجال . وعاشت مصر في عهد هذه الملكة في رخاء كبير .. يروى برستد في تاريخه المصرى ما يأتى : لما أوشكت الملكة حتشبسوت أن تتم ثلاثين سنة منذ اعلان جلوسها على العرش ، أقامت لذلك احتفالا عظيما ، ويظن أنها أمرت بنصب المسلات كالعادة في مثل هذه الأفراح .

وقد قالت ما ترجمته : « أتذكر انى جلست يوما بالقصر ، وفكرى يجيش بتأملات خالقي فأوحى إلى قلبى أن أشيد لخالقى مسلتين من خليط الذهب والفضة يبلغان عنان السماء » .

واستغرق قطع المسلتين سبعة أشهر من محاجر الجرانيت في أسوان ، وبعد هبوط الفيضان في شهر أغسطس قامت سفن مجهزة خصيصا لهذه المهمة بنقل المسلتين يحملهما ماء النيل برفق حتى طيبة . واقتضى الأمر اجراء تعديلات في مبانى الكرنك حتى تمت اقامة المسلتين . وكانتا مكسوتين بخليط من الذهب والفضة ، وكان يمكن مشاهدة القمتين من شاطئ النيل ، وكانت الأشعة تنعكس منهما وقت شروق الشمس في أبهة وجلال . وكانت حتشبسوت فخورة جدا بالمسلتين ، حتى انها أقسمت في نقوش الآثار بأنهما نحتتا من حجر واحد (٩٧ قدما ارتفاعا ووزنا ٣٥٠ طنا للواحدة منهما . وقد شيدت الملكة مسلات أخرى ولكنها تلفت . ويبدو أن (مودة) بناء الأهرام قد انتهت في عهد الأسرة الثامنة عشرة . إذ ظهر أنها عملية مكلفة جدا ، ومع ذلك لم تكن تقى سكانها من السرقة .

وقد كان نقل أول مسلة مصرية الى أوروبا في القرن الماضى عملية من أعجب المعجزات الحديثة ، وكتب عن ذلك المؤلفون « زفايج مثلا » فصولا ضافية ، وكان ينبغى أن يشاد بالعقل المصرى الذى نقل مسلات هذه الملكة على سفينة نيلية عظيمة تجرها ثلاثون سفينة شراعية ويقوم بالمهمة ١٦٠ بحارا كما ورد في الرسوم والنقوش المسجلة عن هذه العملية .

وامتدت عمليات التعمير من أقصى الصعيد الى مناجم ومعابد سيناء ، حتى مدينة رعمسيس التى أجبر اليهود على العمل فى بنائها ، كانت من بين ما تناوله

(١) كان هذا الأمير ابن زوج الملكة حتشبسوت من زوج اخرى . وكان اسم الاميرة « نفرو رع » ، ونفر معناها جميلة .

التعمير ، وبذا زالت بصمات العهد الهكسوسى من مصر كلها ، وذلك تحت سماع اليهود وبصرهم . وربما مواصلة ارغامهم على العمل مع أهل البلاد ، بتحطيم حصار العزلة الذى فرضوه على أنفسهم ، ربما لأسباب دينية حتى لا يشاركوا فى تمجيد معبودات أخرى ، وربما كراهية منهم للعمل اليدوى ، وربما للأميرين معا .

وبنت حتشبسوت معبدها العظيم فى الدير البحرى وزينته أبدع زينة ، واستقدمت له الأخشاب وحيوان الغاب ، وأنواعا غريبة من الأشجار وكميات من الذهب ، وذلك فى بعثة بحرية ضخمة من خمسين سفينة سافرت الى بلاد « بنط » أو بلاد البخور ، وما هى الا الصومال الحالية . ومن وراء المعبد حفرت نفقا طوله حوالى ٧٠٠ قدم ، وكان عميقا غائرا فى الصخر (١٠٠ متر تقريبا) ، وذلك لينتهى تحت المعبد ، وعند مقبرتها تماما ، التى تتجه نحو مطلع الشمس (لم يعثر على رفاتها حتى الآن مع ان رفات كل الذين اتصلت بهم وجدت ، ونقلت الى متحف القاهرة) .

وهنا تبدأ قصة سيدنا موسى .
ولنبداها من مصادرها الدينية .

تبدأ القصة فى التوراة بمذبحة الأطفال على أيدي أحد الفراعنة .. أطفال اليهود بالذات : « وذهب رجل من بيت لاوى (ليفى) ، وأخذ بنت لاوى ، فحبلت المرأة وولدت ابنا ، ولما رآته أنه حسن خبأته ثلاثة أشهر . ولما لم يمكنها أن تخبئه بعد ، أخذت له سफطا من البردى ، وطلته بالحرر والزفت ، ووضعت الولد فيه ، ووضعت بين الحلفاء على حافة النهر ووقفت أخته من بعيد لتعرف ماذا يفعل به ، فنزلت ابنة فرعون الى النهر لتغتسل ، وكانت جواربها ماشيات على جانب النهر ، فرأت السفط بين الحلفاء ، فأرسلت أمتها وأخذتها ، ولما فتحت رأت الولد ، وإذا هو صبى يبكى . فرقت له ، وقالت هذا من أولاد العبرانيين فقالت أخته لابنة فرعون ، هل أذهب وأدعوك امرأة مرضعة من العبرانيات لترضعه لك فقالت لها ابنة فرعون اذهبى . فذهبت الفتاة ودعت أم الولد ، فقالت لها ابنة فرعون اذهبى بهذا الولد ، وأرضعيه لى ، وأنا أعطيك أجرتك فأخذت المرأة الولد ، وأرضعته . ولما كبر الولد جاءت به الى ابنة فرعون ، فصار لها ابنا ، ودعت اسمه موسى ، وقالت انى انتشلته من الماء » ..

أما القرآن ، فقد أورد في سورة القصص قصة موسى على النحو الآتى :
« نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . ان فرعون علا في
الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى
نساءهم انه كان من المفسدين . ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض
ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان
وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون . وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت
عليه فألقيه في اليوم ولا تخافي ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين .
فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ان فرعون وهامان وجنودهما كانوا
خاطئين . وقالت امرأة فرعون قرت عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه
ولدا وهم لا يشعرون . وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدي به لولا أن
ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين . وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب
وهم لا يشعرون . وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت
يكفلونه لكم وهم له ناصحون . فرددناه الى أمه كى تقر عينها ولا تحزن ولتعلم
ان وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعملون . ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما
وعلما وكذلك نجزي المحسنين » .

والآن نلقى نظرة على المصادر التاريخية غير الدينية . وأولها المؤرخ
اليهودى يوسيفوس الذى تحدثنا عنه من قبل . لقد ألقى أول ضوء على « بنت
فرعون » التى ورد في المراجع الدينية أنها التقطت موسى ، وأعطته اسمه ،
وربته . فقد قال ان اسمها « تحرموتيس » وهو مجرد تحريف لاسم تحتمس .
فقد ذكر قصة تربيته في بيت فرعون وأنه أصبح من ضباط الحرس الفرعونى ،
وأنه قاد حملة عسكرية إلى السودان ، وأنه أحضر أمير السودانين أسيرا من
ملتى النيلين الأبيض والأزرق (الخرطوم) وكان اسمه « مروى » .
واسم موسى ، كان اسما مصرياً شائعاً ، كما هو ، أو تحريف لاسم
« أحموسى » ، وهو النطق الهيروغليفى لاسم أحمس . وقد ورد في التوراة أنه
تعلم « حكمة » المصريين . وغنى عن البيان أن من تربي في قصر فرعون ، لابد
أن يتلقى علم الأمراء على أيدي علماء وكهان ثقات ، هم خلاصة الفكر المصرى .
وكانت مصر وقتها قمة من قمم العرفان والتقدم العلمى . وقد قدمنا بيانا عن
ملاح هذه الحكمة قبل عصر الأسرة الثامنة عشرة الفرعونية ، ومن ابتداء عصر
الأسرات الحاكمة الموحدة لمصر . وقد نمت هذه « الحكمة » مع تقدم الزمن ، ولم

يفنها توالى القرون ، لأن « الحكمة » كانت تحفر معالمها وأفكارها على الحجر ، وكل جيل يأتى يستوعبها ، ثم ينميها حسب سنة التقدم .

ويبدو أن أصل موسى ، وانتماءه الى القبيلة الإسرائيلية لم يكن خافيا على أمراء البيت المالك ، فضلا عن الأميرة حتشبسوت ، التي أصبحت ملكة الوادى . ففي القرآن الكريم إشارة واضحة إلى هذا المعنى ، إذ خاطب فرعون الخروج ، الذى سنذكر اسمه فيما بعد .. خاطب موسى قائلاً فى سورة الشعراء :

« قال ألم نريك فينا وليدا ، ولبثت فينا من عمرك سنين » .. !

وإذا صح ما ذكره المؤرخ اليهودى القديم ، من انه عمل فى الحرس الإمبراطورى ، وهو أمر غير مستبعد ، فإن موسى كان متحيزا لقومه بطبيعة الحال ، وما ان شهد مشاجرة بين يهودى ومصرى ، إذا به ينحاز لليهودى ، وإذا المصرى يقع ميتا . فيخاف موسى ، ويفر من مصر عبر الحدود ، مخترقا سيناء ، خشية القصاص .

وتروى التوراة هذه الواقعة بطريقتها ، فتقول : إن موسى بعد أن قتل المصرى فى هذه المشاجرة دفنه ، وأخفى أثر فعلته . وفى مناقشة حادة مع أحد اليهود فى وقت تال ، قال له اليهودى : « أمفتكر أنت بقتلى كما قتلت المصرى ! » فخاف موسى أن يشى به قومه ، بل لقد فعلوا ، حتى وصل الأمر إلى الحكومة وطلبته للقصاص ، فهرب إلى أرض مدين التى تقع شمال الحجاز ، إلى الشرق من خليج العقبة .

وكان عمر موسى حين هرب من مصر ، أربعين سنة ، وكانت مدة اقامته فى منفاه أربعين سنة أخرى .. وكانت الملكة التى ربت موسى ، وحمته قد ماتت ، وانقرض بالحكم زوج ابنتها وخصمها تحتمس الثالث ، ومن المرجح أن هذا الملك الجديد لم يكن مرتاحا لمواقف اليهود منه ، فى صراعه على الحكم ضد الملكة حتشبسوت ، تشيحا لربيها وابنها بالتبنى موسى .

ولم تتحدث التوراة عن الملكة فى تلك الفترة ولكن تحدثت عن ملك حمى اليهود ، وجاء خلف له سام اليهود سوء العذاب أو كما تقول التوراة : « وتنهذ بنو اسرائيل من العبودية وصرخوا » .

وكانت وفاة حتشبسوت عام ١٤٨٥ ق . م

وبعد ست سنوات من انفراد تحتمس الثالث بالحكم وقع الى الشمال من أرض مدين ، وعلى أرض فلسطين أكبر صراع حربى فى تاريخ هذه المنطقة .. فقد تكشف تحتمس الثالث ، عن عبقرية حربية لا تدانى وعن شجاعة قلب

نادرة المثال ، رفعته الى مقام أعظم قواد الحروب على مر التاريخ كله . وقد اقترن اسمه بموقعة « مجدو » .

مجدو :

كان الحكم المشترك بين حتشبسوت وأخيها ، ثم مع زوج بنتها ، صارفا نظر مصر عن الجبهة الشرقية ، وقد أدرك أمراء غرب الفرات أن مصر في شغل عنهم ، وكان الهكسوس بعد أن أوقع بهم تحتمس الأول ضربة أليمة في معقلهم « بشاروهين » جنوبي فلسطين قد تفرقوا في الشمال يدبرون الفتن ، ويحرضون الأمراء . وكان أمير قادش قد أحس من نفسه قوة ودانت له زعامة الامارات السورية والعراقية .. وانضمت له مملكة « ميتانى » في شرقى الفرات مع من أزره من الامارات .

وكان لابد لمصر أن تتحرك ، فحشد تحتمس الثالث جيشاً حسن التدريب وافر العدد ، وتحرك لمنازلة المتمردين . وكان أمير قادش قد اتخذ من (مجدو) معسكرا له ، وهذا الموقع الذى يكاد يكون في منتصف المسافة بين القدس ودمشق ، يمكن الوصول اليه من ثلاثة طرق ، اثنان منهم صالحان لتحريك الجنود وعدة الحرب ، والثالث جبلى وعر شديد المخاطر ، ولكنه أقصر الطرق . وحسب أمير قادش أن تحتمس الثالث سوف يسلك أى الطريقين الصالحين فاذا بالخطة المصرية تخيب ظنه ، ففى مسالك جبال الكرمل الوعرة غير المحروسة كان تحتمس الثالث وجنوده يتحركون كالنمور فى خفة ويقظة وسكون ، ويجتازون « وادى عرة » وكان الملك على رأس قواته ، حتى أشرف على مدينة « مجدو » ، وأعطى جنوده وقتا قصيرا للراحة (١) وفى حركة كماشة انتشر الجيش المصرى فى السهل الفسيح المزروع ، وفى هجوم خاطف صاعق ، كان جنوده يطلقون صيحات هائلة تزلزل كيان العدو ، وفرعون على رأس عجلته يندفع ، ويضرب فى أقفية الأمراء الآسيويين وقواتهم ، وجاولوا الاستتار وراء الأسوار .. أسوار مجدو ، ووصفت النقوش أن جثث الأعداء كانت منتشرة على الأرض كالسمك ، ولم تكن المدينة مستعدة لحصار طويل ، ان منع عنها الحصار أقواتها ، وارتفعت رايات الاستسلام ، وأقبل الأمراء والقواد المتمردين تحنى رؤوسهم المذلة وسيقوا فى الأسر الى مصر مع أسرهم ومجتويات قصورهم ، وعدة حربيهم ،

(١) فى سنة ١٩١٨ بعد الميلاد اتخذ قائد جيوش الحلفاء ضد الاتراك فى جبهة سوريا نفس الطريق الذى سار فيه تحتمس الثالث ، وهكذا أفادت دراسة التاريخ فى معركة من معارك التاريخ الحديثة .

وكانت تشمل آلاف الخيل والعربات ، وأكدا سا من السلاح . وما أكثر التحف والطرف التي وقعت غنيمة في يد الجيش المنتصر .. وقد أمرتحتمس الثالث بأن يحصد قمح المزارع في السهل الفسيح ويحمل الى سفن الأسطول الراسية على شاطئ البحر ، وأن تساق آلاف الماشية ميرة لجيشه .

وكان انتصار مصر الساحق في مجدو أشبه بزلزال هز الجبهة الآسيوية كلها ، فسارع ملك أشور بإرسال الهدايا ، وفرضت الجزية ، على الامارات المتمردة ، وعين لها فرعون حكاما من أهلها ، يثق فيهم ، ويقومون بإرسال الخراج الى مصر ، ويؤمنون هذه الجبهة ، وأخذ أبناء هؤلاء الأمراء الجدد معه ، ليتعلموا في معاهد طبية ومنف واهناسيا وغيرها ، ليكونوا بعد أن يشبوا عامل توحيد بين بلادهم الأصلية ومصر .

وقد وصف تحتمس الثالث نصره هذا ، واستيلاءه على مدينة مجدو وكأنه استولى على ألف مدينة . ولكن اتضح من الآثار أيضا أنه عامل أهل المدينة المنهزمة بسماحة نفس ، فقد ورد في يومياته عن هذه المعركة قوله مخاطبا رؤساءهم : « لقد سمحت لكم أن تبقىوا أحياء .. » .

وتوالى رحلات تحتمس الثالث المسلحة في الجبهة الآسيوية ، واستولى على الساحل الفينيقي كله ، حتى تتمكن جيوشه من السفر بحرا . وفي الرحلة الثامنة تمكن من الاستيلاء على ما تبقى من امارة قادش ، واجتاز نهر الفرات الى دولة ميتانى . ومن طرائف غزوته هذه أن قطيعا من الفيلة الوحشية بلغ ١٢٠ فيلا ، اعترض طريق تحتمس الثالث ، وكان أحدها يفتك بالملك لولا شجاعة أحد حراسه الذي قطع خرطوم الفيل . وقد دون على آثاره أسماء ٢٦٧ مدينة استولى عليها . ووصلت رحلاته العسكرية الى الجبهة الشرقية الى ١٧ رحلة ، ودام حكمه ٥٤ سنة .

فرعون الخروج :

ان عملية الحساب التي حققت تدمير أريحا عام ١٤٠٠ ق . م هي التي حددت فرعون الخروج ، فاذا هو أمنحتب الثانى ابن تحتمس الثالث . وكان أمنحتب الثانى قد ورث من أبيه حبه للحرب ، ومتابعة الغزو ، ولكن يبدو أنه كان شديد القسوة ، لاتعرف الرحمة قلبه . وقد روت آثاره أنه في عودته من غزو المناطق الشمالية - سوريا وميتانى - أحضر معه سبعة من الأمراء-

أسرى ، وما أن اقتربت سفينته من طيبة عاصمة الملك حتى ربط الأمراء
المساكين من أرجلهم في مقدمة سفينته الملكية « وأمام الحشود العظيمة التي
اجتمعت على الشاطئ لتحيته ذبح ستة من هؤلاء الأمراء ، ثم أمر بجثثهم أن
تحمل وتصلب على جدران طيبة » !!

ويقول « برستد » : إنه مات سنة ١٤٢٠ ق . م وتقول المراجع الأخرى :
إنه مات سنة ١٤٤٧ ق . م .. وتحدد تواريخ التوراة (مستندة الى مذبحه
أريحا التي ستأتى) أن خروج اليهود كان سنة ١٤٤٠ ق . م وهذا الفارق
الصغير فى عدد السنين يجعل فرعون الخروج هو أمنحتب الثانى أو ابنه
تحتمس الرابع (يقول برستد انه توفى عام ١٤١١ ق . م) .. وأيا كان هذا
الفرعون ، فقد وجدت جثث تحتمس الثالث ، وابنه أمنحتب الثانى ، وحفيده
تحتمس الرابع ، وكلها محنطة وأسماء أصحابها مدونة معها .
وتقول آثار تحتمس الرابع انه استقدم عددا كبيرا من الأسرى من أهل
فلسطين ، للعمل فى بناء معبده بالعاصمة طيبة (الأقصر) .

وقبل أن نقف مرة أخرى على قصة الخروج ، نعود الى موسى بن عمران ،
الذى تسميه التوراة موسى بن ليفى أو لاوى .. فقد تركناه قبل حين فى أرض
مدين . ونجده الآن عند بئر تزامح عليها الرعاة ، ومنعوا سبع فتيات هن بنات
كاهن المنطقة من السقيا ، فعاونهن على ملء الجرار ، وارواء قطع غنم كان
معهن .. ورحن يتحدثن الى أبيهن عن رجل مصرى أدى لهن هذه المساعدة .
فأرسل يدعوهُ الى طعام والى سكن ، لأنه غريب عن الأرض . وتمضى التوراة
فتقول ان موسى تزوج « صفورة » ابنة الكاهن وانه أنجب منها ابنا اسمه
« جرشوم » أى المولود فى أرض غريبة .. ونحن لانكاد نعثر لهذا الابن على أثر
بعد ذلك .

أما القرآن فقد روى قصة زواج موسى فى أرض مدين على النحو الآتى :
« ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهدينى سواء السبيل . ولما ورد
ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال
ما خطبكما قالتا لانسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير . فسقى لهما ثم
تولى الى الظل فقال رب انى لما أنزلت الى من خير فقير . فجاءته احدهما تمشى
على استحياء قالت ان أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فلما جاءه وقص
عليه القصص قال لاتخف نجوت من القوم الظالمين . قالت احدهما يا أبت

استتجره ان خير من استتجرت القوى الأمين . قال انى أريد أن أنكحك احدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج فان اتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدنى ان شاء الله من الصالحين . قال ذلك بينى وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على والله على ما نقول وكيل « (سورة القصص) .

وفي نهاية السنوات العشر ، أصبح موسى فى حل من عمله لدى شيخ مدين ، فأخذ أسرته ورحل .. وهنا يحيط الضباب بثلاثين سنة أخرى قضاهها موسى فى هذه الأنحاء قبل أن تأتيه النبوة ويكر عائدا الى مصر ، لتبليغ رسالة ربه . إلا أن القرآن يلقى ضوءا على أحداث وقعت فى هذه الفترة ووردت فى سورة الكهف . فقد مضى موسى وفتاه الى مكان وصف بأنه « مجمع البحرين » وربما كان الموقع الذى يلتقى فيه خليج العقبة بخليج السويس عند الرأس الجنوبى لشبه جزيرة سيناء ، أو عند الموقع الذى نسميه الآن شرم الشيخ .. وأيا كان المكان ، فان موسى ساحل عنده ، حتى وجد « عبدا من عبادنا آتيناها رحمة من عندنا ، وعلمناه من لدنا علما » .

وأدرك موسى أن هذا الشيخ الصالح ، الذى تسميه المصادر الاسلامية الخضر ، على شىء كثير من نقاء السريرة ، وتفتح البصيرة ، واشتاق موسى الى أن يتلقى عن هذا الشيخ بعض علمه .

وقد وصف القرآن علم « الخضر » بأن وصل الى مرتبة الرشد ، وهى أعلى مراتب العرفان فهو علم الهى ، يكشف لمن اختصهم الله عن بعض أسرار الكون ، التى يعز على المنطق العادى للناس أن يدركها ، لأن مقاييسه ، انما تقوم على الرؤية ، وما يمكن للحواس الخمس أن تحصله .. ولكن هناك مرحلة وراء هذه المقاييس ، هى التى تسير ، وهى التى تدبر ، وعندها علم الله . ان هذا الشاعر الذى صاح متعجبا من القسمة بين الناس فى حاسة النظر مثلا : هذا أعمى (لا يرى) ، وهذا أعشى (ضعيف النظر) وهذه زرقاء اليمامة (التى ترى على بعد ثلاثة أيام !!) .. لماذا ؟ لأن هناك أسرارا لانعياها ، فيها ارادة الله .

هذا هو الدرس العظيم الذى بدأ يتدرب موسى على تلقيه ، لكى يتأهب لموقف جليل فى مقبل الأيام .

ويبدأ هذا التدريب النفسى بحوار جرىء بدأه موسى على النحو الآتى :
- قال : انك لن تستطيع معى صبرا ، وكيف تصبر على ما لم تحط به
خبرا !

- قال : ستجدنى ان شاء الله صابرا ، ولا أعصى لك أمرا .
- قال : فان اتبعتنى ، فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا .
- فانطلقا ، حتى اذا ركبا فى السفينة ، خرقتها ، قال : أخرقتها لتغرق
أهلها - لقد جئت شيئا امرا .

- قال : ألم أقل انك لن تستطيع معى صبرا ؟
- قال : لا تؤاخذنى بما نسيت ، ولا ترهقنى من أمرى عسرا .
وتمضى هذه التجربة الفريدة فى حياة موسى وقتا طويلا ، فى رحلة أرضية .
ورحلة روحية ، انهزم فيها كل منطق تعلمه موسى من حكمة المصريين التى عاش
فى كنفها أربعين سنة ، وحكمة كاهن مدين الذى عاش معه عشر سنين .. ان
روحانيات مدين ، وروحانيات مصر ، ليست بشىء الى جانب ما وصل إليه هذا
الشيخ الجليل « الخضر » من عرفان ورشد .

وبعد ان تتابعت الأحداث ، على مثال الحادث الذى ذكرناه ، اذن الله أن
يفرج كرب موسى ، ويحل عنه عقدة الدهشة التى تملكته ، ويأذن لمعلمه أن يفسر
له ما غمض من دروسه .

ولنضرب مثلا بتفسير قصة السفينة التى بدأت بها التجربة ، فقد كان من
أمرها ما يأتى :
« أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر ، فأردت أن أعيبها . وكان
وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا . »

وهكذا كشف الله بصيرة الخضر عما يمكن أن يحدث لأصحاب السفينة
المساكين اذا مضت فى رحلتها ، فسيلقاها على شاطئء بعيد ملك جبار ، يفتصب
سفائن الناس ، وأصحاب هذه السفينة كانوا يرتزقون منها . وعندما عطلها
الخضر ، فقد حماها من أن يستولى عليها . حتى اذا مضى وقت يصلح فيه
أصحابها ما أعطبه الخضر ، وتعود لهم أرزاقهم منها كما كانت .
ويختم الخضر صحبته لموسى بعد أن فسر له كل ما غمض عليه خلال هذه
الصحبة ، التى علم الله كم طالت .. ويقول له :
« وما فعلته عن أمرى ، ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا . »

وهكذا تآهب موسى ليبلغ ما يأمره الله به .. وسار في صحراء سيناء وجبالها من جنوبها إلى شمالها . وبينما هو عند جبل الطور ، تلقى وحى السماء على الصورة التي وصفها القرآن الكريم بقوله :

« فلما قضى موسى الأجل ، وسار بأهله ، أنس من جانب الطور نارا ، قال لأهله امكثوا ، إني أنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر ، أو جذوة من النار لعلكم تصطلون »

« فلما آتاها ، نودى من شاطيء الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة ، أن ياموسى انى أنا الله رب العالمين »

« وان ألق عصاك ، فما رآها تهتز كأنها جان ، ولى مدبرا ولم يعقب ، ياموسى أقبل ولا تخف ، انك من الآمنين »

« اسلك يدك فى جيبك ، تخرج بيضاء من غير سوء ، واضمم اليك جناحك من الريب ، فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه ، انهم كانوا قوما فاسقين »

« قال رب انى قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون » .

« وأخى هارون هو أفصح منى لسانا ، فأرسله معى رداء يصدقنى إنى أخاف أن يكذبون »

« قال سنشد عضدك بأخيك ، ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون اليكما بآياتنا ، انتما ومن اتبعكما الغالبون » (القصص ٢٩ - ٣٥)

وقد روت التوراة قصة الرسالة التى أمر الله بها موسى على نحو آخر فان الجبل الذى وقف عنده موسى هو جبل « حوريب » ، حيث كانت الشجرة والنار التى لا تحرق . ثم سمع الصوت الالهى ، والذى سمع صراخ الاسرائيليين فى مصر ، وأنه منقذهم وأخذهم إلى « أرض تفيض لبنا وعسلا . إلى مكان الكنعانيين ، والحيثيين ، والاموريين ، والفريزيين ، والحويين ، واليبوسيين » : وأخبره الصوت ان اسم الهه من الآن هو « يهوه » . ورسم له طريقة إخبار شيوخ بنى اسرائيل فى مصر بمهمته ، والمعجزات التى زود بها موسى . ومضت التوراة تقول :

« فقال موسى للرب : استمع أيها السيد (!!) . لست أنا صاحب كلام منذ أمس ، ولا أول أمس ، ولا من حين كلمت عبدك . بل أنا ثقيل الفم واللسان . فقال له الرب من صنع للإنسان فما ، أو من يصنع أخرس أو أصم أو بصيرا أو أعمى . أما هو أنا الرب ؟ فالآن فاذهب وأنا أكون مع فمك وأعلمك ما تتكلم به .

فقال استمع أيها السيد : أرسل بيد من ترسل فحمى غضب الرب على موسى .. » .

وانتهى هذا الحوار بأن يكون هارون سندا وعضدا لموسى يشجعه ، ويبيد مخاوفه . وقد عادت التوراة بموسى إلى أرض مدين ليستأذن القبيلة التي عاش فيها وتزوج منها ، ثم ركب الحمير عائدا إلى مصر مع زوجه المدينية وابنه منها ، ومعه العصا المقدسة .

كلمات عن اللغة :

كان موسى عليه السلام يتكلم الهيروغليفية ، ما في ذلك شك . فقد ولد وتربى في مصر ، وعاش حتى سن الأربعين حياة مصرية خالصة . ولا نعلم إذا كان قوم موسى من الإسرائيليين ، حافظوا على اللسان الذي قدموا به ، وهم أقل من سبعين شخصا كبيرا وصغارا . ولكن لا شك أيضا في أن لغة البلاد التي عاشوا أهلها ، ولو على حدود الحضارة القائمة نفسها ، كانت لغتهم اليومية . فهذه طبيعة الأشياء والأحياء ، وسنتها .

يقول العقاد : « العبرية في نحو القرن العشرين قبل الميلاد كانت كلمة عامة تطلق على طائفة كبيرة من القبائل الرحل في صحراء الشام ، وكان من أبناء هذه القبائل من يعمل كالجنود المرتزقة هنا وهناك حسب المواقع والمناسبات . وبهذا المعنى وردت كلمة العبرى وما قاربها لفظا في أحافير تل العمارنة وفلسطين وآسيا الصغرى والعراق ، وجاء بهذا المعنى في الكتابات السماوية والفرعونية ، ولم يكن لليهود وجود في ذلك الحين . ولما وجد اليهود انتسبوا إلى إسرائيل ، كانوا هم أنفسهم يقولون عن العبرية إنها لغة كنعان . ثم انطوت العبرية في الآرامية » (١)

ويقول الدكتور فؤاد حسنين على : اللغة العبرية لم تعرف بهذا الإسم في التوراة بل جاءت تحت اسم الكنعانية أو اليهودية . وزعم العبريون أن لغتهم هي لغة التوراة واللغة التي كلم الله بها موسى .. ولكن اللغة العبرية لم تعرف قبل عام ١٠٠ ق . م والإسرائيليون لم يعرفوا باسم العبريين كشعب ، ولم يتكلموا العبرية الا بعد استيطانهم كنعان .. أما قبل ذلك ، فقد كانوا يتكلمون

(١) كتب العقاد عن ابراهيم ابو الانبياء .

لغة الشعوب المضيفة لهم . فهم في شرق الجزيرة وشمالها حيث منطقة النفوذ الارامية ، يتكلمون اللغة الارامية التي لم تكن الا لهجة عربية شمالية أو قريبة منها . والاسرائيليون في مصر كانوا ولا شك يتكلمون المصرية ، شأنهم شأن غيرهم من الأقوام التي عاشت في كنف المصريين .

وهكذا ينفي هذا الباحث عن اللغة العبرية أنها لغة مقدسة أنزلت بها الشريعة (١) إذ أنها وجدت بعد موسى بوقت قريب ، وبعد أن تم الوجود اليهودي الأول في فلسطين .

وحتى اللغة العربية التي أخذها اليهود بعد وجودهم الأول في فلسطين من اللغات المحيطة بهم ، لم تستمر لغة تخاطبهم .

يقول الأستاذ جويدى انه عندما عاد اليهود من منقاهم في بابل بعد أن اعتقهم الفرس (عام ٥٣٩ ق . م) ، شاعت عندهم اللغة الارامية حتى صارت لغتهم الى زمن المسيح ، الا ما يختص بلغة الصلاة فقد بقيت بالعبرية . فلما تفرقوا بعد ذلك في أنحاء العالم ، كانت لغة كل منهم توافق لغة البلد الذي هم فيه (٢) .

حوار مع فرعون :

كان هارون أخو موسى في مصر ، فدعاه لمقابلته في سيناء ، وأخبره بما كلفته به السماء من دعوة فرعون إلى الإيمان بإله واحد أحد ، وانه بوحى من الله سوف يصبح مساعد دعوته ، ولسانها لدى القوم . وكما ذكرنا من قبل لم تكن هناك صعوبة في التفاهم فلغة المصريين هي لغة موسى وهارون .

تقول التوراة ان موسى أخبر قومه عند وصوله إلى مكانهم في مصر ، بما اعتزمه ، ولم توضح المراجع أين كان اللقاء مع فرعون ، أو نائبه في المنطقة الشمالية .

وكلمة فرعون تعنى ما كانت تعنيه كلمة الباب العالى في العصر التركى ، أو الديوان الملكى في العهود الملكية . ولكن نصوص القرآن واضحة ، تدل على أن اللقاء كان مع ملك مصر نفسه .

(١) كتاب التوراة الهيروغليبية .

(٢) محاضرات الاستاذ جويدى في الجامعة المصرية القديمة .

وقد بدأ موسى - فيما تذكر التوراة - خطته بأن دعا اليهود إلى الاضراب عن أعمال البناء التي كان المصريون يلزمونهم بها . وهنا بدأت معركة الارادة بين جهاز الحكم في مصر ، وبين هؤلاء المسخرين من اليهود . فقد ضاعف المصريون أعباء اليهود ، وشددوا عليهم النكير . وطلب موسى من فرعون أن يرسل قومه إلى البرية ، على مسيرة ثلاثة أيام من سيناء .. واره معجزة العصا التي تغلبت على سحر المصريين فكانت ثعبانا يأكل ثعابين المصريين .

رفض فرعون طلب موسى ، فبدأت معجزات الهية تعاقب فرعون على تعنته ، وكان أولها خاصا بماء النيل ، الذي مات سمكه ، وجرى ماؤه دما ، أو كالدّم ، وفاض النهر بالضفادع حتى غطت أرض مصر . ثم جاء بعدها البعوض والحشرات ، ثم وباء يهلك المواشى (الا ما كانت تملكه اليهود) ثم عواصف الغبار التي أذت جلود المصريين بالبثور ، والدامل ، ثم مطر البرد والتلج الذي أهلك المواشى المصرية وحدها مرة أخرى كما أباد الزراعة ، ثم الجراد الذي أكل الشجر وعشب الأرض ، ثم الظلام الذي حجب أشعة الشمس ثلاثة أيام . ثم هلاك جميع الأبناء البكر الذين ولدوا أولا من ابن الملك الى ابن الجارية الى أبناء البهائم .

وهنا تقول التوراة ان الرب أوصى موسى بما يأتي :
« عندما يطلقكم (فرعون) يطردكم من هنا بالتمام ، تكلم في مسامح الشعب أن يطلب كل رجل من صاحبه ، وكل امرأة من صاحبها أمتعة فضة وأمتعة ذهب . وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين .
وأيضا الرجل موسى كان عظيما جدا في أرض مصر في عيون عبيد فرعون ، وعيون الشعب » .

وعند منتصف احدى الليالي والمصريون في جزع لمن مات من بينهم بدأ خروج اليهود .. تقول التوراة :

« فحمل الشعب عجيتهم قبل أن يختمر ، ومعاجنهم مصرورة في ثيابهم على أكتافهم . فعل بنو اسرائيل بحسب قول موسى . طلبوا من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثيابا . وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين حتى أعاروهم ، فسلبوا المصريين » أما كيف ارتحل اليهود من مصر فقد قالت التوراة :

« فارتحل بنو اسرائيل من رعمسيس (١) الى سكوت نحو ستمائة ألف ماش من الرجال عدا الأولاد . وصعد معهم لفيف كثير أيضا ، مع غنم وبقر مواش وافرة جدا . وخبزوا العجين الذى أخرجوه من مصر خبز ملة فطيرا ، اذ كان لم يختمر . اذ أنهم طردوا من مصر ، ولم يقدرُوا أن يتأخروا ، فلم يصنعوا لأنفسهم زادا » .

وعد يوم الخروج من مصر عيدا لليهود ، هو عيد الفصح ، نصت التوراة على طقوسه ، وطرائف الاحتفال به .. فقد جاء فيها :
« هى ليلة تحفظ للرب ، لإخراجه إياهم من أرض مصر ، هذه الليلة هى للرب ، تحفظ من بنى اسرائيل فى أجيالهم .

« وقال الرب لموسى وهارون هذه فريضة الفصح ، كل ابن غريب لا يأكل منه . ولكن كل عبد رجل مبتاع بفضة تخنثه ثم يأكل منه ، النزيل والأجير لا يأكلان منه . فى بيت واحد يؤكل . لا تخرج من اللحم من البيت الى خارج . وعظما لا تكسروا منه . كل جماعة اسرائيل يصنعونه » .
واليهود كما نعلم انشأوا التوراة ، ثم عاشوا فى نصوصها . وعيد الفصح الذى ورد ذكره فى سفر الخروج ، ظل عيدا يلتزم به هؤلاء القوم الى الان ، وبعد الآن .

وفى مجموعة الدكتور هلال فارحى اليهودى عن عبادة قومه بيان عن الاحتفال بعيد الفصح فيما يلى نصه (٢) :
« فى الليلة الرابعة عشرة من نيسان (ابريل) يجب على الانسان (اليهودى) حال تأديته صلاة المساء ، وقبل أن يبتدىء بعمل ما ، وقبل أن يأكل ويبتدىء بالقراءة ، أن يبحث عن الخمير الذى فى دائرة بيته بنور شمعة صغيرة فى الثقوب والشقوق ، وفى كل محل يدخلون فيه خميرا . وقبل البحث يقول : مبارك أنت يارب إلهنا ، ملك العالم الذى قدسنا بوصاياها ، وأوصانا بإزالة الخمير !

يجب الاحتراس من التكلم بين البركة والابتداء فى التفتيش . والافضل ألا يتكلم كلاما آخر حتى يتم التفتيش .. ثم يغطيه بوعاء لكى لا تسحبه الفيران فينبغى أن يفتش مرة أخرى ويقول :

(١) موقعها بلدة صفت الحنة الان بالقرب من تل رطانة (محافظة الشرقية) .

(٢) طبع منذ سنة ١٩٢٢ بالعبرية والعربية فى مصر .

ليكن كل الخمير الذى فى دائرتى ، رأيتة أولم أزه أزله باطلا ، ويعد كتراب
الارض !

وفى ترتيب يوم وقفة عيد الفصح يقول فارحى : يجب أن يزيل أو يرمى فى
البحر ، أو يفتت أو يحرق الخمير فى الغد باكرا نحو الساعة الخامسة ، ويذرى
الرماد ، ويبطله ويقول :

ليكن كل الخمير الذى فى دائرتى ، رأيتة أولم أزل باطلا ، ويعد كتراب
الارض !

وإذا كان أول الفصح يوم الخميس ، يجب اتمام فريضة العيروب لأنه
لايجوز طبخ أو تحضير طعام فى يوم عيد ليوم عيد آخر ، أى فى يوم عيد الفصح
لأجل يوم السبت وهى عبارة عن تحضير قليل من الطعام فى مساء يوم وقفة
العيد لأجل العيد والسبت معا . ثم يقول البركة الآتية :

مبارك أنت يارب إلهنا . ملك العالم الذى قدسنا بوصاياها ، وأوصانا بوصية
العيروب . وبحكم العيروب يسمح لنا أن نخبز ونطبخ ونشعل نورا ونعمل كل
لوازمنا فى يوم عيد لأجل يوم السبت .

وهنا يأتى وصف مائدة عيد الفصح على النحو الآتى :

فى الليلة الأولى والثانية من عيد الفصح ، يجهزون الأشياء الآتية وهى :

- ذراع خروف محمر تذكارا لخروف الفصح .

- ثلاثة أقراص فطير تذكارا للخبز الذى أكله أبائنا (عند الخروج من

مصر) فطيرا قبل أن يختمر .

- بيض مسلوق تذكارا لقربان العيد الذى كان يقرب قديما فى الهيكل .

- خس ، وهندباء ، أو عشب مر ، وكرفس ، وفنجال خل ، أو ماء ملح

تذكارا للحياة المرة التى قاساها أبائنا فى مصر فى زمن الاستعباد .

- مربى معمول من زبيب أو بلح مع اللوز ، تذكارا للطين الذى كان يصنعه

أبائنا فى ذلك الزمن (كذا) .

وتوضع هذه الأشياء فى الصينية قبل صلاة المساء حسب الترتيب الآتى :

البيض والكرفس

الذراع والمربى

(فى اليسار)

(فى اليمين)

الفطير والعشب المر والخس

(فى الوسط)

ويجب على كل شخص في هاتين الليلتين أن يشرب أربعة كؤوس نبيذ قانونية وهي :

- ١ - لأجل التقديس .
 - ٢ - بعد تقديم الشكر على الخلاص من عبودية المصريين .
 - ٣ - بعد تقديم الشكر لأجل الطعام .
 - ٤ - بعد تلاوة المديح .
- ولأولاد نبيذ حلو أو ماء زبيب .
وقبل ابتداء الطعام يقسم الفطير الذى فى الوسط الى نصفين . ثم يحمل أحد أفراد الأسرة الصينية على كتفه ويقول : « هكذا كان أبائنا راحلين ، عندما خرجوا من مصر معاجنهم مصرورة فى ثيابهم على أكتافهم ، وفعل بنو اسرائيل حسب قول موسى » .

ويتلو أحدهم الكلام التالى :

« انظروا ! هذا هو خبز المشقة الذى أكله أبائنا فى أرض مصر ، ليأت كل جوعان ، ويأكل منه ، وكل من يرغب ليأت ويعيد الفصح . اننا نعيده هنا الآن . ليتنا فى السنة الآتية فى أرض اسرائيل . اننا عبيد الآن . ونأمل أن نكون أحرارا فى السنة الآتية فى أرض اسرائيل » .

ويمضى ترديد كلام فى هذا المعنى طول الليل « وكلما كثر الكلام فى موضوع الخروج من مصر مشكور » .

وفى هذه الصلوات نص صريح على أن المصريين انما نظروا الى اليهود نظرة قاسية لأنه « اذا حدثت حرب ، انهم ينضمون الى أعدائنا ويحاربوننا » .

وقبل أن نعرض لما ورد فى القرآن الكريم عن قصة خروج اليهود من مصر ، يجب أن نطيل التأمل فى هذه الكراهية الهائلة التى صبها كاتبو التوراة ، ثم مشايخ اسرائيل على المصريين . فمنذ بدأت احتفالات عيد الفصح ، أى منذ خمسة وثلاثين قرنا ، وهم يسهرون ليلتين الى الصباح يصبون شتائمهم وأحقادهم على المصريين ، لأن أحد الفراعنة القدماء ، ألزمهم بالعمل فى تعمير بعض المباني ، وكانوا للعمل رافضين ..

لم ينس اليهود الاسرائيليون منذ ذلك العهد السحيق اساءة هذا الفرعون ،
وحملوا كل مصرى يعيش على أرض النيل أحقادهم ، التي ظلت تتراكم هذه
الفترة الطويلة حتى تحولت الى بحر متلاطم الأمواج من الكراهية .
اذا كان أحد الفراعنة القدماء أساء الى اليهود ، فلما لم يذكر اليهود أن
مصر قبل هذا الفرعون قبلت اقامتهم فيها ، بعد أن كادت المجاعة تفنيهم .. وأن
مصر أكرمت منهم من أكرمت ، وقد تولى أحدهم منصبا كبيرا في الدولة (يوسف
الصديق) .. ولماذا لم يذكر اليهود أن هذه الضيافة المصرية استمرت ٤٣٠
سنة متوالية . عاشوا فيها على خير هذه البلاد وبرها ، وظلوا يتحدثون عن
النعيم الذى كانوا فيه ، حتى كادوا يفتكون بموسى الذى أخرجهم من مصر .. ثم
لماذا نسى اليهود فى وسط أحقادهم خلال صلوات عيد فصحهم ، انهم قدموا قلة
ذليلة تحصى بالعشرات وخرجوا وهم يحصون بمئات الألوف !!
ان الحق قد مرض وبيل ، وهو الذى يحرك اليهود المعاصرين لتأثرات مرجعها
هذا التاريخ القديم ، ولا يستطيعون الفكك منها بحال ، لأنها تجرى فى نفوسهم
مجرى الدم فى عروقهم .
ونعود الآن الى قصة خروجهم من مصر كما رواها القرآن :

□ الفصل الثالث □

موسى .. يقود إسرائيل

نظرات في القرآن :

يتحدث القرآن الكريم في قصة موسى عليه السلام ، عن شخصيتين : هما فرعون وهامان .. ويصف فرعون بأنه علا في الأرض وقسم الناس الى طبقات ، استضعف طبقة منها ، وسامها العذاب ، وكان يقتل الذكور من أبنائها ..

وبعد أن عرض القرآن لرحلة موسى الى بلاد مدين ، التي وصفته فيها احدى فتاتى شيخ القبيلة بأنه « القوى الأمين » جاءت النبوة ، ولخصت دعوته في آيات بينات :

- « إننى أنا الله لا إله إلا أنا ، فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى » .
- « إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى » .
- « فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها ، واتبع هواه فتردى » .

(سورة طه)

ومؤدى هذه الرسالة ان النبوة فى صورتها الموسوية تدعو الى ثلاث :

- وحدانية الله ، ولا يعبد الا هو منزها عن كل شبيه ونظير .
 - الصلاة لله تعالى ، أى الاتجاه بالدعاء له وحده .
 - الايمان بالبعث وبالْحساب فى الآخرة عن أعمال الانسان فى الحياة الدنيا . وعدم الاستجابة لمن يدعو الى غير هذه السبيل .
- وقد استعان موسى على اقناع فرعون بوحْدانية الإله بمنطق سهل بسيط ، فعندما سأله فرعون عن ربه :

« قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ، ثم هدى » .
« قال فما بال القرون الأولى »
« قال علمها عند ربى فى كتاب ، لا يضل ربى ولا ينسى »
« الذى جعل لكم الأرض مهذا ، وسلك لكم فيها سبلا ، وأنزل من السماء ماء ،
فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى ، كلوا ، وارعوا أنعامكم ، إن فى ذلك لآيات لأولى
النهى ، منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى » .

وإذن فقد تحدث موسى عن الإله الواحد ، الذى خلق وحده كل شىء وكل حى وهو
إله الحاضر والماضى والمستقبل ، ليس قبله شىء ، وليس بعده شىء . وان من آيات
وجوده هذا النبات ، ودورته حتى يصبح حياة ، ويصبح طعاما للإنسان والحيوان .
والله الواحد الأحد ، خلق أيضا الإنسان ، ثم أماته وردة الى الأرض ، ثم هو الذى
يبعثه حيا فى يوم معلوم .

هذه حدود الرسالة الموسوية المبلغة الى مصر وملكها ، وقائد جيشها
(هامان) ، أولعله كبير كهنتها .

الطغيان وما يجز إليه :

أما لماذا استحق حاكم مصر وأعوانه هذا التبليغ من رب السماء والأرض ، على
لسان موسى وأخيه هارون .. وما الاثم الذى ارتكبه فرعون فتحدده الآية :

« إذهبوا إلى فرعون إنه طغى » .

فقد عد الطغيان كبيرة الكبائر ، والاثم الذى لا يعدله اثم واستحق تحذير
السماء ، واستحق عقوبة السماء .

الطغيان هو مجانبة العدل ، والعدوان على حريات الناس وأرزاقهم وأعراضهم
وأرواحهم .

الطغيان هو الاعتزاز بالقوة ، واهدار آدمية البشر ، وهم خلق الله .. أعظم خلق
الله .. أعظم من الملائكة وأجل شأنًا .. هم صورة الله فى أرضه . فمن نسى الله فى
عبادة ، فقد استحق هذا الوصف القرآنى .. استحق أن يكون طاغية ..

ولم يكن استبداد فرعون موجها الى اليهود وحدهم ، وكانوا ضيوفا على مصر منذ أربعة قرون وبعض قرن ، ولكنه انصب أيضا على شعب مصر ، لأن الطاغية لا يعرف حدا يقف عنده .. ولا يعرف ناسا يؤثرهم ويكرمهم ، وآخرون يبعدهم ويذلهم ، الا بمقدار ما يحقق مصلحته .

وقد كره القرآن الكريم الطغيان ، وأعطى صيغة مبالغة لمن يتصف به ، فهو « الطاغوت » ، وأحب القرآن العدل ، وحث عليه ، وجعله من صفاته تعالى ، وقرن به الرحمة التي لا تميل على الضعف والضعفاء ولكن تمد لهم يد المساعدة حتى يزول ما بهم من هوان ، ويسيروا مع الناس في مسيرة الحياة الحرة بأقدام ثابتة ليس فيها مجال للخوف ، ولا للتهديد به .

انزها الى فرعون انه طغى .. هذا هو أمر السماء . وقولاه قولاً كريماً سهلاً ، وهوائه انسان ، خلقه الله ، وأن الناس جميعاً من خلقه . حتى هؤلاء الذين أذلهم حكمه وهم اليهود . والله لم يخلق الناس فقط ، ولكن خلق النبات كذلك ، وخلق الحيوان ، وخلق كل شيء . وانه هو ، وليس فرعون واهب الحياة ، وهو الذى يستردها ، فلماذا الطغيان ، ولماذا الأذى ؟

وما حدث كان مقدر له أن يحدث ، فقد شاعت دعوة موسى الى التوحيد ، والى العدل بين الناس ، والى ترقب الموت والحساب فى حياة أخرى .. عاشت بين كثير من المصريين بل اعتنقها بعض أمراء وأميرات البيت الملك المصرى فى ذلك الوقت ..

واذن فلم تكن الدعوة الموسوية موجّهة الى اليهود وحدهم ، ولا هى قاصرة على هذه القبيلة من بنى يعقوب ، ولكنها سرّت وكانت دعوة عامة .

وليس عجيباً أن تكون هناك دعوة سماوية توجه الى قوم الحضارة من أبناء النيل ، بل لعلها لم تكن الدعوة الأولى . فقد سبقتها صيحة أخرى من أجل التوحيد ، ونبذ عبادة الأوثان ، صحبت وجود يوسف الصديق الى مصر ، قبل أن يتحدث بها موسى . وفى هذا نص صريح فى سورة غافر :

« ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات ، فما زلتم فى شك ، مما جاءكم به ، حتى اذا هلك قلتم لن نبعث الله من بعده رسولا . كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب . »

وتوالت الأحداث من بعد ذلك ، فقد واجه موسى ملك مصر ، ووجه اليه دعوته ، فأجاب اجابة ساذجة ، وهو أنه سيبنى برجاً عالياً ، يصل الى السماء ، ليرى أين يوجد إله موسى ، ليواجهه . ولكن هذا البرج لم يبن ، على الرغم من ان مصر بلاد البناء والتشييد ، واكتفى فرعون بمواجهة عامة بين معجزات موسى ، وما يمكن أن يقوم به سحر مصر ، وعلمائها ، وكهانها لابطال هذه المعجزات والتفوق عليها . وقد وصف القرآن كلا من هؤلاء الأفراد بأنه « سحار عليم » .

وقد تفوق موسى ، فهو مؤيد من السماء .
وذهل فريق العلماء والكهان والسحرة لما رأوا بأعينهم . ولا بد ان هذه المباراة كانت صاعقة مفحمة ، لم يملك مشاهدوها من المصريين (باستثناء فرعون وبعض أركان حكمه) الا أن يخروا سجداً ، ويعلموا على الملأ أنهم آمنوا برب موسى ، وكان تحديهم لفرعون ، يدل على شديد تأثرهم . لقد رفضوا تهديد الطاغية بأن يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وأن يصلبهم على جذوع النخل ، ويسومهم من العذاب ما لا قبل لبشر به .. أكثر من عذاب الآخرة في زعمه .

في ثقة ويقين قال هذا الحشد لفرعون الطاغية : فاقض ما أنت قاض انما تقضى هذه الحياة الدنيا .. وقد عدوا ما كانوا فيه من عبادات وطقوس وثنية خطايا تمنوا على الله أن يغفرها لهم .

واذن فقد آمن بدعوة موسى الى التوحيد هذا الفريق الكبير من مفكرى مصر وكهانها ، وكانوا قد وفدوا للاجتماع الخطير من أقصى البلاد وأدناها ، من الدلتا والصعيد وما بينهما .. وأرجح الظن أن هذا اللقاء كان في منف (الجيزة) ، فهى حاضرة البلاد الثانية بعد طيبة (الأقصر) ، وذلك لقربها من جاسان (الشرقية) حيث استقر اليهود وأقاموا .

ولم تقتصر دعوة موسى على من شهد المعجزات ، بل لعل التمهيد للدعوة سبق هذا الموقف . فان القرآن الكريم يحدثنا عن « رجل مؤمن من آل فرعون ، يكتم إيمانه » ولا عجب أن يكون لموسى فى القصر الملكى أصدقاء وأوفياء ، فقد نشأ فيه وعاش حتى بلغ سن الأربعين . ولا بد أنه كان يتحدث عن عقيدة التوحيد كما جاء بها ابراهيم الخليل ، وهو حديث هامس ولا شك لم تعلم به السلطات الحاكمة ، وان كانت سجلت عندها العقاب ..

لقد تصدى هذا الرجل من آل فرعون للملك ، عندما قرر أن يعدم موسى ، حتى لا يبذل دين المصريين جميعا .. وكان منطقته في الدفاع عن رسول دعوة السماء ، أنه اذا كان كاذبا فعليه وحده الذنب ، وان كان صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم . ويبدو أن هذا المصرى المؤمن بالتوحيد ، كان وافر العلم ، وافر الشجاعة ، فقد ضرب أمثلة لما حدث للظالمين من الحكام السابقين في شعوب أخرى .

¹ وانتهى أمر المواجهة بين ملك مصر ، ونبي الله موسى ، لتستمر باقى المعجزات التسع ، التى أريد بها اظهار سلطان الله تعالى على الخلق جميعا وكل آية تكبر التى قبلها .

المسيرة الى سيناء :

وفي ليلة من ليالى الربيع المصرى ، أوحى الله الى موسى ، ان يسير بقومه من اليهود الى سيناء ..

وكانت مصر فى هذا الفصل من العام بادية الرونق ، مروجها مزهرة ، وقنواتها جارية ، ولقد أصاب بعض الاضطراب جنبات الحياة ، على يد موسى ومعجزاته التسع ، فان آخر منظر رآه اليهود فى مصر مما لا ينمى من الذاكرة .. وقد ورد وصف سريع لمصر فى ذلك الوقت ضمن ما تحدث به القرآن عن خروج اليهود .. قال :

« كم تركوا من جنات وعيون »

« وذرور ومقام كريم »

« ونعمة كانوا فيها فاكهين » .

وما أكثر ما كانت تنبت مصر من أصناف الغذاء .. من بقلها ، وقتائها ، وفومها (١) ، وعدسها وبصلها .. وما أكثر خير النيل عندما كانت أسماكه تغذى الناس بأشهى غذاء .. ولكن هذه الوسائل الميسرة للحياة ، لم تكن كافية لتشعر اليهود ، وشعب مصر من حولهم بالراحة النفسية والرفاهية الحقيقية ، طالما أن سلطان القانون قد اختل فى يد حاكمهم ، وهم غرباء عن البلاد ، ان ينجوا بأنفسهم ، متبعين داعيتهم الأكبر موسى الكليم ، وأخاه هارون .

(١) الفوم هو الحنطة .

وقد عرض كثير من الباحثين للطريق الذى سلكه موسى وقومه فى خروجهم من مصر . قالت التوراة إن موسى لم يتجه مباشرة عبر سيناء الى فلسطين ، حتى لا يفزع اليهود من محاربة الفلسطينيين ، ولم يكونوا مستعدين لهذه المعارك ، فيعيدوا أدراجهم إلى مصر ، أرض عبوديتهم .

ووصفت التوراة الماء الذى اجتازه اليهود بأنه « بحر سوف » وقد اخترنا من بين المراجع عن رحلة الخروج كتابا ، كان قنصلا للولايات المتحدة فى مصر منذ قرن من الزمان تقريبا . أو على وجه التحديد عام ١٨٧٦ ميلادية . وقد سهل له الخديو اسماعيل القيام برحلة علمية متبعا خط سير موسى وقومه ، ودارسا على الطبيعة ، ما كان عليه طريق العبور فى ذلك التاريخ البعيد .. هذا القنصل ، اسمه « اليرت فارمان » (١) .

قام هذا الرحالة الأمريكى برحلتين ، واحدة على شواطئ بحيرة المنزلة ، ثم الى موقع مدينة « زون » القديمة ، أو « تانيس » كما أسماها الإغريق ، أو « صان » .

اختلفت الآراء بالنسبة للمكان الذى استقر فيه الاسرائيليون أثناء إقامتهم فى مصر فهؤلاء الذين يتمسكون بنظرية مرورهم بالفعل من المكان الذى يعتبر الآن جزءا من البحر الاحمر ، يقولون إن هذا المكان فى أقصى الجنوب ، بينما يعين آخرون ذلك المكان فى أقصى الطرف الشمالى الغربى من البلاد . وتدل القرائن الأثرية واللغوية على أنه من المحتمل أن يكونوا قد احتلوا الجزء الأكبر من الاقليم الواقع فى شمال الدلتا ، وشرق فرع دمياط من النيل عندما أصبح عددهم كبيرا . ويشمل هذا الاقليم أخصب الاراضى المصرية ، إنتاجا (كذا) ، وكان كافيا لإقامة مليون نسمة ، ولقد أصبح الجزء الأكبر من هذه الاراضى صحراء غطتها المستنقعات ، بعد أن كانت من أغنى الاراضى زراعة .

« وكان يوجد بالمنطقة المجاورة لبحيرة المنزلة أراض وطيئة رطبة ، تنتج الحشائش الرديئة . التى تتغذى عليها الماشية . وكانت تحد شرقا بالصحراء التى تنتج من النباتات فى كثير من الأماكن فى فصل الشتاء مايكفى لتغذية عدد محدود من الماعز والأغنام . وكان يبلغ عدد ذرية يعقوب وقت نزولهم مصر ستا وستين نفسا ولقد أقاموا خيامهم فى بقعة صغيرة من الأرض الخصبة المجاورة

(١) كتاب : مصر ، كيف ندر بها تاليف اليرت فارمان - ترجمة المجاهد الوطنى ، من شباب ثورة سنة ١٩١٩ الاستاذ عبدالفتاح عنایت المحامى .

للصحراء ، مثلهم في ذلك مثل أعراب الوقت الحاضر . كما أنهم ضموا اليها جزءا من الاراضى الرطبة المجاورة للبحيرة . وكان هذا بالنسبة لهم اختيارا موفقا ، فهى حديقة فيحاء . وكان هذا هو الواقع اذا قورنت هذه الاراضى بالاراضى الصخرية الوعرة التى هاجروا منها . كانت هذه الأرض ملائمة تماما لحياة الرعاة ، ولحفظ قطعانهم التى أحضروها معهم ، ولو أنها لم تكن مرغوبة لدى المصريين .

وبعد رحلة استكشافية فى الارض المجاورة لشواطىء بحيرة المنزلة ، والوقوف عند اطلال مدينة صان عاد القنصل الامريكى وصحبه ، واذا بهم امام مفاجأة لم تكن فى الحسبان . فقد وجد القارب الذى كانوا يستقلونه فى البحيرة ابتعد بضعة أميال عن موقعه الذى تركوه فيه وذلك لأن الرياح الشمالية تدفع المياه وتغير مناسيبها .. فهى فى وقت من اليوم ضحلة قليلة الغور يمكن السير فيها بالأقدام العارية ، ونفس المكان فى وقت آخر موفور الماء يغطى قامات الرجال مثنى وثلاث .

وكانت بحيرة المنزلة تمتد عشرات الأميال خارج حدودها الحالية ، وكانت للنيل فروع تصب فيها جفت الان ، وربما كانت البحيرة المرة الحالية ، من مخلفات بحيرة المنزلة .

يقول هذا المصدر ، وينقل عن الأثريين الذين عاصروه .

« فى مخطوطات التوراة القديمة ، كانت الكلمات التى ترجمت بالبحر هى يم سوف ، وتعنى بحر سوف ، والكلمة العبرية (سوف) تعنى الاعشاب وسمار الحصر ، ونبات البردى .. وهى تشير الى منطقة صالحة للملاحة مغطاة بالنباتات المائية مثل بحيرة المنزلة . وكانت تنبت فى البحيرات والمستنقعات الواقعة فى شمال شرق مصر .. وقد صنع تابوت موسى من السوف ، أى من السمار والبردى .

ووصف رحالة قديم (ديودورس) هذه المياه بقوله : إن سطح المستنقع الذى يمتد أميالا ، كان مغطى برمال جارفة تغوص فيها الأقدام .. لقد غصت حتى ركبتى تقريبا فى الوحل .

وكانت البحيرات الضحلة ممتدة على طول الساحل ، وتكون عديدة من الخلجان ، وما بين هذه الخلجان يمكن العبور الى شاطئ البحر . وقد ورد فى التوراة أن بنى إسرائيل فى خروجهم تملكهم الفزع « وجعل الله البحر ينحسر بواسطة ريح شرقية قوية هبت طوال الليل واحالت البحر أرضا يابسه » .

وذكر الرياح الشرقية في هذه الرواية يجعل طريق العبور بين بحيرة المنزلة والبحر الأبيض حيث يمكن أن تتراجع المياه الضحلة اذا دفعتها رياح قوية كما ورد في هذا الوصف . واستمرت معجزة العبور طوال الليل ، فلما قدم فرعون وجنده ، مقتصين أثر القبائل الهاربة ، تابعوها على نفس الأرض ، دون أن ينتبهوا إلى أن انحسار الماء عنها ، هو أمر مؤقت ، فلما سكنت الرياح انطبق الماء من الجانبين : جانب البحيرة ، وجانب البحر ، فغرق فرعون ومن معه . وقد ورد في التوراة أن المياه كانت على جانبي طريق العبور كالجدار من يمين ومن شمال وقد أدى هذا الوصف المجازي بتصوير أن هذا الماء هو ماء البحر الأحمر ، وعلى هذا الأساس تصور سيسيل دى ميل ، وخبرائه في فيلم السينما الذي عرض لهذا الحادث ، قاع البحر الأحمر بأعماقه البعيدة ، والماء من الجانبين أعلى من جدار كل هرم في البلاد .

ومحققو القرن الماضي الذين راجعوا طبيعة الأرض المصرية على امتداد خليج السويس والبحيرات المرة ، استبعدوا كل مكان الا شواطئ بحيرة المنزلة .

وكانت الحملة المصرية وراء اليهود الفارين مكونة من ٦٠٠ عربة حرب ، وكانت المطاردة في أواخر الليل ، وقد غاصت العجلات في الوحل ، ثم مالبت مد البحر أن غمر الطريق .

وبعد أن أوغل الاسرائيليون في الصحراء متجهين جنوبا ، دار البحث عن جثث الغرقى ، وأمكن إنقاذ جثة فرعون ، كما ورد في القرآن لتكون للناس عبرة . وقد وجدت جثث الفراعنة الأربعة الذين تعاقبوا من الأسرة الثامنة عشرة الفرعونية ، وأحدهم على أرجح الأقوال ، هو فرعون الخروج ، من بين ما يحفظه متحف القاهرة .

وقد ورد في القرآن أن فرعون ، وقد رأى الموت يحتويه ، تأكد أن معجزات الله طالته هو فهتف يعلن إيمانه ، ولكن هيهات .. تقول سورة يونس : « وجاوزنا ببني اسرائيل البحر ، فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا ، حتى اذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو اسرائيل ، وأنا من المسلمين الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين .. فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون . »

وفي هذه اللحظة الحاسمة ، يتبين لنا أن نقطة الخلاف بين العقائد المصرية في ذلك الوقت وعقيدة موسى هي « التوحيد » والايمان بإله واحد أحد ..

وهكذا أغلق باب من هداية السماء في مصر ، حاول إخناتون فيما بعد أن يفتحه قليلا ولكن لم تستمر محاولته ولم تفلح ، وظل الأمر كذلك حتى جاء المسيح عليه السلام ، فأقبل المصريون على رسالته ، ثم جاء محمد بن عبد الله ، فكانت مصر ، ومازالت كلمة التوحيد الكبرى .

موسى .. في أرض سيناء :

ومتابعة للدراسة على الطبيعة ، مع الموكب اليهودي المذعور وموسى يقوده ، ويبيت فيه الطمأنينة بعد أن رأت كثرتهم ، كيف أيده الله بنصر من عنده عندما أنجاهم من بحر « سوف » أو بحر الغاب والأعشاب ، وغرق فيه فرعون وجنوده . وقد حسب اتباع موسى أن الطريق إلى فلسطين أصبح ممهدا ، وماهى إلا جولات بين الرمال ، حتى تتراءى لهم فلسطين ، وإذا الرب الذى وصفوه بأنه « رجل الحرب » [كذا النص فى التوراة] يضرب لهم السكان الأقوياء ومنهم الأدوميون والمؤابيون ، والكنعانيون ، وبعضة ذراع الرب تذهل الأقسام وتسكت كالأحجار .

ورقصت مريم - كما تقول التوراة - ومعها جميع نساء إسرائيل كما لم يرقصوا من قبل ، وضربوا الدفوف عالية .. ولم تكن مريم هذه الا أخت هارون .. ولكن بنى إسرائيل أرادوا شيئا ، وأراد الله شيئا آخر .

سار اليهود فى الصحراء جنوبا ، ولم يسيروا شرقا ، وطالت مسيرتهم ثلاثة أيام .. وما أن أحسوا بالعطش حتى بدأ عويلهم وصراخهم ، فعهدهم لا يزال قريبا بمياه النيل العذبة الوافرة ، إلى أن حطوا رحالهم فى واحة بها بعض العيون والنخيل ، ويقال لهذا الموقع « ايليم » وهو مكان لم يعرف مكانه الآن بالضبط .

وتابع موسى السير بقومه جنوبا الى جبل الطور ، حيث أمر أن يتجه .. وكانوا يقيمون حيث يجدون بعض الماء ثم يرحلون ، خوفا من أن يتابع المصريون البحث عنهم بغد أن يفيقوا من كارثة الغرق .

وما أكثر ما ضاق اليهود بنبيهم وقائدهم ، لما عانوه من مشقة السير ، ووحشة الصحراء وكان مما قالوه : « ليتنا متنا بيد الرب فى أرض مصر ، إذ كنا جالسين عند قدور اللحم ، نأكل خبزا للشبع ، فإنكما (موسى وهارون) أخرجتانا الى هذا الفقر ، لكى تميتا كل هذا الجمهور بالجوع » .

استغرقت هذه المسيرة ستة أسابيع ، وحتى تهدأ ثائرة اليهود ، فقد استجاب الله لدعاء موسى وأرسل لهم المن والسلوى طعاما لكل يوم وجبته . ومن جمع طعام يومين أو أكثر فسد طعامه .. ولكن اليهود على مأثور عاداتهم لم ينفذوا الأمر واختزنوا ما فسد منهم . فلما جاء يوم الجمعة ، أذن لهم في طعام يومين ، لأن السبت كان قد تقرر عطلة مقدسة لليهود .

وعند جبل حوريب نفذ الماء من بنى اسرائيل ، وكاد شغب هذا الشعب ضد موسى أن يقضى عليه . فتضرع الى ربه أن ينقذه ، فإن اليهود أوشكوا أن يرموه حتى الموت . فأنقذه الله بمعجزة أخرى ، إذ ضرب الصخرة بعصاه فتفجر منها ماء سقى قومه .

وعند سفح الجبل ، وأثناء الشهر الثالث من خروج اليهود من مصر ، ضرب اليهود خيامهم وأقاموا ..

ومرة أخرى نصاحب رحالة القرن الماضى الذين وصلوا الى البقعة التى توارثت الأجيال أن اليهود أقاموا عندها ، وأن الجبل عندها هو الجبل الذى كلم الله تعالى فيه سيدنا موسى .

رحالتنا هذه المرة هو أيضا القنصل الأمريكى البرت فارمان الذى كان موفدا الى بلاط الخديو اسماعيل . فقد رحل فى خليج السويس بحرا الى جنوب شبه جزيرة سيناء ، ووصل الى جبل « سيناء » المقدس مع قافلة ، حيث يوجد دير سانت كاترين الشهير ، أى أنه لم يتخذ الى الجبل مسار بنى اسرائيل القديم من أقصى الشمال الى الجنوب .

قال : كان أمامنا سهل يبلغ اتساعه ما بين ربع ونصف ميل ، ويبلغ طوله حوالى ميلين ، وهو ينحدر بالتدرج الى قاعدة « رأس الصفصاف » وهى عبارة عن جدار صخرى عار ، ظهر أمامنا فجأة ، وقد ارتفع فى الفضاء حوالى ألف قدم .. وعلى اليسار يوجد وادى الدين ، وفى أسفله دير « سانت كاترين » بجدرانها العالية ، وحدائقه وأشجاره . وفى مواجهة هذا الدير على الجانب الآخر من الوادى الضيق توجد سلسلة جبلية تبلغ نفس الامتداد ، ويبلغ ارتفاعها ارتفاع جبل سيناء .. والمفروض أن تلك الهضبة الرملية القفرة العالية المستقرة عند أقدامنا ، وسط جدران الجبل المحيط بنا ، كانت معسكرا للاسرائيليين . والجبل الذى ظهر أمامنا ، كان مسرحا لمظاهر الجلالة الالهية ، ومحط ميلاد

الشرائع الربانية . كما شاهد قصف الرعد ، ووميض البرق ، وكما ورد في التوراة : « الرياح العاتية التي فرقت الجبال ، وفتتت الصخر أمام الرب » .

وبعد أن وصف دير سانت كاترين قال الرحالة : وحوالى الساعة الثانية استيقظنا على أثر دوى الرعد . ثم أخذ القصف يلى القصف ، وينتقل من جبل إلى جبل ، وكان الصوت يرتفع ويشد نتيجة تردده بين الصخور العالية المحيطة بنا ، وقد أصبحت خيمتنا مضاعة كما لو أشرق عليها النهار . وعند خروجنا من الخيام ، شاهدنا أروع مظهر من مظاهر الطبيعة . فقد كانت السماء ملتعبة ، وخبوط الأشعة تضرب في كل اتجاه بين الصخور مضيئة تلك الجبال والوديان . ثم أعقب ذلك قصف رعد شديد اهتزت له الجبال ، وكأنها كانت على وشك أن تميد وتتشقق وتتفتت .. ولم أشهد في حياتي (الرحالة يروى) أشد وحشية ، وأروع قوة من رعد طور سيناء حيث يتجاوب قصفه بين جوانب الجبال ، وكأنه سيطير بقممها ويلقى بصخرها بين ما حولها من الوديان .. وأعقب ذلك مباشرة هبوب الرياح وسقوط المطر ، وإذا بنا نسمع زئير السيول المندفعة على جانب الجبل ، ونرى الأرض وقد غمرتها المياه .. وفي الصباح كانت كل الجبال ناصعة البياض ، وقد غطيت بطبقة رقيقة من الجليد ، وإذا بالصيف الطويل الجاف قد تبدل شتاء ، فبقينا بالدير .

ويمضى صاحبنا فيقول : كانت جبال شبه جزيرة سيناء في نظر العالم القديم مقدسة قبل عهد موسى بزمان طويل ، وقد ظلت كذلك . ووفد اليها كثير من العابدين نحتوا لهم بيوتا في الصخر أقاموا فيها فرارا من الاضطهادات .. ومنذ زمن بعيد كان الكثير من الرهبان يتخذون محل اقامتهم على مقربة من جبل سيناء ، وأطلقوا عليه اسم « حوريب » أو « جبل الشريعة » وفي عام ٥٢٠ بعد المسيح ، أنشأ الامبراطور جستنيان كنيسة في سيناء محاطة بحصن لحماية الرهبان . كما أنشأت الامبراطورة هيلانة عند موقع « الشجرة المحترقة » برجاً وكنيسة داخل أسوار الحصن . وكان موقع هذه الشجرة غير معروف ، حتى كشفه أحد الرهبان ، دلته عليه رؤية في المنام . والكنيسة التي أنشئت داخل القلعة تضم عدة كنائس صغيرة ، وهياكل لا حد لها ، كما تضم شمعدانات ، ومصابيح وكثيرا من الهدايا الثمينة ، منها هدايا كاترين قيصرية روسيا والاسكندر الثانى . كما توجد بها آثار مقدسة ، منها جمجمة ويد سانت كاترين القديسة التي نفذ فيها حكم الاعدام في الاسكندرية عام ٣١٢ ميلادية .

وفي معبد « الشجرة المحترقة » وضع طبق فضى يدل على المكان الذي استقرت فيه هذه الشجرة ، وعند الدخول من الكنيسة الى هذا المعبد يجب أن تخلع نعليك كما كان يفعل موسى عليه السلام . وقد كسا الرهبان أرضيته بسجاجيد فاخرة . كما يوجد مسجد صغير بناه السلطان سليم الأول العثماني له مئذنة واحدة .

وبعد أن ألقى الرحالة نظرة محيطة على الدير الشهير ، بدأ رحلته متسلقا جبل موسى ، المعروف لدى الرهبان باسم « جبل الشريعة » . وعملية الصعود شاقة جدا ، تحتاج من متسلق الجبل المتمرس الى ثلاث ساعات ، ويزيد ارتفاع القمة عن ارتفاع الهرم الأكبر أربع مرات ، وقد وجد صاحبنا عين ماء باردة تنبع من تحت صخرة جرانيتية هائلة . وقد أسماها اعراب هذه المنطقة بعين موسى .

وفي الصعود الى قمة الجبل ، تخلى عن هذا الرحالة أصحابه ، ومنهم جنرال أمريكي لوعورة الطريق وصعوبته ، ولكن قاده في الشعاب الخطرة قس يوناني من شباب الرهبان في الدير ، وكان قد مر في طريقه بأثر اسلامى بنى عنده مسجد ، قيل إن نبي الاسلام محمد عليه السلام مر به في رحلة الاسراء الشهيرة ، وهو أمر لم تسجله المراجع الاسلامية . ثم وصل الى جبل الصنفاة . وهى شجرة قديمة أخذ منها موسى عصاه الشهيرة . ومضى يقول : وتسلقنا زاحفين على حافة الجبل للوصول الى قمته . هنالك جلس الراهب وخلع نعليه ، وأوماً الى بحركة فهمت منها أن أخلع نعلي كذلك . فتركناها وراءنا ، وواصلنا الصعود الى القمة ، وهو حافي القدمين ، وأنا مرتد جوربى .. ولقد قادنا الراهب وتبعته في ذلك على قدر المستطاع فوق تلك الصخور الجرانيتية الحادة محاولا الاحتفاظ بتوازنى دون أية دراية بما يحيط بى ، أو بالمكان الذى أنا ذاهب اليه .

وكان الرحالة والراهب مضطرين أحيانا للسير فوق طريق ضيق كالرف الذى لايزيد اتساعه على اثنتى عشرة أو أربع عشرة بوصة (طول المسطرة العادية تقريبا) .

وبعد أهوال لقيها الصاعدون من شدة الرياح ومخاطر الجبل وصلا الى قمة جبل موسى (٨٥٠٠ قدم فوق سطح البحر) وكانت القمة مجموعة من الصخور والحجارة .

ثم بدأت رحلة العودة على سفوح عمودية ملساء تقريبا وكان الراهب ماسكا بالرحالة وكأنه طفل لاحول له ولا قوة يقول « ولقد حاول الراهب أن يطمئننى ويساعدنى على النزول الى ذلك الممر الضيق الممتد على جانب الصخور ولكننى لم أستطع . وأخيرا ضمنى اليه وأمسكنى بذراعيه ، حيث سار بى فى الممر بكل ثبات ، حتى النهاية حاملا اياى ، وكأنه يحمل طفلا .. ولست بحاجة الى القول بأن الرعشة قد تملكتنى . وأن حلقى كاد ينسد . وبعد مضى سنين عديدة ، لاتزال ذكرى هذه الرحلة وأهوالها عالقة بذاكرتى . وكلما تمثلتها أصابتنى رعشة ، حتى وأنا أكتب هذه الكلمات .

وقد أسهبنا قليلا فى وصف المنطقة التى وصل إليها موسى عليه السلام ، ورحلة المخاطر التى قام بها ليتلقى كلمة ربه ، ولانكاد نعلم عن واحد من انبياء الله ، الا أحاطت به المخاطر المهلكة . فهى امتحان لطاقتهم وصدق ايمانهم ، ورياضة لهم على تحمل الأهوال فى سبيل تبليغ كلمة الله سبحانه وتعالى . وقد قصصنا بعض ما لقى ابراهيم الخليل فى العراق ، وقد لقى يوسف الصديق فى مصر امتحانا آخر مع امرأة الوزير المصرى ، فى القصة المشهورة مما أدى به الى السجن . وهذا هو موسى عليه السلام يمتحن مرة بعد مرة ، فى سلسلة من التجارب الطويلة ، بادئة برحلته مع الرجل الصالح الخضر ، ثم مواجهته لفرعون وهامان ورحلته المخيفة عبر المياه المصرية الى سيناء وصعوده الجبل الجنوبى ليتلقى وحى السماء بعد أن لقى من قومه اليهود أهوالا تتضاعل بجانبها مخاوفه من المصريين ، مما سنمضى فى عرضه . وكذلك حدث مع سيدنا عيسى المسيح ابن مريم ، حيث لقى من قومه اليهود لسوا ما يلقى داعية رسالة الحب والسلام . ونفس المخاطر والأهوال ، ولكن بصورة أخرى لقيها نبي الاسلام سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام من قومه كفار قريش .. هذا هو قدرهم ، وهذا بعض من تكاليف النبوة كتبت عليهم .

ماذا قالت التوراة ، وماذا قال القرآن :

ورد فى التوراة : « فانحدر موسى من الجبل الى الشعب (اليهود) .. وفى اليوم الثالث لما كان الصباح ، أنه صارت رعود وبروق وسحاب ثقيل على الجبل ، وصوت بوق شديد جدا . فارتعد كل الشعب الذى فى المحلة .. وأخرج موسى الشعب من المحلة لملاقاة الله . فيقفوا فى أسفل الجبل . وكان جبل سيناء كله يدخن من أجل الرب عليه بالنار . وصعد دخانه كدخان الأتون ،

وارتجف كل الجبل جدا . فكان صوت البوق يزداد اشتدادا جدا وموسى يتكلم والله يجيبه بصوت .

« ونزل الرب على جبل سيناء الى رأس الجبل . ودعا الله موسى إلى رأس الجبل ، فصعد موسى . فقال الرب لموسى انحدر حذر الشعب ، لئلا يقتحموا الى الرب لينظروا ، فيسقط منهم كثيرون » .

ولما اعتذر موسى بأن الشعب اليهودى لا يستطيع الصعود إلى الجبل (وكأن الله لا يعرف هذا ..) وافق الرب على أن يصعد لها هارون مع موسى مكتفيا بهما .. ووقف الشعب من بعيد ، وأما موسى فاقترب الى الضباب حيث كان الله !

أما القرآن الكريم فبعد أن تحدث عن عبور بنى اسرائيل ، وما حدث لفرعون ، ورد في سورة الاعراف (١٤٢) :

« وواعدنا موسى ثلاثين ليلة ، وأتممناها بعشر ، فتم ميقات ربه أربعين ليلة . وقال موسى لأخيه هارون اخلفنى فى قومى ، وأصلح ، ولا تتبع سبيل المفسدين » .

« ولما جاء موسى لميقاتنا ، وكلمه ربه ، قال : رب أرنى أنظر اليك ، قال لن ترانى ، ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا ، وخر موسى صعقا . فلما أفاق ، قال سبحانك تبت إليك ، وأنا أول المؤمنين » .

وقد ورد ذكر جبل الطور فى القرآن الكريم عشر مرات (١) . وقرن بسيناء ، عندما ورد ذكر شجرة « تخرج من طور سيناء » . بل هناك سورة الطور ، التى أقسم الله فيها به « والطور ، وكتاب مسطور ، فى رق منشور .. » وقسم آخر بنفس الجبل فى سورة التين : « والتين والزيتون ، وطور سينين » .

وهذا يدل على حفاوة القرآن بهذه البقعة ، بوصفها من البقع المقدسة ، مثلها كمثل صخرة القدس ، والكعبة المشرفة ، الا أنه لم يؤذن بالحج اليها كما أذن بالحج الى مكة ، وبيت المقدس .

(١) ورد ذكر مصر فى القرآن الكريم خمس مرات ، وسيناء وطورها جزء من مصر ، فيكون قد ورد ذكرها او بعض منها ١٥ مرة .

تعداد بني إسرائيل :

كم كان عدد اليهود الاسرائيليين الذين خرجوا من مصر ، يقودهم سيدنا موسى الى سيناء ؟

تقول التوراة : « فارتحل بنو اسرائيل من رعمسيس الى سكوت نحو ستمائة ألف ماش من الرجال غير الأولاد ، عدا الأولاد . وصعد معهم لفيف كثير أيضا من غنم وبقر مواش وافرة جدا . » .

فاذا أخذنا بالرقم الذي ذكرته التوراة بأن يعقوب وأسرته ومعهم يوسف وابناه ، وكانوا سبعين فردا ، وإذا وافقنا على أن اقامتهم بمصر لم تتجاوز - بنص التوراة ٤٣٠ عاما ، فان مما يثير الدهشة تكاثرهم في هذه المدة الى عشرة آلاف ضعف ، بفرض أن الصغار كانوا مائة ألف فقط ، والنساء لم يحسبوا ربما في القدوم والخروج معا !!

إن أعلى نسبة لتزايد السكان لا تتجاوز في النادر ٣ ٪ ، وربما تجاوزت هذا القدر بكسر صغير ، وعامل الوفيات ينقص هذه النسبة ، ولايزيدها ، لأن الأوبئة كثيرا ما تفشت في اليهود ، لعدم ميلهم الى النظافة والاستحمام ، مما سنعرض له بعد .

وقد شك دارسو التوراة كثيرا في رقم التوراة . بل إن بن جوريون الاسرائيلي المعاصر ، أبدى هذا الشك وقال إن صفرا على يمين هذا الرقم زاد خطأ ، ولكن ما أن زجره الحاخام ، حتى تاب وأتاب ، ورجع عن قوله .

ويبدو أن القول الفصل في عدد اليهود ، هو طبيعة المكان الذي عسكر فيه اليهود على سفح جبل سيناء وبالقرب منه ، وأي عدد من البشر والحيوان يتسع له .

ان أقرب واحة لجبل موسى كانت ولا تزال واحة فيران ، التي لم تزد مساحتها على مائتي فدان صالحة للزراعة وهي واد عميق ضيق ، تكتنفه من الجانبين جبال عالية ، كما يخترقه جدول دائم يجري في وسط الوادي حتى يختفى بين الصخور ، وينبع هذا الجدول من سفح جبل سيناء ويتجمع ماؤه من أمطار وتلوج الشتاء ، وفي هذه الواحة عدد كبير من النخيل .

وقد أقبل على هذه الواحة عدد كبير من معتنقى المسيحية ، وأقاموا فيها عددا لا يحصى من صوامع العبادة . وربما كانت هذه الواحة هي التي سكنها في وقت هجرة موسى قوم سمو العماليق ، حاربهم موسى وأجلاهم عنها . وبالقرب

من واحة فيران مناجم الفيروز والنحاس ، كشفها المصريون القدماء من أيام سنقرو وخوفو من ملوك الأسرة الرابعة المصرية .

ان مساحة هذه الواحة وما تتيحه من اعاشة بنخيلها وبشجر الطرفاء فيها لايتسع الا لعدد محدود من الناس والماشية ان أمكن . والطرفاء هى الشجيرة التى تنتج ثمرة « المن » التى عاش عليها اليهود أول هجرتهم من مصر .

يقول القنصل الأمريكى الذى ارتاد هذه الأماكن منذ قرن من الزمان : « وبالنسبة للرواية التى وردت فى التوراة ، فان بنى اسرائيل كان يزيد عددهم على مليونين (ربما أضاف النساء والأطفال الى الرقم الذى نلقناه عن التوراة ، والماشية أيضا) . ومن الصعب أن يفهم الانسان كيف كان حتى ١٪ من هذا العدد يعتمد فى حياته على محاصيل هذه المنطقة . وفى فصل الجفاف كانت كمية الماء لمثل هذا العدد الجسيم من الناس غير كافية بالمرة . حتى أنه اذا دخل هذه المنطقة ألفان من الناس ، وانقطع المدد من مصر وغيرها . كما كان الحال مع الاسرائيليين ، فلا بد وأن يموت أغلبهم جوعا . ولذا فان مسألة الخروج كلها بالنسبة للذين لايعتقدون فى العناية الإلهية لايزال يكتنفها الغموض » .

واذن فتحليل تعداد الداخلين الى مصر مع يعقوب ، والخارجين منها ، واحتمالات الاعاشة مدى أربعين سنة كاملة لاتجعل رقم التوراة يثبت لأى نقد . صحيح ان اليهود فى سيناء لم يمكثوا كثيرا عند جبل الطور ، ولا فى واحة فيران ، وربما تحركوا مساحلين على خليج السويس الى موقع قريب من « أبوزنيمة » كما تذكر بعض الروايات ، حتى نهاية السنين التى قضى عليهم ببقائهم فى « التيه » جزاء ما ارتكبوا من عصيان وأثام بعد فرارهم من مصر .. ترى ماهذا الذى صنعوه ، حتى حلت بهم هذه العقوبة الإلهية ؟

ألواح موسى .. ووصايا العشر :

أما وقد شاءت ارادة الله ، أن تجرى تجربة الهداية على هذا الفريق من سلالة ابراهيم الخليل ، فكان لابد لنبيهم المختار - موسى الكليم - من رسالة يسير هؤلاء القوم على هديها ، وعبادات وطقوس يتبعونها .. وهى مايسمونها الفرائض والشرائع . وقد بدأ الأمر كله بالوصايا العشر ، التى نالت شهرة كبيرة فى دنيا العقائد ، وان كان عدد قليل من اتباع الأديان السماوية - المسيحية ثم الاسلام - قد قرأ هذه الوصايا بتمعن ..

كيف نزلت الوصايا العشر على موسى .. كان ذلك في الشهر الثالث منذ دخولهم سيناء واقتربهم من الجبل ، فهذا ماترويه التوراة في الاصحاح التاسع عشر من سفر الخروج .

« وأما موسى ، فصعد الى الله فناداه الرب من الجبل قائلاً :
« هكذا تقول لبني يعقوب ، وتخبر بني اسرائيل .. أنتم رأيتم صنعت
بالمصريين . وأنا جعلتكم على أجنحة النسور وجئت بكم إلى . فالآن ان سمعتم
لصوتي وحفظتم عهدي ، تكونون لي خاصة من بين جميع الشعوب . فان لي كل
الأرض . وأنتم تكونون لي ملكة كهنة ، وأمة مقدسة .. » .

واذن كان تصوير اليهود لأنفسهم في التوراة على أنهم أمة مختارة ، وجنس
يفوق الأجناس . ان الله يعطيهم ولا يأخذ منهم .. يعطيهم ولا يأخذ منهم خلقا ،
ولا عدلا ، ولاكرامة .

هذا هو الوهم الكبير الذي عاش فيه اليهود ، وقد رأينا كيف نقضوا كل
عهد وسنرى بعد حين كيف كفروا بأنعم الله ، مما استحقوا عليه اللعنة ، وايتار
الخالق لكل الناس ، البشرية جميعا ، بهداه من دون هذه الحفنة من اليهود .
ولنعد الى الوصايا العشر :

لقد قالت التوراة ان الرب أمر اليهود بأن يغسلوا ثيابهم ، ويستعدوا لليوم
العظيم .. ويبدو أن موسى حاول كثيرا ، وهو في مصر أن يحمل اليهود على التزام
قواعد النظافة التي كان يهتم بها المصريون كثيرا . ولم يكن ذلك لأسباب دينية ،
ولكن لأسباب صحية ، فكثيرا ماكانت تتفشى بينهم الأمراض .. ولهذا لاتعجب
اذا اشترط « الرب » أن يفدوا الى سفح الجبل بثياب نظيفة .

ويبدأ الرب يتكلم والوصايا تسجل :
الوصية الأولى : « أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر ، من بيت
العبودية لا يكن لك آلهة أخرى أمامي » .
وهنا نجد أن الوصايا ، هي إقرار مبدأ التوحيد كما جاء به إبراهيم
الخليل .

الوصية الثانية : « لاتصنع لك تمثالا منحوتا ، ولاصورة ما مما في السماء
من فوق ، ومافي الأرض ، لاتسجد لهن ، ولاتعبدهن . لأنى أنا الرب إلهك ، إله
غير أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضى ، وأصنع
إحسانا إلى ألف من محبى ، وحافظى وصاياى » .

وهنا نجد اقرارا لمبدأ الانتقام والثأر المستمر من الذرية الى الجيل الرابع ، حتى لو لم يذنب منهم أحد ، ولو لم تسمع الذرية بما صنعه الأجداد ، لتحمل وزره .

الوصية الثالثة : « لاتنطق باسم الرب إلهك باطلا ، لأن الرب لا يبريء من نطق باسمه باطلا » .

وهذا مبدأ طيب لصيانة الذات الإلهية من عبث المخلوقات ، ولكن ما أكثر ما ادعى اليهود على الله باطلا ، وهل معظم ما في التوراة صحيح وقد مر بنا بعضه ؟ أم انه افتراء وعدم تنزيه للذات الإلهية عن عيوب الناس .

الوصية الرابعة : « اذكر يوم السبت المقدس ، ستة أيام تعمل ، وتصنع جميع عملك وأما اليوم السابع ففيه سبت للرب إلهك . لاتصنع عملا ما ، أنت وابنتك وابنتك وعبدك وأمتهك ، وبهيمنتك ونزليك الذي داخل أبوابك لأن في ستة أيام صنع الرب السماء والأرض والبحر وكل ما فيها . واستراح في اليوم السابع » لذلك بارك الرب يوم السبت وقدمه .

هل عمل اليهود من بعد موسى بهذه الوصية ؟ إن يوم السبت كان من أيام حروبهم وعدوانهم في فلسطين وسيناء منذ وضعوا أقدامهم فيها قديما ، حتى تسربهم اليها مع الاستعمار الانجليزي وخلال حربهم الأخيرة في سيناء وسوريا والأردن .

الوصية الخامسة : « أكرم أباك وأمك لكي تطول أيامك على الأرض التي يعطيك الرب إلهك » .

وقد مر بنا ما صنعه جدهم يعقوب بأبيه إسحاق من خديعة .
الوصية السادسة : « لاتقتل .. » .

وقد فهم اليهود من هذه الوصية أنهم لا يقتلون اليهود ، أما غيرهم من الناس فدمأؤهم حلال لهم وسنرى كيف افتحوا أيامهم في فلسطين بمذبحة أريحا الفظيعة .

الوصية السابعة : « لاتزن ... » .

الوصية الثامنة « لاتسرق ... » .

هذا مبدأ طبيعي وأصيل . ولكن اذا تذكرنا وصية الرب لليهود مرتين بأن يسرقوا المصريين قبل مبارحة أرضهم ، نجد أن هذه المبادئ ، انما تنطبق على ما يحدث بين بعضهم والبعض الآخر ، لامع غيرهم من الناس .. ولهذا لا يدهشنا

أن اليهود مارسوا حياة احتيال مستمرة مع جميع الأجناس والعناصر التي عاشوا معها .

الوصية التاسعة : « لاتشهد على قريبك شهادة زور » .
الوصية العاشرة : لاتشته بيت قريبك ، ولاتشته امرأة قريبك ، ولا أمته ، ولا ثوره ، ولا حماره ، ولا شبيئا مما لقريبك » .
وهذه الوصية بدورها تؤكد ان مايقيد اليهودى مما جاءهم به موسى ، لايقيده بالنسبة لبقية الناس من غير اليهود .. ان الأمر منصب على « القريب » ولايشمل غيره !!
وهذه الوصية بدورها تقصر منع الغصب على ما فى يد اليهودى . أى هكذا فهمها الاسرائيليون على مر تاريخهم .

وقد عرضنا من قبل آفاق المعرفة وأبعاد الحضارة ، وقواعد السلوك التى عاش عليها الأقوام الذين عايشوا اليهود من بابليين وأشوريين ومصريين وكيف أن علاقة الفرد بالأسرة وبالجماعة وبسلطة الحكم كانت تساعد على الابداع والتفوق فى الحياة المادية وفى الحياة العقائدية .. حقيقة كان لفكرة البعث بعد الموت ، أو الحياة الأخرى سلطان كبير على أفكار المصريين بحيث وجهت حياتهم توجيهها فيه مسئولية الحساب بعد الحياة وترقب هذا الحساب بالعمل الصالح .
: وإذا عرضنا لعقائد اليهود فى عهد موسى بصفة خاصة ، وعلى الصورة التى دونتها التوراة ، فانا لانجد للحياة الأخرى أى ذكر ، وإذا تتبعنا فكرهم الدينى ؟! فلا نجد شيئاً من هذا .. فهل كان ذلك معارضةً للمصريين ومعاندة لهم ؟! إنا نجد القرآن الكريم ، وهو يعرض للنقاط الأساسية للعقيدة الموسوية ، يضع فيها الحياة الأخرى فى وضع واضح لاخفاء فيه ، وقد قدمنا قبل ذلك النص الدال عليه .

لقد تحدثت التوراة فى سرعة ، بمرور عابر عن « الهاوية » أى المصير الذى ينتظر الأحياء . ولكن الهاوية هذه لاتعنى ماتدل عليه العقائد السماوية بعد ذلك ، ولا العقائد المصرية بخاصة عن الحياة الثانية .

ثم ان روح العدل ، والتزام الصدق ، وكانا شعارا أساسيا لحياة المصريين ، لاتلمح معانيهما فى الوصايا العشر ، ولا فى تطبيقها بعد ذلك والعدل والصدق ، ينصب أثرهما على الذين يتعامل معهم الانسان . واليهود عُدوا كل

انسان غير يهودى فريسة لهم ان أمكنهم افتراسه ، سواء فى روحه أو ماله أو عرضه .. ولهذا كان «ابيعيا أن تختفى من تطبيقاتهم للشريعة فضيلتنا العدل والصدق ، وهذه هى مأساة اليهود الكبرى منذ تركهم موسى عليه السلام إلى اليوم ، وإلى الغد ، وإلى الأبد . إنها مأساة سلوك سنتتبع آثارها ونتائجها فيما بعد .

يقول لنا « جيمس هنرى برستد » كبير مؤرخى الحضارة القديمة ، وهو أمريكى الجنسية فى كتابه الممتع فجر الضمير الذى أشرنا إليه من قبل مايتى : « لقد حفظت فى طفولتى ، مثل اخوانى من الصبية الوصايا العشر ، وعلمت أن أحترمها . لأنه أكد لى أنها أنزلت من السماوات على « موسى » وان اتباعها كان من أجل ذلك لزاما على . وانى أذكر اننى كلما كذبت ، كنت أجد لى نفسى سلوى فى أنه لا توجد وصية تقول : لا يجب عليك أن تكذب . وان الوصايا العشر لا تحرم الكذب الا فى شهادة الزور فقط . أى عندما يؤدى الانسان شهادة أمام المحاكم يمكن أن تضر جاره . ولما اشتد ساعدى ، بدأت أشعر فى نفسى بشيء من القلق ، وأخذت أحس بأن قانون الأخلاق الذى لا يحرم الكذب هو قانون ناقص . »

ويمضى برستد فى سرد خواطره بقوله :

« وبقيت هذه الفكرة تجول بخاطرى زمنا طويلا ، قبل أن أضع لى نفسى السؤال الهام التالى : كيف ظهر فى نفسى الشعور بهذا النقص ؟ ومن أين حصلت بى نفسى المقياس الخلقى الذى كشفت به عن هذا النقص فى الوصايا العشر ولقد كان يوما أسود على احترامى الموروث للعقيدة الدينية القائلة بنزول الوحي ، حين بدأت عندى تلك التجربة النفسية . بل قد ظهرت أمامى تجارب أشد اقلاقا لى نفسى ، وذلك عندما كشفت ، وأنا مستشرق مبتدىء أن المصريين كان لهم مقياس خلقى أسمى بكثير من الوصايا العشر وان هذا المقياس ظهر قبل أن تكتب تلك الوصايا بألف سنة . »

ثم يضع برستد يدنا على مصادر التفكير العبرى حين يقول :

« كان أعظم كشف جاوز حد المؤلف ، هو اننا عرفنا ان حكمة « امينوبى » التى حفظت لنا فى ورثة مصرية بالمتحف البريطانى ، قد ترجمت الى العبرية فى الأزمان الغابرة ، وانه بانتقالها الى فلسطين ، صارت مصدرا استقى منه جزءا بأكمله من كتاب الأمثال فى التوراة .

« وأصبح واضحا الآن ان التقدم الاجتماعى والخلقى الناضج ، الذى أحرزه البشر فى وادى النيل ، وهو أقدم من التقدم العبرى بثلاثة آلاف سنة قد ساهم مساهمة فعلية فى تكوين الأدب العبرى الذى نسميه نحن التوراة . وعلى ذلك ، فان ارثنا الخلقى مشتق من ماض انسانى واسع المدى أقدم بدرجة عظيمة من ماضى العبرانيين ، وان هذا الارث لم ينحدر اليانا من العبرانيين ، بل جاء عن طريقهم .. »

وسوف نعرض للطريقة التى جمعت بها التوراة الحالية .. ولكننا الآن نقف عند الاصحاح العشرين من سفر الخروج الذى تضمن هذه الوصايا العشر ومايليه ، وقد تضمن « الأحكام » و « الأحكام » تتضمن تفاصيل جزئية كثيرة جدا .. فعندما يذبح اليهود ضحايا البهائم ، يصفون دماءها فى إناء كبير ، ويلطخون به عتبات بيوتهم ، حتى إذا طاف الرب ، أو المهلك ، ليقضى على غير اليهود ، يستطيع أن يتبين أين يسكن أفراد الشعب المختار من بقع الدماء أمام الأبواب فلا يهلكهم خطأ !! واذا اشترى يهودى عبدا عبرانيا ، فعليه أن يستخدمه ست سنين ويعتقه من العام السابع ، فاذا أصر على العبودية فان السيد المشتري يثقب أذنه تمييزا له ، ويظل فى خدمته الى الأبد !!

ومن « الأحكام » المكلمة للوصايا العشر انه ان نطح ثور رجلا أو امرأة ، فمات ، يرمج الثور « يضرب بالحجارة حتى يموت » ولا يؤكل لحمه ولكن اذا كان الثور معروفا بالنطاح من قبل ، فان صاحبه يقتل مع ثوره أو يدفع فدية . واذا نطح ثورا آخر وقتله ، يباع الثور المعتدى ويقتسم صاحبه الثمن مع صاحب الثور القتيل ، وكذلك يقتسمان ثمن الثور القتيل ولكن .. اذا علم أنه ثور نطاح من قبل ، ولم يضبطه صاحبه ، يعرض عن الثور بثور والميت يكون له ! واذا كان العلامة « برستد » قد لاحظ ان النهى عن الكذب لم يرد فى الوصايا العشر ، فإنه ورد فى الأحكام نهى عن ارتكاب اليهودى الكذب على اليهودى .

ويبدو من تتبع هذه النصوص ، وهى كثيرة ، انها وضعت لشعب بدائى انغلق على نفسه ، فى مصر ، وظل هائما على حدود مستنقعات بحيرة المنزلة ، لم يكتسب من الحضارة الرفيعة حوله شيئا يذكر ، وكانت فترة اقامته ، أو معظمها فى عصر الفتن الهكسوسية ، وهؤلاء أيضا كانوا أقواما طارئى ، صناعتهم الحرب وحدها ، وربما أمكن تشبيههم الى حد ما بالتتار ، الذين عاثوا فى الأرض

فسادا ، ولم يتشربوا بحضارة المسلمين والهنود الا بعد أن استقروا ، ووضعوا سلاحهم .

وتروى التوراة انه بعد ان نزل موسى من الجبل بالوصايا « وجميع أقوال الرب وجميع الأحكام » أخذ ميثاق القوم باطاعة ما جاء به ، فقالوا : كل ماتكلم به الرب نفعل ونسمع له . وأخذ موسى الدم ، ورش على الشعب ، وقال هوذا دم العهد الذى قطعه الرب معكم على جميع هذه الأقوال . ثم صعد موسى وهارون .. وسبعون من شيوخ اسرائيل ، ورأوا له اسرائيل وتحت رجله شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف ، وكذات السماء فى النقاوة . ولكنه لم يمد يده الى أشرف بنى اسرائيل . فرأوا الله ، وأكلوا وشربوا .

ويبدو ان هذا الصعود كان الى هضبة قريبة فى الجبل ، فقد رأينا من قبل الهول فى تسلقه كاملا ، من شباب دربوا على هذا العمل .

إله فى صندوق :

واصل موسى الصعود ، وظل فى أعلا الجبل أربعين نهارا وأربعين ليلة ، يتلقى خلال هذه المدة الوصايا والأحكام وعندما دون اليهود توراتهم بعد ألف سنة من هذه الأحداث ، رووا الكثير الممتع من تعليمات السماء كما تخيلوها ، وهى تبلغ لموسى ..

ويبدو أن « رب » اسرائيل كان مغرما مثلهم بالذهب ، فقد طلب من موسى وهو فوق الجبل أن يتقدم له اليهود بـ .. « ذهب » و« فضة » ، ونحاس ، واسمانجونى ، وأرجوان ، وقرمز ، وبوص ، وشعر معزى ، وجلود كباش محمرة ، وجلود نخس وخشب سنط .. الخ ..

وقال لهم « الرب » انه يطلب هذه الأدوات لسبب هام وهو : « فيصنعون لى مقدسا لأسكن فى وسطهم » ..

وراح « الرب » يصف مسكنه ، فاذا هو تابوت من خشب السنط طوله ذراعان ونصف ، وعرضه ذراع ونصف ، وارتفاعه ذراع ونصف . « وتغشيه بذهب نقى . من داخل وخارج تغشيه . وتضع عليه اكليلا من ذهب حواليه . وتسبك له أربع حلقات من ذهب » وتجعلها على قوائمه الأربع ، على جانبه الواحد حلقتان . وعلى جانبه الثانى حلقتان . وتصنع عصوين من خشب السنط ، وتغشيهما بذهب . الخ .. « ولهذا التابوت غطاء من ذهب نقى طوله

ذراعان ونصف ، وعرضه ذراع ونصف ، وتصنع كرويين من ذهب ، صنعة خراطة تضعهما على طرفي الغطاء .

ويوجد من بين طلبات الرب مائدة من خشب السنط مغشاة بذهب نقي ولها أكليل من ذهب وحلقات من ذهب . كما طلب « الرب » أيضا منارة من ذهب نقي عمل خراطة .. ووضعت مواصفات كاملة لهذه الأدوات كلها .

ويتحدث الاصحاح السادس والعشرون عن المسكن المصنوع من البوص ، تغطيه خيمة من شعر المعزى ، أوتادها من النحاس . وتكون الاضاءة بزيت الزيتون المرضوض النقي ، يقدمه بنو اسرائيل ، فريضة دهرية في أجيالهم .. وهناك ثوب يرتديه كاهن هذا المعبد ، والكهنة من سلالة هارون أخى موسى ، ووصف الرداء مسهب ، وهو مثقل برقائق وجدائل الذهب ، وفوق هذا جبة فتحة رأسها في وسطها ، ومعلق بأذيالها جلاجل من ذهب ورمانات فتكون على هارون للخدمة ليسمع صوتها عند دخوله الى القدس ، أمام الرب ، وعند خروجه ، « لئلا يموت » :

وتتمزج طقوس العبادة « والاجتماع بالرب » في خيمة الاجتماع ، بمنظر دموى هو ذبح ثور واستصفاء دمه ، وصبه في أسفل المذبح ، وذبح كبش ، ورش دمه على المذبح من كل ناحية . وتحرق أجزاء من الثور ، وتقطع أجزاء الكبش الى قطع ، ويحرق الكبش على المذبح .. ويذبح كبش ثان لهارون وأبنائه « وتأخذ من دمه وتجعل على شحم أذان بنيه (أبنائه) اليمنى ، وعلى أباهم (جمع أبهام اليد) أيديهم اليمنى ، وعلى أباهم أرجلهم اليمنى . وترش الدم على المذبح من كل ناحية . وتأخذ من الدم الذى على المذبح ، ومن دهن المسحة ، وتنضح على هارون وثيابه ، وعلى بنيه وثياب بنيه معه . ثم تأخذ من الشحم .. الخ وتردها ترديدا أمام الرب . ثم تأخذها من أيديهم (الكاهن وأبنائه) وتوقدها على المذبح فوق المحرقة ، رائحة سرور أمام الرب . وقود هو للرب » .

وعند نزول موسى من الجبل : أخذ معه لوحى حجر مكتوبين بأصبع الله . وإذا به يفاجأ بأن أخاه هارون كفر بإله أخيه موسى ، وصنع عجلا مسبوكا من الذهب ساهم فيه النساء بأقراطهن « وقد أخذنها من المصريات قبل الخروج » واستعمل الأزميل في تصوير هذا العجل وسبكه .. وبدأ تقديم القربان لهذا الوثن الذهبى ، وعبادته !

وغضب « رب » اسرائيل غضبا شديدا على هذه الردة . ولكن موسى لم يكن معجبا بالرب في هذا الغضب ، وقال له : « ارجع من حمو غضبك ، واندم على

الشر بشعبك .. أذكر ابراهيم واسحاق واسرائيل عبيدك الذين حلفت لهم
بنفسك ، وقلت لهم أكثر نسلك كنجوم السماء ، وأعطى نسلكم كل هذه الأرض
التي تكلمت عنها ، فيملكونها الى الأبد » ..

ماذا كانت نتيجة لوم موسى ، لربه على غضبه الحامى ؟ .. قالت توراتهم :
« فندم الرب على الشر الذي قال انه يفعله بشعبه » !!

وإذا كانوا قد أجازوا أن يكلم موسى ربه بهذا الكلام الخشن البعيد عن
اللياقة ، فانهم نسبوا أيضا الى الرب أنه وصفهم بأنهم شعب صلب الرقبة أى
قساة ، وهذا وصف رقيق اذا قورن بما اقترفوه ، من صناعة وثن ، من ذهب ،
يعبدونه من دون الله .

وحسنا صنع اليهود عندما قالوا ان موسى من فرط غضبه عليهم رمى
بالواح التي خط عليها الرب وصاياها « بأصبعه » ، رمى بالألواح على الأرض
وحطمها تحطيمًا « أعاد كتابتها مرة أخرى » . كما أنه سحق العجل الذهبى
سحقا حتى أصبح كالتراب « لاندرى كيف ؟ » ثم ذراه على وجه الماء « لانعلم
إنه كان بسيناء ماء غير ماء الآبار العميقة » وسقى منه بنى اسرائيل « حوالى
ثلاثة أرباع مليون نسمة » ثم أمر بقتل حوالى ثلاثة آلاف رجل ، على أن ينفذ
الحكم الأخوة . فى أخوتهم ، والأصدقاء فى أصدقائهم .

وعلى الرغم مما فى هذه التصرفات من غرابة ، فان هذه القسوة فى تنفيذ
العقوبة ، تذكرنا بحقيقة القلوب الاسرائيلية ، وهى أنها كالحجارة ، أو أشد
قسوة !

وتروى التوراة أن تأثرات « فسيولوجية » كانت تحدث على وجه موسى أثناء
محادثاته مع الرب فى الخيمة ، وكان يضع برقعا على وجهه أثناء هذه
المحادثات . فاذا نزع لمع وجهه !!

ويبدو أن موسى بذل جهدا مضنيا جدا وهو يصف مطالب « الرب » فى
تقديم قرابين المذبح ، من ثيران وكباش . إن أكثر من عشرين صفحة فى سفر
الخروج وسفر اللاويين بذلت فى شرح هذه الشريعة ، وفى شرح أنواع الأطعمة ،
ما يحل منه ، وما لا يحل .

ثم أعطى اهتماما خاصا لتأكيد سلطة الكاهن فى علاج الأمراض الجلدية
بصفة خاصة .. وهى أساليب ساذجة اذا ما قورنت بالطب المتقدم فى مصر التى
قدموا منها ، وكان أطباؤها يجرون العمليات الجراحية ، ومنها العملية
القيصرية . بل فيها عمليات فى المنخ تحت أجمجمة عن طريق الأنف . ووصل من

إكبارهم للأطباء أن منهم من ارتفع الى مقام الآلهة .
ويبدو أن اهتمام موسى بالأمراض الجلدية ، مرجعه الى ما عرف عن اليهود من كراهيتهم للاستحمام ، فلما أقبل فريق منهم على الاستحمام بعد ذلك ، وسموا السابحين عزلهم بنو اسرائيل عنهم ، وأصبحوا - لنظافتهم - أصحاب مذهب خاص بهم ، وهم الذين ورد ذكرهم في القرآن « باسم الصابئين » .
وكانت قد انتشرت بين اليهود أمراض عدم النظافة ، وظاهرتها الأمراض الجلدية وموسى تربى في قصور حثشبسوت - أميرة ومملكة - ولهذا درج على عادات المصريين من حب النظافة ، وهى طابع الشعوب المتفوقة في حضارتها ..
ولا عجب أن نراه يولى هذا الاهتمام للنظافة ، مثلما أولى اهتماما خاصا لموضوع الأطعمة . فقد أقام اليهود في مصر قرونا لا يؤاكلهم المصريون ، كما ورد في التوراة .. فعدل من عاداتهم الطعامية ، بحيث تصبح مقاربة لما كان مألوفا في البلاد المتقدمة من حوله .

وقد مات منهم في وبياء واحد وهم في سيناء أربعة عشر ألفا وسبعمائة ومرة أخرى مات ٢٤ ألفا . كما تقول التوراة .

وعلى الرغم من رأى المصريين في اليهود ، فيبدو أن تزاوجا حدث بين فتيات يهوديات ومصريين ، وأنجب ذرية .

تروى التوراة في سفر اللاويين - الاصحاح ٢٤ ما يلي :

« خرج ابن امرأة اسرائيلية ، وهو ابن رجل مصرى ، في وسط بني اسرائيل ، وتخاصم في المحلة (معسكر) ، ابن الاسرائيلية ، ورجل اسرائيل . فجذف (شتم) ابن الاسرائيلية على الاسم (الرب يهوه) وسب » .
وأحضر المصرى الأب أمام موسى ، فاستشار الرب ، فأمر بقتله رجما ، وذلك لأن « الغريب كالوطنى عندما يجذف على الاسم قتل : يرحمه كل الجماعة رجما » .

ونجد لليهود تقاليد مستمدة من التوراة في معاملة الأرض ، ففي الاصحاح الخامس والعشرين من سفر اللاويين هذه الفقرة (٢٣) على لسان الرب :
« والأرض لا تباع بته . لأن لى الأرض ، وأنتم غرباء ، ونزلاء عندى . بل فى كل أرض ملككم تجعلون فكاكا للأرض . اذا افتقر أخوك فباع من ملكه ، يأتى وليه الأقرب اليه ويفك مبيع أخيه » .

ومعنى هذا النص الا يملك انسان أرضا وتكون الأرض كلها ملكا للكاهن الأعظم وأعوانه .

وكانت عقوبات التوراة ضد اليهود قاسية حتى وصلت بهم الى قولها :
« ... وأذريكم بين الأمم ، وأجرد وراءكم السيف ، فتصير أرضكم موحشة ومدنكم تصير خربة » .
وقررت التوراة على لسان موسى أن خلافهم معه سوف يترتب عليه « ابادتهم » .

الوصايا في الإنجيل والقرآن :

عندما عرض السيد المسيح عليه السلام للوصايا أجملها ، كما ورد في انجيل لوقا على النحو الآتى :
« وسأله فريسي قائلا : أيها المعلم الصالح ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية » .

« فقال يسوع : بلماذا تدعونى صالحا .. ليس أحد صالحا الا واحدا وهو الله ؟ أنت تعرف الوصايا . لا تزن . لا تقتل . لا تسرق . لا تشهد بالزور . أكرم أباك وأمك » . .
« فقال : هذه كلها حفظتها منذ حدثتى » .

فلما سمع يسوع ذلك قال له : يعوزك أيضا شيء . بع كل مالك ، ووزع على الفقراء فيكون لك كنز فى السماء . وتعال اتبعنى » .
« فلما سمع ذلك حزن لأنه كان غنيا جدا » .

« فلما رآه يسوع قد حزن ، قال : ما أعسر دخول ذوى الأموال الى ملكوت الله . لأن دخول جمل من ثقب ابرة أيسر من أن يدخل غنى الى ملكوت الله » .
وواضح من هذه الكلمات مدى العمق الذى أدخلته الدعوة المسيحية على العقيدة اليهودية .

وقد تحدث القرآن الكريم عن الوصايا العشر ونجدها هنا صافية ، خالصة ، مشرقة بالخير ، موجزة فى الأداء ..
ففى سورة البقرة :

« وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل ، لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا ، وذى القربى واليتامى والمساكين ، وقولوا للناس حسنا ، وأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة .. » .

عمل السبت .. وعقوبة القتل :

وما من شيء أكدت عليه التوراة مثل تقديس يوم السبت ، وضرورة التوقف عن كل عمل فيه :

« وكلم الرب موسى قائلاً : وأنت تكلم بنى اسرائيل ، سبوتى (جمع سبت) تحفظونها . لأنه علامة بينى وبينكم فى أجيالكم لتعلموا انى أنا الرب الذى يقدسكم . فتحفظون السبت لأنه مقدس لكم . من دنسه يقتل قتلاً . ان كل من صنع فيه عملاً تقطع تلك النفس من بين شعبها ستة أيام يصنع عمل . وأما اليوم السابع ففيه سبت عطلة مقدس للرب . كل من صنع عملاً فى يوم السبت يقتل قتلاً . فيحفظ بنو اسرائيل السبت ليصنعوا السبت فى أجيالهم عهداً ابدياً . هو بينى وبين بنى اسرائيل علامة الى الأبد ... » .

وهكذا نجد فى فقرة واحدة (اصحاح ٣٠ سفر الخروج) تكررت عقوبة القتل أكثر من مرة لكل من يقوم بعمل يوم السبت ، ثم نرى هذا التحذير ، وهذه العقوبة يتوالى ذكرها كلما تقدمنا فى قراءة التوراة .

وعلىنا أن نتذكر أن اليهود الذين آمنوا بهذه التوراة وعاشوا فيها أيامهم ولياليهم خمسة وثلاثين قرناً كاملة ، وهم يريدون أن يطبقوا بعض فقرات دونها فيها خاصة بميراثهم الأرض التى بين النيل والفرات . هؤلاء هم الذين تابعوا الحرب يوم السبت فى معارك الأيام الستة (٥ يونيو - حزيران سنة ١٩٦٧) فقد بدأت هذه المعارك يوم الإثنين وانتهت يوم الأحد التالى . ولم يرد فى التوراة أى استثناء لأيام الحروب . من منع العمل فى سبوتها وعدم تطبيق عقوبة القتل على مخالفيها .. وهذا يدلنا على هؤلاء القوم الذين يؤمنون ببعض توراتهم اذا وافقت هواهم ، ويتركون البعض لمصالحهم ، ومهما تشددت التوراة وحذرت وأندرت .

لمن تدق الأجراس :

الطقوس اليهودية المدونة فى التوراة ، والتى تتضمن تفاصيل العبادة ، ومكان العبادة ، وصفات وأثواب الحاخام الأعظم مفصلة جداً ، ومطولة جداً ، وكلها منسوبة للرب ، اذ تبدأ بالجملة التالية :

« وكلم الرب قائلاً ... » .

وما ذكروا فى التوراة أن موسى أشرف على صنعه هو مسكن وخيمة تقام على خمسة أعمدة ، تغلف رؤوسها وقضبانها بالذهب وقواعدها بالنحاس . وتابوت

(صندوق) من خشب السنط طوله ذراعان ونصف ، وعرضه ذراع ونصف وارتفاعه ذراع ونصف ، مزين بسبائك الذهب ، وحلقات رفعه من الذهب وغطاؤه من الذهب النقي ، مزين بكرات ذهبية ، كما تصنع مائدة من خشب السنط ، وكل أجزائها مزينة بالذهب . أما « الأواني التي على المائدة فصحافها وصحونها وجاماتها وكأساتها التي يسكب بها من ذهب نقي » . وتضاف الى هذا كله منارة ذهبية ، ومذبح للبخور - مذهب كله - ثم يصنع أيضا مذبح للذبائح « طوله خمسة أذرع وارتفاعه ثلاثة أذرع » . وإذا كنت قد ضقت من تكرار كلمة الذهب ، فهذا المذبح وأوانيه من خشب السنط وزينته من النحاس ، لأنه سيتلطح بدماء الذبائح .

وحتى يمكن الحصول على هذه الكميات المطلوبة من الذهب فقد أمر الرب موسى ، كما تقول التوراة ، بفرض ضريبة من الذهب على كل رأس ، وأخرى من الفضة ، وثالثة من النحاس .

كل هذا ، وقد استغرق عدة صفحات من التوراة ، ليس بشيء ، اذا تأملنا وصف الملابس التي أمر الرب هارون أخا موسى بارتدائها ، بوصفه كاهن المعبد . ولنستأذن القارئ في أن نقدم وصف هذه الملابس بنفس النص الوارد في التوراة ، حتى تكون الفكرة لدينا واضحة ومباشرة عن هذه الطقوس ..

الاصحاح التاسع والثلاثون

« ومن الأسمانجوني والأرجوان والقرمز صنعوا ثيابا منسوجة للخدمة في المقدس وصنعوا الثياب المقدسة التي لهارون . كما أمر الرب موسى » .
فصنع الرداء من ذهب وأسمانجوني وأرجوان وقرمز وبوص مبروم . ومدوا الذهب صفائح وقدوها خيوطا ليضعوها في وسط الأسمانجوني والأرجوان والقرمز والبوص صنعه الموشى وصنعوا له كتفين موصولين . على طرفيه اتصل وزنار شده الذي عليه كان منه كصنعته من ذهب وأسمانجوني وقرمز وبوص مبروم . كما أمر الرب موسى وصنعوا حجرى الجزع محاطين بطوقين من ذهب منقوشين نقش الخاتم على حسب أسماء بنى اسرائيل . ووضعها على كتفي الرداء حجرى تذكرا لبنى اسرائيل . كما أمر الرب موسى وصنع الصدرية صنعة الموشى كصنعة الرداء من ذهب وأسمانجوني وأرجوان وقرمز وبوص مبروم . كانت مربعة مثنية صنعوا الصدرية طولها شبر وعرضها شبر مثنية . ورضعوا فيها أربعة صفوف حجارة . صف عقيق أحمر وياقوت أصفر وزمرد . الصف

الأول ، والصف الثانى بهرمان وياقوت أزرق وعقيق أبيض . والصف الثالث عين الهرويشم وجمست . والصف الرابع زبرجد وجزع ويشب محاطة بأطواق من ذهب فى ترصيعها . والحجارة كانت على أسماء كنعش الخاتم . كل واحد على اسمه للاثنى عشر سبطا . وصنعوا على الصدر سلاسل مجدولة صنعة الضفر من ذهب نقى . وصنعوا طوقين من ذهب وحلقتين من ذهب وجعلوا الحلقتين على طرفى الصدر . وجعلوا ضفيرتى الذهب فى الحلقتين على طرفى الصدر . وطرفا الضفيرتين جعلوهما فى الطوقين . وجعلوهما على كتفى الرداء الى قدامه . وصنعوا حلقتين من ذهب ووضعوهما على طرفى الصدر . على حاشيتها التى الى جهة الرداء من داخل . وضعوا حلقتين من ذهب وجعلوهما على كتفى الرداء من أسفل من قدامه عند وصلة فوق زنار الرداء . وربطوا الصدر بحلقتيها الى حلقتى الرداء بخيط من أسمانجونى ليكون على زنار الرداء . ولا تنزع الصدر عن الرداء . كما أمر الرب موسى .

وصنع جبة الرداء صنعة النسيج كلها من أسمانجونى . وفتحة الجبة فى وسطها كفتحة الدرع . وفتحتها حاشية حواليتها . لا تنشق وصنعوا على أذيال الجبة رمانات من أسمانجونى وأرجوان وقرمز مبروم . وصنعوا جلاجل من ذهب نقى . وجعلوا الجلاجل فى وسط الرمانات على أذيال الجبة حواليتها فى وسط الرمانات . جلجل ورمانة . جلجل ورمانة . على أذيال الجبة حواليتها للخدمة . كما أمر الرب موسى .

وصنعوا الأقمصة من بوص صنعة النسيج لهارون وبنيه . والعمامة من بوص مبروم . والمنطقة من بوص مبروم وأسمانجونى وأرجوان وقرمز صنعة الطراز . كما أمر الرب موسى .

وصنعوا صفيحة الاكليل المقدس من ذهب نقى .. وكتبوا عليها كتابة نقش الخاتم . قدس للرب . وجعلوا عليها خيط أسمانجونى لتجعل على العمامة من فوق . كما أمر الرب موسى .

وقد اقتصر دخول مكان التابوت على الكاهن الأكبر ، وكان وقتها هارون أخو موسى ، ثم اقتصر هذا المنصب على الأكبر من سلالته من اللاويين ، وواحدهم يسمى لاوى ، وهو الاسم اليهودى المعروف « ليفى » .

أما الأجراس التى فى ذيل أثواب الحاخام الأكبر فلها مهمة . إذ عليه أن يهز نفسه . حتى تدق الأجراس ، فيتنبه الرب (سبحانه وتعالى عما يصفون) الى دخوله . وإذا لم يتم بهذا التنبيه الصوتى فإنه يموت فوراً . وإذا دخل أحد

الى مكان التابوت غير الكاهن الأكبر فانه يموت . تقول التوراة « وكلم الرب موسى بعد موت ابني هارون ، عندما اقتربا أمام الرب وماتا ، وقال الرب لموسى : كلم هارونا أخاك ألا يدخل كل وقت الى القدس (مكان التابوت) داخل الحجاب أمام الغطاء الذى على التابوت لئلا يموت . لأنى فى السحاب اترأى على الغطاء .. » .

انتقام الرب :

وتمضى التوراة فى ذكر تفاصيل الضحايا من الثيران والثيروس ، وطريقة تقديمها وطريقة التصرف فى دماؤها ، واحشائها ، وباقى أجزائها . فاذا نفذ بنو اسرائيل هذا كله ، فان الرب يجعل مسكنه فى وسطهم ، ولا ترذلهم نفسه « .. وأسير بينكم ، وأكون لكم إلها ، وأنتم تكونون لى شعبا » .
أما اذا حدثت الأخرى فان التوراة تفصل العقوبات التى تحل ببني اسرائيل جزاء عصيانهم وهى على مراحل :

● تبدأ بقول الرب : « أسلط عليكم رعبا ، وسلا ، وحمى ، تقنى العينين وتتلف النفس ، وتزرعون باطلا زرعكم ، فيأكله أعداؤكم . واجعل وجهى ضدكم ، فتنهزمون أمام أعدائكم ، ويتسلط عليكم مبغضوكم ، وتهربون وليس من يطردكم » .

● فاذا استمر بنو اسرائيل فى عصيانهم زادت عقوباتهم سبعة أضعاف وأصبحت سماؤهم كالحديد وأرضهم كالنحاس ، ولا تعطى أرضهم أى ثمر .

● فاذا تابعوا العصيان ضوعف العقاب سبع مرات أخرى ، وانطلقت عليهم وحوش البرية ، فتهلك الأولاد والبهائم ، وتجعل الطرق موحشة .

● واذا واصلوا خلافهم مع الرب فإنه يرسل عليهم الوباء ثم المجاعة حتى يأكل الآباء لحم الأبناء والبنات ، ويخرب ديارهم ويلقى جثثهم على الأصنام التى يعبدونها من دون الله يقول : « وأذريكم بين الأمم ، وأجرد وراءكم السيف فتصير أرضكم موحشة ومدنكم تصير خربة » ومن تبقى منهم يزرع فى قلوبهم الخوف والجبن ، فيهزمهم صوت ورقة يدفعها الهواء . فيهلكون بين الشعوب .

وتمضى التوراة فى تعداد بعض الذنوب وطريقة تحقيقها . وهو أمر موكل الى الكاهن . مثل الزوج الذى يحس أن زوجه خائنه دون أن تكون

لديه بيعة فان الكاهن يسقيها من اناء خزف اختلط به بعض من تراب بيتها ، فتشربه وتقسم . فان كانت كاذبة فان ماء اللعن ينفخ بطنها ويسقط فخذها . وان كانت صادقة حملت ولم يضرها الماء .

وبعد أن نزل موسى من الجبل ، كان مأذونا له أن يدخل الخيمة ويتقدم الى ما وراء الستار حيث يوجد تابوت الرب وكان يسمع الصوت يكلمه من على الغطاء الذى على التابوت .

وكان التابوت يسير أمام بنى اسرائيل ، وهم يرتحلون فى التيه وكان موسى يخاطبه قائلا : قم يا رب فلتبدد أعدائك ، ويهرب مبغضوك من أمامك ...!! وفى نهاية كل مسيرة كان موسى يقول : ارجع يا رب . وكثيرا ما اشتكى موسى لربه من سوء ما يجد من قومه . ومن ذلك : « فلما سمع موسى الشعب بيبكون بعشائهم كل واحد فى باب خيمته وحمى غضب الرب جدا ساء فى عينى موسى . فقال موسى للرب لماذا أسأت الى عبدك ولماذا لم أجد نعمة فى عينيك حتى أنك وضعت ثقل جميع هذا الشعب على . ألعلى حبلت بجميع هذا الشعب أو لعلى ولدته حتى تقول لى احمله فى حضنك . كما يحمل المربى الرضيع الى الأرض التى حلفت لأبائه . من أين لى لحم حتى أعطى جميع هذا الشعب . لأنهم بيبكون على قائلين أعطنا لحما لنأكل . لا أقدر أنا وحدى أن أحمل جميع هذا الشعب لأنه ثقيل على . فان كنت تفعل بى هذا فاقتلنى قتلا ان وجدت نعمة فى عينيك . فلا أرى بليتى » .

وعندما ما تقدم هارون ومريم أخته بشكوى ضد موسى ، لأنه اتخذ له زوجة من بنات كوش ، غضب الرب عليهما وكلمهما مباشرة ، وقال ان موسى وحده هو الذى اصطفاه ليكلمه مباشرة وعيانا بغير وحى ولا الغاز ، لأنه أمين . أما غيره فانه يخاطبهم بالرؤيا فى الحلم . وغضب الرب على هارون وأصابهما بالبرص حتى تشفع فيهما موسى .

وتقررت ضريبة على كل بنى اسرائيل يدفعونها لأسرة هارون - اللاويين ، لأنهم أصبحوا مكلفين بالتوارث - والى الأبد - بخدمة خيمة الرب ، لا يقترب منها أحد غيرهم .

تقييم موسى ودعوته :

أول ما يتبادر الى الذهن في تقييم الدعوة الموسوية ، هو أنها وجهت الى القبيلة الاسرائيلية ، ثم الى المصريين وملكهم ، وعلينا الآن أن نتتبع في المرجع اليهودي الأول - وهو التوراة - تأثير هذه الدعوة على من وجهت لهم من قومه ، في حياته . ونحن نذكر أن موسى بقى في قومه أربعين سنة منذ نزلت عليه الرسالة ، وهي فترة طويلة جدا ، اذا قورنت بفترة بقاء المسيح عليه السلام داعية بين قومه - وهم أيضا اليهود - اذ لم تزد على ثلاث سنوات . وتزيد أيضا على فترة بقاء محمد ﷺ ، وقد بلغت ثلاثا وعشرين سنة ..

ولم يكن موسى وحده بين قومه ، فقد طلب من ربه أن يستعين بأخيه هارون ، ليكون وزيره ولسانه المعبر ، وناقل دعوته ، وأجيب الى طلبه . وقام هارون بواجبه هذا ، وفيه وفي أسرته انحصرت سداثة بيت الرب والقوامة على طقوس العبادة في الخيمة ، التي تحولت بعد ذلك الى معبد اوكنيسة .

تقول التوراة في الاصحاحين ١٣ و ١٤ من سفر العدد ، ان موسى أرسل بعثة استطلاع الى أرض فلسطين يحملون اليه أنباءها . فلما وصف بعضهم سكان فلسطين بأنهم أشداء أقوياء بلغ الرعب من الاسرائيليين مبلغه .

تقول التوراة :

« فرفعت كل الجماعة صوتها وصرخت ، وبكى الشعب تلك الليلة . وتذمر على موسى ، وعلى هارون جميع بنى اسرائيل ، وقال لهما كل الجماعة : ليتنا متنا في أرض مصر ، أو ليتنا متنا في هذا القفر (سيناء) . ولماذا أتى بنا الرب الى هذه الأرض لنسقط بالسيف . تصير نساؤنا ، وأطفالنا غنيمة ؟! أليس خيرا لنا أن نرجع الى مصر . فقال بعضهم لبعض رئيسا جديدا نختار ، ونرجع الى مصر » .

وتستطرد التوراة ، ان موسى وأخاه ما أن سمعا ان الاسرائيليين يريدون اختيار رئيس آخر ، حتى انكبا على وجهيهما في الأرض ، أمام كل مجموعة من مجموعات القبيلة الاسرائيلية ، متوسلين أن يعدل القوم عن هذا القرار . ولكن كان ردهم أن هموا برجم النبي وأخيه بالحجارة .

وأوحى الرب الى موسى ، أنه سيهلك قومه ، ولكن موسى خشى من شماتة المصريين ، فدعا ربه ، وسأله الغفران هذه المرة ، كما غفر لهم سيئات كثيرة منذ خروجهم من مصر ، وقبل الرب شفاعته موسى ، ولكنه قضى بأن الذين خالفوا ارادته ، « جميع الذين أهانوني (أهانوا الرب) ، لن يروا أرض فلسطين » .
وكان تعبير جامعى التوراة عنيفا وقاسيا ، وهو يصف هذا الموقف .
قال كتابهم :

« حتى متى أغفر لهذه الجماعة الشريرة المتدمرة على .. قل لهم .. فى هذا القفر تسقط جثثكم ، جميع المعدودين منكم حسب عددهم . من ابن العشرين سنة فصاعدا ، الذين تدمروا على ، لن تدخلوا الأرض التى رفعت يدي لاسكننكم فيها .. وأما أطفالكم الذين قلتم يكونون غنيمة ، فانى سأدخلهم ، فيعرفون الأرض التى احتقرتموها ، فجثثكم أنتم تسقط فى هذا القفر ، وبنوكم يكونون رعاة فى القفر أربعين سنة ، ويحملون فجوركم حتى تفنى جثثكم فى القفر .. لأفعلن هذا بكل هذه الجماعة الشريرة المتفقة على » .
ويبدو أن فريقا من قوم موسى خالفوا تعليماته وزحفوا إلى فلسطين فهزمهم الكنعانيون شر هزيمة .

ولم يكف القوم عن معاندة موسى ، فقد ورد فى التوراة ان فروعاً من هذه القبائل - من اللاويين ، سلالة ليفى - وكان عددهم ٢٥٠ رجلاً ثاروا على موسى ، لأنه لم يختار منهم كاهناً ، واكتفى باسناد سدانة (خدمة) خيمة الاجتماع لهم . وكان مما قالوه له : « أقليل انك اصعدتنا من أرض تفيض لبنا وعسلا (مصر) لتميتنا فى البرية ، حتى تتراس علينا ترؤسا ... » .
وقد بلغ الحنق من موسى مبلغه وطلب من الرب عقابهم ، وكانت عقوبة الرب لهم عنيفة ، اذ انشقت الأرض ، وفتحت فاهها ، وابتلعتهم ، وبيوتهم ، وأموالهم ، فنزلوا هم وكل ما كان لهم أحياء إلى الهاوية ، وانطبقت عليهم الأرض ، فبادوا من بين الجماعة » .
ولم ترق هذه العقوبة فى نظر باقى بنى اسرائيل ، فضربهم الله بوباء قضى على أربعة عشر ألفاً منهم وسبعمائة .
وبدأ تحرك موسى وقومه فى أرض مدين (شمال الحجاز وجنوب فلسطين) .
ويبدو أن هذه المنطقة كانت معدودة من ضمن أرض سيناء ، ولم يشملها تحريم

الرؤية أو الوصول ، الذى قضى به الرب قبل ذلك .. وانما التحريم كان قاصرا على أرض الكنعانيين .

وفي هذه المرحلة من التحرك ، ماتت مريم ومات هارون أخوها ، عند جبل اسمته التوراة جبل هور ، وعلى حدود مملكة أدوم . واستمرت مناخة اليهود على هارون ثلاثين يوما . وهكذا هم كل يوم فى حال : يوما يهيمون برجم هارون ، وأياما يبكون عليه .

وفي هذه الصحراء القاحلة الموحشة ، عاود اليهود تذرهم ، فشغبوا على موسى ولم يحترموا حزنه على أخيه وراحوا يصيحون فى وجهه : أين الخبز .. أين الماء ؟ « لقد كرهت أنفسنا هذا الطعام السخيف » .

ومرة أخرى - وليست أخيرة - حلت بقوم موسى عقوبة جديدة ، إذ هاجمتهم حيات الصحراء وثعابينها ، وهم القوم الذين كان الثعبان معجزة نبينهم الكبرى . وحتى يكف أذى الثعابين عنهم ، صنع موسى تمثالا من نحاس لحية رفعه على راية الجيش .. وهذه الشارة الثعبانية مستعارة من طقوس قدماء المصريين الذين كان يضعون تماثيلها زينة لتيجانهم . وأياما قوم مر اليهود بقربهم ، وأرادوا منهم حق مرور ، أو تموين ، رفض القوم التعامل معهم الا بحد السيف .

وواضح فى هذا التحرك ، مقابلة بعض القبائل الجنوبية ، ان اليهود لم يكونوا متحصنين بوصايا موسى ، ومنها منع الزنا .. فما أن رأى فريق منهم نساء الموابيين حتى جن جنونهم .. فإذا هم يخلعون دين التوحيد ويسجدون لتمثال « بعل » معبود هذه المنطقة ، حتى يتقربوا لنساء المنطقة .

ومرة أخرى حلت العقوبة الالهية باليهود ، فأصابهم الرب بوباء جديد ، قتل منهم أربعة وعشرين ألف نسمة ..

وجند موسى قوة من شباب قومه ، ولدوا فى سيناء بعد خروجهم من مصر ، لكى يبدأ أول معارك اليهود على أرض فلسطين . ويبدو أن ابتداء المعارك كان بعد خروجهم بأقل قليلا من أربعين سنة .

وقد أوحى لموسى ان رحلة حياته قاربت النهاية ، أو حسب تعبير التوراة أنه سوف ينضم الى قومه ، بعد أن تنتهى المعارك الأولى .

كان ميدان المعركة الأولى أهل مدين ، وكانت القوة الاسرائيلية ، من اثنى عشر ألف رجل « ألف من كل سبط من الأسباط » وقد أخذ أهل مدين على غرة ،

وكانت خطط موسى محكمة لهذه الغارة ، فهو لم ينس أنه كان ضابطاً في الحرس الفرعونى ، وأنه حضر معارك في السودان تحت الراية المصرية ، ولهذا بدأ باستكشاف مواقع العدو ، وأرض المعركة في حذر بالغ .. ولم يكن أحد من بين اليهود قاد حرباً ، أو شارك في قتال عسكري قبل ذلك .

وإلى جانب أسلحة القتال العادية ، زود موسى هذا الجيش بأبواق تصدر أصواتاً عالية لارهاب العدو . وكانت المفاجأة تامة للعدو ، لم يفق الا والسيوف تعلق رقاب القوم ، فهلك رؤساء مدين وكان حصاد هذه المذبحة :

- قتل جميع الذكور

- أخذ جميع النساء والأطفال سبايا

- نهب جميع المواشى وكل ما يمكن حمله

- احراق جميع المباني بالنار

وتنسب التوراة الى موسى تصرفاً بالغ القسوة ، إذ تقول انه غضب غضباً شديداً لانهم لم يقتلوا كل الاطفال ، وأمر بذبح جميع الذكور منهم . وكانت نعمة موسى على النساء شديدة . فكل امرأة كانت متزوجة أمر بقتلها لتلحق بزوجها الذى سبق قتله .

وما نحسب هذه القسوة البالغة من أخلاق النبوة ، ولكنها كانت ، ولا تزال فى تصور اليهود أمراً مقبولاً ومعقولاً .. فهم فى حربهم الحديثة ، وبغير وجود موسى النبى ، وبقيادة أمثال موسى ديان ، قاموا بمثل هذه المذابح فى فلسطين ، وما نبأ « دير ياسين » بالسرى الذى يخفى ، أو العمل الذى ينسى . وقد كوفىء الذين ارتكبوا هذا الجرم بأن أصبحوا وزراء وقوادا !!

وأمر موسى على حد قول التوراة - جنود المذبحة بأن يتطهروا سبعة أيام من ملامسة أهل مدين ، وأن يطهروا غنائمهم من الذهب والفضة والنحاس والقصدير والرصاص بصهرها فى النار ..

والمبالغة واضحة فى تقدير الغنائم فقد ذكروا انها ٦٧٥ ألف رأس من الغنم و ٧٢ ألفاً من البقر و ٦١ ألفاً من الحمير ومن بقى حياً من الفتيات العذارى كان ٣٢ ألفاً . وقد أمر موسى بأن يحصل كاهن المعبد على كل الغنم ونصف البقر والحمير وسلمت للكاهن الذى خلف هارون - واسمه العازار - ثم عادت التوراة وصححت رقم الغنم الذى زكى به لخيمة الرب الى النصف أيضاً !! وكذلك تقاسموا المعادن - ولا سيما الذهب .

وأسلوب الحرب الذى دونته التوراة ، ونسبته الى موسى ، ثم الى الرب ينص على ما يأتى كما ورد فى سفر العدد - اصحاح ٣٣ - .
« وان لم تطردوا سكان الأرض من أمامكم ، يكون الذين تستبقون أشواكا فى أعينكم ومناخس فى جنوبكم ، ويضايقونكم على الأرض التى أنتم ساكنون فيها . فىكون أنى أفعل بكم كما هممت أن أفعل بهم » .
وأوصى موسى أن تكون أرض اسرائيل هى أرض كنعان فى وسط فلسطين . وذكر حدودها تماما ، ليس منها النقب ، وليس منها الشمال . فهل نسيت التوراة ما سبق أن ذكرته على لسان ابراهيم ، وابنائهم ان ذريته من بعده ، سوف تملك ما بين النيل والفرات ، وتوسع يهود هذه الأيام فى تفسير هذا الوعد ، فقالوا انه يشمل جميع بلاد العرب الآسيوية بما فيها شبه الجزيرة العربية كلها وسوريا ولبنان ونصف دلتا مصر !!

ان هذه النصوص تضيق وتتسع حسب الظروف والاحوال ، وهى الآن وعند وفاة موسى الكليم لا تتجاوز جزءا محدودا هو الذى كان يقيم فيه الكنعانيون ، وهم جزء من خمسة أو ستة شعوب كانت تسكن فلسطين . بل ذكر موسى كما ورد فى التوراة كيف تقسم الأرض ، وكل ذلك طبعاً منسوب الى الرب . ويبدو أن خطة وصولهم إلى أرض كنعان كانت محددة ، فقد اتجهوا أول الأمر من جنوب البحر الميت شرقا حتى وصلوا إلى مصب نهر الأردن ، ثم توقفوا بازاء اريحا فى الضفة الغربية ، لكى يجتازوا إليها نهر الأردن .

ونجد فى سفر التثنية ، ان مناطق أخرى أضيفت إلى أرض كنعان فيما ذكرت التوراة ان الرب وعد بها الإسرائيليين ، وهى « لبنان إلى النهر الكبير نهر الفرات » . وذلك ان الرب زاد عددهم حتى أصبحوا كنجوم السماء كثرة . وقال لهم : « كيف أحمل وحدى ثقلكم ، وحملكم ، وخصومتكم » ولهذا كان تقسيمهم إلى أسباط ، مساعدة للرب على أداء مهمته معهم !!

وكان موسى حذرا فى وصاياها الأخيرة للإسرائيليين . فقد ذكر لهم (الاصحاح الرابع تثنية) انهم سيتوالدون ، وسيعبدون آلهة أخرى غير الله ، ويفعلون كل الشرور التى نهوا عنها « لاغظة الرب » . ولهذا توعدهم بأن الرب سوف يبدهم فى الشعوب ، فيبقون عددا قليلا جدا بين الأمم ، ويعبدون آلهة هذه الأمم .

وفى مكان آخر ، حذر موسى قومه ، أن يظهر فيهم « نبي أو حالم » يدعوهم إلى عبادة آلهة أخرى غير « يهوه » ، رب اليهود ، وهكذا تقرر فى ذهن اليهود ،

ان المعبودات الأخرى ، موجودة ، ولكنها ليست لهم . وان الرب في المفهوم اليهودي « غير جدا » ولا يسمح بالمشاركة . وأى مدينة يقيم فيها الاسرائيليون ، وتظهر فيها عبادة أخرى ، فان سكانها يبادون جميعا ، وتحرق المدينة بالنار ، ولا تبقى فيها بهيمة لا تقتل ، وبهذا فقط « يرجع الرب عن حمو غضبه » .

ولم ينس موسى خير مصر عليه ، ولا احتضانها له في أرفع منازلها - منزل الملك والامارة - فقد أوصى قومه قائلا « لا تكره مصريا ، لأنك كنت نزيلا في أرضه » .. ومع هذا فالتوراة نفسها هي التي فصلت طقوس الاحتفال بعيد الفصح ، وفي ليلتين كاملتين منه يسب المصريون ، ويلعنون ، لأنهم كانوا سببا في خروج آبائهم من أرضهم ، ولم يكن عجيبهم قد اختمر !؟

وبمقدار ما فرقت التوراة بين اليهود والشعوب الأخرى ، وبثت الكراهية لهم ، حاولت أن تجعل العلاقة بين أفراد هذا الشعب طبيعية ومعقولة حتى ان موسى أوصاهم على لسان الرب طبعاً :

« لا تقرض أخاك (اليهودي) بربا : ربا فضة ، أو ربا طعام ، أو ربا شيء ما مما يقرض بربا .. للاجنبي تقرض بربا .. لكى يباركك الرب الهك في كل ما تمتد اليه يدك في الأرض التي أنت داخل اليها لتمتلكها » .

وتقول التوراة ان موسى كتب كلمات هذه التوراة في كتاب الى تمامها ، وأمر حاملي تابوت عهد الرب قائلاً خذوا كتاب التوراة وضعوه بجانب تابوت عهد الرب الهكم ، ليكون هناك شاهدا عليكم ، لأنى أنا عارف تمردكم ، ورقابكم الصلبة . هوذا وأنا بعد حى معكم اليوم قد صرتم تقاومون الرب ، فكم بالحري بعد موتى » .

وقد أشهد موسى عليهم السماء والأرض فيما تقول التوراة ، وقد بلغت صفحات مازعموا انه هو الكتاب حتى وفاة موسى ٣٣٧ صفحة ، في كل صفحة حوالى ٢٥٠ كلمة .

ولا نكاد نعلم السبب الذى من أجله دون كتاب التوراة هذا الفيض من النعوت على أجدادهم الأول ، الذين عاصروا موسى ، فقد مضت ألف سنة بين تدوين التوراة ، وبين عصر موسى ، ولعل آخر ما نقتبسه من هذه الأقوال ما نقلوه عن نبيهم ان الرب خاطبهم (تثنية ٣٢ و ٣٣) كما يلي : « جيل أعوج ملتو . الرب تكافئون بهذا يا شعبا غبيا غير حكيم » .. وقوله : « انظر ماذا تكون

آخرتهم أنهم جيل متقلب ، أولاد لا أمانة فيهم » و « انهم أمة عديمة الرأي ، ولا بصيرة فيهم » .

والتفسير المعقول ، هو أن هذه الكلمات الخاصة بالحنق ، انما هي تعبير عن حنق رؤساء الاسرائيليين المتأخرين - وقت التدوين - على شعبهم ، لارتدادهم عن التوحيد ، وارتكابهم كل المعاصي ، والمحظورات جهرة ، وعبادتهم التماثيل التي كانت شائعة في عبادات الأقوام الذين حولهم .

وعندما بلغ موسى مائة وعشرين سنة من العمر مات . وتقول التوراة انه عند وفاته كان حديد البصر ، ولم تذهب نضرتة . وكان الرب قد أذن له أن يرى من فوق جبل « نبو » مقابل بلدة أريحا على الضفة الشرقية ، منطقة الكنعانيين ونزل موسى - وما أكثر الجبال التي تسلقها حتى في هذه السن - مما يقطع أنه أشهر متسلقى الجبال في التاريخ كله ، وانه كان في صحة جيدة فعلا ، لم تهده الأمراض ، لأن كان دائم الاستحمام حريصا على النظافة ، حسب عوائد المصريين التي تربي عليها ، وما أكثر ما شقى في سبيل تعويد قومه على النظافة ، حتى لايقعوا فريسة الأمراض الجلدية والأوبئة ، ولكن دون جدوى .

ومات موسى .. ودفن في أرض مؤاب ، ولم يعرف انسان قبره الى هذا اليوم . وواضح من هذه الرواية أن أحدا غير موسى أملاها ، وأن سفر التثنية الذي ختم رحلة حياته كتب بعد أيامه بعصر بعيد ، لأن معاصريه ، والأجيال التي جاءت بعده كانت تعرف أين دفن . ولكن بعد مضي عشرة قرون اختلف الأمر طبعاً .

وموسى كان - ولاشك - من أعظم شخصيات التاريخ ، تعليماً ورياضة نفس ، وطاقته على احتمال أعباء الرسالة التي كلف بها مع شعب قضى ثلث عمره الأخير بينهم ، وحسبهم ما وصفوا هم أنفسهم به من سوء طبع ، وعناد ، وأنانية ، واقبال على الآثام منذ عهد نبوتهم الأولى ، وما بعدها .

وقد أثرت سيرته على المسيحية تأثيراً كبيراً ، ولاسيما في عصر النهضة الأوروبية وما بعدها . فقد عمل كبار الفنانين رسوما رائعة تخليداً له ، وتماثيل فيها من روعة الأداء ، ما استمد ولا شك من شخصيته النفاذة الى ضمير الانسانية ..

تأثرت المسيحية بموسى وسيرته .. وثابر الاسلام على الدعوة للايمان بما
صح من رسالته .. واحتفل القرآن الكريم بموسى احتفالا كبيرا في سرد سيرته
والثناء عليه .

ومن ذلك قول القرآن عن موسى .

* « ولما بلغ أشده ، أتيناها حكما وعلما ، وكذلك نجزي المحسنين » .

* « قالت إحداهما يا أبت استأجره ، إن خير من استأجرت القوي الأمين » .

* « يا موسى أقبل ولا تخف ، إنك من الأمنين » .

* « حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق .. » .

* « قال يا موسى إنى اصطفتك على الناس برسالاتى ، وبكلامى ، فخذ ما
أتيتك ، وكن من الشاكرين » .

* « واذكر فى الكتاب موسى ، إنه كان مخلصا ، وكان رسولا نبيا » .

* « سلام على موسى وهارون . إنا كذلك نجزي المحسنين إنهما من عبادنا
المؤمنين » .

وقد ورد ذكر موسى وسيرته فى ست وعشرين سورة من سور القرآن مما
يدل - كما ذكرنا - على أن هذه السيرة كانت من العلامات البارزة لعقائد البشر ،
ولدعوة الناس - كل الناس الى الحق والخير .

وكان كتاب موسى ، أقرب الكتب السماوية الى عهد ابراهيم وأيامه . ومنذ
أيام الخليل لم توجه دعوة الى فريق من الناس ، الا دعوة لوط ابن أخى
ابراهيم ، لقرية كانت فاسقة وعصته ، فأهلكها الله بمن كانوا فيها بزلزال
ساحق ماحق .. وكانت القرية فى فلسطين . وغير بعيدة عن المكان الذى سكنه
ابراهيم ، ثم جاءت دعوة يوسف للمصريين ، ولم تثمر شيئا يذكر كما ورد فى
القرآن . وبعد نحو ستة قرون ونصف قرن جاءت دعوة موسى .. لتكون علامة فى
طريق الانسانية نحو صحوة الضمير ونضوجه .

□ الفصل الرابع □

إسرائيل .. في فلسطين

أريحا .. الذبيحة :

ان مذبحة أهل مدين ، التي نفذها الاسرائيليون ، على نحو ما وصفت التوراة ، وبعلم موسى وتوجيهه ، ما كان يمكن أن تتم على هذه الصورة ، والا لتسامعت بها القبائل الفلسطينية ، ولأخذت حذرهما من هذا العدو المحب لسفك الدماء .. فلا كان أهل مدين بهذه الكثرة ، ولا كان قوم موسى بهذه القوة ، ولا كانت النبوة الموسوية تحمل في طياتها أساليب الانتقام البشعة . فموسى مختار من قبل الله تعالى ، وقد قاد خطواته أربعين سنة في هذه المنطقة هاربا ، وزوجا ، يتلقى دروسا الهية ، تؤهله لما هو مقبل عليه من كفاح .. وأهم هدف وجه له هو أنه يواجه الطغيان ، والتكبر والعلو في الأرض ، والاستهانة بالبشر خلق الله .. اكرم خلق الله وصورته على الأرض . فكيف يأمر وقد واثته فرصة قوة وغلبة ، أن يعمل ما لم يعمل فرعون من قبله ، وما عوقب فرعون من أجل ما هو أقل شأنًا منه ، وتخيل كتاب التوراة أنه حل بأهل مدين ..

والصورة الأقرب الى الصواب ، هو أن القبيلة الاسرائيلية ، مثلها كمثل القبائل الرحل ، التي تنتقل في الصحراء ، وتغير أحيانا على جاراتها ، اصطدمت في طريق تحركها الى جنوب البحر الميت ثم الى شرقه ، بقبيلة مدين . وقد سلكت هذا الطريق الجنوبي تفاديا من الاصطدام بقبائل أقوى - ومنها قبيلة عيسو الاخ الأكبر ليعقوب - وحدث ولا شك قتال ، وحدث ولا شك أن تمكن الاسرائيليون من المرور ، وأوقعوا خسائر بمن اعترضوا طريقهم . ولكن هذه الخسائر لم تكن من الغزارة

بحيث لا يتسامح بها المؤابيون ، أو الادميون ، أو الكنعانيون أو غيرهم فيصنعون حلفا يواجه هذه القوة المغيرة ويروعها أو يقضى عليها ..
هناك في الغور الشرقي من الأردن حطت قبائل الأسباط الإثني عشر رجالها ، وقد تزعمهم بعد موسى خادمه وقائد طلائعه يشوع بن نون بوصية منه .
وكان التخطيط للوصول الى أرض كنعان ، هو عبور نهر الأردن ، والاستيلاء على بلدة « أريحا » . وقد جعلت التوراة الحبل متصلا بين الرب ، وهذا القائد الجديد « يشوع بن نون » فكل تحركاته بأوامر ربانية .. هكذا قالت التوراة . « لا أهملك ، ولا أتركك . تشدد وتشجع لاترهب ، ولا ترتعب ، لان الرب الهك حيثما تذهب » .

وكما صنع موسى في خروجه من اسيناء بارسال بعثة استطلاع وتجسس صنع يشوع بن نون فقد أرسل رجلين الى أريحا ، لكشف ثغرة في مبانيها ، وساقتهما أقدامهما الى بيت امرأة تحترف الزنا اسمها رحاب ، قالت انها سمعت بكل ما حدث للاسرائيليين منذ خروجهم من مصر ، وانها سوف تعطيمهم المعلومات ، ولما أحس حراس أريحا بغريبين فتشا عنهما ، فخبأتهما رحاب ، مقابل الابقاء عليها وعلى أهلها عند استيلائهم على المدينة ، وأخذت وعدا بذلك .
وكما صنع الرب مع موسى اذ شق مياه البحر أمام الفارين من مصر ، كذلك صنع يشوع ، اذ أوقف جريان نهر الأردن الى مصبه في البحر الميت « هذا ما ذكرته التوراة » ..

وحمل الكهنة « تابوت الرب » ، وسار مجندو اسرائيل ، من قبيلتين ونصف قبيلة فقط من الأسباط ، وكانوا أربعين ألفا كما ذكر كتابهم . وحتى يتأكد يشوع أنهم ولدوا في سيناء وليس منهم من كان في مصر فقد كشف عن عوراتهم وأمر بطهورهم جميعا بحجر من الصوان مسنون !

وعلم أهل أريحا بالعبور فأقفلوا مدينتهم وحرسوها جيدا .. ولكن لم يحدث قتال ذوبال .. لماذا ؟ لان يشوع وجد رجلا واقفا وسيفه مسلول بيده ، وقدم نفسه لقائد الاسرائيليين قائلا : أنا رئيس جند الرب « فيسقط يشوع على وجهه الى الأرض وسجد » وطلب منه هذا الرئيس القادم من السماء أن يخلع نعليه من قدميه لانه واقف في مكان مقدس ..

وبعد سبعة أيام من حصار اريحا ، والنفخ في الأبواق لترسل أصوات الرعب ، واذا أسوار المدينة تهدم وحصونها تتهاوى وحراسها يسلمون رقابهم لسيوف الاسرائيليين فذبحوا كل من في المدينة « من رجل وامرأة وطفل وشيخ ، حتى البقر

والغنم والحمير بحد السيف . وهكذا أكدت التوراة ان الخطأ الذى ارتكبه الاسرائيليون فى مدين بابقاء الأطفال والنساء لم يتكرر هذه المرة : كل حى أبيد . وكل الشجر قطع ، وكل الزرع اقتلع ، وكل المباني حرق . وصودرت الفضة والذهب والنحاس والحديد وأودعت فى خزانة بيت الرب . وكل مابقى على قيد الحياة رحاب الزانية وأسرتها .

ويقول سفر يشوع الاصحاح السادس :

« وحلف يشوع فى ذلك الوقت قائلاً : ملعون قدام الرب ، الرجل الذى يقوم ويبنى هذه المدينة أريحا » ..

وغنى عن البيان أن أريحا بنيت بعد ذلك وهى موجودة حتى الان ! ان لعنات يشوع لم تتحقق ، مع أن التوراة دونت بعده بقرون ، وكانت أريحا موجودة بعد حريقها !

وحسب يشوع انه قادر على الاستمرار فى الزحف بنفس السهولة ، فأرسل الى قرية صغيرة اسمها « عاي » ثلاثة آلاف رجل للاستيلاء عليها ، ولكن أهلها علموا بما حدث فى أريحا ، فأخذوا حذرهم وصدوا القوة المغيرة ، وقتلوا منها ٣٦ رجلاً فقط . وهنا قامت قيامة اليهود على قائدهم من أجل هذه الخسارة « فذاب قلب الشعب ، وصار مثل الماء . فمزق يشوع ثيابه ، وسقط على وجهه الى الأرض أمام تابوت الرب الى المساء ، هو وشيوخ اسرائيل ، ووضعوا تراباً على رؤوسهم . وقال يشوع : « أه ياسيد الرب ! لماذا أعبرت هذا الشعب الأردن .. لكم تدفعنا الى يد الاموريين ليبيدونا .. أسألك يا سيد : ماذا أقول بعد ما حول اسرائيل قفاه أمام أعدائه ، فيسمع الكنعانيون ، وجميع سكان الأرض ، ويحيطون بنا ، ويقرضون اسمنا من الأرض ! » .

ويظهر أن الرب طيب خاطر يشوع ، وكان سبب غضبه والحاقه الهزيمة بجنوده ان رجلاً سرق من أريحا بعض المتاع والذهب فما ان أعدموه رجماً ، حتى رضى الرب ، وكلفه بان يرسل ثلاثين ألفاً للاستيلاء على « عاي » بدلاً من ثلاثة آلاف ..

وهناك على سفح جبل ، وعلى قطع من الحجارة ، كتب يشوع بن نون نسخة من التوراة كما كتبها موسى .. « وقرأ جميع كلام التوراة : البركة واللعنة حسب كل ما كتب فى سفر التوراة » ..

واذا كان قدماء المصريين المعاصرين ليشوع ، قد دونوا أيامهم على المعابد فهى كلمات قليلة ، والمعابد كانت ضخمة هائلة . أما الالاف من الكلمات ، والبركة

واللعنة ، فتدوينها يحتاج الى جهد هائل ، وأحجار كثيرة جدا .. وكان يمكن أن يتم ذلك على أوراق البردى ، لو أنه حدث ، وكانت شائعة .. ولكن هكذا ورد في الاصحاح الثامن من سفر يشوع .

وهنا تقرر التوراة ، بأن جميع قبائل فلسطين تسامعت بما صنع اليهود ، فاجتمعوا جميعا لمحاربة يشوع واسرائيل بصوت واحد . ولكن القوة المهاجمة انطلقت بقوة واندفاع ، وتعرف مسبق على طبيعة الارض . وكانت النتيجة ان اقرب مدينة الى « عاي » رثرت أن تحالف الاسرائيليين ، وكان اسمها « جبعون » ..

معركة حاسمة :

كان حلف المدن الخمس ، ضد اسرائيل وأعوانها الجدد ، حلفا قويا . وكان ملك اورشليم « القدس » وملك حبرون « الخليل » على رأس الحلف وقبل أن يأخذ سكان هذه المدن مواقعهم ، كان يشوع وجنوده قد انفقوا ليلهم في تسلق الجبل الفاصل بين الفريقين ، وفاجأوا أعداءهم ، وكانت السماء تسقط بردا ثقيلًا ، وما لبث شمل الحلف أن تبدد أمام الاسرائيليين . وتقول التوراة ان هذا النصر ما كان ليتم بغير معجزة فقد طلب يشوع من الرب ، ألا تغرب الشمس ولا يأتي الليل « فوقفت الشمس في كبد السماء ، ولم تعجل للغروب نحو يوم كامل . ولم يكن مثل ذلك اليوم قبله ولا بعده ، سمع فيه الرب صوت انسان لان الرب حارب عن اسرائيل » .

وتحرك يشوع بسرعة عظيمة مهاجما القرى والمدن الصغيرة من حوله ، وقد اضطرب دفاعها كله ، فاستوى عليها وأباد كل من فيها حتى لم يبق فيها شارد ، وكان منها مدن عجلون ، ولخيش « جرت فيها حفريات حديثة هامة » وحبرون « الخليل » وغزة . ودماء الكبار والصغار تراق بغير حساب والحياة تتوقف في هذه المناطق تماما على نحو ما حدث في أريحا « كما أمر الرب اله اسرائيل » .. وأخذ يشوع جميع أولئك الملوك وأرضهم دفعة واحدة ، لأن الرب اله اسرائيل حارب عن إسرائيل ..

وتألف حلف آخر من ملوك شمال فلسطين حتى ساحلها ، ولكنهم هزمهم أيضا ، وطردوهم الى « صيدون العظيمة » على الشاطئ « جنوب لبنان حاليا » ويبدو أن منطقة غزة التي ذكر في التوراة أنها أبيدت أيضا ، تراجع الأهالي منها الى منطقة ساحل البحر من غزة الى أشدود . وبعد هذه الغارة المفاجئة أخذ يشوع بن

نون يوزع الأرض التي استولى عليها في قلب فلسطين ، وأخذ كل من الأسباط نصيبا « واستراحت الأرض من الحرب » .

هذا هو وصف التوراة لهذه الحرب ، وقد دونوه بعد ألف سنة تقريبا من وقوع هذه الاحداث . وكما لعب الخيال بأولى المعارك ، فيظهر أنه قام بدور مشابه في هذه المرحلة وذلك بدليل ما ورد في التوراة نفسها بعد ذلك من قيام معارك لاتنتهى بين الاموريين والكنعانيين خلال القرون القليلة التي استمر اليهود فيها بالمنطقة التي نزلوا فيها من أرض فلسطين ولاتقوم المعارك بين قوم موجودين وآخرين أبيدوا عن آخرهم مع زروعهم وماشييتهم ومساكنهم .. وسنروى في فصل تال الكثير من التضارب والتحريف في التوراة ، وهو الأمر الذي ألت عليه الدعوة الاسلامية ، وتردد في آيات كثيرة من القرآن الكريم .

وقد كانت التوراة صريحة عندما ذكرت بعد توقف هذه المعارك أنه « بقيت أرض كثيرة جدا للاملاك . هذه هي الأرض الباقية : كل دائرة الفلسطينيين على طول الساحل وجزء من أرض الكنعانيين ، والمنطقة من صيدا الى أرض الاموريين ، وأرض الجبال الى لبنان .. الخ .. وهذه المناطق مع المدن والقرى التي احتلتها اسرائيل ، تبدأ من أريحا الى الشمال أما جنوب أريحا ، وهو المساحة العظمى من أرض فلسطين غرب الأردن والبحر الميت الى العقبة فلم تكن لاسرائيل أدنى علاقة بها في وقت يشوع بن نون ، ولابعده ، حتى عام ١٩٤٨ ميلادية !

وإذا قلنا ان الأرض الفلسطينية التي نزل فيها اليهود الأول لا تتجاوز ١٠٪ الى ١٥٪ من مساحتها الكلية فانا نكون قد قررنا حقيقة واقعة . واتخاذ هذه المساحة المحدودة لاقامة اليهود ، قهرا ، وبقوة السلاح لم يستمر ، الا أيسر الوقت ، كما سنرى فيما بعد .

وكما ذكرت التوراة فان أقلية سكنت عبر الاردن « سبطان ونصف » وأكثرية سكنت في الجانب الآخر ، ولم يعط سبط « اللاويين » أرضا ، فهم كهان المعبد واقامتهم في المدن . وعندما علم أحفاد سيدنا يوسف بأن حصتهم جاءت في منطقة يحرسها الكنعانيون بمركبات حديدية ، احتجوا ، ولكن صمم يشوع بن نون على أن يكون نصيبهم هذه الحصنة الجبلية ، لانهم شعب عظيم !

وأكدت التوراة في نهاية الاصحاح ٢١ ان ما حصل عليه الاسرائيليون بالحرب هو « جميع الأرض » التي أقسم الرب ان يعطيها لأبائهم !

. وكما أوصى يوسف الصديق أسرة أبيه أن يعتزلوا حياة المصريين ، كذلك صنع يشوع بن نون ، فقد طلب من قومه الا يلتصقوا بالكنعانيين والأدوميين والفلسطينيين وغيرهم ، ولا يدخلون عليهم ، ولا يسمحون لهم بدخول مساكنهم ، ولا يصاهرونهم والا كانت المخالطة كما قال لهم : « فحنا ، وشركا ، وسوطا على جوانبكم ، وشوكا في أعينكم حتى تبيدوا عن تلك الارض الصالحة » .

وفي اجتماع عام لكل الاسباط ، قال يشوع انه يخيرهم الآن بين أن يعبدوا إله اسرائيل أو يعبدوا الآلهة التي عكفوا عليها في مصر ، أو التي عكف عليها سلالة لم تهاجر من نسل ابراهيم في أرض فلسطين . وقد اختار اليهود الرب الذى ساعدهم حتى الآن ، وهذه اشارة واضحة الى ان المعبودات غير دين التوحيد ورب التوحيد كانت قد أغرت هذه القبائل في المواطن التي عاشوا عليها ، وعكفوا عليها عابدين ، حتى ظهر بينهم موسى وردهم الى دين ابراهيم ، ومع هذا كان ايمانهم رقيقا ، وما أن وجدوا في سيناء فرصة لعبادة عجل من ذهب حتى سجدوا له .. بل ألح يشوع بن نون في كلماته الأخيرة ، إلى أن الوثنية لاتزال في قلوبهم : « الآن انزعوا الآلهة الغربية التي في وسطكم ، وأميلوا قلوبكم إلى الرب إله اسرائيل » . .

ومات يشوع بن نون ، وكان عمره مائة وعشرين سنة . وسمح المصريون أن يحمل جثمان يوسف الصديق من مصر ليدفن في شكيم (نابلس) . ومات كذلك الكاهن العازار بن هارون .

اليهود يرتدون :

كما ذكرنا قبل ، فإن حملات الأباداة التي تحدثت عنها التوراة ، لم تحدث بالصورة التي ذكرتها . وذلك لأن حروب الاسرائيليين مع سكان المنطقة التي نزلوا فيها استمرت بعد وفاة يشوع بن نون ، ولكن في هذه المرة كان اليهود يحاربون بغير قيادة عامة ، ولكن بقيادات متفرقة في قبائلهم . وكانت الرياسة في أيدي من أسمتهم التوراة « القضاة » .

وقد بدأ سبط بنى يهوذا بمحاربة الكنعانيين للاستيلاء على اورشليم (القدس) واشعلوا فيها النار ، ولكنهم لم يستطيعوا الاستيلاء عليها ، وكان اسم سكانها اليبوسيين ، وقد سمحوا لبعض اليهود بالاقامة معهم ، وهم سلالة بنيامين بن يوسف الصديق ، وكذلك هاجموا حبرون (الخليل) وبيت أيل ، وفي هذه البلدة الأخيرة دل رجل من أهلها اليهود على ثغرة ينفذون منها ، ثم هرب

الى أرض الحيثيين مع قومه ، وبنى هناك مدينة جديدة . وتقول التوراة : « ودعا اسمها لوز ، وهو اسمها الى هذا اليوم » .

والاشارة الى « هذا اليوم » وهو وقت تدوين التوراة ، بعد ألف سنة من هذه الأحداث خروج من الكاتب على خطة أن هذه التوراة قديمة ومنزلة كذلك من السماء .

وخلافا لما أوصى به يشوع بن نون ، فقد ورد في هذا التدوين المتأخر ان قبائل يهودية ساكنت كثيرا من الكنعانيين في قراهم ، وأخذت من أهلها الاصليين جزية .

وهنا بدأت ردة اسرائيل . فتذكر التوراة في عبارة صريحة واضحة ، انه بعد وفاة يشوع وجيله ، وقام بعدهم جيل آخر لم يعرف الرب .. وفعل بنو اسرائيل الشر في عيني الرب وعبدوا البعل ، وتركوا الرب .. وساروا وراء آلهة أخرى من آلهة الشعوب التي حولهم ، وسجدوا لها ، وأغاظوا الرب . وتركوا الرب وعبدوا البعل وعشتاروت .

وبدأت تتوالى الهزائم ويتراجع اليهود ، ويحاصرم أهل فلسطين في كل مكان ، وهنا كانت تظهر فيهم زعامات تلم شملهم ، وتحاول تثبيت مراكزهم وهم القضاة ، التي ذكرت التوراة منهم اثني عشر قاضيا . وأن كانت تعبيرات التوراة عن فترات التماسك اليهودي بعد الهزائم المتوالية التي لم تذكر الا اجمالا ، تعبيرات وثنية ، كلها تجديف .. قال « لأن الرب ندم من أجل أنينهم بسبب مضايقتهم ومزاحميتهم وعند موت القاضى كانوا يرجعون ويفسدون أكثر من آبائهم ، بالذهاب وراء آلهة أخرى ، ليعبدوها ويسجدوا لها » ولم يكفوا عن أفعالهم وطريقتهم القاسية . فحمى غضب الرب على اسرائيل ، وقال : من أجل أن هذا الشعب قد تعدوا عهدى الذى أوصيت به آبائهم ولم يسمعوا لصوتى ، فأنا أيضا لا أعود أطرد انسانا من أمامهم من الأمم الذين تركهم يشوع عند موته .

وهكذا نجد التوراة في نهاية الاصحاح الثانى من سفر القضاة تؤكد ان تجميد رقعة الأرض التي نزلوا فيها من فلسطين ، ثم تراجعهم تدريجيا منها ، له تفسيره الدينى ، وهو ردتهم الى الوثنية ، وان كان التفسير الثانى أيضا قد ورد أيضا ، وهو أن الأمم (القبائل) من حولهم أخذت ترد على عدوانهم بمثله . كانت القبائل التي تناوئهم هي : « أقطاب الفلسطينيين الخمسة ، وجميع الكنعانيين والصيدونيين (أهل صيدا) وسكان جبل لبنان الى مدخل حماة » ..

واضطر اليهود الى التعايش معهم كما ذكرنا ، وكما عبرت التوراة مرة أخرى اذ
قالت : « واتخذوا بناتهم لأنفسهم نساء ، وبناتهم لبنينهم ، وعبدوا الهتهم » ..
وتخطفتهم القبائل القوية ، وباعوا اليهود عبيدا واماء .
وهكذا ذابت فكرة الشعب المختار .

بل وجد أهل مدين في الجنوب فرصة انتقام مما حدث لأبائهم في زمن
موسى ، فكانوا يزحفون شمالا الى أرض الاسرائيليين ويتلفون زراعاتهم
ولايتركون لهم قوت حياة ، ولاغنما ، ولابقرا ، ولاحميرا ، واضطر اليهود الى أن
يسكنوا في كهوف الجبال ، والمغارات ، ويحصنوا أنفسهم بعد أن هانوا على كل
انسان من سكان فلسطين وعاشوا في ذل شديد .

وكان من بين هؤلاء القضاة شمشون المعروف باسم الجبار ، لما امتاز به
من قوة بالغة حتى ان التوراة تنسب له خوارق في القتال مثل قتل ألف رجل من
أهل فلسطين بلحى حمار ! ويكون مفهوما ان شمشون مادام قد وصل الى مركز
الديانة في قومه ، أن يعف عن المعاصي ، ولكننا نقرأ في التوراة انه عشق امرأة
فلسطينية هي دليلا ، ظلت تبذل له حبا حتى علمت منه ان سره في شعر
رأسه ، وما أن أزاله له اعداؤه حتى تهاوت قوته ، وتمكنوا منه وسملوا عينيه ،
ودار في طاحون السجن . ولكن ما أن نما شعره مرة أخرى وقادوه الى عرض في
معبد الآلهة المحلية في غزة ، كان غاصا بألوف المشاهدين ، حتى هدم الأعمدة
الرئيسية في المعبد فانهارومات تحت انقاضه « وسقط البيت على الأقطاب ، وعلى
كل الشعب الذى فيه ، فكان الموتى الذين أماتهم (شمشون) في موته أكثر من
الذين أماتهم في حياته » .

ولم تكن خوارق شمشون القاضى ، بأقل من الخوارق التى نسبت في التوراة
لقضاة آخرين .

وأخر من هؤلاء القضاة كان اسمه جدعون ، جمع ٣٢ ألفا من قومه لحرب
المدانيين فلما وصلوا الى ساحة المعركة كان قد تخلى عنه أكثر قومه ولم يبق معه
الا ٣٠٠ (ثلاثمائة) رجل . وكان أفراد العدو المديانى « كالجراد كثرة » وتمكن
جدعون هذا من قتل مائة وعشرين ألفا من جيوش مدين والمشرق . أى ان كل
رجل من يهود جدعون قتل ٤٠٠ رجل من أهل مدين .. هكذا تقول التوراة !
ولأول مرة تشير التوراة الى سلالة اسماعيل ، وتقول انهم كانوا من ضحايا
هذه المعركة ، وان الذهب الذى جمعه جدعون من أسلاب هذه المعركة بلغ قدرا
عظيما . وذلك لأن الاسماعيليين كانوا يلبسون في أذانهم أقراط الذهب . ومدين

كما ذكرنا كانت تسكن شمال الحجاز . فهل كان الاسماعيليون أحلافهم وقدموا من مكة ، أم أن الأمر تخليط على النحو الذي رأيناه في معظم هذه الأخبار !!؟

ومن القصص الملفتة للنظر أن التوراة تروى قصة معركة أو معارك دارت بين الاسرائيليين بعضهم البعض في هذه المرحلة المبكرة من تاريخهم والتوراة كما تعودنا منها ، تتوسع توسعا غير مقبول في ذكر الأعداء .. فقد جمعت سطورها ٤٠٠ (اربعمائة) ألف جندي منهم في كل مكان واحد لعقاب بنى بنيامين من أحفاد يوسف الصديق . وذلك من أجل جريمة عرض ارتكبت .. ولا يوجد فيما كان يحتله اليهود في ذلك الوقت مكان يصلح معسكرا لهذا الجيش العرمرم على فرض وجوده من الناحية العددية ، فضلا عن تموينه وقيادته . ولم يكن لليهود زعيم واحد يدينون له بالطاعة وقد تغلب بنو بنيامين في أول الأمر - مع ان تعدادهم كان ٢٦,٧٠٠ رجل فقط . وفي معركتين مات من الاسرائيليين بيد أقاربهم أربعون ألف رجل ! وأخيرا لجأ الاسرائيليون الى تابوت الرب الذي حارب معهم ، وأهلك من بنى بنيامين في يوم واحد ٢٥,١٠٠ رجل وفي اليوم الثانى هلك من جيش بنيامين ١٨,٠٠٠ رجل و « جميع هؤلاء ذوو بأس » . ثم قتلوا منهم سبعة آلاف آخرين كانوا فارين « في السكك » . ثم استدار المنتصرون على مساكن بنيامين وقراهم ، وأهلكوا مابقى من نساء وأطفال القبيلة « حتى البهائم ، حتى كل ما وجد ، وأيضا جميع المدن التى وجدت أحرقوها بالنار » !

أجل .. علينا ألا ندقق كثيرا في أرقام التوراة ، والا فان ماقتل من رجال هذه القبيلة المنهزمة ، يفوق عدد مجنديهم مرتين أو أكثر .

ويبدو أنه كانت هنا بقية باقية من قبيلة بنيامين ، استدعاهم شيوخ اسرائيل ووهبوا لهم اربعمائة فتاة عذراء اختطفوهن من الكنعانيين ، لكى توجد لبنيامين سلالة ، ولو من غير الاسرائيليات خلافا لوصايا موسى الكليم ومن جاء بعده ، وندم اليهود على هذه المجزرة التى أحدثها أقاربهم . ونسبوا الى الرب « لأن الرب جعل شقا في أسباط اسرائيل » .

وقبل أن ننتقل الى الوجود اليهودى في اورشليم (القدس) ، وبدأيته مع عهد ملوكهم ، نذكر لمحة عن صدى ماكان يحدث في الممالك الكبرى المحيطة بفلسطين .

الصوت والصدى :

أشرنا قبل الى تكوين الإمبراطورية المصرية في عهد تحتمس الثالث ، فقد بسطت سيادتها على رقعة فسيحة من الأرض والبحر تكون أمنها الخارجى على صورة مثالية ، اذ ارتفعت أعلامها من جزر الإغريق فسواحل آسيا الصغرى ومرتفعات أعالي الفرات شمالا ، الى الشلال الرابع لنهر النيل جنوبا . حتى أن تحتمس الثالث ترك جملة عميقة المعنى تصور تاريخه اذ قال : انى أرى جميع العالم فى كل ساعة .

وكان هذا التطور فى السلطة الزمنية ، مصحوبا بتطور آخر فى السلوك العقائدى . ولاشك فى أن وجود القبيلة الاسرائيلية فى مصر ، وماحدث أيام موسى هز كثيرا ماكان يتمتع معه اله الشمس فى مصر من مكانة . ان سيطرة أفكاره العقائدية فى حراسة كهنة شديدى البأس ، أقوىاء السلطان قرابة ، ١٦ قرنا من الزمان ، لم تعد كافية لإشباع حاجة الشعب المصرى ، والشعوب المنضوية تحت لوائه الى حياة روحية أكثر اقناعا .

واتجه الفكر المصرى الى أن يكون الإله ذا صفات مقبولة من مخلوقات الأرض جميعا ، له سلطان الخلق والتوجيه والتربية ، على كل الشعوب والحقيقة . أن هذا التفكير وان بدا لنا قريبا من التوحيد ، الا أنه التوحيد غير اليهودى ، بل التوحيد الابراهيمى وذلك لأن اليهود وقفوا بالاله أو الرب عند قبيلتهم وحدها . حتى اخوانهم الآخرون من أبناء اسحاق ، لم تكن لهم مشاركة فيما يعبدون .. انه اله اسرائيل وحدها . وان كانت له صفات أقوى من صفات المعبودات الأخرى حوله فى تقدير أنبيائهم وشيوخهم سواء كانوا يحملون لقب الكهان أو القضاة أو الأنبياء .

ولهذا لانعتقد أن أسباط اسرائيل قد لفتوا لهم نظر المصريين أو البابليين والآشوريين ، أو حتى القبائل التى ساكنوها فى فلسطين ، وذلك لأنهم أغلقوا عبادتهم على أنفسهم ، ووضعوا معبودهم فى تابوت بمحلتهم وقصروا قدرته على تلبية رغباتهم ، والاستماع الى صرخاتهم وابتهالاتهم .

وحتى نصل الى مزامير داود ، فلا نجد صلوات ، أو أدعية يهودية موجهة الى الرب تلفت النظر بقوتها ، وصدق ايمانها . بل على العكس ، نجد أنواعا من العقاب والتبكيث لأن الرب عمل كذا أو كذا .

وقبل أن نصل الى ابتهالات اخناتون ، فان كهنة أمون فى عصر الوجود الاسرائيلى بفلسطين ، تكاد تكون تعبيراً عن إله واحد .. لقد دونت الانشودة

الآتية حوالى سنة ١٤٠٠ ق.م « أو ١٤١٣ ق.م » أى فى وقت تدمير أريحا بالضبط على أيدي اليهود .. أى فى عهد الملك المصرى « أمنحتب الثالث » تقول كلماتها :

كل الناس تنظر بواسطتك

أنت خالق الكل ، ومانحهم قوتهم

أنت أم نافعة للآلهة والبشر

وأنت صانع مجرب

وراع شجاع يسوق ماشيته

وأنت ملجؤها ، ومانح قوتها

فلما جاء إخناتون بعده ، عام ١٣٧٧ ق.م ، أحدث ثورته الدينية الكبرى . إذ ألغى كهانة الآلهة آمون ، الذى كان مركزها فى طيبة « الأقصر » ورفع راية الآلهة « آتون » أى الأفق ، وجعل مركزها فى تل العمارنة قرب المنيا .

واختار إخناتون زوجة له فتاة من الشعب هى « نفرтитى » حسناء التاريخ كله ، والتي شاركته إيمانه « بآتون » . وقامت عبادة آتون على قواعد :

● فقد ألغت التقرب إلى الله بأى منظر دموى ، واقتصرت تمجيد الرب على تقديم الزهور والفاكهة على مذبح المعبد .

● تصحب الصلوات فى المعبد جوقة موسيقية ترسل انغامها ، وكانت مغنية المعبد الأولى هى الملكة نفرтитى نفسها ، وفيما وصفت به أنها كانت من أعذب النساء صوتا .

● لم يجعل إخناتون من نفسه كائنا فوق الناس ، بل واحدا منهم فى تماثله وصوره .

وحتى يربط أجزاء الامبراطورية الكبيرة التى تركها جده تحتتمس الثالث ، فقد صدر عقائده إلى أملاك مصر الآسيوية ، ومنع الاعتماد على القوة العسكرية كرابطة تجمع أجزاء الامبراطورية المصرية ..

ويبدو أنه فى هذه الفترة ، أخذت تحركات الاسرائيليين ضد القبائل الفلسطينية الأخرى أو فيما بينهم ، طابع العنف الدموى اللافت للنظر ، وقد وجدت رسائل الحكم فى مديريات فلسطين يطلبون المدد لقمع هذه الفتن .. ولكن إخناتون لم يأذن باستعمال القوة ، مفضلا التبشير برسالة الحب ..

ولكن أى حب هذا الذى يمكن أن تنصاع له أسباط يهود ، وقد كانت المناظر الدموية جزءا من طقوس عباداتهم ، وكانت المذابح حسب أوصافهم لها

تجرى كلما وجدوا سيفاً في أيديهم يمكن أن يغمد في صدر أحد ، أو يصل الى رقبة انسان . حتى الماشية والأشجار فضلاً عن الأطفال الرضع ، لم ينجوا من سكينهم ..

لم تحرك هذه « الفتن » خاطر الحكام في مصر منذ بدأت في « أريحا » فهذه عادة القبائل الصغيرة في المنطقة ، وكذلك استمر الحال في عشرات السنين التالية ، حتى أرسلت هذه الرسائل التي وجدت في تل العمارنة وذلك لأن الاضطرابات لم تكن موجهة بصفة أساسية نحو السيادة المصرية ولكنها كانت مجرد نزاع على أرض ، مثل النزاع في الصحراء على المراعى عندما تنزل الأمطار ، وبعد ذلك لا تكون للأرض قيمة . والحديث عن المدن الفلسطينية ، مثل أريحا وحبرون وشكيم وأورشليم وغيرها انها كانت قرى كبيرة ، أو بلدانا صغيرة ، بحسب عدد سكانها ، وما كان أقله اذا قيس بعدد السكان الآن . وحتى نأخذ فكرة أوضح عما كان إخناتون يريده عقائد للشعوب الآسيوية ، مع الشعب المصرى ، ومنهم اليهود ، فهذه قطع من أنشودة إخناتون عن ربه أتون .. قالت :

أنت تبزغ بجمالك في أفق السماء
أنت أتون الحى الذى كنت في أزل الحياة
كنت تملأ كل البلاد بجمالك
أنت جميل وعظيم ومتلألئ في كل أرض

أنت خالق النطفة في المرأة
وأنت الذى تجعل من النطفة أناسا
وأنت الذى تعين الطفل ليعيش في بطن أمه
تهدئه حتى لايبكى
تغذيه في الرحم
وأنت معطى الروح حتى يحيا كل انسان خلقتة
وحيثما تنزل المولود من رحم أمه
فأنت تفتح فمه
وتمنحه ضروريات الحياة .

وحيثما يصرخ الفرخ في غلاف بيضته

فأنت تعطيه نفسا يحفظه حيا في وسطها
وقد قدرت له ميقاتا في البيضة ليخرج منها
وعندما يخرج من البيضة في مواعده
يصيح ، ويمشى على رجليه ..
ما أكثر أفضالك .. ما أعظم أعمالك يارب
انها تخفى على الناس .. وكلها بحكمة صنعت
ياأيها الإله الواحد الأحد .. ملأت الأرض من فضلك
لايوجد بجانبك إله آخر
لقد خلقت الأرض حسب رغبتك
وحيثما كنت وحدك
خلقت الناس والماشية والغزلان جميعا
وكل ما في الأرض مما يمشى على سوقه خلقت
وكذلك خلقت مايطير في السماء بأجنحته
وفي الأقطار العالمية .. سوريا .. وكوش .. وأرض مصر
انك تضع كل انسان في موضعه
وتمددهم بحاجاتهم .. وكل انسان لديه قوته .. وأيامه معدودات
والألسنة في الكلام مختلفة
وكذلك تختلف أشكالهم ، وجلودهم
لأنك تخلق البشر مختلفين

وهذه الأنشودة طويلة .. وتختتم بمعنى رائع يردده أتون ، وهو يصف الرب
ويستعرض وحدانيته ، وما صنع من كائنات ، وما صنع للكائنات انه يقول :
« ومع ذلك فانك لاتزال في قلبي » .
واذا كانت بعض استعارات الأناشيد الدينية في هذه الفترة ، تنتزع من
الشمس الأوصاف ولكنها مع ذلك تدور حول معنى كبير في فكرة الخلق والألوهية
وهو ان الله « خلق نفسه بنفسه .. ثم خلق الأحياء والأشياء » ..
وبعد سبعة قرون أو نحوها ، نجد مزامير داود ، كما سنرى ، تتغنى بمعانٍ
مقاربة . وهذا السبق في اللاهوت المصرى ، لم يستمر طويلا ، لأن عوامل
محلية تغلبت على صوته العذب واسكنته . ولعل من أهم العوامل في توقف هذه
اليقظة المبكرة للوجدان المصرى ، العالى أمرين :

أولهما : أن إخناتون أصر على ألا يتزوج على زوجه نفرتيتى الجميلة أى واحدة من النساء ، رغم إلحاحها عليه ، فقد كانت ذريتها كلها منه من البنات . وكان الزواج بأكثر من واحدة ، بل الزواج بالأخوات معروفاً في ذلك الوقت وبعده . ولكن مبادئ إخناتون لم تكن تسمح بالتعدد .. وحدانية في كل شيء . وتطبيق أمين شريف لكل ما تدل عليه كلمة « الحب » سواء في العلاقات مع الأسرة ، أو الأمة ، أو البلدان الخارجية الخاضعة .

ثانيهما : ان إخناتون قضى على ألوهية « أوزوريس » وهو يحارب « آمون » وأوزوريس هو الآخرة .. هو البعث بعد الموت . والحساب ، والحياة الآخرة . وكانت هذه العقيدة متمكنة من المصريين تمكنا تاما . وعندما أسقط إخناتون أوزوريس ، لم يحل محله بعثا بصورة أخرى ، فأحس الناس أن حياتهم الأولى لا تكفيهم وان حاجتهم إلى حياة ثانية ، أمر لازم ، وفيه تعويض عن متاعب الحياة الأولى ، التي فيها يكدحون ، وفي الأخرى ينعمون إذا صلحت أعمالهم ..

هذا هو الجو الروحي في مصر ، ومعاركه في فترة ظهور اليهود في فلسطين . وقد سجلت ألواح « تل العمارنة » أحداث هذه الفترة - عصر أمينوفيس الثالث (منشىء طريق الكباش الشهير ومعبدته في الأقصر وتمثالا ممنون العملاقين) ، وعصر إخناتون وزوجه الملكة نفرتيتى . وهى ألواح من الفخار عددها ٣٠٠ لوحة وكشفت عام ١٨٨٨ منقوشة بخط بابل المسمارى ، وقد نهبت من مصر ، واختطفتها متاحف العالم مثل متحف برلين ، والمتحف البريطانى (٥٠ لوحا) ومتحف اشموليان في انجلترا أيضا (٣٠ لوحا) ، ومتحف اللوفر (٧ ألواح) ، ومتاحف ليننجراد وبروكسل ، ومتروبوليتان بالولايات المتحدة ، ومتحف القسطنطينية ، وأفراد آخرون . وما حفظ في متحف القاهرة صاحبة هذا الكنز التاريخى العظيم ، لم يزد على خمسين لوحا .

وقد لفتت هذه الأفكار الدينية المصرية في هذا العصر الكثير من الباحثين ، منهم العالم اليهودى سيجموند فرويد صاحب النظريات النفسية المعروفة ، الذى ألف كتابا عن « موسى والوحدانية » .

فقد زحف بزمن موسى بضعة عشرات من السنين ، وذكر انه استوحى أفكار وحدانية الله من تأملات إخناتون . ويؤكد فرويد أن موسى لم يكن من أسرة ليفى اليهودية . ولكنه كان مصريا صميما - أهلا ومولدا .

وعارض الدكتور أحمد بدوى هذا الرأى وقال : لست أجد حكمة ظاهرة فيما يراه المؤلف من أن موسى كان مصرياً ، إلا إذا كان يريد أن يثبت للعالم أن العقل المصرى لم يكن يستمع لفكرة الوجدانية . وأن ذلك النبى المصرى قد يؤس من الدعوة لمذهبه بين أهله وعشيرته ، فراح يبشر بها بنى اسرائيل ، لأنه وجد عندهم من سعة الفكر ، وكمال العقل ، ما مهد له سبيل ذلك . وأنه كره أن يبشر أولئك القوم على أرض المصريين ، فهاجر على رأسهم ، لينتبه بهم من جانب الطور الأيمن ، مكانا قصيا .. لئن كان كذلك ، فأحب أن يعلم الناس أن المصريين قد عرفوا الوجدانية وأمنوا بها ، ودانوا دينها ، بل عرفوا ان الله واحد لا شريك له . ولكنهم لم يعلنوا ذلك دفعة واحدة .. وقد مروا في ذلك بثلاثة أطوار : طور التعدد ، وطور الترجيح ، وأخيرا طور الوجدانية .

وقال رأيه أن التوحيد المصرى خضع لسنة الطبيعة ، وأنه نشأ مصرياً خالصاً ، غير منقول .

ومقطع القول فى هذا الجدل العلمى ، هو موعد ظهور موسى ، وفى عهد أى الفراعنة ، جهر بدعوته .. وعندنا ، استنادا الى حفريات أريحا ، وإلى شواهد أخرى من حساب السنين فى التوراة نفسها أن موسى سبق إخناتون فى خروجه بسنوات قليلة - عشرات فقط - واذن فلا مجال للبحث فى تأثير التوحيد الموسوى بالذات على أفكار المصريين ، وان كانت أفكار التوحيد قد وجدت بذرتها قبل ذلك بأربعة قرون وبعض قرن ، أيام يوسف الصديق .

وهناك شاهد آخر له قيمته ووزنه فى موضوعنا هذا ، وهو ألواح تل العمارنة نفسها . فقد كتب والى جبيل (ببلوس) فى أوائل عصر إخناتون وكان اسمه راب - أدى ، يقول له :

« منذ رجوع والدك من صيدون ، وقعت البلاد فى أيدي الخابيرى » ووالد إخناتون ، كان أمنحتب الثالث ، وقد قام فعلا بحملة مسلحة على فلسطين وسوريا آخر أيامه .. وبلغت رسائل هذا الوالى من ضمن مجموعة تل العمارنة ، ستين رسالة .

وبدو الخابيرى ، هم العبريون ، ومنهم اليهود الإسرائيليون . ولم تكن تحركات « الخابيرى » ذات أهمية ، حتى لقد وصفت بأنها « غارات سلمية

أشبهه بالهجرة « (١) ومن هذا يتضح لنا أن ما وصفته التوراة من حروب يجتمع لها مئات الألوف. من حاملي السيوف مبالغة لا شك فيها ، والا لتحركت جيوش مصر ، وسحققتها سحقاً .. وهو ما حدث فعلاً بعد ان هدأت الثورة الدينية التي رفع لواءها إخناتون ، وعادت طيبة عاصمة لمصر ، وهجرت « أخت أتون » أو تل العمارنة ، وأصبح الإله المصرى آمون هو المعبود .

لقد حكمت الأسرة الثامنة عشرة المصرية حوالى ٢٥٠ سنة ، بدأت بطرد الهكسوس من مصر ، وانتهت بهذه الصحوات التوحيدية فى النظرة الى الكون وخالفه ، وكان آخر ملوك هذه الأسرة أزواج بنات إخناتون ، ومنهم الفتى الشاب توت عنخ آمون صاحب الآثار المشهورة (٢) وفى عهد هذه الأسرة ظهر موسى الكليم فى مصر ثم قاد قبيلته الى سيناء ، ثم الى فلسطين .

وما أن تولى حور محب الملك ، مستنداً إلى زواجه من أسرة إخناتون (فى الغالب أخت زوجه) ، وكان قبل ذلك قائد الجيوش ، ورجل الادارة الممتاز .. ما أن تولى الملك هذا الشخص القدير ، حتى وجد عاصمته تغص بمهاجرين من فلسطين ، يشكون سوء الحال ، واختلال الأمن فيها . ولكن هذا الملك وطد أركان الأمن فى مصر أولاً ، وكافح فيها وباء شديداً انتشر ، وهو الرشوة ، وكان حكمه تمهيداً طيباً للأسرة التاسعة عشرة التى ارتفعت فيها أسماء رمسيس . بدأ حكم هذه الأسرة الجديدة ، بسيتى الأول . وقد تلقى رسالة من واليه فى فلسطين جاء فيها :

« لقد اتحد رؤساء البدو معا ، وأخذوا يضعون أيديهم على فلسطين وهم الآن يفتكون بالناس ، ويلعنونهم ، ويضربونهم . فصار كل منهم يقتل جاره غير مكترئين لقوانين القصر الملكى المصرى » .

ويعقب برستد على هذه الرسالة بقوله : فى أثناء هذه الغارات البدوية أخذ الإسرائيليون يستعمرون فلسطين ، وكانوا يدفعون الجزية لفرعون ، ويطيعون أوامره ولذلك لم يهتم بهم ، أما الآن فتغيرت الأحوال ، وامتنع هؤلاء القوم عن ذلك .

وهنا نجد سيتى الأول يسجل زحفه على فلسطين ، واخضاعه لأهلها جميعاً . وقد حاول بعض البدو من سكان النقب (الجنوب) التصدى له فمزقهم شر ممزق . ثم واصل زحفه الى كنعان (غربى سوريا وفلسطين) ،

(١) كتاب تاريخ مصر لبرستد ترجمة الدكتور حسن كمال ص ٢٣٤

(٢) كشف قبره ومخلفاته العظيمة فى عام ١٩٢٢

فاستولى عليها ، ووصل إلى سهل مجدو ، وأقام نصبا تذكاريًا في أرض حوران . ولم يكن سكان هذه المناطق قد رأوا زحفاً مصرياً يقوده فرعون منذ أيام أمنحتب الثالث (أو إخناتون) . وقد أخضعت هذه الحملة فلسطين ، وبهذا أمكن تأمين ظهر الجيش المصرى ، وهو مندفع شمالاً لاختضاع الحيثيين كذلك . ولكنهم كانوا قد توطنوا بهجرات متوالية من آسيا الصغرى إلى شمال سوريا ، فعاهدتهم واكتفى منهم بالجزية .

وما يهمنا هنا ، هو أن الوجود المصرى في فلسطين ، كان لا بد منه لإقرار الأمن وتمكين السكان جميعاً ، سواء كانوا وافدين أو مقيمين من مواصلة حياتهم اليومية في هدوء نسبي ..

وهنا نأتى إلى عصر رمسيس الثانى أشهر اسم بعد أحمس وتحتمس الثالث في تاريخ السيادة المصرية .. ان حروبه الضخمة في شرق آسيا ، أقامت مجده . وقد أكد « برستد » في دراسته المتأنيبة ، أن جيش رمسيس الذى بدأ غزواته عام ١٢٨٨ ق . م كان مكوناً من أربع فرق ، قوام كل فرقة خمسة آلاف جندي .. وهذا غير عدد آخر من الجنود المأجورين غير المصريين لم يعرف إحصاؤه بالضبط . وقد اجتاح رمسيس هذه المناطق كلها وفتك بالحيثيين فتكا ذريعاً ، في عدة غزوات على مدار سنوات متعاقبة . أين هذا العدد للجيش المصرى ، من الأرقام الفلكية (مئات الألوف) التى تحدثت عنها التوراة ، إنه كان في استيلاء إسرائيل حشدها ، بل قالت إنها حشدتها فعلاً ؟!

وقبل أن نغادر مصر وعلاقتها بفلسطين ، نصل إلى منفتح ابن رمسيس الثانى . وعلى مدونات الأثرية ، نجد للمرة الأولى نصاً صريحاً ، خاصاً بإسرائيل ، وقد حلت هذه الكلمة محل قبائل البدو (الخابيري) . وفي هذا النص ، ان بنى إسرائيل اشتركوا في ثورة ضد السيادة المصرية على فلسطين وسوريا . فذهب منفتح على رأس جيش ، ونكل بالعصاة تنكيلاً شديداً ، وكانت قبائل بنى إسرائيل ضمن الذين وقع عليهم القصاص .

ولذكر إسرائيل للمرة الأولى باسمها هذا على الآثار المصرية ، تسربت شبهة لدى بعض الكتاب والباحثين ، هى أن منفتح هو فرعون الخروج ، أى فرعون الذى ظهرت في وقته دعوة موسى . ولكن هذا وهم باطل وما حدث هو حملة تأديبية مصرية ، وجهت إلى هناك ، بعد فرار اليهود من مصر بوقت طويل . فقد مات منفتح عام ١٢١٥ ق . م ، وكانت الهجرة اليهودية والعبور إلى سيناء عام ١٤٤٠ ق . م .

وما يلفت النظر حقا ، نص الاشارة التى وردت فى المدونات المصرية القديمة بمناسبة هذه الحملة التأديبية . يقول النص : « ان اسرائيل دمرت وبذرتها محيت .. ويستطرد مؤرخنا الكبير برستد قائلا : وقد كان ذلك الحادث فى عهد « القضاة » الذين قادوا اسرائيل وقت كانت الحياة العبرانية القومية لا تزال خاملة ، لا تكاد تعرف شيئا من الحكم المركزى ، أو النظام القومى . فقد كانوا متمسكين بالعادات الساذجة المتبربرة الشائعة بين قبائل الصحراء . بل ان بعض تقاليدهم كانت أقرب الى الوحشية ، مثل ذبحهم الولد البكر قربانا لإله القبيلة .. ومثل هذا الجنى المحلى الذى كان يطلق عليه فى الصحراء الجنوبية اسم « ايل » ، وهذا اللفظ ليس اسم علم ، وانما هو الكلمة السامية القديمة التى كانت تطلق على أى إله محلى .

وبعد أن ذكر برستد أن اليهود أطلقوا على معبودهم اسم « يهوه » إله البراكين والظواهر الطبيعية الخارقة ، وذلك تأثرا بما حدث أمامهم فوق جبال سيناء وبين قممها المرعدة ، قال ان من قسوة الطبيعة ، وما تخيلوه فى إله البراكين من جبروت وشدة ، استعار اليهود هذه الأوصاف ، وجعلوها علما « للرب » الغضوب . ويرى برستد أن وجود اليهود فى مصر ، أمدتهم ببعض عاداتهم ، وأولها عادة الختان . ويقول (١) « على اننا نجد العبرانيين كانوا يتمسكون ببعض الذكريات عن التماثيل الدينية المصرية . فقد كان كهنتهم يحملون عصا سحرية عظيمة ، لاشك فى أنها كانت فى صورة ثعبان . تكمن فيها قوة (يهوه) . كما كانوا ينصبون ثعبانا من النحاس البراق ليشفوا به الناس . وكان هذا الثعبان بطبيعة الحال أحد تلك الثعابين المقدسة العديدة فى مصر . وقد بقيت صورة ذلك الإله المصرى القديم عند العبرانيين الى ما بعد استيطانهم فلسطين بزمان طويل ، واستمروا فى اطلاق البخور له مدة خمسة قرون بعد عهد موسى . ولم يبعد من المعبد الا فى حكم حزقيائيل ، فى أواخر القرن الثامن قبل الميلاد .

وهكذا تمضى القرون الأولى لليهود فى فلسطين ، وهم يحاولون جاهدين التعود على حياة الاستقرار الزراعى ، وترك عادات البدو الرحل ، أو حياة الرعى التى بدأوا بها وجودهم . ان البدوى ينام بنصف عين كالذئب ، خوف المفاجأة من مجهول يثب عليه سواء كان بشرا أو حيوانا مفترسا . وفى اغارات

(١) فجر الضمير ص ٣٧٩

اليهود على أهل القرى والمدن الفلسطينية استجابة لهذه الطبيعة ، مع أن الأرض وقتها كانت واسعة . وكان في وسعهم الاستقرار والتعمير ولكنهم أثروا الأخرى .. أثروا أن يأخذوا ما في أيدي غيرهم ، بحجة ان الرب قادم اليه . والرب لا يدعو الى انتهاك الحرمات ، وأخذ ما في يد الغير ، وما أنعم الله به عليهم ومنها الأرواح والحياة بكافة معالمها .. لقد أراد الرب خلاصهم من حالة ذل كانوا فيها بأرض مصر وفلسطين واسعة ان كانت هي مهجرهم .. وهم قلة من الناس ، اذا لا عبرة بأرقام أوردها كتاب التوراة وهي تتحدث عن كثرتهم . وسنرى فيما بعد ، وبنص التوراة نفسها عدد الذين أخرجهم البابليون من فلسطين ، وعدد الذين عادوا اليها بعد أن سمح لهم بالعودة .. انه رقم لا يعادل جزءا من عشرة أجزاء ، مما ذكره كتاب التوراة في الحقبة الأولى ، تعدادا لجيش جمعوه يحاربون به قبيلة من قبائل اليهود ، فصلنا أمرها من قبل .

نعود الآن ، الى تتبع السيرة اليهودية في فلسطين ، بعد هذه النظرة السريعة على ما أحاط بهم في الجانب المصرى ، والمصريون كانوا أصحاب خبرة بالاسرائيليين أكثر من غيرهم .

ملك يحكم اسرائيل :

بعد عصر القضاة ، زادت مفاسد اسرائيل ، ولم تقف عند عبادة الأوثان ، وعبادة الأرباب المعبودة في فلسطين ، بل راحوا كما تقول التوراة ، يحقرون يهوه ويصغرونه ، ووصل بهم الأمر كما ورد في الاصحاح الثانى من سفر صموئيل الى « أنهم كانوا يضاجعون النساء المجتمعات في باب خيمة الاجتماع » .

وفي معركة من هذه المعارك التى لا تنتهى ، دار قتال عنيف بين الفلسطينيين والاسرائيليين ، وبعد أول انكسار لليهود ، أسرعوا وأحضروا « تابوت الرب » ليحارب لهم عدوهم . ولكن التابوت أيضا وقع في يد الفلسطينيين وحملوه معهم الى أشدود على ساحل البحر المتوسط .

وتذكر التوراة فيما تباليغ به من أرقام أن ضحايا اسرائيل في هذه الهزيمة ، كانوا أربعة وثلاثين ألف قتيل . ويذكرون أنه في كل مكان أودع فيه هذا التابوت كان يحل الاضطراب ، وتفشو الأمراض . وخلصا من هذه « الورطة » وضع الفلسطينيين التابوت على عربة ، مع كمية من الذهب مما يسر به اليهود ، وساقوها الى حيث يقيم اليهود ، من أسرة ليفى - سلالة هارون - ويبدو أن نظر اليهودى الى هذا التابوت يصيبه بضربة مميتة . فكان كلما وقع نظر يهودى عليه

بعد عودته صعق . وتذكر التوراة أن خمسين ألفا ، زادوا سبعين ، هلكوا بسبب هذه النظرة !! وأخيرا أودعوه في إحدى القرى وظل فيها عشرين سنة .. وكانت فترة أسر التابوت في يد الفلسطينيين سبعة أشهر .

وكان أحد الفتیان من يهود طيبا صالحا ، وهو صموئيل . فنصبوه كاهنا ، وكان فطنا ذكيا ، فخطط حدودا بين منازل اليهود ، ومنازل الفلسطينيين لإيقاف المعارك . التي لا تنتهى ، كما عقد مع الاموريين معاهدة سلام .

ويبدو أن الشيخوخة أدركت هذا الفتى الطيب صموئيل ، دون أحداث تذكر ، اللهم الا ما حدث عندما نصب للقضاء ابنه ، فكانا مثالا للفساد والرشوة . وحتى تتم محاكاة اليهود للقوميات الصغيرة الأخرى الموجودة في فلسطين ، فقد طلبوا من صموئيل ، أن يختار لهم ملكا ، مثل ملوك هذه القبائل من حولهم ، واستشار صموئيل ربه في هذا الطلب ، فقال له : انهم لم يرفضوك أنت ، بل اياى رفضوا ، حتى لا أملك عليهم ، حسب كل اعمالهم التي عملوا من يوم أصعدتهم من مصر الى هذا اليوم ، وتركونى وعبدوا آلهة أخرى . وهكذا نجد اليهود منذ مات موسى الكليم ، بل في حياته ، لم يثبتوا مرة واحدة انهم أهل لأن يحملوا رسالته ، أو يكونوا شعبا مختارا ، وأسوة للشعوب من حولهم كبيرها وصغيرها .. إن ثلاثة قرون أو نحوها ، منذ تجديد الدعوة الابراهيمية على يدى موسى ، لم تخرجهم من حياة القبيلة الضيقة ذات التقاليد الجامدة ، أو المخيفة في بعض الأحيان .. ولقد حدث مرة في جريمة عرض ، أن قتل يهودى المرأة المعتدى عليها ، وقطع جثتها الى ١٢ قطعة ، أرسل كل قطعة الى سبط من أسباط اسرائيل يستنفرهم لنجدته . ولم يعرف عن القبائل البدائية مثل هذه الرسائل باللحم البشرى .

المهم انهم طلبوا من صموئيل ملكا . وطلب منه « الرب » أن يستجيب لهم رغم اعتراض الرب على رغبتهم ! وقد حذرهم قاضيهم قائلا لهم إنه أى الملك المنتظر « يأخذ بنيكم ، ويجعلهم لنفسه .. لمراكبه وفرسانه ، فيركضون أمام مراكبه » وانه - أى الملك - سوف يجبر شعب اسرائيل على العمل في مزارعه ، ويحشد نساءهم في مطابخه ومخابزه ، ويصادر حاصلاتهم ، ويوزعها على عبيده . ولكن الاسرائيليين أصروا ، ليكونوا مثل سائر الشعوب .

وفي هذه الفترة ، كان الفلسطينيون ، قد ركبوا رؤوس اليهود ، وساموهم سوء العذاب . وكان الملك المختار رجلا من قبيلة بنيامين اسمه « شاول » ، وافق الرب على اختياره لهذا المنصب ، مع أن الرب سبق أن عارض هذا المشروع !

وفي الوقت الذي كان فيه صموئيل قاضيا ، وقد اختار هذا الملك ، كانت اسرائيل تزخر بعدد من « الانبياء » والمفهوم اليهودي لكلمة نبي يختلف عن مفهوم الأديان الأخرى ، فهو لا يزيد عن أن يكون عرافا ، أو قارئ طالع ، حتى لقد وجد بين اليهود أربعون نبيا في وقت واحد .

ونجح شاول الملك في رد غارات الفلسطينيين ، مستعينا طبعا « بتابوت » الرب ، وحدث خلاف كبير بين القاضى صموئيل ، وهذا الملك ، « ولم يعد صموئيل لرؤية شاول الى يوم موته ، لأن صموئيل ناح على شاول ، والرب ندم ، لأنه ملك شاول على اسرائيل » . وهكذا نرى رب اليهود في هذه المرحلة ، لا يدري ما يفعل ويدركه من الندم ما يدرك الناس . وهو مفهوم وثنى لفكرة الربوبية ، لم تنجح الوصايا العشر ، ولا غيرها ، في نزعها من ذهن اليهود لا في القرون الأولى لوجودهم في جزء من فلسطين ، ولا في القرن الاخير من وجودهم فيها قبل ظهور المسيح . وذلك لأنهم كتبوا هذا الكلام في توراتهم في المرحلة الأخيرة ، ولو ان عقائدهم أدركها شيء من النضوج لما خطوه بأيديهم ، وجعلوا منه توراتهم التي بها يتعبدون ، ومنها يستمدون مسيرتهم الروحية والمادية .

وفي ذات ليلة أراد شاول عازف عود يسرى عنه ، فأحضروا له فتى من الرعاة اسمه داود ، كان يجيد العزف على هذه الآلة الموسيقية . فأضفى بهجة على ليالى شاول .

وتجددت المعارك مع الفلسطينيين ، وكان من بينهم هذه المرة فارس عملاق اسمه جوليات يلبس خوذة نحاسية ودروعا ، وله رمح هائل أربع اليهود . ودعا فارسا من اسرائيل لينازله وأيها يغلب يكون شعب المغلوب عبدا للمنتصر . وفي وسط الروع والأسى ، اذاع الملك شاول ان من يتقدم من جيشه ويهزم عملاق فلسطين ، فانه يزوجه بنته ، ويهبه مالا جزيلا . وبرز من الصفوف داود عازف العود وابن مدينة بين لحم . ورفض الرماح والدروع وأخذ حجارة ومقلعا تعود على اصابة الأهداف بها وحقر جوليات العملاق من شأنه ، ولكن تسديد حجر الى جبهته ألقاه على الأرض صريعا ، وأسرع داود الى سيف هذا المحارب فانتزعه من جنبه وقطع به رأسه ، وحمله معه ، ومعه أسلاب هذا العملاق الى اورشليم .

وظل داود يترقى ، حتى سلمت له قيادة رجال الحرب من يهوذا ، وعظمت شعبية داود ، وقبل الملك أن يزوجه من ابنته « ميكال » بعد ان قدم له مائتى عضو من أعضاء فلسطينيين قتلهم ، وكان ذلك مهر الأميرة . وتغير قلب الملك

على داود ، وتآمر على قتله وبينما كان داود يعزف على قيثاره ، مسك شاول رمحا وقذف به زوج ابنته ، ولكن حاد عن مرماه وفر داود محتميا بالقاضي صموئيل ، ثم هام على وجهه يحتمى بملوك القبائل المجاورة غير اليهودية ، والملك يطارده ، حتى وصل الى مدينة خصصت لسكن الكهنة ، وحسب أن عدوه يحتمى فيها ، وأمر عبيده فقتلوا الرجال والنساء والأطفال والرضع والثيران والحمير والغنم بحد السيف .

وتتوالى المطاردة المثيرة : الملك وراء داود ، وتستغرق من التوراة صفحات كثيرة ، وتصل الى كهف يأوى « شاول » الى جزء منه ، وداود فى داخله ، وكان فى وسعه أن يقتله ولكنه فى نومه قطع جزءا من جبهته فلما غادر الملك الكهف ، ناداه داود ، وأظهر له خضوعه ، وتعفقه عن قتله ، لانه - أى الملك - مسيح الرب ! واذا كانت المطاردة قد كفت بعد هذا اللقاء العاطفى ، فقد انتهى بأن طلق داود ابنته وتزوج امرأتين غيرها .. ولم يطل الصلح بين الاثنين ، فقد حشد شاول ثلاثة آلاف جندى ومضى يطارده داود ومرة أخرى كاد شاول يهلك بيد داود ، وذلك عند نومه ، هو وجنوده . ولكن داود تعفف مرة ثانية واكتفى بأخذ رمح الملك (وكوزه) وناداه من فوق تل بعيد ، انه امتنع عن قتله مرة ثانية .

وأخيرا اهتدى داود الى حل مريح ، وهو أن يذهب مع أعوانه - وكانوا ستمائة - ويحتمى بأرض الفلسطينيين أعداء اسرائيل ، وكان داود يواصل الاغارة على قبائل قريبة من قومه ، كبرهان على ولائه للفلسطينيين وعلى طريقة تفكير اليهود فى مثل هذه المعارك ، كان داود يفنى كل من يقابله من قومه حتى لا يخبروا عنه .

وكان شاول الملك فى حالة نفسه سيئة لاختفاء داود ، وعدم اهتدائه الى مكانه . وتقول التوراة انه ذهب الى امرأة تحضر الأرواح ، فأحضرت له روح الكاهن صموئيل الذى كان قد مات ، فأخبره ، انه سيهلك هو ومن يلوذ به ، وان داود سيتولى الأمر من بعده . وروع ملك اسرائيل لهذه النبوءة ترويعا شديدا .

وفى المعركة الفاصلة التى تنبأ بها الكاهن صموئيل بعد موته ، جمع اليهود حشدهم ، وجمع الفلسطينيون حشدهم ، وكان داود يريد الذهاب معهم لحرب الملك ، ولكن جيش فلسطين لم يرض بهذه الضحبة ، واعاده الى المدينة مع اتباعه .

وفي عودة داود ، كان عدو آخر للفلسطينيين اسمتهم التوراة العماليق ، وربما كانوا من سكان سيناء قد أغاروا على المدينة وأسروا أهلها فلحق بهم وهزمهم ، وأعاد الأسرى والسبائيا وكان منهم زوجتا داود .
أما المعركة الكبرى التي دارت بين اسرائيل وجيش فلسطين ، فقد دارت الدائرة على اليهود ، فانهزموا ، وقتل شاول وثلاثة من أبنائه وجميع رجاله . وزحف الفلسطينيون على مدن اسرائيل فاحتلوها وسكنوا فيها .
ولما وصلت أنباء الهزيمة اليهودية الى داود في مكانه لدى الفلسطينيين ، هلع ، وبكى وقتل الرسول الذي حمل اليه النبأ .. ودعا في مرثيته ألا يسقط على جبال الفلسطينيين طل ولا مطر ، وبعد أن هلك شاول وابنه ، وكان أخف من النسور الطائفة وأشجع من الاسود الكاسرة .

ومن عجب هذا الوفاء من داود ملك ظل يطارده سنوات طويلة ، ولا يتمنى شيئا أكثر من هلاكه ، حتى ألجأ الى الاحتماء بأعدائه ، وكانت حجة أن شاول كان « مسيح » الرب ، مع أن الكاهن الكبير صموئيل خاصمه حيا ، وخاصمه ميتا .

وهرب داود من أرض الفلسطينيين الى حبرون (الخليل) ، حيث يقيم سبط يهوذا ، فنصبوه ملكا عليهم . وأما فلول جيش شاول فقد نصبوا ابنا لشاول ملكا عليهم وعلى كل قبائل اسرائيل عدا قبيلة يهوذا .
وبدأت حرب بين البيتين : داود وخلفاء شاول ، وانتهت بتوحيد اسرائيل مرة أخرى تحت حكم داود . وكان داود قد حكم في حبرون وحدها سبع سنين وستة أشهر . وعندما شمل حكمه كل قبائل اسرائيل كان قد بلغ الثلاثين من عمره .

وغادر داود حبرون (الخليل) الى اورشليم (بيت المقدس) ليجعل منها عاصمته حتى مات في السبعين من عمره .. وهنا تبدأ علاقة اليهود بالقدس .

□ الفصل الخامس □

داود وسليمان في القدس

نحن الآن في القدس ، التي كانت تسمى أورشليم ، عندما وصل اليها دواود ملكا .. وقد اخترنا اسمها عنوانا لهذا الكتاب ، لأنها تكون صورة لمعركة أزلية قديمة قدم الانسان ، عنيفة عنف الطبيعة اذا فارت وثارَت ، عميقة عمق الايمان اذا استقر في أفئدة الناس ..

هناك اسمان للمدن في تاريخ الشرق الأوسط ، وتاريخ البشرية ، يكون تاريخها نعمة الوجود ومأساته ، وقصة النقائض جميعا .. هاتان المدينتان هما : مكة ، والقدس ..

مكة أنشئت حول الكعبة ، بيت التوحيد الأكبر ، لتكون مثابة للناس وأمنا . يفد اليها المحارب فيلقى سلاحه خارجها ، ويدخلها الخائف فيلقى خوفه بعيدا عنها ، ويلوذ بها الحائر ، والثائر ، والغضبان ، والأسوان فيلقى عندها نسائم الراحة حتى في شهور القيظ المحرق ، والهدوء الذي يحيطه يصله بالتوبة والايامن . والله تعالى رحيم رحمن ، محسن تواب ، وهو صاحب العفو والغفران .

وقد حدثت في تاريخ المدينة ، منذ بني كعبتها إبراهيم الخليل واسماعيل استثناءات قليلة لسر وجودها ، وحكمة قيامها : فتحركت فيها أحقاد ولكنها كانت قليلة ، وثارَت عندها الطبيعة ، ولكن في استحياء وسرعان ما هدأت ثورتها ، ولحكمة ما قال الشيخ الهاشمي القديم : للكعبة رب يحميها .

أما القدس ، فهي التيار والاعصار .. هي الحرب التي تنتهى لتبدأ من بعدها حرب .. هي المعركة الدائرة الدائبة بين قوى الخير والشر ، وعند سفوح تلالها كر التاريخ وفر ، وأقبلت الجيوش ومضت ، وإحصاؤها يضم مئات الملايين ، وضحاياها تجرى منها دماء ، لو كانت ماء لروت أرض الصحارى وأنبتت فيها خير النبات .

قف قليلا عند قصة الزلازل . فما من كتاب فى التاريخ القديم أو الحديث الا كان له حديث مستفيض عن حدوثها فى القدس .. فمن ذلك ما وصفه المحدث اليهودى القديم يوسفوس ان زلزال سنة ٧٨٠ ق.م ، شق الجبل ، فغارت الطرق ، واندكت المباني ، وزلزال آخر حدث قبل الميلاد أيضا بـ ٣١ سنة مات تحت انقاضه نحو من عشرة الاف شخص . أما بعد ميلاد المسيح فقد أحصى حتى عام ١٩٣٧ الميلادى أربعين زلزالا منها زلزال أورده حافظ ابراهيم فى شعره ، لأنه حدث فى العام الذى توفى فيه سعد زغلول زعيم مصر - عام ١٩٢٧ .

وكانت تكفى فواجع الزلازل ، لكى يهجر الناس هذا الموقع الزلزالى ، وما أكثر المدن التى قامت ثم بادت لأقل من هذا . ولكن القدس لها سرها الذى حفظ عليها وجودها منذ أقدم العصور . هو قداستها . وليس غير هذه المدينة فيما نعلم ، بنيت ثمانى عشرة مرة ، بعد أن هدمتها الحروب أو الزلازل .

تقع القدس على بعد ١٨ ميلا شرقى البحر الميت ، و٣٢ ميلا غربى البحر المتوسط . وترتفع عن سطح البحر بـ ٢٥٠٠ قدم أما ارتفاعها عن سطح البحر الميت فيبلغ ٣٥٠٠ قدم . وذلك لأن هذ البحر يقع فى أكثر بقاع العالم انخفاضا . والقدس مقامة على مجموعة من التلال ، أشهرها جبل الزيتون الذى يقع شرقها ، وكن هذا الجبل الطريق الذى صعدت اليه وهبطت منه الجيوش الجرارة التى تحركت فى هذه المنطقة : جيوش المصريين والحيثيين والبابليين والآشوريين والفرس والاغريق والرومان والعرب والصليبيين والأتراك والانجليز . وجبل الزيتون هو الذى وقف عليه السيد المسيح عليه السلام وقد ضاق باليهود العصاة لأمر الله من سكان المدينة ، فخاطبها قائلا من موقفه الحزين الأسوان : « ياأورشليم .. ياأورشليم .. ياقاتلة الانبياء وراجمة المرسلين .. كم مرة أردت أن أجمع أبناءك كما تجمع الدجاجة أفراخها .. ولكن لم يريدوا) .. ويذكر المفسرون للقرآن الكريم أن الآية : « والتين والزيتون وطور

سينين ، وهذا البلد الأمين « إنما تشير بكلمة الزيتون الى هذا الجبل كناية عن القدس نفسها ، كما يرمز التين الى جبال الشام ، طور سينين الى جبل سيناء .. أما البلد الأمين فهو مكة المكرمة بجبالها المعروفة .

والجبل الثانى فى القدس هو جبل ، موريا الذى يقوم عليه الحرم القدسى . وجبل المشارف فى شمال المدينة ويسمى أيضا بالمشهد . ويسميه الفرنجة جبل سكوبس . وقد أطل منه الإسكندر المقدونى على المدينة عام ٣٣٢ ق.م وهو الحى المترف الآن وتوجد عليه الجامعة العبرية ومستشفى هداسا اليهودى ومقابر الانجليز .. ثم تل « أوفل » ، ثم تل « صهيون » . ثم تل « بينريتا » . ثم « جبل المشارف » و« القطمون » و« جبل المكبر » . والجبل الاخير يضم حى « أبى ثور » وهو المجاهد الاسلامى الامام شهاب الدين أحمد بن عبد الجبار القرشى . وكان من رجال صلاح الدين ، وكان يركب ثورا فى حروب القدس .

والقدس قليلة الماء ، تعتمد على ماتخزنه فى موسم الأمطار ، ومن ينابيع ماء كبيرة . وهذه الينابيع خارج المدينة ويسحب منها الماء ، ليخزنه الاهالى فى صهاريج فوق مساكنهم .

أورشليم .. أولاً :

كان بناء القدس الأوائل هم اليبوسيون ، وهم قبيلة من قبائل العرب نزحت من شبه الجزيرة العربية مع الكنعانيين ، وحدث ذلك منذ زمن بعيد ، يقدره بعض المؤرخين بخمسين قرنا ، ولكنه مجرد ظن لا يقوم على أساس . وكان الإله المعبود فى هذه المنطقة أيام هجرة اليبوسيين اسمه « شالم » فأطلق اسمه على المدينة ، فأصبحت مدينة شالم ، أو « أورشالم » كما احتفظت أيضا باسمها الأول ، وهو « ييوس » نسبة الى القبيلة التى سكنتها أول الأمر .

والمدينة ملتقى طرق تجارية قادمة من البحر المتوسط شرقا الى الصحراء عبر الاردن . كما كانت ملتقى طرق قادمة من حبرون (الخليل) ومن أريحا الى شكيم (نابلس) ووادى الاردن . وحتى يحافظ عليها أهلها القدماء ، فقد قبلوا حماية مصر لهم ، إذ أقامت قوة مصرية ، رمزية تحفظ الأمن فيها ، وتدفع الجزية . وفى رسائل « تل العمارنة » سبع رسائل موجهة لفرعون مصر ، لكى ينجى المدينة من محاولات الاغارة التى كانت تقوم بها القبائل الكنعانية ، ثم القبائل اليهودية بعد ذلك . وقد حاول اليهود طوال أربعة قرون أن يستولوا على

أورشليم ، ولكن أهلها ، وحاميتها المصرية أحيانا ، منعوا هذا الغزو ، لما علموه من إبادة اليهود لسكان القرى التي وضعوا أيديهم عليها .
وفي سنة ١٠٤٩ ق.م نصب داود ملكا على كل الاسرائيليين ، وكان مقره حبرون (الخليل) فأعد جيشا من ثلاثين ألفا ، وتحرك الى أورشليم ، وكان على معرفة بطبيعة الارض ، فمئذ صباه كان راعيا ، ويعرف موارد المياه ، وأين تكون . ولهذا وجه حملته الى عين الماء التي تستقى منها المدينة ، وكان اسمها « عين روجل » وهي موجودة حتى الان ، واسمها « عين أم الدرج » . وبهذا كفت المدينة عن المقاومة . ويقول « برستد » في تاريخه ان اليهود حتى ذلك الوقت كانوا يعيشون عيشة البدو الرحل ، ولم تنفعهم اقامتهم في مصر ، وعندما يأتي الشتاء كانوا يلبسون جلود الحيوان تدفئهم ، ولم يعنوا بعد أن أحرقوا القرى في طريقهم أن يقيموا المباني الجديدة . وهم الذين هربوا من مصر ، لأنهم أكرهوا على الاشتغال بصناعة البناء .. وما أن جاءوا الى أورشليم ، حتى وجدوها مدينة زاخرة بالتجارة والصناعة .. وأيضا المساكن . فكانت اقامتهم مع أهلها أول خطوة لهم في طريق الاستقرار الحضارى ، وذلك لأنهم لم يقتلوا أو يجلووا السكان عنهم . اذ رغب داود بفكر ثاقب تميز به ، أن يعايش الناس . لا أن يببدهم .

أطلق داود على أورشليم اسم « مدينة داود » فكان هذا اسمها الثالث . ونقل تابوت الرب الى البلدة في رحلة طويلة مرهقة تمت على مرحلتين ، مات فيها من اقترب منه كما تقول التوراة ، وكان داود ، وكل بيت في اسرائيل يلعبون أمام الرب بكل أنواع الآلات من خشب السرو ، بالعيدان ، والرباب ، وبالدفوف ، وبالجنوك ، بالصنوج ، وكانت كلها أدوات موسيقى وطرب .. « وكان داود يرقص بكل قوته أمام الرب » ولم تعجب هذه الخفة من داود نساء الحى ، واحتقروا ملكهم . وما أن استقر التابوت في موضعه حتى وزع الملك على كل يهودى رغيف خبز ، وكأس خمر ، وقرص زبيب .
ونصب اليهود « ناثان » كاهنا لهم ، أو نبيا .

وتقول التوراة ان الرب ضاق بالاقامة في الخيام داخل تابوته منذ خرج اليهود من مصر ، فأوحى الى داود أن يقيم له بناء مثل المباني الموجودة في المدينة ، ويبدو أن الرب وافق أخيرا على أن يكون لاسرائيل ملك ، بعد أن عارض هذه الفكرة أيام الكاهن صموئيل ، وتهدد اليهود بكوارث كثيرة . بل زادت التوراة على ذلك أن داود تلقى وعدا بأن يستمر الملك في نسله ، بل تنازل الرب

عن شرط من شروط معبده ، وهو الا يدخل عليه أحد الا اذا كان الكاهن الأكبر ، فقد اذن لداود بالدخول ليشكره ، وكان مما قاله له : « ... وليتعظم اسمك الى الابد ، فيقال يارب الجنود اله على اسرائيل .. » .
وحارب داود القبائل من حوله ، وأخضعها .

وهنا تبدأ مأساة داود كما صورتها التوراة ، فقد شاهد من على سطح منزله ، امرأة عارية تستحم ، فاستولى عليه جمالها ، وكانت زوجة لأحد ضباطه الذين يقاتلون القبائل المعادية ، فأرسل من أحضرها ، واجتمع بها ، فحملت منه . ووقع داود في ورطة ، فأرسل من يستدعى الضابط ، ليزور بيته . ولكن الضابط لم يشأ أن يذهب الى بيته ، فقد رفض ما دام الجيش بعيدا في الخيام ، وهو مكلف بواجبات في الجبهة . وكانت أخلاق هذا الضابط واسمه « أوريا » في تصوير التوراة آية في النبل اذ قال للملك داود : إن التابوت (الرب) واسرائيل ويهوذا ساكنون في الخيام ، وقادة الجيش والجيش نازلون في الصحراء ، وأنا أتى الى بيتي ، لأكل وأشرب ، واضطجع مع امرأتى .. واقسم بحياة الملك لايفعل ذلك . فأسكره داود على مائدته عسى أن تلين رأسه ويذهب الى بيته ، ولكنه لم يفعل .

وحتى يخرج داود من هذه الورطة كتب الى قائد جيشه أن يجعل هذا الضابط في مقدمة الجنود ، وأن ينسحبوا من حوله حتى يقتل بيد العدو .. وهكذا كان بيت الملك ، وقواد جيشه مشتغلين بهذه القصة الغرامية ، ولما قتل الضابط (وكان من الحيثيين وهو أمر مستغرب) ! ضم داود المرأة الى زوجاته ، « وقبح ذلك في عيني الرب » ! وعلى الرغم من أن الطفل الذي حملت به المرأة مات ، الا أن داود أتى منها بطفل آخر ، أصبح فيما بعد وريثه سليمان العظيم .

وقد عجب الباحثون في التوراة لكثرة القصص الجنسية في التوراة ، فلم تكن مأساة داود وزوج الضابط الا واحدة في عصر هذا الملك من كثير .. فهي تروى مثلا ان ابن داود اغتصب أخته من أبيه ، فانتقم أخوها الشقيق بقتل مغتصبها وكان اسم القاتل « ابشالوم بن داود » . وهنا تفاجئنا التوراة بأن داود بلغ السبعين من عمره ، وان ابنه « ابشالوم » ثار عليه ، فهرب الأب الى جبل الزيتون مع فريق من قومه ، وطارده ابنه بفريق آخر .

ويبدو من هذه المعركة بين الأب ، وابنه ، أن اسرائيل انقسمت في آخر أيام الملك ، ووجد لديها من يرفع في وجهه السلاح ، ويلجئه الى الهرب من اورشليم

وقد وقع للإبن حادث ، اذ تعلق في أغصان شجرة ، وهو على ظهر بغلة ، وعاجله أنصار أبيه بطعنات قضت عليه ، ولما علم داود بهلاك ابنه هلع هلعاً شديداً جداً . وكما رثى ملكه السابق شاول وكان خصماً عنيداً له ، فقد رثى ابنه رثاءً فنت القلب ، وراح يصيح : يا ابنتي .. يا ابنتي .. يا ابنتي مت عوضاً عنك ، وقد لامه قائد جيشه على هذا الجزع ، وقال له إن داود أخزى جميع أتباعه من رجال ونساء .. وصاح به : لو كان ابنتك حياً ، وكلنا اليوم موتى لحسن الأمر في عينيك . وهدده اذا لم يخرج ويطيب خاطر أتباعه ، فان أعظم الاخطار والشرور سوف تحيق به من جنده ، وصدع داود الملك لأمر قائده .

ولكن الانقسام الذي بدأه ابن داود بين الاسرائيليين ترك آثاره وفي الأعوام الأخيرة لحكم داود ، أصابت قومه مجاعة طاحنة دامت ثلاث سنين . وتابع الفلسطينيون هجومهم على اليهود ، يوقعون بهم الهزائم ، حتى أن القوم لم يعودوا يتفعلون بخروجه في حروبهم .

وخطر لدواد أن يحصى الشعب اليهودي ، ليرى اذا كان فريق اسرائيل أعز . نقرا ، أم فريق يهوذا ، وعلى عادة التوراة في المبالغة ، اذا وصلت الى أمر الأرقام ، استمرت عملية الاحصاء تسعة أشهر على كره من اليهود ومعارضة شديدة ، ولكن أرقامهم تقول ان اسرائيل ثمانى مائة ألف رجل « ذى بأس ! » يحملون السيوف ، ويهوذا كانوا نصف مليون رجل .. ولم تضيف اليهم أى صفة من صفات البأس والقوة !! وهذه الأرقام تعنى أن اليهود قاربوا أن يكونوا خمسة ملايين بنسائهم وأطفالهم وهو سخر من القول ، فما في فلسطين كلها موارد ماء تنبت نباتا يطعم هذا العدد ، فاذا أضفت اليه الكنعانيين (سكان وسط فلسطين والساحل الشمالى) والفلسطينيين (سكان الساحل الجنوبى) والمؤابيين والعمونيين (سكان شرق الأردن) والادميين (سكان النقب) والمدنيين (سكان شرق العقبة) والعمالقة (سكان ما بين سيناء وفلسطين) .. اذا أضفت كل هؤلاء الى اليهود ، فان سكان فلسطين كلها حسب تقدير التوراة كان يمكن أن يزيدوا على عشرة ملايين !! وهذه خرافة واضحة ..

المهم أن داود أدركه الندم فيما تروى التوراة - على هذا الاحصاء وعاقبه الرب بوباء أهلك سبعين ألف يهودى في يوم واحد « وبسط ملاك الرب يده على اورشليم ليهلكها ، فندم الرب . (تعالى عما يصفون) عن الشر وقال للملاك المهلك للشعب كفى » . وحتى يرفع الرب غضبه عن اسرائيل بنى له داود مذبحاً خارج اورشليم وذبح قطيعاً من الأبقار وأحرقه .. فانتهى الغضب الإلهى ! .

ولما كان داود في الثمانين من عمره ، ووصفت له « وصفة » تدفء أطرافه وكانت فتاة عذراء أجمل ما في اسرائيل ، وكلفت بالاضطجاع مع الملك وخدمته ، ولكنه لم يعرفها ! .

ولعلنا نلاحظ أن سن الأنبياء من بنى اسرائيل أخذ يتناقص ، فقد كانوا يتجاوزون المائة بعشرة أو عشرين عاما ، أو أكثر ، فاذا بداود ، وكان أخا فتوة وقوة يتراجع بنهاية عمره الى المدى المألوف لدى كافة الناس . ومات داود .. ودفن في اورشليم .. وخلفه في الملك سليمان ..

داود .. في القرآن الكريم :

كان داود من الأنبياء الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم ، وكرم كما يجب أن يكرم من اسبغت عليهم العناية الإلهية عطفها ورعايتها وصورة داود في نظر الاسلام مكرمة ، لا يدانيها شيء مما نسبته له التوراة من أفعال لا تليق بمقام النبوة .. فهو أول الأنبياء بعد موسى الذي أوحى اليه بكلمات من ربه ، وكتاب أسمى الزبور ، لانعلم عنه شيئا كثيرا وما ورد في التوراة الحالية على لسان داود هو نصائح عادية ، وان كانت مصوغة في قالب أدبي جذاب . وسوف نعود اليها عندما نعرض لموضوع التوراة ككل .

وقد قال القرآن عن داود : « ... وآتاه الله الملك والحكمة » . وفي سورة الاسراء : « ... ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض ، وآتينا داود زبورا » . وفي سورة الأنبياء : « ... وسخرنا مع داود الجبال يسبحن ، والطير ، وكنا فاعلين » . وفي سورة ص « اصبر على مايقولون ، واذكر عبدنا داود ذا الأيد ، إنه أواب انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق والطير محشورة ، كل له أواب . وشددنا ملكه ، وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب » .. وكذلك جاء في هذه السورة : « وظن داود أنما فتناه ، فاستغفر ربه ، وخر راكعا وأتاب ، فغفرنا له ذلك ، وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ، يادواد إنا جعلناك خليفة في الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى ، فيضلك عن سبيل الله ، ان الذين يضلون عن سبيل الله ، لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » . وهكذا نسب الاسلام في عرضه لسيرة أنبياء التوحيد : ابراهيم ومن جاءوا بعده العفة في القول ، والبعد عن المعاصي ، وكل مايشين الخلق أو يجانب الفضائل ، على النحو الذي ورد في الوصايا العشر . ولكن الفهم اليهودي للنبوة

كما ورد في التوراة المتداولة يخالف هذه القاعدة .
بل نجد ان الفهم اليهودي للألوهية يختلف كثيرا جدا عما سار عليه خاتم
الأديان .. وشتان بين ادراك قبل ضيق ، يحاول أن يغلّق نفسه على معانٍ
جافة ، كلها تتشابه ، أو معارضة للمفهومات القبلية المحيطة بالوجود اليهودي
بفلسطين .

سليمان الملك :

ونعود مرة أخرى الى أورشليم (القدس) لنتابع سيرتها في عهد خليفة
داود ووارث ملكه .. سيدنا سليمان .

تقول التوراة ، إن سليمان بدأ حملة انتقام من الذين عارضوا توليه
العرش ، ومنهم قواد الجيش أيام أبيه ، فبطش بهم ، وأمر بقطع رؤوسهم ،
حتى هؤلاء الذين التجأوا الى خيمة الرب ، وتعلقوا بأستار تابوته ، وأمر كاهن
المعبد بأن يقيم في أورشليم لا يغادرها . وكل من خالف أمره قتله .

وعلى الرغم مما ورد في تعاليم الأولين من اليهود ، وتشديدهم في عدم الزواج
من أجناس غير يهودية ، فقد تزوج سليمان بنت فرعون مصر . وهو على الأرجح
شيشنق الأول . وهو من أصل ليبي ، وكان الليبيون يهاجرون بكثرة الى الدلتا ،
وجندوا في الجيش المصري ، وكان منهم ضباط وقواد وشيشنق الذي أسس
الأسرة الثانية والعشرين ، واحد من هؤلاء الضباط ذوى الهمة والكفاءة . ولم
يجد بأسا في سبيل مد نفوذه الى فلسطين وما وراءها ، ان يزوج ابنته الى ملك
أورشليم سليمان بن داود ، وكما ذكرنا قبل ، لم تخرج القبائل الاسرائيلية بعد
هجرتها من مصر عن السيادة المصرية . ان ظلت تدفع الجزية للدولة القوية
لتكون في حمايتها . ولم يخرج سليمان الحكيم عن هذه القاعدة ، وقد ضم
شيشنق لسليمان الولاية على مدينة جازر . وهى المدينة التى ورد أيام منفتح
انه استولى عليها كما استولى على عسقلون وأباد اسرائيل وجعلها أرملة لمصر !
والزمن بين منفتح وشيشنق ثلاثة قرون ، ومع ذلك ظلت هذه المواقع تابعة
لسيادة مصر . وتقول التوراة إن هذه المدينة استعصت على اسرائيل وكانت
ضمن ما يملكه الكنعانيون ، فاستولت عليها القوات المصرية . واحرقتها ، ثم
سلمتها لسليمان فبناها من جديد .

ترك داود لابنه سليمان سلطانا على اسرائيل لاينازع ، واستقرارا ، حصل
عليه اليهود ، بعد حروب طاحنة ، قبل داود ، وفي أيامه التى استمرت أربعين

عاما . والاستقرار يؤتى ثماره ولاشك من الازدهار ، والرغبة في التعمير ، وكتب سليمان الى ملك صور يقول له ان اياه لم يستطع أن يبني للرب بيتا بسبب الحروب . وطلب من جاره أن يرسل له كميات من خشب الأرز الليناني ، وعددا من الصناع المهرة - ولاسيما الذين يحذقون فن النجارة - ولم يكن من بين اليهود من يحذق هذا العمل - ودفع سليمان ثمن الخشب قمحا وزيتا وزيتونا .

وتزعم التوراة ان ١٥٠,٠٠٠ (مائة وخمسين ألفا) من العمال والحمالين وقاطعي الأحجار اشتغلوا في بناء المعبد ، واستغرق العمل أربع سنوات . والتوراة تذكر أن أبعاد المعبد كانت ستين ذراعا (الذراع ثلاثة أرباع المتر تقريبا) طولاً ، وعشرين ذراعا عرضاً ، وثلاثين ذراعا ارتفاعاً .. وهي أبعاد متواضعة جدا ، فإذا أضفنا إليها ساحة خارج المعبد طولها عشرون ذراعا وعرضها عشرة أذرع ، فإن هذا البناء لا يحتاج بحال الى الحشد الهائل من العمال الذي تحدثوا عنه . وحجم المعبد ، كان على أنماط المباني المعروفة في فلسطين . ولا يمكن مثلا أن نقارنه بالكرنك أو الهرم ، فهذه مبان توفر لها مهندسون عباقره وحضارة شعب عظيم ، وبلد وافر الثراء مثل مصر . صحيح ان جدران الحجر للمعبد كسيت بخشب الأرز منقورا ووضعت في الهيكل زينة الذهب ولكن هذه الزينة لم تحافظ على البناء ، بل جعلته هدفا لكل غاز وصل الى اورشليم ، فنهب الذهب ، وخرب الزينة والبناء .

وبنى سليمان لنفسه قصرا ، استغرقت عمليات تشييده وزينته ثلاثة عشر عاما . ولما كانت بنت فرعون مصر « شيشنق » قادمة للاقامة في اورشليم ، فقد غالى سليمان في اعداد القصر بما يليق بمكانة الاميرة . وكان من زينة القصر عمودان طول كل منهما ثمانية عشر ذراعا ، وعلى كل منهما تاجان من نحاس مسبوك ارتفاع الواحد خمسة أذرع ، ونحت له مثالون قادمون - ربما من مصر - تماثيل أسود وثيران .. وأشرف عليه « حيرام » ملك صور . وكان القصر مكونا من خمسة وأربعين غرفة . وكان له بهو طوله خمسون ذراعا ، وعرضه ثلاثون . كما كانت بالقصر قاعة الكرسي ، التي يجلس فيها سليمان للقضاء بين الناس .

وعلى مآثور عادة التوراة فقد بالغت في وصف مباني القصر وزينته فقد قالت ان الحجارة « الكريمة » استعملت في البناء ، بنفس مقاييس الحجارة المنحوتة ، وكانت أبعاد هذه الحجارة عشرة أذرع حينا ، وثمانية أذرع حينا آخر . اللهم الا أن يكون مفهوم الحجارة الكريمة غير ما نفهمه الآن .

وأقام سليمان حفلا عظيما دعا اليه كل أبناء اسرائيل مع شيوخهم ليشهدوا نقل تابوت الرب ، وألواح موسى . « ولم يكن في التابوت الا لوحا الحجر اللذان وضعهما موسى هناك في حوريب حين عاهد الرب بنى اسرائيل عند خروجهم من أرض مصر . وكان مما خرج الكهنة من القدس ، ان السحاب ملأ بيت الرب ، ولم يستطع الكهنة أن يقفوا للخدمة بسبب السحاب ، لأن مجد الرب ملأ بيت الرب . حينئذ تكلم سليمان ، وقال الرب انه يسكن في الضباب . انى قد بنيت لك بيت سكنى مكانا لسكنائك الى الأبد . » .

وقد دونت هذه الأوصاف لاقامة معبد اليهود الأول في اورشليم ، في وقت متأخر ، ربما بخمسة قرون .. ولهذا كان مؤلفو هذه الأوصاف غير حذرين ، حين جرى قلمهم ، وهم يتحدثون عن بعض متعلقات المعبد بقولهم : « وهى هناك الى اليوم » وواضح ان هذه العبارة ، تشير الى وجود المؤلف أو المؤلفين في مكان بعيد عن اورشليم ، ووقت بعيد عن مواعيد الأحداث نفسها ، والرأى الراجح انها كتبت في وقت الأسر البابلي ، وعلى هذا استقر رأى معظم الباحثين الجادين .

وواضح من سياق الروايات أن التوراة كانت لاتزال تعد إله اسرائيل واحدا من بين الالهة الموجودة حولها ، ولكنه اكبر . أو على حد تعبيرهم على لسان سليمان : « ليس إله مثلك في السماء من فوق ، ولا على الأرض من أسفل » .. ولكننا نجد أيضا عبارات تدل على ان الله موجود في مكان غير تابوت المعبد ، جرت على لسان سليمان كأن تقول التوراة : « واسمع أنت في موضع سكنائك في السماء » أو قوله : « هل يسكن الله حقا على الأرض ؟ هوذا السماوات ، وسماء السماوات لاتسعك ، فكم بالأقل هذا البيت الذى بنيت !! » .

وتذكرنا هذه العبارات ، بما سبق ان اقتبسناه من أناشيد اخناتون ، وغيره من رجال الكهنوت المصرى القديم ، وفيها افكار عن التوحيد ، وعدم التشبيه للذات الالهية ، بما تعد أصرح وأقوى مما أوردته التوراة على لسان سليمان كأن تقول أيضا « فاسمع أنت من السماء مكان سكنائك » أو « .. فاسمع من السماء صلاتهم » .

واستمرت احتفالات سليمان سبعة أيام .. وتمكن بعد ذلك من بسط سلطانه على القرى والمدائن غير الاسرائيلية وجعل من أهلها عبيدا لاسرائيل . ويتسخيرهم ، تمكن من بناء القلعة وسور حول

أورشليم ، كما جدد بعض المدن التي دمرتها الحروب مثل حاصور ، ومجدو ، وجازر .

واتسعت رقعة الأرض التي سيطر عليها سليمان ، أو تعاهد مع حكامها بعد أن اطمأن الى جانب مصر بمصاهرتة فرعونها . وزاد في توثيق صلاته ، انه اتخذ له من كل القبائل قرييها وبعيدها زوجات .. وكانت له سبعمائة من النساء السيدات وثلاثمائة من السرارى (الاماء) ، ولم ترض قصص التوراة عن سياسة سليمان في مصاهرتة لقبائل وشعوب غير يهودية وقالت ان قلبه في شيخوخته مال الى معبودات غير إله إسرائيل ، مثل « عشتروت » إله صيدا ، « وملكوم » إله عمون . وتضيف التوراة : « وعمل سليمان الشر في عيني الر ، ولم يتبع الرب تماما » وذكرت التوراة أن سليمان بنى فوق الجبل معبدا للوثن المعبود في مؤاب وآخر لمعبود المؤابيين .

وكان حريا أن يترفع مدونو التوراة عن نسبة الشرك لسليمان نبي الله ، وان نسبوا هذه الردة الى تأثير نسائه عليه . وذلك لأن حكمة النبوة الكبرى ، هي التوحيد . ومن أجل هذه العقيدة بدأ كفاح سيدنا ابراهيم الأب الأكبر لهذه الأسرة ، ومن أجلها حدثت الأحداث الكبرى التي ذكرناها في فرع أسرته من حفيده يعقوب ، ومنها ظهور نبي الله موسى عليه السلام . وسليمان هو فخر اسرائيل الأكبر . فهو الذى بنى أول معبد يهودى في القدس ، وبسط سلطان أورشليم على أرض ماكانوا ببالغيتها الا بحكمته وجهاده ، وقد هابته القبائل ، وساعدته ، وصاهره ملك مصر أكبر ملوك الشرق الأوسط في ذلك الوقت ، وقدمت للقاءه ملكة الجنوب العربى بلقيس التى حكمت منطقة سبأ في اليمن ، وأهدت له أعظم الهدايا وقبلت منه مثلها . ولما بهرها سليمان بفخامة قصوره ، ونظام حكمه ، وتفتح الحياة من حوله قالت له حسب منطوق التوراة : « صحيحا كان الخبر الذى سمعته في أرضى عن أمورك وعن حكمتك . ولم أصدق الأخبار حتى جئت ، وأبصرت عيناى .. زدت حكمة وصلاحا » .

ولكننا اذ ننكر على مدونى التوراة هذا الأسلوب في ترديد الاشاعات والخرفات المتناقلة عن سليمان ، والزيادة عليها ، فلأن تفكيرنا اليوم لايقبل على أنبياء الله مثل ماذكره اليهود .. ولكنهم في وقت التدوين . كانوا غارقين في عبادة الأوثان ، وما من مرة ردهم عنها واحد من صلحائهم حتى عادوا اليها مرة أخرى .. بل يمكن ان نؤقت اشراك اليهود بالله من بعد موسى ، بفترات تتعاقب كل ثلاثين أو أربعين سنة . فلما ظهر السيد المسيح عليه السلام ، كانت الأوثان

اليونانية والرومانية مقامة في معابد اليهود ، زلفى وتقربا لحكامهم الأوروبيين من الرومان . ان خمسة عشر قرنا تلت خروج سيدنا موسى من مصر يمكن أن تحصى فيها مئات الحالات التي نبذ فيها اليهود عبادة « إله اسرائيل » وعبدوا أوثانا غريبة .. ولهذا فان دهشتنا تقل لمثل هذه العبارات الكافرة ، الجارحة لمعنى النبوة ، ودلالة الحكمة ، وكان سليمان نبيا حكيما .. أجل تقل دهشتنا اذا نحن وضعنا امامنا مسيرة العقيدة اليهودية الاسرائيلية (أى فرع يعقوب) وما فيها من مآخذ ومثالب .

قالت التوراة ان الرب غضب على سليمان ، وعاقبه بأن أنذره بتمزيق مملكته بعد وفاته وتولى ابنه « رحبعام » الحكم من بعده . وانما أبقى الرب وحدة هذه المملكة - لا من أجل سليمان - ولكن لذكرى والده داود ، وهى ذكرى طيبة لدى الرب .

سليمان في القرآن :

لسليمان في القرآن الكريم ذكر مرفوع ، وتاريخ ليس كالتواريخ . فقد أوتى سليمان من قبل ربه علما ، مثل الذى أوتى به داود أبوه من قبله . وأوتى سليمان أدبا في حق الله سبحانه وتعالى وخضوعا وعرفانا وكان مما ناجى به ربه في سورة النمل « وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على ، وعلى والدى ، وأن أعمل صالحا ترضاه ، وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين » .. وقد وعده الله سبحانه بالقرب والغفران فى الآخرة ، والتأييد والعون بقوى لم تسخر لأحد قبله ، ولا بعده من الناس : « هذا عطاؤنا ، فامنن ، أو أمسك بغير حساب وان له عندنا لزلفى وحسن مآب » .

اما هذه القوى الخفية التى سخرت لسليمان ، فهى الريح ، وطلاقة الجن ، ومعرفة لغة الطير والحيوان والحشرات . وروى القرآن قصة سليمان مع واحد من الطير هو الهدد ، الذى كشف عن ديانة بلقيس ملكة سبأ وقومها ، وكانوا للشمس عابدين .. وقصة سليمان مع النمل ، عندما همست واحدة بأن سليمان قادم مع جنده وخيله فليسرع النمل الى مخابئة لئلا يهلك فسمع سليمان هذا الهمس وتبسم ضاحكا .. ولم يكن ملك أورشليم وخليفة داود طاغيا جبارا ، ولا كافرا مرتابا كما صورته التوراة ، وقد وجد تحت أمره كل هذه الطاقات مسخرة ، وكثيرا ما قال : « هذا من فضل ربي ، ليبلونى ، أشكر أم أكفر ، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربي غنى كريم » .

وعندما قدمت بلقيس الملكة اليمنية الشهيرة ، وبهرها سليمان بعلمه وحكمته وإيمانه بالله الواحد الأحد ، أمنت بالتوحيد . وبهذا تكون هذه الملكة أول من قبل هذه الدعوة من سكان جنوب الجزيرة العربية موجهة لها من واحد من سلالة يعقوب . الا أن القرآن الكريم يشير الى أن أهل سبأ لم يقبلوا على دين التوحيد ، وان الله عاقبهم بسيل العرم الذى هدم سد مأرب ، ولا تزال بقاياها حتى الآن خربة مدمرة .

وفي القرآن وصف جميل لساحة العرش في قصر سليمان ، لم يرد ذكره في التوراة . اذ يبدو أن أرض البهو كانت مرصوفة من مادة زجاجية شفافة ، تبدو كأنها بحيرة ماء . وقد أذهل بلقيس المنظر الفريد وخطب لبها : « قيل لها أدخل الصرح . فلما رأته حسبته لجة ، وكشفت عن ساقها . قال انه صرح ممرد من قوارير . قالت رب إنى ظلمت نفسى ، وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » .

سليمان وأدبه :

تقول التوراة ان سليمان كان حكيما ، وانه أودع حكمته في ثلاثة آلاف مثل . كما خلف ألف نشيد ازدادوا خمسة .. وتروى التوراة ان زوارا من جميع الشعوب كانوا يقدون الى اورشليم للاستماع الى حكمة سليمان وأناشيده . وهكذا لم يكن سليمان ملكا للاسرائيليين وحدهم ، ولكنه كان ذا أفق واسع ، وأنه استطاع أن ينفذ - بسلطان من ربه - الى كثير من أسرار الحياة ، وأداب السلوك ، وأن يصوغها في عبارات جذابة سائغة ، ولم تقل لنا التوراة إن قومه من اليهود احتفلوا بهذه الطاقة الأدبية التي تفجرت من قلب سليمان ووجدانه ، أثرت فيهم ، أو رقت من طبائعهم . ولكن كان هناك الملل والشكوى مما كان يدفعهم اليه من عمل في البناء والتشييد سواء داخل اورشليم أو في المدن الأخرى التي خربتها الحروب والثورات .

الا أن النظرة الفاحصة للطريقة التي حكم بها سليمان ، واللمسات الموسيقية ، والأدبية التي دخلت على حياة اليهود في عهد أبيه وعهده ، جعلت الدين اليهودي في عهدهم يمتاز بشيء من السماحة ، تبعده بعض الشيء عن الصرامة والقسوة وانهار الدماء البشرية والحيوانية التي لطخت هياكله منذ نشأته .. لقد كان البابليون والفرس والمصريون يشيعون البهجة في أعيادهم الدينية ، ووصل الأمر باخناتون - كما ذكرنا من قبل - أن جعل الزهور والفاكهة

فقط ، هي القربان لله . وألغى منظر الدم من طقوس العبادة ، وأعياد النيروز وشم النسيم وغيرها ، التي كانت سائدة في بلاد الرافدين وفارس ، أعياد مرحة باسمه .

ولهذا وصف الباحثون في اللاهوت المقارن ان الدين اليهودي يتصف بالقسوة الكئيبة . وتصيب الانسان بالفزع : وطقوس العبادة فيه قوامها الخفاء والرعب ، وحسب التوراة أن تقول ان قصاص الرب من الذين يعصونه يمتد الى أحفادهم : « انا الرب الهك غيور ، افتقد ذنوب الآباء في الأبناء الى الجيل الثالث والرابع من مبغضى » .

رأى التاريخ :

وللتاريخ رأى في سليمان وحكمه وأيامه ، التي ينعقد حولها تاريخ اليهود ، ويبتعد عنها آلاف السنين ، ثم يحاول اعاتها مرة أخرى . فسليمان اسم مشتق من كلمة السلام ، وقد حقق هذا الملك النبي لمدينة السلام ، أو اورشليم هذا المعنى على نطاق واسع .

يقول ديورانت في موسوعة تاريخ الحضارة : أصبحت اورشليم في أيام سليمان من أنشط الأسواق التجارية ، في الشرق الأدنى ، وان لم تكن على الطرق التجارية الكبرى . وحافظ سليمان على ما أنشأه داود من صلات ودية مع حيرام ملك صور . وشجع التجار الفينيقيين على ان يسيروا قوافلهم التجارية داخل أرض فلسطين ، وازدهرت في أيامه تجارة رابحة قوامها استبدال مصنوعات صور وصيدا بغلات اسرائيل الزراعية وانشأ أسطولا تجاريا في البحر الأحمر . وأغرى حيرام على أن يستخدم هذا الطريق الجديد بدل طريق مصر في تجارته مع بلاد العرب وأفريقية . والراجح أن جزيرة العرب هي التي استخرج سليمان منها الذهب وحجارة « أوفير » الكريمة . ومن بلاد العرب جاءت اليه فلكة سبأ تخطب وده ، ولعلها جاءت أيضا تطلب معونته . وكان وزن الذهب الذي أتى سليمان في سنة واحدة ٦٦٦ وزنة ذهب . ومع أنه لا وجه للموازنة بين هذا القدر ، وبين موارد بابل أو نينوى أو صور ، فانه جعل سليمان من أغنى ملوك زمانه .. على أن سليمان قد استخدم معظم موارده في تقوية دعائم حكومته وتجميل عاصمته . ومن أعماله فيها ترميم السور الذي أقيم حولها وقد أقام فيها كثيرا من الحصون . ووضع حاميات في المواضع ذات

الأهمية العسكرية في مملكته ، ليرهب بها الغازين والتأثرين على السواء . وقسم بلاده ١٢ قسما اداريا وكانت حدودها متفقة مع حدود منازل الأسباط الإثني عشر . وكان يرجو من وراء ذلك ان يضعف النزعة الانفصالية بينهم ، وأن يؤلف منهم شعبا واحدا ، ولكنه أفلس في هذا ، وأفلست بلاد اليهود معه . ومن الوسائل التي استخدمها سليمان لتمويل حكومته اعداد البعثات لاستخراج المعادن الثمينة ، ولاستيراد مواد الترف والسلع القيمة النادرة ومن بينها العاج والقردة والطواويس . وهذه كان يمكن بيعها للاثرياء المحدثين بأثمان غالية . واحتكر تجارة الخيوط والخيل والمركبات ..

وختم هذا المصدر كلامه عن سليمان وعصره بقوله : « فلما مات سليمان ، كانت موارد اسرائيل قد نضبت ، ونشأت فيها طائفة من العمال الصعاليك ، لا يجدون عملا دائما يرتزقون منه » .

وهنا يحسن أن نلقى نظرة فاحصة على مزامير داود وأمثال سليمان ، التي تكون جزءا هاما من التوراة .. وقبل ذلك نسلط بعض الأضواء على التوراة نفسها .



□ الفصل السادس □

التوراة والعزرايمير والأمثال

الوصايا العشر .. في صيغتين :

تسمى التوراة بالعهد القديم .. وهى كلمة عبرية معناها الهداية .
وإذا رتبنا مادة التوراة ترتيبا تاريخيا ، فكان يجب ان تبدأ بالوصايا العشر ، ثم
بما سمعه الاسرائيليون من موسى عن قصة خلق الدنيا أثناء احتجازهم فى سيناء
أربعين سنة قبل أن يدخلوا فلسطين .

وما ثبت تدوينه فى هذه الفترة هو الوصايا وحدها . وما تبقى نقل من ذاكرة
الناس خلال ألف سنة تالية . وقد ماتت اللغة التى تحدث بها موسى الى قومه ، وحلت
محلها لغة الأقوام الجديدة التى عاش اليهود فى وسطهم ونعنى بها الكنعانية ، مع
اختلاف فى اللهجات من قبيلة الى قبيلة أخرى وأسفار موسى خمسة . وقد سُمى فى
التوراة بالشريعة ، وبكتاب موسى فى الإنجيل .. وكذلك فى القرآن حتى سُمى اليهود
أنفسهم بأهل الكتاب .. ولكن جملة أسفار التوراة - العهد القديم - تبلغ ٢٤
سفرا .. وتأتى بعد كتاب موسى خمسة أسفار أخرى تضم سير الأنبياء المتقدمين .
ثم أسفار أشعيا وأرميا وحزقيال . ثم اثنى عشر سفرا للأنبياء المتأخرين . ثم
المزامير والأمثال وأيوب وتسمى بالكتب العظيمة . ثم نشيد الانشاد وأشعيا والمرثى
والجامعة واستير ، وتسمى بالمجالات الخمس . وتأتى بعد هذا أسفار تسمى
الكتابات .

ويختلف اليهود فى تقسيم كتابهم هذا .. فمنهم من يزيدها إلى ٣٩ سفرا ،
بفصل أجزاء بعضها عن بعض ، ومنهم من ينقصها إلى ٢٢ سفرا لتصبح فى تعداد
الحروف الأبجدية .

وقد نالت التوراة عناية كبيرة جدا من العلماء في دراستها وتحليلها وردها الى اصولها . والكشف عن الخلط الذي ورد فيها . والقول الشائع المسجل في التوراة نفسها ان « عزرا » هو الذي جمع شتاتها ودونها في القرن الخامس قبل الميلاد . ولكننا نجد من بينها سفر دانيال الذي كتب عام ١٦٥ قبل الميلاد . وقد اختلف الباحثون في كل شيء في التوراة ، وكثرتهم ترى أن سفرى الجامعة ونشيد الأناشيد حديثا التأليف وقد أضافهما يهود مصر الى التوراة عندما ترجموها الى اليونانية . ولم يقف الأمر عند الأسفار ، ما كان منها من التوراة ، وما لم يكن . بل امتد الخلاف الى الوصايا العشر نفسها .. ومن الذي اختلف في الوصايا ؟ .. انه العهد القديم نفسه فقد وردت بالصيغة التي ذكرناها قبل كما نزلت على موسى أول مرة (اصحاح ٢٠) ولما حطم موسى الألواح الأولى ، أمره الرب بعد ذلك بأن ينحت لوحين آخرين من حجر ويكتب عليها الوصايا .. وما ورد في الكتابة الثانية (اصحاح ٣٤) يختلف عن الأولى على النحو التالي :

« احفظ ما أنا موصيك اليوم . ها أنا طارد من قدامك الأموريين والكنعانيين والحيثيين والفرزيين والحويين واليبوسيين ، احترز من أن تقطع عهدا مع سكان الأرض التي أنت أت اليها لئلا يصيروا فخا في وسطك . بل تهدمون مذابحهم وتكسرون أنصابهم وتقطعون سواريهم . فانك لا تسجد لإله آخر . لأن الرب اسمه غيور . اله غيور هو . احترز من أن تقطع عهدا مع سكان الأرض . فيزنون وراء الهتهم ويذبحون لألهتهم فتدعى وتأكل من ذبيحتهم وتأخذ من بناتهم لبنيك . فتزنى بناتهم وراء الهتهن ويجعلن بنيك يزنون وراء الهتهن .

« لا تصنع لنفسك آلهة مسبوكة . تحفظ عيد الفطير . سبعة أيام تأكل فطيرا كما أمرتك في وقت شهر أبيب . لأنك في شهر أبيب خرجت من مصر . لى كل فاتح رحم . وكل ما يولد ذكرا من موشيك بكرا من ثور وشاة . وأما بكر الحمار فتفديه بشاه . وان لم تفده تكسر عنقه . كل بكر من بنيك تفديه . ولا يظهروا أمامى فارغين . ستة أيام تعمل . وأما اليوم السابع فتستريح فيه . فى الفلاحة وفى الحصاد تستريح . وتصنع لنفسك عيد الأسابيع أباكار حصاد الخنطة . وعيد الجمع فى آخر السنة . ثلاث مرات فى السنة يظهر جميع ذكورك أمام السيد الرب اله اسرائيل . فانى أطرده الأمم من قدامك وأوسع تخومك . ولا يشتهى أحد أرضك حين تصعد لتظهر أمام الرب الهك ثلاث مرات فى السنة . لا تذبح على خمير دم ذبيحتى . ولا تبت الى الغد ذبيحة عيد الفصح . أول أباكار أرضك تحضره الى بيت الرب الهك . لا تطبخ جديا بلبن أمة » ..

كشف مصادر التوراة :

وفي سفر الخروج نصوص تشريعية واردة في اصحاح ٢٠ الى اصحاح ٣٣ . وقد ظهر بوضوح ان كثيرا من تفاصيل هذه الأحكام مستمدة من شرائع حمورابي التي كانت موجودة وسائدة قبل ذلك بوقت طويل . وقد أدخل كتاب التوراة عليها بعض التعديل الذي يناسب ظروفهم البيئية . يقول برستد في كتابه ، فجر الضمير :

من الواضح أنه حينما كتبت الوصايا العشر ، كان العبرانيون قد انتقلوا فعلا من حياة المرعى في الأرض الصحراوية ذات الكلا إلى حياة الزراعة المستقرة في المدن ، حيث كانت المؤثرات الاجتماعية تعمل في تكوين الاعتقاد الديني ، وتزيد في موارده . ثم ان الملكية ، التي يجلبها البدو ، وكذلك الحياة التجارية الى حد ما في المدن ، قد أخذتا في تكوين طبقة صغيرة من الأثرياء في المدن . في حين أن أكثرية الشعب كانت لاتزال على حالتها الأولى من الفقر .. وقد ظهر بين العبرانيين (ماظهر في مصر من ألفى سنة قبلهم) رجال توافرت لهم الروح الانسانية والنظرة الاجتماعية فأخذوا يشعرون بايحاء الضمير كقوة اجتماعية . واستجابة لندائهم أخذ عصر الأخلاق في الظهور بين بني اسرائيل . ولذلك نجد ان الشعائر العتيقة والعادات البالية ، بما فيها من الطقوس والضحايا ، أخذت تنحط في قيمتها بموازنتها بالاخلاق الفاضلة .

وبهذه المناسبة ، نورد كلمات الملك المصري الذي حكم من اهناسيا ، قبل ظهور موسى بألف سنة وهو يقول لابنه :

- ان فضيلة الرجل المستقيم ، أكثر قبولا من ثور الرجل (الذي يقدمه ذبيحة للرب) وهو يرتكب الظلم .

لقد ظلت هذه الحكمة متداولة ومعروفة في مصر ، حتى التقطتها التوراة وأضافتها اليها على النحو الآتي :

- أنظر : ان الطاعة أفضل من الضحية .

والإصغاء أفضل من الكيش السمين .

وهذا الحث على حسن الاصغاء ، وكأنه ضد لنصائح بتاح حتب ، الذي سبق

عهد صموئيل ب ١٥٠٠ سنة .

وفي تفصيل الأخلاق على الشعائر الدينية ، فقد رده سفر الأمثال في كلمات

ليست الا صدى لحكيم مصر الاهناسي القديم . فقد ورد في هذا السفر :

- فعل العدل والحق أفضل عند الرب (يهوه) من الذبيحة .
وأخذا من الأدب المصرى القديم ، رددت التوراة أيضا في سفر الأمثال :
- الرب (يهوه) وازن القلوب .
وهذا بالضبط ما عبرت عنه عقيدة مصر القديمة في محاكمات أوزوريس للبشر
ووزن قلوبهم .
وتحدثت التوراة باسم أحد أنبيائها بقولها :
- اليكم يا من تخافون اسمى .
تشرق شمس العدالة بالشفاء من أجنحتها .
وقد دلت الحفائر الحديثة في سامرا ، على أن هذه التصورات المصرية لإله
الشمس العادل كانت شائعة في الحياة الفلسطينية .. فقد وجدت رسوم إله العدالة
المصرى « ماعت » على ألواح من العاج مما كان يحلى به الاسرائيليون أثاثهم .
وحيثما حاول النبى أشعيا في التوراة أن يبرهن أن « آشور » لم تكن إلا آلة
في يد الرب يهوه ضرب لذلك مثلا عن الآلات الجامحة اذ قال :
- هل تفتخر الفأس على القاطع بها . أو يتكبر المنشار على مردهه ؟ كأن القضيب
يحرك رافعه .. كأن العصا ترفع من ليس هو عودا ..
وكان يظن أن مصدر هذا النوع من القصص والأمثال مستعار من الهند .
ولكن الاستاذ مسبيرو ، وجد أصل هذه المعانى في لوحة مصرية قديمة محفوظة
بمتحف تورينو .. واليك هذه المقارنة :
قال الحكيم المصرى القديم أمينوبى:
- الرجل الأحمق الذى يخدم فى المعبد ، مثله كمثل شجرة نامية فى غابة . ففى
لحظة يفقد فروعه ، ويجد نهايته فى مرفأ خشب ، وينقل بعيدا عن مكانه . والنار
مأواه .
والرجل الحازم حقا ينتقى لنفسه مكانا . فانه مثل شجرة نامية فى حديقة ،
يزدهر ، ويتضاعف ثمره ، ويجلس فى حضرة سيده . وثمرته حلوة وظله وارف ،
ويجد آخرته فى الحديقة .
وفى نفس هذا المعنى نقلت التوراة عن النبى أرميا :
- ملعون ذلك الرجل الذى يتكل على الانسان ، ويجعل البشر ذراعه . وعن
الرب يهوه يحيد قلبه ، ويكون مثل (شجر) العرعر فى البادية . ولا يرى اذا جاء
الخير ... ومبارك ذلك الرجل الذى يتكل على الرب يهوه ، وكان الرب متكله فانه
يكون كشجرة مغروسة على مياه ، وعلى نهر تمد أصولها . ولا تخشى اذا جاء

الحر ، ويكون ورقها أخضر ، وفي سنة القحط لاتخاف ، ولاتكف عن الاثمار .
بل لقد تسربت عقيدة قدماء المصريين إلى الدين اليهودي عن الحساب
واليوم الآخر ، وهم الذين لاتتضمن توراتهم أية نصوص واضحة في هذا
الشأن .. ففى المزمور الأول :
- طوبى للرجل الذى لم يسلك فى مشورة الأشرار ، وفى طريق الخطاة
لايقف . وفى مجلس المستهزئين لم يجلس

ليس كذلك الأشرار لكنهم كالعاصفة التى تذررها الريح .
لذلك لاتقوم الأشرار فى الحساب ، ولا الخطاة فى جماعة الأبرار . ويعلق
برستد على هذا المعنى بقوله :
« ونلاحظ أن الحساب المذكور هنا لم يرد ذكره فى سفر « المزامير » كله الا
هذه المرة . وهذه ملاحظة لها خطرها . لأن فكرة الحساب فى عالم الآخرة ، هى
من ثمرات التمدين المصرى القديم » .
وقد أفاض « برستد » فى ذكر أوجه الشبه بين أناشيد اخناتون والمزامير ،
وأيد رأيه علماء آخرون . كما وجد أصل بابلى لقصة خلق العالم كما وردت فى
التوراة . ثم انتقل بعد ذلك إلى أمثال سليمان الواردة فى التوراة فقال :

وأمثال سليمان منقولة :

أدت العبارة الشائعة - أمثال سليمان - إلى اعتقاد القارىء أنها عمل الملك
سليمان الحكيم . وفى الحق أنه يبتدىء بنسبة الكتاب إلى سليمان فى مطلع
الفصل الأول . ثم تكررت تلك التسمية فى بداية الفصل العاشر ، فى شكل عنوان
لمجموعة أخرى من أمثال سليمان . كما توجد مجموعة ثالثة تحمل اسم
سليمان ، وتبتدىء بالفصل الخامس والعشرين . فى حين الفصلين النهائيين من
الكتاب ينسبان إلى مؤلفين آخرين مجهولى الاسم ، وأحدهما منسوب إلى
امرأة .

ويتضح من ذلك ، ومما يشهد به كتاب « العهد القديم » نفسه أن كتاب
الأمثال هو مجرد مدونة جمعت من مجموعات متفرقة .. ثم ما لبث جامعو
التوراة أن أضافوا إليها كلمات الحكماء .. ترى من هم الحكماء الذين أشارت
اليهم التوراة ؟

الواقع أن هذا السؤال ، عجز عن الإجابة عنه كل الباحثين إلى وقت قريب جدا . غير أن طبعت ورقة بردية ، كانت قد مكثت مدة طويلة في المتحف البريطاني . فكشفت لنا عن أن مؤلف ذلك الجزء لم يكن سوى الحكيم المصرى القديم « أمينوبى » وجميع العلماء الذين يعتد بأرائهم يجزمون بأن محتويات ذلك الجزء الذى يؤلف نحو فصل ونصف فصل من كتاب الأمثال ، قد أخذ معظمه بالنص ، عن حكم « أمينوبى » . أى أن النسخة العبرية هى تقريبا ترجمة حرفية عن الأصل الهيروغليفى العتيق .

ولم يتردد مصنف التوراة ، فى الإشارة إلى العناصر الأجنبية الدخيلة على ما جمعه ، لأن الحكيم « أجور » ، الذى تؤلف حكمه الفصل الثلاثين والملك « لمويل » الذى يدين لأمه بحكمه (الفصل ٣١) لم يكونا بدهاة من أصل عبرانى . أ . هـ .

وعندما روجعت النصوص المصرية القديمة على النص العبرى وجدت بعض أخطاء فى الترجمة إلى العبرية ، ولكنها أخطاء يسيرة .

وفى نهاية حكم « أمينوبى » المصرى القديم نجد هذا الختام :

- تبصر لنفسك فى هذه الفصول الثلاثين

حتى تكون مسرة لك وتعلما .

وفى ختام سقر الأمثال تقرأ النص التالى :

- ألم أكتب لك ثلاثين فصلا

من جهة مؤامرة ، ومعرفة ..

واذن فقد كانت الفصول القديمة ثلاثين ، ونقلت إلى التوراة فصول أقل ،

أما لأن المترجم لم يفهم النص الذى أمامه ، أو لأنه لم يوافق على معنى النص .

ولكنه عندما وصل إلى آخر الترجمة نسى أن يحصى الفصول التى نقلها ، وأثبت

الختام المصرى كما هو .

حقيقة حدث بعض التصرف فى الترجمة العبرية للأمثال المصرية القديمة ،

تدل على أن اليهودى الغابر الذى غذى التوراة بما نقل ، كان ماهرا فيه

اقتبس . فمثلا فى الحكمة المصرية نجد عند استعارة أجنحة واحد من الطيور

دلالة التحليق ، يكون الطير هو الأوز المصرى .. ولما لم يكن الأوز معروفا فى

فلسطين لأنها بلاد صحراوية ، فقد اختار المترجم العبرى النسر للدلالة على ما

يريد .

ومصر بلد الماء الوفير .. فهي هبة النيل ولذلك كان طبيعيا أن يرد في حكمة المصريين المثل التالي :

- لقد خلقت المياه العظيمة حتى يتمكن الفقير من استعمالها مثل الغنى .
ولما جاء المترجم العبرى بعد ألف سنة يترجم هذا النص ليضيفه للتوراة ،
تصرف تصرفا مناسبا ، اذ كتب :

- الغنى والفقير يتلاقيان . صانعهما كلاهما الرب (يهوه) . ويرفض العالم الأمريكى برستد ، ومعه كبار الباحثين في تاريخ الحضارة الفكرة القائلة بانفراد شعب واحد (اليهودى) بالتمتع بالوحى الالهى ، وهو المذهب الذى أعمى أبصارنا (الغربيون) عدة قرون عن التعرف إلى ذلك التراث الخلقى الجليل ، الذى ورثناه عن تأملات وإلهامات العالم بأسره ، لا عن تاريخ أو تجارب أى أمة من البشر بعينها .

وهكذا تنتهى اصالة النصوص التوراتية ، برد أقسام منها إلى أصول بابلية ومصرية . كما تنتهى فكرة « الشعب المختار » ، بعد أن تعذر الارتفاع بعقلية وروحانيات الشعب اليهودى ، لكى يكون نموذجا لأحد .

لا حيرة بعد الآن :

ولقد كان الباحثون في حيرة من نصوص التوراة ، لأن الرأى القديم من أنها عمل متكامل قام به شخص واحد أو مجموعة من الناس في وقت متقارب .. هذا الرأى كان أشبه بقميص الكتاف .. ولكن الآن أصبح مفهوما الآن أن الترجمة والتأليف والنقل على أماد بعيدة هو الذى أوجد لنا هذه التوراة .

فاذا قالت التوراة في سفر التثنية عن موسى : « لا يعرف أحد قبره حتى يومنا هذا » فلا يعقل أن يكون موسى هو كاتب هذا الكلام ، حتى تنسب له الأجزاء الخمسة الأولى من التوراة . كما لا يصح أن ينسب لموسى أن يقول عن نفسه في ذات السفر : « لم يقم بعد نبى في اسرائيل مثل موسى الذى عرفه يهوه وجها لوجه » .. أو أن يقول موسى عن نفسه : « أما الرجل موسى ، فكان حليما جدا أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض » .

وفي سفر التكوين ، وهو أول أسفار التوراة نص يقول : « وهؤلاء هم الملوك الذين ملكوا في أرض آدم قبلما ملك ملك لبني اسرائيل (ص ٣٦ - آية ٣١) » .
ونسفر التكوين سابق طبعا لعصر الملوك بعدة مئات من السنين . فمن أين لسفر

التكوين أن يعلم بأن هناك ملوكا ستأتى فى اسرائيل !!
ونجد تناقضا واضحا ، فى سفر واحد ، وهو سفر التكوين . فبينما يذكر أن
الطوفان دام ٤٠ يوما ، و ٤٠ ليلة . اذا به يعود فيذكر أن الطوفان دام ١٥٠
يوما .

وهكذا ، نجد باحثين ثقات ، انهمكوا فى ارجاع أبواب ، أو أسفار من
التوراة الى أصولها ، أو اعادة تقسيمها . فمثلا الفترة التى كان يرمز فيها للرب
بأنه « الوهيم » هى غير الفترة التى كانت تستعمل فيها كلمة « يهوه » . وطقوس
العبادة مرحلة فى التأليف قام به كهان أرادوا أن يثبتوا به سلطانهم ، فأوغلوا فى
التفاصيل الى حد كبير .

وعند ما أورد سفر يشوع قصة وقوف الشمس فى كبد السماء يوما كاملا
بعد موعد غروبها ، وكذلك القمر ، جاء فى النص أن ذلك كان مكتوبا فى سفر
« هياشر » ! ولا يوجد فى التوراة التى بين أيدينا سفر بهذا الاسم .
وفى التوراة سفر لأيوب .. ولم يكن أيوب من سلالة يعقوب ، ولكنه كان فرعا
آخر من فروع الأسرة الأبراهيمية ، وتبدأ قصته فى التوراة هكذا : « كان رجل فى
أرض عوص اسمه أيوب ، وكان هذا الرجل كاملا .. » . وهو أسلوب أشبه
برواية الأساطير . وتعد صياغته من الأساليب الأدبية الراقية . ولهذا يرى
العلماء أنه كتب وضم الى التوراة قبيل عهد المسيح بقرنين أو ثلاثة . ويرجع
بعض العلماء أصل هذا السفر الى العربية . وكان أيوب شخصية حقيقية ، ورد
ذكرها فى القرآن الكريم وكان مثلا للصبر والايمان « إنا وجدناه صابرا ، نعم
العبد إنه أواب (سورة ص) » .

المزامير :

المزامير منسوبة الى داود ، والى الآلة الموسيقية - المزامر - وفى هذا دلالة
قوية على أنها ترانيم دينية شعرية . وكانت أورشليم قد نقلت عن البابليين هذه
الأناشيد ، وقبل ذلك عن المصريين ، وأطلقوا عليها الكلمة العبرية « تهليم »
وهى من مادة هلل ، أى مدح .. واذن فهى مدائح ترتل فى الأعياد والمناسبات
الدينية .

ومادة المزامير بعضها للتعبد ووصف الطقوس الدينية . وبعضها مراثى ،
والبعض تعبر عن التوبة أو الشكر . وعدد هذه المزامير أو الترانيم ١٥٠ (مائة
وخمسين) أنشودة .

ولنأخذ أنشودة منها كمثال ، وهى من بين المزامير التى تحض على زيارة
أورشليم :

فرحت بالقائلين الى بيت الرب نذهب
تقف أرجلنا فى أبوابك يا أورشليم
أورشليم المبنية كمدينة متصلة كلها
حيث صعدت الأسباط الرب شهادة لاسرائيل ليحمدوا اسم الرب
لأنه هناك استوت الكراسى للقضاء ، كراسى بيت داود
اسألوا سلامة أورشليم ، ليسترح محبوبك .
ليكن سلام فى أبراجك ، راحة فى قصورك من أجل أخوتى وأصحابى لأقول
سلام بك
من أجل بيت الرب إلهنا أتمس لك خيرا

(مزمور ١٢٢)

ونلاحظ من مطالعة هذه الأغنية ، أنها تتحدث عن القصور وبيت الرب .
ولم تكن هذه المباني أنشئت فى عهد داود .

ونجد المزمور ١٢٦ يتحدث عن عودة السبى الذى نقله البابليون من
فلسطين الى الفرات ، والفرح بانتهاء أسر هؤلاء اليهود « عندما رد الرب سبى
صهيون ؛ صرنا مثل الحالمين . حينئذ امتلأت أفواهنا ضحكا ، وألسنتنا
ترنما .. » .

والنظرة المتأنية لهذه المزامير ، يمكن أن تدل على زمن تأليفها :
- فالمزامير التى تنتهى بالصلاة للملك الحاكم ، لابد راجعة الى عصر
الملوك .

- والمزمور الـ ٤٥ مثلا منسوب الى « امام المغنين » وكذلك مزامير أخرى
كثيرة . وقد أنشد لمناسبة زواج أحد الملوك ، وتخطب هذه الأغنية العروس
بقولها : « اسمعى يا بنت ، وأنظرى ، وأميلي أذنك ، وانسى شعبك وبيت أبيك ،
فيشتهى الملك حسنك لأنه هو سيدك ، فاسجدى له .. » .

- وهناك مزامير تنسب لآساف الذى كان رئيس المنشدين أيام داود نفسه .
- وفى التوراة أن ٧٣ من المزامير تنسب لداود واثنان ينسبان لسليمان
وواحد ينسب لموسى . ولم يكن موسى شاعرا ولا مغنيا . ولكن المعانى التى
تضمنتها الأنشودة تنطبق على أحوال موسى .

- ومزمور سليمان موجه للملك : « اللهم أعط أحكامك للملك ، وبارك لابن الملك » .

وكان سليمان نفسه ملكا !!

وقد تكرر عدد من هذه المزامير ، بمعناه ، أو بمعناه وألفاظه . والرأى الراجح أن جمع هذه الأناشيد استغرق عدة قرون ، ثم أضيفت للتوراة بعد أن أعيد بناء هيكل سليمان الذى دمره الغزو والحروب .

أمثال سليمان :

أمثال سليمان الواردة فى التوراة ، اشتهرت أكثر من أى عمل أدبى آخر فخرَ به الاسرائيليون وكان مثار مباحاة ودراسات كثيرة منهم .. ويبلغ عدد هذه الأمثال ثلاثة آلاف مثل ، يضاف اليها ١٥٠٠ بيت من الشعر تصف الشجر والنبات والطير والحشرات .

وقسم اليهود المحدثون الأمثال الى أربعة وخمسين بابا ، تتناول أفكارا شتى . فمنها :

- أمثال فى الحكمة والعلم وحب المعرفة .
 - أمثال فى الورع ، والنفاق والتوبة .
 - أمثال فى الجدل ، وأدب التقاضى .
 - أمثال فى العقوق والفساد ، واطاعة الوالدين .
 - أمثال فى التحذير من الأشرار والفسقة .
 - أمثال فى التحذير من التجاوز عن الزوجة الشرعية الى غيرها .. وهكذا .
- ولنختار نماذج من هذه الأمثال .

« لا تفتخر بالغد ، لأنك لا تعلم ماذا يلدك اليوم

« ليمدحك الغريب لا فمك ، الأجنبى لا شففتك

« الحجر ثقيل ، والرمل ثقيل ، وغضب الجاهل أثقل منهما كليهما :

ومنها :

« الجواب اللين يصرف الغضب ، والكلام الموجه يهيج السخط » .

« لسان الحكماء يحسن المعرفة ، وفم الجاهل ينبع حماقة

« فى كل مكان عينا الرب مراقبتين الطالحين والصالحين .

وفى رأى مراد فرج المحامى ، مؤلف كتاب أمثال سليمان ، ان الترجمة العربية للتوراة ، فى باب الأمثال اخطأت فى مواضع عدة .. يقول فى ص ٥ : وربما كان الخطأ قلبا لمعنى رأسا على عقب . وذكر ان المثل القائل : رأس

الحكمة مخافة الله خطأ في الترجمة ، إذ أن أصله العبرى : رئاس الحكمة وراعة الله ! وهو قول جرى على لسان داود لا سليمان ..

ولكن هذه الملاحظات العابرة ليست بشيء . أما الأصل والمرجع هنا هو ما يعيننا . في كتاب التوراة للدكتور فؤاد حسنين على أن البروفسور أدولف ارمان المتوفى عام ١٩٣٧ تقدم للمجمع العلمى البروسى ببحث قيم موضوعه « مصدر مصرى لأمثال سليمان » . وبهذا سجل حسنة جديدة من حسنات العقلية المصرية القديمة على الكتاب المقدس . وقد وجه هذا البحث الكثيرين من العلماء الى تتبع نتاج عقلية المصريين القدماء ، ومدى تغلغله في تراث الشعوب الأخرى . فتناولت القرائح بالأبحاث الكثيرة التى تناولت التوراة نقدا وتحليلا ، حتى أمكن ارجاع كل قطرة الى نبعها الذى أخذت منه .

ويدور بحث البروفسور ارمان حول كتاب « تعاليم أمين - أم - أوبه » الذى يرجح أنه عاش حوالى الألف الأولى قبل الميلاد . وقد اكتشفت هذه التعاليم المحفوظة في بعض أوراق البردى الهيراطيقى ، بالمتحف البريطانى ونشرت عام ١٩٢٣ . ومن الغريب أن هذا الحكيم المصرى القديم ساق حكمه في شكل نصائح من والد لولده . كما هو الحال في حكم لقمان التى أوصى بها ابنه حسب ماورد في القرآن الكريم ..

ويستطرد هذا المصدر قائلا :

والآن وقد اتفق رجال المصريات ، مع نقاد الكتاب المقدس على ان هذا السفر ليس كله تراثا عبريا ، سقطت الحجة القائلة ان سليمان هو مؤلفه . أ . هـ .

ومراجعة نصوص الأمثال تدل في وضوح على أنها تجميع من تراث شعبى عام ، لا يمكن نسبته الى فرد بعينه . وقد سارت في نفس الطريق الذى سارت فيه أمثال جميع الأمم ، تلخص تعبيدهما للخالق وفلسفتها في الحياة ، وآلامها ومخاوفها ، وآمالها في العدل والرحمة ، وبناء الأسرة ، وضوابط التعامل اليومي بين الناس .. الخ .

وقد ذكرنا من قبل أن هذه الأمثال ١٥٠٠ مثل ، وعندما أراد مراد فرج ترجمتها من العبرية مباشرة لم يجد الا ١٩٥ مثلا . وذلك في النسخة التى اعتمد عليها . وقد وجدت نسخ عبرية أخرى للتوراة تختلف عن النسخة المتداولة . والترجمة اليونانية القديمة ، وكذلك اللاتينية ، لا تتفق مع هذه النسخ .. وامام هذا الفيض من الاضطراب والتناقض ، من حقنا أن نسأل كما سأل الشاعر

القديم : ليت شعري ما الصحيح .. ومن حقنا أيضا أن نسأل أين كلام الله المنزل من هذا الفيض من القصص والأغاني والأمثال الشعبية ، والألغاز التي لم يفهم أحد منها شيئا . ان المسيحيين يحرصون على التوراة ، لأنها تضمنت تبشيرا - أو بشارات - بقرب ظهور السيد المسيح عليه أزكى صلاة وسلام . وما كان المسيح بحاجة الى تزكية من كتاب التوراة ، فانه حقيقة أسطع من نور الشمس ..

وفي تقديرنا أن ما ورد في الانجيل ، ثم ما ورد في القرآن عن أنباء السماء ، وكان في التوراة ما يطابقه ، فهو كلام الله المنزل على ابراهيم واسحاق ويعقوب ويوسف وموسى ومن بعده من الأنبياء والمرسلين .

النيل والفرات .. والتوراة :

وهنا تأتي العقيدة الكبرى ، عقد الأرض الموعودة ، التي تمتد من النيل الى الفرات ، والتي وعد « الرب » بها ابراهيم ، وسلالته في أكثر من موضع ، بعد أن يكثر عددهم حتى يصبحوا كحبات الرمل ، أو ذرات التراب عددا !! ولكي يمكن الرب لسلالة يعقوب ، الذي اقتصر عليهم فيما بعد هذا الوعد ، فكان لابد أن يصبح « الرب » إله الجنود ، وان يسير أمام هذه الشعبة من اليهود ، وأن يفنى الناس من أمامهم : يفنى أهل مصر وفلسطين ولبنان والشام والعراق .. وقد أضاف اليهود المحدثون أهل شبه الجزيرة العربية كلها ، وكل ما ينقص ، هو أن يعثروا في حفرة من الحفر على ملف عبري في اثناء من الفخار ، ترد فيه هذه العبارات !!

ان التوراة بصورتها الحالية تضمنت من غير شك لمحات كثيرة من تاريخ هذه الفرقة اليهودية ، ونعنى بها سلالة يعقوب ، الذي أسس اسرائيل وجمعت شتات من الآداب والحكم والأفكار والقصص الشعبي ، ولكن نظرتها الى المستقبل وتخطيطها له ، انما بنى على الكوارث الكثيرة التي حلت بهؤلاء القوم أثناء وجودهم في مصر ، وبعد خروجهم منها وذهابهم الى فلسطين ، وأثناء قتالهم لمن حولهم ، وقتال بعضهم مع بعض ثم بعد أن سحقتهم عصا الشعوب الكبيرة من حولهم القادمة من بابل ومصر وروما .. اسمع اليهم في محنة السبي يقولون (حزقيال ٢٣) : « ان ابراهيم كان واحدا وقد ورث الأرض . ونحن كثيرون . لنا أعطيت الأرض ميراثا .

ولكننا نعلم أن الأرض لم يعطها الله لابراهيم ميراثا ، وانما بعثه فيها هاديا الى التوحيد . وبالتالي فلم تعط الأرض لأحد من سلالته ، وانما هي تخيلات ومزاعم ، داخلية في باب القصص الأدبي ، لا في باب الواقع المادي ولكن أما وقد دونها أسرى

اليهود في بابل ، فقد أصبحت بعد ذلك تورا ، هم صنعوها قديما ، وفي الشتات ، بعد ان زالوا من فلسطين كلها عاشوا أسرى أفكارها وأسرى أوهامهم .. لقد صنع اليهود التوراة فوقعوا في حبال هذا التخطيط عندما أتحت لهم الفرصة .. ولكن مادامت نصوص التوراة - في كثير من أجزائها - قد ردت الى النبع الذي صدرت عنه ، اذن فلم يعد هناك مجال لخلط ارادة الله ، بهذا الكلام كله . فإرادة الله شاعت ان يكون الناس كلهم من مخلوقاته . وشاعت ان يخصهم من اليهود وبعد اليهود بأنبياء ورسل علمنا أنباء بعضهم وحجبت عنا أنباء باقيهم ..

رأى فلهاوزن .. ومعارضيه :

يعد عالم الاستشراق الألماني المشهور يوليوس فلهاوزن من أشهر الباحثين في تاريخ التوراة . وقد لخصت آراء هذا الباحث ومن جراه في آرائه في كتاب الحضارات السامية القديمة ، وقد جاء في التلخيص ان هذه المدرسة من العلماء نسبوا الى زمن يلي موت موسى بعدة قرون ، تأليف الأسفار الخمسة الأولى خاصة (الشريعة) . أو بالأحرى الأسفار الستة الأولى ، لأن سفر يشوع يدرج في هذه المجموعة على أنه ليس جزءا منها . والاختلافات في الأسماء التي يشار بها الى الله . وتكرار بعض القصص ، والفروق الواضحة في اللغة والأسلوب بين أجزاء مختلفة من هذه المجموعة كل هذا أقنع العلماء الناقدين بأن الأسفار الخمسة المنسوبة الى موسى كانت في الواقع من تصنيف مصادر مختلفة . وقد حددت أربعة مصادر أساسية هي :

- ١ - المصدر اليهودي الذي استعمل في التعبير عن الله كلمة يهوه . وقد حددت سنة ٨٥٠ ق . م ميقاتا لتأليفه في مملكة يهوذا (اورشليم) .
- ٢ - المصدر الالوهيمي الذي يعبر عن الله بكلمة ألوهيم . وقد ألف حوالي سنة ٧٧٠ ق . م في المملكة الشمالية (اسرائيل وعاصمتها شكيم) .
- ٣ - المصدر الثالث ، هو التثنية ، ويرجح انه جمع عام ٦٢٠ ق . م فيمتاز عن المصدرين السابقين باحتوائه على بعض التشريعات . حاول هذا الجزء ان يركز عبادة الاله « يهوه » في اورشليم .
- ٤ - ويجيء بعد ذلك المصدر الكهنوتي ، الذي وضع شرائع الكهان . واشترك فيه كثيرون من أسرة اللاويين ، لأنه نظم طريقة الخدمة في المعبد بعد أن أعيد للمرة الثانية في زمن عزرا .

ولكن ما ان أظهرت الحفريات الحديثة في أرض الرافدين الكثير من أصول الحضارة البابلية ، دخل بعض التعديل لنظريات الألمانى فلهاوزن ، بتقديم أجزاء على أجزاء أخرى ، وكثير التضارب مرة أخرى ، بحيث لم يعد هناك أى اطمئنان للمصادر التى أخذت منها التوراة . وان كان علماء الدين الكاثوليكي يرون أن الأجزاء الخمسة الأولى صادرة عن موسى ، الا أنها جمعت من مصادر مختلفة ، وربما اشتملت على تغييرات واطافات متأخرة .

ويقول هذا المصدر عن قصيدة « الجامعة » التى وردت في التوراة بعد المزامير والأمثال في أهميتها : ينتهى أدب الحكمة في التوراة بقصيدة الجامعة التى تتحدث عن بطلان كل شيء ، وعن عبث الدنيا التى تدور بلا نهاية . وهذا السفر متأخر ، يظهر فيه التأثير اليونانى . بل انه يبدو أقرب الى طرق التفكير اليونانى منه الى طرق التفكير العبرى . ومن أمثلة ما ورد في هذا السفر :

- ما الجدوى للانسان من كل تعب الذى يعانیه تحت الشمس ؟
- جيل يمشى ، وجيل يأتى ، والأرض قائمة الى الأبد .
- كل الأمور متعبة . لا يستطيع المرء أن يحدث بها . العين لا تشبع من النظر ، والأذن لا تمتلئ بالسمع .
- ما كان هو ما سيكون . وما صنع هو الذى سيصنع . فليس تحت الشمس جديد .

وهكذا نجد اتجاها جديدا في أبحاث العلماء عن التماس مصدر جديد لادبيات التوراة ، لا هو مصرى ، ولا هو بابلي ... ولكنه اغريقى من اليونان القديمة . ولعل أقرب دليل على تعدد مصادر التوراة ، هو ظاهرة التكرار فيها لاسفار كاملة مع اختلاف أسلوب الكاتب ، وتغيير يسير في الوقائع اشرنا الى أمثلة منه فيما سبق .

ويبدو أن بعض الشباب من اليهود المحدثين يريدون التخلص من قبضة التوراة - أو على الاصح رجال الدين الذين يحتكرون العهد القديم وقيمون جدران سيادتهم على مجتمعهم من أوراق هذا الكتاب . هؤلاء الكهان الذين يحاولون تطبيق سياسة العرق النقى لاسرائيل ، يرفضون الاعتراف بيهودية من كانت أمه غير يهودية . أو سلالة هذا الزواج حتى الجيل الثالث . وقد تقررت هذه القاعدة بقانون في اسرائيل الحالية . ورفض رجال الدين تسجيل زواج فتاة يهودية من شاب يهودى لان امها غير يهودية . وسرح من العمل الحكومى ، والمنظمات النقابية آلاف

الأشخاص في إسرائيل المعاصرة لان دمهم « غير نقي » (١).
وهكذا يعيش يهود هذه الأيام أسرى التوراة ، على الرغم من كل الحقائق التي
ظهرت عن أصول كثيرة من موادها المستعارة من آداب وأديان أخرى .. والسبب
واضح في قوة رجل الدين اليهودي الآن ، وخلال الألفية سنة الماضية . وهو ان هذه
التوراة ، هي التي كانت رايته المرفوعة علنا ، أوسر التبقى جنسهم من خلال المحن
التي مرت بهم . ومن الواجب أن يحافظوا عليها ، مهما قيل عن نسيجها وألوانها
ومصادرهما .



(١) قضية ضابط البحرية اليهودي « شاليت » ، انفجرت في فبراير سنة ١٩٧٠ فقد أراد تسجيل اولاده في سجل النفوس
الاسرائيل فرفض طلبه لان ام الاولاد غير يهودية . وعد التجاؤء الى المحكمة خيانة .

□ الفصل السابع □

إنقسام وإبادة

أربعون سنة من الحروب وترتيل الأغاني وضرب المزمارة تحت حكم داود .
وأربعون سنة من بذل الجهد في البناء والتعمير ، وضرب الأمثال وصياغة الحكم ،
تحت حكم سليمان .. وهذا هو تاريخ الاسرائيليين الذهبي في فلسطين ، منذ جاءها
ابراهيم الخليل حتى ظهر فيها السيد المسيح عليه سلام الله .. وحتى هذا العصر
الذهبي ، لم يسلم من تشوية كتاب التوراة له عندما التجأ داود الى الوثنيين من
الفلسطينيين سنين طويلة . وحروبه مع أبنائه ، وانجابه سليمان من سيدة تآمر على
قتل زوجها . فلما جاء سليمان لم يسلم أيضا من اضافة بقع سوداء الى تاريخه نثرها
كتاب التوراة هنا وهناك ، في موضوع نسائياته ، وفي تماثيل الآلهة التي أقامها ،
وقدم لها القرابين ، وحاشاه أن يفعل ، وهو النبي المرسل بكلمة التوحيد ، وبالْحكمة
التي لا يمكن أن توجد في تقليب الوجه بين الإله الواحد الأحد ، وتماثيل عشتروت أو
بعل أو إيل وغيرها من أوثان المنطقة .

مهما يكن الأمر ، فقد ترك سليمان ابنين : رحبعام ، ويربعام .. مالبثا أن
اختصما ، واقتتلا ، وانقسم ميراث سليمان بينهما ، واحد يكون في منطقة
أورشليم ، وأسمى مملكته يهوذا ؛ والثاني في منطقة نابلس أو شكيم كما كانت
تسمى ، وأسمى اسرائيل .

واشتد الخصام بين الأخوين ، حتى منع حاكم شكيم سكان منطقته من أن
يزوروا القدس ، ويتعبدوا في المعبد . والخصومة بين الأخوين ترجع الى أيام أبيهما
سليمان نفسه . فقد هرب يربعام الى مصر لما علم أن أباه اعتزم قتله . وسبب
الخصومة ، أن هذا الابن الهارب كان يأخذ جانب الشعب اليهودي في أنيته من اليد
الثقيلة التي حكمهم بها سليمان ، ولاسيما تسخيرهم في أعمال البناء . فلما

« اضطلع سليمان مع آبائه ودفن في مدينة داود أبيه » قدم الابن الهارب الى مصر ،
وجمع وفدا كبيرا من الاسرائيليين وذهب الى اخيه وخاطبه قائلاً :
- إن أباك قسى نيرنا (ظلمنا) واما أنت فخفف الآن من عبودية أبيك القاسية ،
ومن نيره الثقيل الذي جعله علينا ، فتخدمك .

ورفض ملك اورشليم أن يبذل شيئاً مما ترك أبوه سليمان . فذهب الابن الثانى
الى شكيم ، وحتى يوجد معبود الأهل منطقته فقد سبك عجلين من الذهب ، مثل صنع
أجداده الأول الذين خرج بهم موسى من مصر ، وأقام معبدين ، وطلب تقديم
الضحايا لهذين المعبودين .. ويبدو أن اقامته لاجئاً عند شيشنق ملك مصر ، أثرت
على عقيدة التوحيد عنده ، وهزتها . وأكثرما اهتزت عقيدة التوحيد لدى قبائل يهوذا
خلال - القرون المتعاقبة . وما أكثرما تركوا (يهوه) ربهم ، إلى أرباب القبائل
الكنعانية من حولهم .

وإذا كانت هذه الردة قد حدثت في منطقة اسرائيل ، فان منطقة يهوذا أو
اورشليم لم تثبت على عقيدة التوحيد .. يقول مؤرخوهم في التوراة : « وعمل يهوذا
الشرى فى عينى الرب ، وأغاروه أكثر من جميع ما عمل أبائهم بخطاياهم التى أخطأوا
بها . وبنواهم أيضاً لأنفسهم مرتفعات ، وأنصاباً ، وسوارى ، على كل تل مرتفع ،
وتحت كل شجرة خضراء .. فعلوا حسب كل أرجاس الأمم الذين طردهم الرب من
أمام بنى اسرائيل » .

وفى وسط هذه الفوضى ، نرى جيشاً مصرياً يجتاح فلسطين ، ويصل الى
اورشليم دون مقاومة تذكر . وكان شيشنق فرعون مصر ، يعلم أين توجد أكداس
الذهب التى جمعها سليمان ، وكافة النفائس التى خلفها .

فأخذها جيش مصر ، وعاد بها ، فهى حق للأميرة المصرية التى عاشت ردها من
حياتها فى اورشليم . واضطر رحبعام بن سليمان ، أن يضع النحاس مكان الذهب .
ولكن أين بريق النحاس من بريق الذهب النضار ؟

وظلت السنوات تمضى ، لاتحصى الاحرباً مستمرة بين الأخوين أبناء سليمان .
الى أن مات ملك اورشليم . وجاء من بعدهم خلف ، ظهر فيهم اسم (آسا) ملكاً على
اورشليم . « ونزع جميع الأصنام التى عملها أبائهم .. وأما المرتفعات فلم تنزع »
تماثيلها حتى أم هذا الملك كانت وثنية .

واستمرت الحرب مشتتة بين اورشليم (يهوذا) وشكيم أونابلس
(اسرائيل) لاتهدأ .. بل انقسمت المملكة الشمالية الى قسمين ، يحارب بعضهما
بعضاً والذرة اذا انقسمت تعطى طاقة عظيمة ، أما هؤلاء عند انقسامهم فقد

ضعفوا وهانوا ، بل وصل بهم الهوان ، الى أن اختاروا للإله الوثنى « بعل » ٤٥٠ نبياً !! والنبي الموحد الوحيد بينهم كان ايليا . وقد دبر كميناً للأنبياء الوثنيين وذبحهم جميعاً .. أجل لم يرض بأقل من الذبح !
وتستمر هذه المعارك الصغيرة ، ويغلب عليهم قوم آرام ، (سوريا) ويسومون اسرائيل سوء العذاب .

وكان معبد اورشليم قد تلف وتهدم ، وكانت عطايا اليهود من الذهب والفضة ، مخصصة لاصلاح البناء ، واعادة زخرفته . ولكن كهنته آثروا أنفسهم بالمال . واضطروا الى عمل « حصالة » على السلم يودع فيها الزائرون نذورهم ، وبدأ الترميم . ولكن جيش آرام أطبق على اورشليم فأسرعوا بما جمعوه من ذهب وفضة ، الى هذا الغارزى ، فقتل بهذه الغنيمة وعاد ونجت المدينة . وتدل هذه الوقائع على أن القوة الحربية لليهود ذابت في المعارك الداخلية بين المدينتين اورشليم وشكيم . وقوة الأنبياء الصادقين ضعفت الى الحد الذى ترك أوثان الآلهة الأخرى فوق المرتفعات ، تشعل لها النار وتقدم لها الذبائح .

ونجد في سفر الملوك الثانى وصفا لاذعاً ، لبعض العقوبات التى حلت بأورشليم من القبائل غير اليهودية المحيطة بها ، وما كان أغناها عنها لو لم ينزل اليهود فيها بطبائعهم الغربية .. فقد ظلت هذه المدينة ، وأهلها اليبوسيون يحكمونها بمنجاة من المتاعب ..

ففى الإصحاح الحادى والعشرين ان « منسى » الذى حكم المدينة اثنتين وخمسين سنة (تولى الحكم وسنه ١٢ سنة) ، نافس ملك اسرائيل الشمالى فى الاكثار من الأصنام والمذابح لإله الكنعانيين بعل ، بل أدخل هذه المعبودات الغربية فى معبد سليمان « وأكثر عمل الشر فى عينى الرب لاغاظته » .. أى أغاظته الرب !
قالت التوراة : « .. وتكلم الرب عن يد عبده الأنبياء قائلاً : من أجل أن منسى ملك يهوذا .. ها أنذا جالب شراً على اورشليم ويهوذا ، حتى أن كل من يسمع تطن أذناه .. وأمسخ اورشليم كما يمسح واحد الصحن يمسحه ويقلبه على وجهه . وأرفض بقية ميراثى ، وأدفعهم الى أيدي أعدائهم فيكونون غنيمة ونهباً لجميع أعدائهم . لأنهم عملوا الشر فى عينى ، وصاروا يغيظوننى من اليوم الذى فيه خرج أبائهم من مصر الى اليوم ..

حروب الملوك :

إذا كان سليمان قد انشأ لنفسه عرشاً فى اورشليم ، فقد أحاط وجوده بهالة من

العظمة تناسب البيئة التي عاش فيها ، وهي بيئة عطاؤها قليل ، الا أن التجارة - ولاسيما تجارة الخيل - التي مارسها سليمان قدمت له ثروة طيبة ، فلما جاء من بعده خلف من الصغار . كان لقب الملك الذي حرصوا عليه أضحوكة ، اذا قورنوا بالملوك في مصر أو بابل وأشور .

وكانت الحروب بين سلالة سليمان ، صورة لانحلال هذا المجتمع الذي ما كان يقوم حتى انهار .. وأول ما انهار فيه الاحساس الديني الذي بنى عليه أساسا مجتمع هؤلاء اليهود الأول .

فهذا واحد منهم - الثامن بعد سليمان - واسمه « أمصيا » لمع في حكم اورشليم . تقول عنه التوراة انه عمل المستقيم في عيني الرب ولكن ليس بقلب كامل . ولما تثبتت المملكة عليه ، قتل عبيده الذين قتلوا الملك أباه .. وجند هذا الملك جيشا . واستأجر جنودا من « مملكة اسرائيل الشمالية ، وراح يحارب الأدوميين ، وأخذ منهم عشرة آلاف أسير ، وتقول التوراة انه ألقى بهم من فوق الجبل ، فتكسروا جميعا ! وما أن حقق « أمصيا » هذا النصر ، حتى عدل عن عبادة « يهوه » ، مؤثرا عبادة الأوثان !!

خطر لهذا الملك أن يوجه أبناء عمومته في اسرائيل الشمالية (وكانت تسمى السامرة) ، ولكنه ما لبث أن وقع أسيرا في يد ملك شكيم عاصمة اسرائيل . وتقدم المنتصر الى اورشليم فهدم سورها ، ونهب كل الذهب والفضة الموجودة في بيت الله . ولم يكن « أمصيا » هذا ينتظر أن يكون قتلته من أبناء بلدته « اورشليم » ولكن هذا ما حدث له .

وتولى الحكم في اورشليم ابنه الفتى ، ثم حفيده ، ثم ابن هذا الحفيد وكان اسمه « آجاز » وقد اختار من بين الأوثان المعبودة في القبائل المجاورة « البلعيم » . وارتكب كل رجس ، وهاجمته جيرته من الآراميين وأخذوا الكثير من يهود اورشليم أسرى ، وساقوهم الى دمشق . وكذلك هاجمت اورشليم جيرتهم من يهود دويلة شكيم (أو اسرائيل) . وتقول التوراة ، ان قتلى هذه المعركة الأخيرة ، من أبناء يهوذا (أو اورشليم وما حولها) كانوا مائة وعشرين ألفا في يوم واحد أما الأسرى والسبائا فكانوا مائتي ألف من النساء والبنين والبنات ، وساقوهم من قراهم الى شكيم (نابلس) في الشمال .

ويبدو ان بعض الصالحين من يهود الدويلة الشمالية ، نصحوا أبناء شكيم بان يردوا الأسرى فهم أخوتهم على كل حال ، فردوهم الى أريحا ، وأركبوا المرضى منهم والمتعيين حميرا .

ومرة أخرى نقف عند أرقام التوراة . فمن غير المعقول أن يكون مائة ألف قتلى معركة واحدة كهذه ، حارب فيها اليهود من السامرة ، يهود اورشليم وماحولها . وكم كان عدد الجرحى اذن . .كم كان عد الهاربين والناجين من المذبحة . فاذا أضفنا الى هذا الحصاد ، ضعفه من الأسرى . فلا شك في أن تعداد اليهود يمكن أن يحصى بالملايين . وهذا أمر لا يقبله عقل ..

وقد ناقشنا في أمر هذه الأرقام واحدا من المتعمقين في دراسة التوراة والانجيل . فقال انه يرجح أن هناك تفسيراً للغة الاعداد في التوراة غير مانفهمه الآن . واستشهد بما ورد في القرآن الكريم الذي قال : « وان يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون » (الحج) .. وقال : « تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » .. وقد أجبناه بأن هذا الرأي يتصل بتفسير كلمة يوم في حال من الحالات ، أو في أخرى .. اما اذا قلنا إن سكان مدينة هم عشرة آلاف نسمة ، فانما نعنى الرقم وتمييزه ، ولاشئ غير ذلك . وقتلى هذه المعركة ، أو جنود ذلك الجيش كانوا ألفا ، أو مائة ألف ، فلن نجد الا تفسيراً واحداً للأرقام هو ما تدل عليه . والتوراة بالذات دللتنا على أن الأرقام كانت نقطة ضعف عند اليهود . فهم يستعملونها للاخفاء لا للاظهار ، وهاك الدليل من الاصحاح ٢١ في سفر أخبار الأيام الأول :

« ووقف الشيطان ضد اسرائيل ، وأغوى داود ليحصى اسرائيل (قبل انقسامها الى دولتين) . فقال داود ليواب (قائد الجيش) ولرؤساء الشعب : اذهبوا وعدوا اسرائيل من بئر سبع الى دان . وائتوا إلي فأعلم عددهم .. واعترض يواب وأكد لداود أن التعداد اثم . فلما صمم داود ، تم الاحصاء . وتقول التوراة ان التعداد أوضح أن اسرائيل كلها ألف ألف والجيش (مستلو السيف !) مائة ألف وكانت يهوذا أربع مائة وسبعين ألف رجل مستلى السيف وأما أسباط لاوى وبنيامين فلم يتم احصاؤهم .

وواضح أن هذا الكلام فيه خلط كثير . فلم يكن اليهود قد انقسموا في عهد داود إلى قسمين . وقد تم هذا بعده . ولكن المهم هو قول التوراة : « وقبح في عيني الله هذا الأمر ، فضرب اسرائيل . فقال داود لله (هكذا مباشرة !) لقد أخطأت جدا حيث عملت هذا الأمر . والآن أزل اثم عبدك ، لأنى سفهت جدا » .

وكان من نتيجة هذه الخطيئة الكبرى - وهى التعداد - أن عرض الرب على داود ان يختار عقوبة من ثلاث : الجوع أو الهزيمة أو المرض والوباء . وكان

الوباء هو العقاب الأمثل ، لأن داود قام بهذا التعداد ، فهلك فيه من اليهود سبعون ألفا . وكاد الرب يهلك أورشليم ، ولكنه عاد فندم على الشر (سبحانه وتعالى عما يصفون) ، وأمر الرب الملك المكلف ببيادة أورشليم أن يكف عن التنفيذ .. وكان الملك واقفا عند حقل أحد البيوسيين أهل أورشليم الأول .. ومهما كان رأينا فى تفاصيل هذه القصة ، فان لها دلالة لا تخفى علينا ، وهى كراهة اليهود للارقام الكاشفة للحقائق . ومن هنا نستطيع أن نفهم هذه المغالاة فى ذكرها ، وأنها تعبر عن حالة نفسية ، أكثر مما تعبر عن واقع يمكن الاعتداد به .

طريق النهاية :

وهنا نأتى إلى أمر فيه تجديد ، كما يقول الشاعر القديم . فى عام ٧٢٧ قبل الميلاد تولى حكم أورشليم « حزقيا » .. ورغم أنه كان شابا - فى الخامسة والعشرين من العمر - إلا أنه سار سيرة معقولة ، وعمل المستقيم فى عينى الرب حسب كل ما عمل داود . وجمع هذا الملك كهان المعبد من بيت لاوى ، أوليفى ، وقدم للرب الذبائح قربانا وتكفيرا عن آبائه ، وأحضر آلات الموسيقى التى كان يستعملها داود ، من صنوج ورباب وعيدان وأبواق ، وردد المزامير والأدعية . ثم أرسل رسله يدعون جميع اليهود من اسرائيل الشمالية ، ويهوذا فى جنوبها حتى بير سبع ، لكى يحتفلوا كأسرة واحدة بعيد الفصح . وأزيلت من مرتفعات أورشليم معابد الأصنام الوثنية ، بعد أن ظلت متحكمة فى عبادات اليهود ، واليها تعنوا جباهم قرابة قرنين من الزمان أى من نهاية عهد سليمان الحكيم ..

ووسط ولائم حافلة ، طعم المحتفلون لحوم ألف ثور وعشرة آلاف من الضأن « وكان فرح عظيم فى أورشليم ، لأنه من أيام سليمان بن داود ملك اسرائيل لم يكن كهذا فى أورشليم » .

وحدث أن حاول ملك « سنحاريب » الاستيلاء على أورشليم ، وحاصرها فعلا ، بعد أن استولى على ما حولها . ولكن « حزقيا » كان فطنا ، فطمر الآبار من حول المدينة حتى لا يشرب منها جيش آشور ، وقوى حصون المدينة ، وصمم على المقاومة . وأنقذ المدينة من هذا الغزو الآشورى ، ان أبناء سنحاريب الآشورى ثاروا عليه ، لانتزاع الملك منه ، وقتلوه فعلا « وخلص الرب سكان أورشليم من سنحاريب ملك آشور ، ومن يد الجميع ، وحماهم من كل ناحية » .

وقام حزقيا بإصلاح موارد المياه إلى المدينة ، وأجرى بعضها تحت الأرض إلى الجهة الغربية من المدينة . وفي خلال حكمه الذي استمر تسعة وعشرين عاما جمع ثروة كبيرة جدا ، تكاد تعادل ما جمعه سليمان .

ولكن ما كاد ينتهى هذا الحكم ، حتى جاء الابن منسى ليحكم ، ويعود باليهود إلى عبادة الأوثان . وطال عهد هذا الملك اليهودى الوثنى خمسا وخمسين سنة (ملك وسنه ١٢ عاما) ولم يترك معصية الا ارتكبتها ، حتى الهيكل وضع فيه أصناما لمعبودات كل الأمم من حوله .. حتى ابنه وولى عهده أسماه أمون ، على اسم المعبود المصرى القديم .. وكل ذلك ليغيظ « يهوه » رب اسرائيل !! وفي مناوشات بين « منسى » هذا ، وجيش آشور ، وقع أسيرا في يد الأعداء ، وقيد بالسلاسل ، ونقل إلى بابل . ويبدو أنه هرب أو نجا من الأسر ، وحاول اصلاح أخطائه قبل الرب . ولكن الموت عاجله . وتولى مكانه ابنه « أمون » ليتابع عبادة الأوثان ، وارتكاب الآثام ، فقتله أهل اورشليم .

العثور على التوراة :

وهنا نأتى إلى موقف عجيب فى تاريخ الدين اليهودى ، وفى تاريخ اورشليم بالذات . ففى عام ٦٣ ق . م تولى الملك صبى صغير هو « يوشيا » ابن أمون . وكان فى الثامنة من عمره . وكان الكاهن الأكبر رجلا يوقره اليهود كثيرا ، اسمه « حلقيا » وصفته التوراة بأنه « الكاهن العظيم » . وقد بدأ فى هذه الفترة ترميم المعبد ومراجعة مخططاته . وفجأة عثر المكلفون بمهمة التعمير على ملف ، ظهر لهم أنه التوراة ، أو كتاب الشريعة . وقالوا انه بخط موسى ، وظلت هذه النسخة مختفية عن الأعين عدة قرون ..

هذه الأسفار ، كما تذكر التوراة التى بين أيدينا عددها خمسة . وان كانت فى أواخرها تتحدث عن أمور بعد عهد موسى (عدد أسفار التوراة ٣٩ ، وعدد اصحاحاتها ٩٣٩ اصحاحا) والنسخة التى قيل ان موسى كتبها بخطه ، هى ولا شك النسخة التى أودعها سليمان الحكيم فى التابوت عندما بنى الهيكل ، أى أنها ظلت لمدة تقرب من ٣٥٠ سنة ، لا يعرف اليهود عنها شيئا .. وما يجعلنا نؤكد أن سليمان كان يعلم بوجود هذه النسخة ، ما ورد فى القرآن الكريم عن تابوت اليهود ان ورد فيه :

« وقال لهم نبيهم ان آية ملكه ، أن يأتيكم التابوت فيه سكينه من ربكم ، وبقيته مما ترك آل موسى ، وآل هارون تحمله الملائكة . ان فى ذلك لآية لكم إن

كنتم مؤمنين » (البقرة ٢٤٨) .

وواضح من هذه الآية القرآنية عدة أمور :

أولا : ان موسى عليه السلام دون توراة ضمنها ما أنزله الله عليه . وهى الشريعة التى طالب اليهود باتباعها .

ثانيا : ان هذه التوراة أودعت فى صندوق ، هو الذى تطلق عليه كلمة التابوت . وقد أطلقت من قبل على الصندوق الذى سبغ فى ماء النيل ، وبه موسى نفسه ، وهو طفل : « أن اقدفيه فى التابوت ، فاقدفيه فى اليم ، فليلقه اليم بالساحل » .

ثالثا : ان موسى عليه السلام ترك توراته فى هذا التابوت ، ثم رحل عن الدنيا . فما كان من اليهود من بعده الا أن جعلوا « الرب » نفسه يأوى إلى الصندوق ، ولو قالوا ان كلماته تعالى هى التى أودعت فيه ، لكان ذلك أقرب إلى العقل .

ظلت عقدة التابوت تعمل عملها فى طقوس العبادة اليهودية من بعد موسى . حتى اذا بنى سليمان الهيكل ، وأودع فيه التابوت ، كان يعلم ولاشك ما بداخله .

خامسا : يبدو أن الحروب التى كان التابوت يحمل فيها مقدمة المحاربين بزعم أن « الرب » بداخله ، ثم وقوعه بعد ذلك غنيمة فى أيدي الفلسطينيين ، أفقدت التوراة جزءا من صحائفها . وقد عبر القرآن الكريم عن هذا المعنى بقوله « وبقيّة مما ترك آل موسى » .

سادسا : والتعبير القرآنى بأن ما كان فى التابوت هو « بقيّة » مما ترك « آل موسى » ، وليس النص على موسى نفسه ، يشير إلى أن ما كتبه موسى بنفسه ، قد لا يكون هو ما أودع فى التابوت أيام سليمان ، وانما نسخة منه ، ليست كاملة .. لأنه « بقيّة » وليس « كلا » .

ومهما يكن الأمر ، فقد حدث شىء يلفت النظر عندما وجدت هذه « البقيّة » أو سفر شريعة الرب ، كما تعبر التوراة الحالية . فقد تلى الملف على ملك أورشليم . ولا بد أنه كان قد كبر فى السن ، ونما ادراكه . لأنه ما إن سمع نصوص المخطوط الموجود حتى مزق ثيابه ، اذ وجد قومه يخالفون كلام الرب فى كل ما يعملون ، وما يعيشون به . وبعث الملك وفدا على رأسه الكاهن حلقيا ، إلى امرأة من يهوذا وصفوها بأنها نبية . فأفتت بأن الملك سينال عفو الرب ، ويموت مؤمنا ، أما قومه ، فسيحل بهم النكال ، جزاء عصيانهم .

وحتى يبرىء الملك ذمته ، فقد دعا جميع اليهود في كل مكان كانوا فيه ،
وقرأ عليهم ما وجد من سفر العهد .

وقد عنى أحد علماء المسلمين ، وهو الإمام أبى محمد على بن حزم الأندلسى
المتوفى عام ٤٥٦ هجرية ، بدراسة التوراة ، ومناقشة كثير من بياناتها مع الذين
عاصروه من أحبار اليهود في الأندلس . وكان مما صح لديه أنه كان لدى
السامرية (يهود الشمال) تورا غير التوراة التى بأيدي سائر اليهود ، يزعمون
أنها المنزلة ، ويقطعون أن التى بأيدي اليهود محرفة مبدلة . وسائر اليهود
يقولون ان التى بأيدي السامرية محرفة مبدلة .

ولسنا ندرى أى صفحات أو نسخ من التوراة وجدت هنا . ولكن الواضح
من النصوص التى وردت فيما تداول بين أيدينا ، أن أهل أورشليم عندما
سمعوا ما تلاه عليهم « يوشيا » وأعوانه ، بدا وكأنه شىء جديد عليهم ، ولم
يسبق لهم علم به .. فهل كان اخفاء التوراة الموسوية - حتى عثر عليها - هو
سبب الجهل بها ؟ إذا كان الأمر كذلك ، فعلى أى شريعة كان يتعبد اليهود منذ
عهد سليمان حتى هذا العهد ؟ وهل كان الاخفاء ، هو سبب ردتهم المتوالية ،
حتى طردهم الأخير من فلسطين . فما نفع نبى ، ولا واعظ ، ولا كاهن ، ولا راء
(قارىء المستقبل) فى دفعهم عن هذا الاثم .

وكان مما لاحظته ابن حزم فى كتابه : الفصل فى الملل والنحل ، أن موسى حرم
فى شريعته الزواج من الأختين ، وبهذا خالف شريعة يعقوب الذى تزوج من
أختين هما ابنتا « لابان » وجمعهما معا . وهذا تناقض . وذكر أن التوراة
أحصت المدن التى سكنتها بعض الأسباط وكانت نحو أربعمائة مدينة غير
القرى ، مع أن مساحة بقعة الأرض التى ورد أنهم نزلوها لا تزيد على اثنى عشر
ميلا فى مثلها ، وهذا بدوره يناقض الجغرافيا ... وما أكثر ما أورد ، مما نخرج
معه بنتيجة واحدة ، وهى أن المتأخرين الذين كتبوا التوراة لم يفكروا أبدا فيما
هو معقول أو جائز .

وهكذا نجد أنفسنا أمام جزء من تورا موسى كان فى التابوت ، وهو جزء
مؤكد ، وتورا كتبت بأيدي السامرية ، وأخرى كانت بأيدي باقى اليهود .. ولا
يعرف بعد هذا على أى من النسخ كان يعتمد اليهود فى عبادتهم . ولكننا سنرى
فيما بعد أن تدويننا جديدا حدث ، واليهود فى الأسر أو السبى البابلى ، وأن حجم
التوراة زاد أضعافا مضاعفة .

القارعة الأولى :

وحدث في عام ٦٠٨ ق . م أن كان فرعون مصر نخاو الثانى فى طريقه إلى حرب البابليين وكما يحدث أحيانا من بعض الحاكمين ، فقد أساء اليهود الحساب وحسبوا أنهم يستطيعون أن يتصدوا لقوات مصر ، بقواتهم الصغيرة . فسحقهم المصريون ومن معهم ، فى سهل مجدو ، وذبحوا ملكهم يوشيا . واختار اليهود ابنه ملكا عليهم ، ولكن فرعون مصر نخاو عزل هذا الحاكم ، وولى من قبله ابنا آخر حاكما لأورشليم . على أن يكون تابعا للتاج المصرى .

وبعد ثلاثة أعوام دارت المعركة الحاسمة بين البابليين والمصريين ، فدارت الدائرة على جيش مصر . وبالتالي أصبحت أورشليم تابعة لبابل . وبعد ثمانية أعوام - أى فى عام ٥٩٧ ق . م - زحف الملك البابلى « نبوخذ نصر » على أورشليم ، وأخذ معظم سكانها أسرى إلى بابل . وبتحريض من مصر ثارت البقية الباقية من سكان المدينة على سادتهم الجدد . فقد ملك بابل بنفسه وفرض على أورشليم حصارا استمر عامين من ٥٨٨ ق . م ، واستسلمت المدينة على أثره ودمرت ، ولم يترك البابليون فيها الا الضعفاء أما بقية أهلها فقد سيقوا فى الأسر إلى نهر الفرات .

ومنذ ذلك الوقت انتهى وجود اليهود فى فلسطين كحكومة لها سلطة وشعب يتبعها ، وبقى لهم المعنى الدينى ، وهو أنهم شعبة من القبائل ، تنتسب لابراهيم الخليل صلوات الله عليه .

هذه هى خاتمة اليهود فى أورشليم ، أى فيما كان يسمى مملكة اسرائيل التى أنشأها داود عليه السلام .. ثم انقسمت من بعده الى يهوذا ، واسرائيل كما ذكرنا من قبل .. وقد حكم فى أورشليم من بعد سليمان عشرون ملكا حتى ابتداء السبى البابلى ، وذلك فى الفترة من عام ٩٣٠ ق . م (وفاة سليمان) حتى عام ٥٨٦ ق . م .

أما المملكة الشمالية ، التى كان اسمها اسرائيل ، وعاصمتها شكيم (نابلس) . فقد حكمها الابن الثانى لسليمان الحكيم ، أى من عام ٩٣٠ ق . م وانتهى وجودها سريعا .. ففى عام ٧٢٢ ق . م أغار عليها سرجون الثانى ملك بابل ، ودمر وجودها ، ونقل جميع أهلها الى شرق الفرات ، وأحل محلهم سكانا جددا من أبناء الرافدين ، وكان عدد ملوك اسرائيل هذه تسعة عشر ملكا ، عاشوا فى شغب ، ومحالفات خائبة مع الوثنيين لمهاجمة أبناء عموماتهم فى أورشليم .

وإذا حسبنا عمر هاتين الدويلتين ، تكون أورشليم (يهوذا) قد عمرت ٤٣٤ سنة بما فيها ملك شاول وداود وسليمان وإسرائيل عمرت ٢٩٨ سنة فقط ، منذ عهد شاول (١٠٢٠ ق . م) .

وكما نرى فإن سيادة اليهود على قطعة محدودة من أرض فلسطين انتهت قبل ميلاد المسيح عليه السلام بحوالى ستة قرون ، وبعد خمسة وعشرين قرناً وبعض قرن يحاولون أن يعيدوا هذا التاريخ السحيق مرة أخرى وياله من تاريخ .. وياله من عودة .

ونحن هنا نتحدث عن « السيادة » على قطعة من الأرض ونهايتها .. أما ختام الوجود اليهودى فى فلسطين فقد تأخر بعض الوقت .. تأخر الى عهد الرومان الى عام ٧٠ ميلادية ، كما سنرى فيما بعد .

وقد تحدث القرآن الكريم عن هاتين النهايتين : تدمير سيادتهم بالأسر البابلى ، وانهاء وجودهم بالسحق الرومانى ، وذلك فى الآية الكريمة : « وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ، ولتعلن علواً كبيراً . » « فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبداً لنا أولى بأس شديداً ، فجاسوا خلال الديار ، وكان وعداً مفعولاً . »

« ثم رددنا لكم الكرة عليهم ، وأمددناكم بأموال وبنين ، وجعلناكم أكثر نفيراً . »

« إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها . »
« فإذا جاء وعد الآخرة ، ليسوعوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة ، وليتبروا ما علوا تتبيرا .. » .

(الاسراء : ٤ - ٨)

وهذا الدمار الأول ، الذى تم على ايدى البابليين ، وتحدث عنه القرآن الكريم على النحو الذى نراه ، كان بالغ التأثير على اليهود .. فقد أزال معظم الوجود اليهودى من فلسطين . وظهر من السهولة التى أجلى بها البابليون سكان منطقة إسرائيل ، على يد « سرجون » ثم سكان منطقة يهوذا على يد « نبوخذ نصر » ، ان جذور هؤلاء القوم لم تكن عميقة فى أرض فلسطين وإذا استثنينا المعبد وقصر سليمان ، فلا تكاد تذكر لهم آثار خلال تسعة قرون قبل هذا الاجلاء ، وكل ما يمكن أن نقوله إنهم أقاموا فى جزء من أرض كنعان ، بما فيها من قرى صغيرة .. وحتى المدن كانت أشبه بالقرى ، باستثناء أورشليم وشكيم (نابلس) .

ويعصف ديورانت في تاريخ الحضارة هذه الحقبة من وجود اليهود في فلسطين قبل السبي البابلي فيقول :

« كان هذا الجو المشحون بعوامل التفكك السياسى ، والحرب الاقتصادية ، والانحلال الدينى ، هو الذى ظهر فيه الأنبياء ، ولم يكن أولئك الذين أطلق عليهم هذا اللفظ العبرى (النبى) أول الأمر ، من طبقة عاموس وأشعيا الجديرة باحترامنا ، بل كان بعضهم من المتنبئين الذين يستطيعون قراءة قلوب الناس وماضيهم ، ويخبرونهم بمستقبلهم حسبما يتقاضون منهم من أجور ، ومنهم متعصبون متهوسون ، يستثيرون مشاعرهم بالأصوات الموسيقية الغريبة ، أو المشروبات القوية ، أو الرقص الشبيه برقص الدراويش ، وينطقون فى أثناء غيبوبتهم بعبارات يراها أصحابهم وحيا أوحى اليهم . أى بثها فيهم روح غير روحهم وقد سخر « ارميا » سخرية لاذعة من كل رجل مجنون أو متنبىء ، وكان منهم من هو ناسك نكد مثل ايليا ، ومنهم كثيرون يعيشون فى مدارس أو أديرة مجاورة للهيكل ، ولكن معظمهم كانت لهم أملاك خاصة وزوجات ، ومن هذا الحشد الكبير من النساك خرج أنبياء بنى اسرائيل وأصبحوا على مر الزمن نقدة لعصرهم وشعبهم .. ونخطىء أشد الخطأ اذا اعددناهم أنبياء بالمعنى المألوف لهذا اللفظ . لقد كانت نبوءاتهم مزيجا من الوعد والوعيد . »

« وقد قال عاموس عن نفسه إنه لم يكن نبيا ، وإنما كان راعيا ربيا سانجا .. ولما رأى بلدة « بيتال » لأول مرة ، هاله ماشاهده فيه من تعقد الحياة تعقدا غير طبيعى ، ومن الفروق الواسعة بين الثروات ، ومن القسوة فى استغلال الناس ، وراح يقول ، وتدون التوراة : « من أجل انكم تدوسون المسكين ، وتأخذون منه هدية قمح ، بنيتم بيوتا من حجارة منحوتة ، ولاتسكنون فيها ، وغرستم كروماشية ، ولاتشربون خمرا .. ويل للمستريحين فى صهيون .. الخ » .

الأسر البابلي :

وصفت التوراة ما حل بأورشليم عندما غزاها جيش الفرات بقيادة ملكهم البابلي (نبوخذ نصر) قالت :

« أصعد عليهم ملك الكلدانيين ، فقتل مختاريهم بالسيف فى بيت مقدسيهم ، ولم يشفق على فتى أو عذراء ، ولا على شيخ أو أشيب ، بل دفع

الجميع ليده ، وجميع أنية بيت الله الكبيرة والصغيرة ، وخزائن الملك ورؤساءه ، أتى بها جميعا الى بابل ، وأحرقوا بيت الله ، وهدموا سور اورشليم ، وأحرقوا جميع قصورها بالنار ، وأهلكوا جميع أنيتها الثمينة ، وسبى الذين بقوا من السيف الى بابل .. فكانوا له ولبنيه عبيدا ..» .

وواضح من هذا الكلام أن قصر سليمان ، ومعبيده ، دمرا فيما دمر من مباني اورشليم وراحت منشآت المدينة طعمة للنيران ، وقد هرب الى مصر أعداد من اليهود ، وذلك لأن اورشليم وكل فلسطين كانت تحت سلطان فرعون مصر . ويقول برستد في تاريخ هذه الفترة :

في صيف عام ٥٨٦ قبل الميلاد سقط بيت المقدس ، فخربه جيش بابل تخريبا ، وأسر الذليل صدقيا وقاده الى معسكر الملك البابلي ، حيث شاهد مصرع ولديه ، قبل فقء عينيه ، وبهذه الطريقة نلت الأمة اليهودية تماما . « وصدقيا هذا كان آخر ملوك اورشليم في هذا العهد . قالت عنه التوراة الحالية وهي تختم سفر أخبار الأيام الثاني : « كان صدقيا ابن احدى وعشرين سنة حين ملك ، وملك احدى عشرة سنة في اورشليم ، وعمل الشر في عيني الرب إلهه ، ولم يتواضع أمام أرميا النبي» .

وبقيت اورشليم خرابا ينقع فيها اليوم سبعين سنة . وما حدث لأورشليم في الغزو البابلي ، يذكرنا بقول الله تعالى في قرآنه الكريم :

« وإذا أردنا أن نهلك قرية ، أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ، فحق عليها القول ، فدمرناها تدميرا » .

وهذه هي المرة الأولى التي دمرت فيها اورشليم تدميرا تاما . وعبور الاسرائيليين لنهر الفرات كان على دفعتين ، وهم في ذل الأسر ، لم يكن أول عبور لهم . فقد ساقهم موسى عبر مستنقعات المنزلة المصرية ، وفرعون يطاردهم . ثم عبر بهم يشوع بن نون نهر الأردن ليخوضوا معه معركتهم الحربية من أجل قطعة من أرض فلسطين . وهذا هو عبور جديد في مشرق منطقة الشرق الأوسط .

ولفظ « عبري » الذي يطلق على اليهود ، هو تعبير عن القبائل الرحل ، التي يتحرك معها فقرها وبؤسها إلتماسا للرزق . وقد عرض الدكتور فؤاد على حسنين له بقوله (١) .

(١) بحث اعده الدكتور فؤاد حسنين للجامعة العربية ردا على بحث اعده كاتب يهودي تحت اسم الحياة والقيم =

« لفظ عبرى ، كما جاء في العهد القديم (التوراة) ، ان دل على قدمه ، فلا يقوم حجة على اصالته . فالآراء تكاد تجمع على أنه لفظ مصرى (خاببرى) كان يستخدم للإشارة لا إلى شعب بعينه ، بل يعبر عن طائفة من الأجانب المستضعفين . فقد جاء في الاصحاح العاشر من سفر التكوين ان أبناء نوح هم - سام ، وحام ، ويافت - ومن ذرية هؤلاء تكونت الشعوب والقبائل . واذا توخينا الحقيقة ، وجدنا أن هذه الأسماء تدل على شعوب ، وليست أفراد . وأن هذا الاصحاح ، لما عرض للأنساب لم يراع الصلات العنصرية واللغوية والاجتماعية ، بقدر ما راعى العوامل السياسية . ولا أدل على ذلك في الآية السادسة أن الكنعانيين حاميون ، والواقع أنهم ساميون . وأن قوم سبأ ، وحويلة ، من نسل حام ، بينما يعود هذا الاصحاح فيذكر أنهم من نسل سام في الآيتين ٢٨ و ٢٩ .. وهكذا .. وذكر لفظ عبرى لا يدل على قيمة جنسية . ويستطرد هذا البحث قائلاً : لفظ عبرى في العهد القديم لم يستخدم نعتاً قومياً للإسرائيليين أو اليهود . ولا نجد له أثراً في لغة السياسيين والمؤرخين والأنبياء والشعراء الذين رويت سيرهم ، قبل أن تتكون للإسرائيليين قومية أو دولة ، مثل قصة يوسف وموسى في مصر ، وفي مواقع أخرى من هذا القبيل . ولما ولدت دولة اسرائيل القديمة ، ورد لفظ « عبرى » للتعبير عن هذه الطبقة البائسة الشقية ، التي يتصور أفرادها جوعاً ، ويعلمون اعلاناً صارخاً عن سوء الحالة الاقتصادية والاجتماعية في البلاد . وكان الفرد العبرى أو المرأة العبرية ، يباع ويشترى في سوق النخاسة ، فيفقد حرته ويكدح في الأرض عبداً ذليلاً . وفي هذا تكررت الإشارة في أسفار الخروج والتثنية وارميا . ونجد هذا اللفظ يرد أيضاً في التوراة مرادفاً للجبن والضعف والخذلان كما في سفر صموئيل الأول (آيات ٣ و ٧ و ١١ و ٢١) .

اشعيا .. النبى :

في التوراة سفر من الاسفار الطويلة يستغرق حوالى ٨١ صفحة ، اسمه سفر (اشعيا) وهو منسوب إلى نبى من اليهود يحمل هذا الاسم ، عاش في اورشليم ، وتزوج نبية ، وقيل إنه أعدم عام ٧٠١ ق م . ، ولكنه ترك نبوءات تتحدث عما حدث في الماضى ، وتتحدث عما سيحدث في المستقبل . ومادام الأمر

= الاجتماعية للشعب اليهودى ضمن موسوعة يوميات ، تاريخ العالم ، ونشره اليونسكو . والبحث اليهودى من اعداد ابن صهيون دينسور .

مستقبلا . فقد زيدت على نبوءاته أشياء كثيرة ، وتحدث عن الأهوال التي سوف تحل بالأمم المحيطة بدويلة يهوذا أو اورشليم ، مثل بابل ومؤاب ودمشق ومصر وبلاد العرب وصور ، وشعب آشور والحبشة وغيرها .
فيقول عن مصر في الاصحاح ١٩ « ... يكون في أرض مصر خمس مدن تتكلم بلغة كنعان ، وتحلف لرب الجنود (إله إسرائيل) ، يقال لإحداها مدينة الشمس . في ذلك الوقت يكون مذبح (يهودى) للرب في وسط أرض مصر ، وعمود للرب عند تخمها ... فيعرف الرب في مصر ، ويعرف المصريون الرب في ذلك اليوم .. بها يبارك رب الجنود قائلا : مبارك شعبى مصر ، وعمل يدي آشور ، وميراثى اسرائيل » .

وطبعا لم يتحقق شيء من هذه النبوءة ، لأن الاسرائيليين لم يكونوا شيئا مذكورا في نظر المصريين أو الآشوريين على جميع مراحل التاريخ ، اللهم الا أن تداس قراهم تحت أقدام جنود الدولتين الكبيرتين في الصراع الدائر بينهما على مر القرون .

وتمتد نبوءات هذا السفر الى اليهود المشتتين بضربات جيوش الرافدين فيقول : « ويكون في ذلك اليوم أن السيد يعبد ثانية ليقتنى (يجمع) بقية شعبه التي بقيت من آشور ، ومن مصر ، ومن فتروس ، ومن كوش ، ومن عيلام ، ومن شنعار ، ومن حماة ، ومن جزائر البحر ، ويرفع راية للأمم ، ويجمع منقبي اسرائيل ، ويضم مشتى يهوذا من أطراف الأرض » .

ولاتنسى هذه النبوءة أن تخص مصر بقسط من أمانها ، إذ يهز الرب يده ، على نهر النيل بقوة ريحه يجف بحيث يمكن السير في مجراه بالأحذية ، بحيث يسير فيها الذين تبقوا من اليهود الأسرى في آشور ، كما ساروا يوم خروجهم من مصر !!

ويعود أشعيا مرة أخرى الى مصر فيرى الرب راكبا سحابة سريعة وقادما إلى مصر ، فيذوب قلبها داخلها ويحارب كل مصرى أخاه ، وكل واحد صاحبه ، مدينة مدينة ، ومملكة مملكة .

(كانت مصر مملكة واحدة وليس الحال كما هو في فلسطين) . أما البحر فيجف ، ونهر النيل يبببب ، وتتصاعد الروائح النتنة من الأنهار وتجف سواقي مصر ، ويهلك زرعها وينوح الصيادون ، وصناعة الكتان والأنسجة البيضاء تتوقف ، ويتعطل كل العاملين بالأجر ، وتملأ الكآبة نفوسهم .. وتكون أرض يهوذا رعيا لمصر .

أما عرب الجزيرة ، فان الماء يمتنع عن قوافلهم ، والعطش يعمهم ، وسيف اليهود يطاردهم . ولبنان في مدة يسيرة جدا تتحول بساتين لبنان الى وعر . وفجأة يتحول هذا النبي عن البلدان واحدة بعد أخرى ، ليلقى نظرة شاملة على الشعوب كلها ، على سكان الأرض جميعا ، فيرى سيف الرب امتلا دما ، وأخذ يدمر الحياة في كل مكان ، فتنحول الأنهار الى زفت ، والتراب الى كبريت ، والأرض كلها تصير شعلة لهب ، ويصعد دخانها ليلا ونهارا الى الأبد . وتخرّب الدور الى أبد الأبد ، ولا يجتازها انسان ، ولكن تكون مسكنا للغربان والقنافذ ، وينبت في قصورها الشوك ، وتبيت فيها الذئاب .

أما بابل التي دمرت أورشليم ، فقد خصها أشعيا بلعنات تحترق غضبا (كتب هذا الكلام بعد عهد أشعيا) . فإن الدمار سيحل بها . ولن تعود سيدة الممالك وذلك لأن الرب حين دفع اليه بشعبه اليهودي ، بسبب غضبه عليهم ، لم يجدوا رحمة في منفاهم ببابل . وقد ثقلت يد البابليين عليهم .. الويل لهم . سوف يأتهم الترمل والتكل معا .

وقد وصف أشعيا الرب بأنه قاس ، عضلاته من حديد ، وعنقه وجبهته من نحاس . وليس كمثلته أي صنم منحوت أو مسبوك !! وحرص اليهود في الأسر على الهرب من بابل الى أرض الكنعانيين . ونادى أورشليم أن تتيقظ وتلبس أعز ثيابها . لأنه لن يدخلها فيما بعد أي من الأمم الأنجاس ، غير اليهود .

وواضح أن الذين دونوا هذه الصفحات ، كانت مرارة الأسر في بابل تملأ نفوسهم ، فراحوا يصبون غضبهم على البشرية كلها ، لا يستثنون منها أحدا . ونستطيع أن نتصور حالة البؤس والشقاء التي كانوا فيها ، ولاسيما أنهم شاهدوا وعلموا مصائر الذين سبقوهم الى الأسر من دويلة اسرائيل . فان حكم سرجون وخلفائه أفناهم وأذابهم بين الكلدانيين فلم يبق لهم وجود ، ولم يكن قد مضى عليهم أكثر من قرنين من الزمان ، أو نحوهما .

وسفر أشعيا هذا ، كما انتهى اليه دارسو التوراة ، ليس الاثلاثة أسفار .. جاء ترتيبهم في التوراة قبل سفر « ارميا » . وقد دار هذا السفر - أيضا - حول فترة الأسر البابلي ، واستوحى من ظروفها أفكاره .

أرميا النبي :

من الذين عاصروا فترة الأسر البابلي . وكانت آشور (شمال العراق) وقتها صاحبة السلطان في الشرق الأوسط ، وفي مصر نفسها . وبهذا كانت كل فلسطين

تابعة لها . ولكن ما لبثت بابل وأهلها الكلدانيون أن حرروا أنفسهم ، وسقطت
نينوى عام ٦٢٢ ق .م وبهذا زالت سيادتهم عن أورشليم ، فلما أراد المصريون
استعادة سيادتهم في هذه الاصقاع ، ورفض اليهود ، تحركت الجيوش
وارتفعت الراية المصرية على أورشليم وحكمها يهودى من قبل مصر .
وكان اليهود في هذه الفترة يعبدون « البعل » فظهر هذا النبي « أرميا »
يحارب البعل ، ويطلب عبادة « يهوه » رب اليهود . وطورد من أجل دعوته ،
وسجن فهرب الى الصحراء مع تلميذه باروخ ! . ولكن حدث بعد ذلك الصراع
المحتوم بين دولة الفرات المنتصرة بابل ، وبين جيوش مصر ، وكانت النتيجة
النهائية سوق معظم اليهود أسرى الى بابل ، أما النبي أرميا ، فقد هرب الى
مصر ، ليتابع الدعوة الى عقيدته . وظل في مصر لاتضيق به ، حتى مات فيها .
ويعد أرميا أكثر يهود هذه العصور شاعرية وأدبا . والذين ألفوا فيما بعد
المزامير والأناشيد التى نسبت الى أنبياء سابقين ، انما تأثروا بالطاقة المعبرة
لأرميا . ولاعجب بعد ألف سنة تقريبا من خروج اليهود من مصر أن نجد بينهم
روحا أدبية شفافا .

راح أرميا يخاطب اليهود بعد أن حل بهم نكال البابليين ، قائلاً لهم إن
عبادتهم للأوثان والآلهة الغريبة ، ثم عقوبة الرب لهم ، جعلهم كسارق يكسوه
الخزى لأنه ضبط متلبسا . واذ يبحثون فى المحنة عن ربهم ، يقول لهم اين اذن
ألهتكم التى صنعتموها بأيديكم . لماذا لايقوموا الآن ليخلصوكم فى وقت
بليتكم . وعددهم صار كعدد المدن والقرى . وكان سيفكم مسلطا على أبدانكم ..
لقد نسينى شعبى أياما بلا عدد . وكما أخزتك أشور ، سوف تخزيك مصر .
وشبه دويلة اسرائيل ، ودويلة يهوذا فى عصيانهما للرب بأختين زانيتين ،
لاتجدان جبلا ولاشجرة خضراء الا وترتكبان المنكر عندهما ، بعبادة الأوثان .
ووصف اسرائيل بأنها الأخت العاصية ، ويهوذا بأنها الأخت الخائنة .
ونجد نسمات الرقة فى حديثه عن الرب ، فهو ليس إلها يقطر دماء ، كما
يصفه أنبياء التوراة الآخرون ، فهو يقول على لسانه : لا أوقع غضبى بكم لأنى
رؤوف .. لا أحقد الى الأبد .. إرجعوا أيها البنون العصاة .. حى هو الرب
بالحق والعدل والبر .

وقد بلغ الضيق بأرميا مبلغه .. وهو يجد قومه موغلين فى الاثم والعار
والهلاك يحف بهم من كل جانب .. نسمعه يقول : ياويلتاه ياأمى .. لماذا ولدتنى
إنسانا يخاصم كل الناس . لم أسأل أحدا قرضا ولاعطاء . والجميع

يلعنونى... ولكن ربي يلهمنى انه يدخرنى للخير . وأن الذين يناصروننى العداء سوف يتضرعون لى فى وقت يحيق بهم الشر والضيق .

تقول موسوعة تاريخ الحضارة عن أرميا : فى هذه الأزمة التى حاقت بأورشليم ظل أرميا أفصح الأنبياء وأشدهم حقدا على قومه ، يدافع عن بابل ، ويعلم على الملأ أنها سوط عذاب فى يد الله ، ويتهم حكام يهوذا بأنهم بلهاء معاندين . وينصحهم بأن يسلموا أمرهم كله الى نبوخذ نصر ، حتى ليكاد من يقرأ أقواله فى تلك الأيام يظن أنه من صنائع بابل المأجورين أنظر الى قول أرميا على لسان ربه :

« انى أنا صنعت الأرض والانسان والحيوان الذى على وجه الأرض بقوتى العظيمة ، وبذراعى المدوة ، وأعطيتها لمن حسن فى عينى . والآن قد وقعت كل هذه الأراضى ليد نبوخذ نصر ملك بابل عبدى .. فتخدمه كل الشعوب .. ويكون ان الأمة أو الملكة التى لاتخدم نبوخذ نصر ملك بابل ، والتى لاتجعل عنقها تحت نير ملك بابل ، أنى أعاقب تلك الأمة بالسيف والجوع والوباء - يقول الرب - حتى أفنيها بيده » .

وتستطرد الموسوعة : قد يكون الرجل خائئا أو لا يكون ، أما من الناحية الأدبية ، فان كتاب نبوءاته التى يقال انه تلقاها عنه تلميذه باروخ ليعد من أبلغ ماكتب فى الآداب كلها ، ومن أعظمها قوة :

وكان مما قاله أرميا عن قومه : طوفوا بشوارع أورشليم ، وانظروا ، واعرفوا ، وفتشوا فى ساحاتها ، « هل تجدون إنسانا ، أو يوجد عامل وعم الفسق والفجور » . وروى على لسان العرب : « ولما أشبعتم زنوا وفى بيت زانية تزاحموا ، صاروا حصنا (خيلا) ملعونة سائبة ، سهلوا كل واحد على امرأة صاحبه » .

ولما حاصر البابليون أورشليم أراد سراة المدينة أن يسترضوا الرب يهوه ، فأطلقوا من كان عندهم من عبيد عبرانيين ، فلما رفع الحصار فترة قصيرة من الوقت ، وخيل اليهم أن الخطر قد زال ، قبض هؤلاء السراة على عبيدهم السابقين ، وأرغموهم على عبوديتهم القديمة . ويرى أرميا أن الكهنة والأنبياء ، لا يكادون يقلون فسادا عن التجار ، وأنهم كالشعب نفسه فى حاجة الى أن تطهر أخلاقهم وتصاغ من جديد ، وأن يختتنوا فى أرواحهم ، كما يختتنون فى أجسامهم .

وراح أرميا يرثى قومه ، وما سيحل بهم من نكال جزاء ذنوبهم قال : ياليت

رأسى ماء ، وعينى ينبوع دموع ، فأبكى ليلا ونهارا قتلى شعبي .
وكان نصيبه التنكيل به . فربطوا على عنقه كتلة خشبية مما تربط به الأبقار
في السواقي (النير) . وهم الكهنة بقتله ولكنه هرب . فقبض عليه الأمراء
وربطوه في حبال ، وأنزلوه في بئر مملوءة بالوحل . ثم أخرج وسجن في قصر ملك
أورشليم . وهناك وجده البابليون عندما سقطت المدينة في أيديهم .

وعندما شاهد أرميا ، قومه الذين أذوه ، يساقون أذلة الى الأسر ، وقد
جندل السيف أشرافهم وامتلات الأرض من جيفهم ، لم يشمت ولكنه دعا لهم
بالخير ، والعودة ، وأن يبنيهم الرب ولا يهدمهم ، وأن يفرسهم ولا يقلعهم ، وأن
يعطيهم قلبا ليعرفوا إلههم ، ويرجعوا إليه بكل قلوبهم .

ووصف « أرميا » ما صارت إليه أورشليم ، بعد أن حلت بها النكبة
البابلية . فقد صار الضعفاء المخلفون بين أنقاضها أيتاما بلا أب ، وأمهات
كالأرامل ضعفا وثكلا . يدفعون ثمن الماء الذى يشربونه ، والحطب الذى يوقدون
به ، وباعوا جهدهم وعرقهم للأقوياء للمصريين والآشوريين ، مقابل لقمات من
الخبز . وهؤلاء هم الأبناء يحملون خطايا الآباء ، ويصبحون عبيدا تسود
جلودهم من وطأة الجوع .. توقف الشباب عن الشدو والغناء ، وصار الرقص
بكاء ونواحا .. وسأل « أرميا » الطيب ربه أن يرد الى حظيرته الخارجين عليه .

وتجىء بعد هذا نبوءات نبي آخر من الاسرائيليين ، ساقه « نبوخذ نصر »
معه الى بابل ، ضمن الأسرى ، ويبدو أنه أراد أن يتقرب زلفى الى ملك
البابليين ، فراح يكيل الشتائم لمصر ، ويؤكد لسيده الجديد ، أنه سوف يستولى
على بلاد النيل ، ويذيق شعبها عذاب الهون . وينقل عن الرب أن سيف بابل
سوف يملأ الأرض بجثث المصريين ويكسر ذراعى فرعون فتسقطان أمامه وهو
يئن متألما ، ويشئت المصريين بين الأمم ، ويذريهم فى الأراضى ..

ونعجب لقوم فى محنتهم متألما كان اليهود ، يفترون على الله كذبا ، ويقولون
مالم يقع ، ومصر دائما هى التى تحرق أفئدتهم وقلوبهم غيظا وكمدا .. إنها
صحائف كثيرة مלאها حزقيال المتنبيء بشتائم مصر ، عسى أن ترضى عنه بابل .

وهذا نبي آخر هو دانيال ، أخذ مكانته فى قصر الملك ببابل ، لأنه كان يفسر
الأحلام . ويبدو أن هذا السفر ، أو قسما كبيرا منه ألف فى أورشليم بعد عودة اليهود
من الأسر بثلاثة قرون أو أكثر . فقد حوى كثيرا من الأخبار الكاذبة ، على أنها

نبوءات . ولم يكن المؤلف المتأخر على علم دقيق بالتاريخ ، فراح يكتب من ذاكرته ما عنَّ له . فقد أخطأ في ذكر خليفة نبوخذ نصر . وأخطأ في ذكر ملك الفرس الذي غزا بابل وقال انه داريوس ، مع أن الذي قام بهذا العمل كيروش .. وهكذا .
ومن رأى دارسى التوراة أن اسم دانيال استعير كنبى ، لتوضع على لسانه أخبار احتاج اليها اليهود فى القرن الثانى قبل الميلاد . إذ انهم وقتها استغنوا عن النبوة والمنتبئين وكان لابد من الرجوع الى أسماء قديمة يستترون وراءها ، ويقولون ما يريدون .

وأكثر قصص هذا السفر إمتاعا ، حكاية تمثال الذهب الذى أقامه ملك بابل نبوخذ نصر وطوله ستون ذراعا وعرضه ستة أذرع (مثل عمارة ارتفاعها عشرة طوابق) ، وقد أمر الملك ان يسجد له الناس جميعا ، فلما رفض ثلاثة من اليهود السجود ألقى بهم الملك فى آتون ، ناره أشد سبع مرات من كل نار أوقدت فيه . فلم يمسهم ضر . فأمر الملك بتمجيد إله اسرائيل فى كل مملكة بابل ، وأيما بابل يتكلم بسوء على (يهوه) يقطع إربا (ويصبح بيته مزبلة ، إذ ليس إله آخر يستطيع أن ينجى هكذا) !!

وهكذا يمكن أن نقول ان فترة الأسر البابلى ، انتهت ما كان بين بعض اليهود والبعض الآخر من حروب عقيمة ، ومنافسات على عبادة الأوثان . وجعلت للوعاظ الذين ظهروا كأنبياء ، أو مفسرى أحلام ، أو كهان فرصة الوجود ، ومحاولة التدوين ، وبهذا وضعت نواة الكتاب الذى يقده اليهود ، ثم تتالت بعد ذلك الاضافات .

ولما كان اليهود فى الأسر البابلى عبيدا لآسريهم ، فقد تماسكوا ووجدوا الأسرى من اسرائيل الذين سبقوهم بقرن وثلث قرن ، يكتفون حياتهم حسب الظروف التى وجدوا فيها ، ويكونون أول « حوارى » يهودية ، بعد اقامتهم فى مصر .

وكما حاول اليهود فى مصر أن يكونوا فى خدمة الهكسوس الغرباء عندما كانت لهم الغلبة على الدلتا وبعض الصعيد ، كذلك راح اليهود يبحثون عن سيد يكونون فى خدمته سرا . وكان هذا السيد ، دولة فارس التى لحوا أن ساعدها يشتد ، فقدموا لها كل المعلومات التى تعينهم على تقويض دولة بابل ، ولاسيما ان منهم أفرادا تسللوا الى قصر الملك ، ونالوا حظوة ، وشغلوا بعض المناصب .. وأينما كان اليهود ، فان أهم مهنة احترفوها كانت - ولا تزال - التجسس .

وفى عام ٥٣٨ قبل الميلاد انتصرت دولة فارس بقيادة ملكها (كيروش) وبعد عامين من زوال دولة بابل ، كافأ الفرس يهود المنفى على خدماتهم ، واذن لهم فى

العودة الى فلسطين . وبعد خلافات بين فرقتهم أعاد يهود اورشليم بناء المعبد وتمت هذه المهمة في سنة ٥١٦ ق . م بعد أربع سنوات من ابتداء العمل .
يروى « نحميا » في سفره ، انه بينما كان في خدمة الملك ، جاءه واحد من المخلفين في اورشليم . فسأله عن أحوال قومه هناك فقال : « هم في شر عظيم وعار . وسور اورشليم مهدوم ، وأبوابها محروقة بالنار . فلما سمعت هذا الكلام جلست وبكيت ونحت أياما » ثم صلى ، وطلب من الرب أن يسمع له وأذناه مصغية ، وعيناه مفتوحتان . ودعا ان ينقذ شعبه . وكان « نحميا » ساقى الملك ، فأخذ منه اذنا بالذهاب الى اورشليم والعمل على ترميمها . ولم يكن معه شيء الا الدابة التي كان يركبها . ثم اجتمع مع بعض قومه وبدأوا عمليات بناء الأسوار . ويبدو أن البناء كان هزيلا حتى ان أحدهم وصفه بأنه اذا صعد ثعلب ، فانه يهدم حجارة حائطهم . وأقام نحميا نظام حراسة حتى لا يفاجيء اليهود أعداؤهم التقليديون من العرب والعمونيين وأهل أشدود .

وكان بناء السور بعد أكثر من قرن (١١٣ سنة) من الاذن لليهود بالعودة الى اورشليم وقد قال نحميا في سفره هذا انه أتم هذا العمل في ٥٢ يوما فقط . وذكر ان المدينة كانت واسعة ، وسكانها قليلون في وسطها ، مما يدل على ان اليهود بعثوا ، وذابوا ، وان هذه البقية ، هي نواة جديدة لليهود في فلسطين . وقد أحصى نحميا اليهود في وقتهم ، وذكر أعدادهم ، فاذا هي من كل قبيلة مئات ، وربما عشرات . وقليل جدا منهم من صعد تعدادهم الى ألفين أو ثلاثة آلاف (نحميا اصحاح ٧) . وربما كان أكبر رقم ذكره ، وهو يحصى الدواب ، كان للحمير اذ بلغت ٦٧٢٠ حمارا . وجمع « نحميا » كل اليهود ، ودعا « عزرا الكاتب » لكي يقرأ عليهم التوراة ، ويترجمها الى اللغة التي يفهمونها . واذا بهم يجدون فيها ان موسى أوصى الا يكون الاحتفال في داخل المبانى ، ولكن في ساحات مكشوفة فذهب اليهود الى جبل الزيتون وأحضروا فروع الشجر ، وعملوا مظلات ، لأنه لم يعمل بنو اسرائيل هكذا من أيام يشوع بن نون الى ذلك اليوم .. أى أنهم كانوا يجهلون ما أوصى به موسى مدة ألف سنة ..

ويقول نحميا انه طلب من كل قبيلة ، ان تختاروا واحدا من كل عشرة ، ليسكن في اورشليم ، وبارك الشعب جميع القوم الذين انتدبوا للسكنى في اورشليم . وشدد « نحميا » في ألا يسكن أى غريب معهم في المدينة ، وخص العمونيين والمؤابيين بالذكور ، تنفيذا لوصية قال ان موسى دونها في التوراة : « لا يدخل أحد منهم في جماعة الله الى الأبد لأنهم لم يلقوا بنو اسرائيل بالخبز والماء » في زحفهم الأول .

ولاحظ نحميا أن أبناء وبنات بعض اليهود لا يتكلمون باللسان اليهودي ، لأن أمهاتهم من الشعوب المحيطة بإسرائيل ، قال : « فخاصمتهم ، ولعنتهم ، وضربت منهم أناسا ، ومنتفت شعورهم ، واستحلفتهم بالله قائلا : لا تعطوا بناتكم لبنينهم ، ولا تأخذوا من بناتهم لبنينكم ، ولا لأنفسكم . أليس من أجل هؤلاء أخطأ سليمان ملك اسرائيل » وكان عظيم من الكهنة صهرا الواحد من الأمم الأخرى فطرده نحميا . وواضح ان نحميا هذا حصل من ملك الفرس على سلطة الحكم على اليهود في فلسطين على أن يؤدي الجزية المطلوبة . وكان يتردد على الملك الفارسي ليثبت ولاءه . وقدمات عام ٤١٥ ق . م . بعد أن وضع الأساس لليهودية الجديدة ، وجمع ودون في التوراة ما رآه يصلح من شأن اليهود . وإذا كانت التوراة هنا شددت النكير على زواج اليهود من أجنبيات . فان عزرا الكاتب ، وهو يدون سفره (له سفر أيضا قبل نحميا) كان أشد نكيرا ، لأن « الزرع المقدس » اختلط بشعوب الأرض ، يستوى فيهم الرؤساء والكهان . بلغ من انزعاج عزرا أن قال « مزقت ثيابي وردائي ، ومنتفت شعر رأسي وذقني وجلست متحيرا . وعد عزرا جميع النكبات التي حلت بقومه بسبب هذا الرجس والخيانة . وبدأ فحصا لكل اليهود « وانتهوا من كل الرجال الذين اتخذوا نساء غريبة » .. ولم يذكر لنا عزرا كيف كانت هذه النهاية ، هل باعدام هؤلاء الخاطئين أم بإبعادهم ..

وهنا نجد ان التوراة كما دونها عزرا عام ٤٤٤ ق . م وقرئت في اجتماع عام احتاجت الى سبعة أيام ليتم قراءتها . في حين ان النص الأصلي الذي وجد في التابوت قبل ذلك قرىء في يوم واحد . وان كانت كلمة « توره » أى الهداية ، ترجمت بعد ذلك الى اليونانية بكلمة « البنتاتوش » أى الأسفار الخمسة . وكان العدد الأول ظل ملتصقا بالتوراة حتى بعد أن أصبحت تسعة وثلاثين سفرا .

يتساءل ديورانت : كيف كتبت هذه الأسفار ؟ ومتى كتبت ؟ وأين كتبت ؟ ذلك سؤال برىء لا ضير منه ، ولكنه سؤال كتب في الاجابة عليه خمسون ألف مجلد ، يجب أن نفرغ منه هنا (في موسوعة الحضارة) في فقرة واحدة ، ونتركه بعدها بغير جواب !!

ولا تهمنا هنا الدراسات اللاهوتية التي تلخص خمسين ألف مجلد ، ولكن ما يهمنا هو الغموض الكامل الذي أحاط بمنشأ التوراة ، في حين نجد الكتابين المقدسين الأخيرين : الانجيل والقرآن ، لا غموض في أصلهما ولا مصادرها ، ويمكن الاجابة على أى سؤال يختص بهما في سطور . بل نجد الكتب المقدسة الأخرى في الأديان غير السماوية ، لا خلاف حولها ولا زيادة فيها أو نقصان . أما التوراة ، فما أكثر

الغموض الذى يحيط بمجهود هذا الكاتب اليهودى القديم « عزرا » .

وقد لاحظ الفيلسوف الفرنسى رينان ، ان الشريعة اليهودية (بما صنعه فيها عزرا) صارت أضيق رداء شد على جسم الحياة الانسانية . فقد جعلت الطعام والدواء والشئون الصحية والفردية ، وشئون الحيض والولادة ، والشئون الصحية العامة ، والحياة الجنسية للانسان . كل هذه جعلتها من موضوعات الفروض والهداية الالهية .

واذا تذكرنا ما سبق أن عرضناه من تقدم علوم الطب فى مصر ، فانا نجد التوراة تحاول أن تحدد أنواع المرض ، وأنواع الوقاية والعلاج ، ولكن بغير الأسلوب المصرى العلمى ، الذى كان يجرى جراحة المخ من الأنف ، ويجرى العملية القيصرية فى الولادة . كانت الجراحة اليهودية قاصرة على الجتان باستعمال القادوم ولا ندرى اذا كان اليهود المحدثون والحاخامات يستعلمون القادوم اليوم تأثرا بسنة أسلافهم أم لا بعد أن ظهرت فى الجراحة أدوات أخرى !!

ونرجو ألا يضيق القارىء بذكر هذه التفاصيل ، فهى النور الكاشف داخل العقلية اليهودية ، عاشوا بها قديما ويعيشون بها الآن .. كراهية للامم الأخرى ، التى تعد نجاسة ، ومحافضة على « الزرع المقدس » .. واذا ظهرت حالات اليوم تخالف هذه القاعدة ، فبسبب ألفين من السنين عاشوها بين شعوب أخرى ، ولكن ما أن بدت بارقة بتجمعهم مرة أخرى ، فانهم يعودون الى ما أوصتهم به توراتهم ، وعليها منهم حرس شديد البأس هم الحاخامات ، والأحزاب الدينية .

واذا كان قد بدا لنا بوضوح واضح أن قلوب اليهود ، منذ خرج بهم موسى الى هذه المرحلة من تاريخهم ، لم تتشرب قلوبهم بالايمان ، فان فتنتهم عن دين التوحيد ، كانت أمرا ميسورا على الرغم من كثرة الدعاة ، الذين ظهروا بينهم منبهين ومحذرين ..

وقد علمت السنوات التى قضاها اليهود فى أرض الرافدين ، أنواعا من الفكر والحضارة لم تكن تخطر على بالهم . وان العالم أوسع وأرحب من رقعة الأرض التى يعيشون فيها .

فمن فارس كانت ديانة وعقائد « زرادوشث » تهب على المنطقة ، وفى الهند كانت العقائد البوذية تلح فى التجرد وقمع الشهوات ، وفى الصين علا صوت هادىء رزين هو صوت كنفوشيوس يدعو الى مبادئ أخلاقية قوية قويمه . وهكذا راحت آسيا كلها تبحث عن روحانيات تلائم كل بيئة من بيئاتها . وكان حريا بحملة رسالة موسى عليه السلام ، وابراهيم الخليل من قبله ، أن تتحرك فيهم نزعة روحانية خيرة ، وان

يقرأوا أو يعقلوا عقيدة التوحيد ، بدلا من أن يودعوها في تابوت ، أو مخبأ ، ألف سنة لا يعلمون ما فيها .. وكان يهود اسرائيل الذين سبقوا الى النفى قبل يهود اورشليم وبقاى يهوذا ، قد اقتنعوا أن عقدة الشعب المختار التى لازمتهم دهرا طويلا ، لا تكفيهم لكى ينشئوا حياة جديدة عبر الفرات الى هضاب فارس . فراحوا يذوبون فى هذه المجتمعات الجديدة عليهم . ويأخذون منها ، لأنه لم يكن لديهم شىء يعطونه . فلما تحرك الفرس الى حوض الفرات غازين ، وكان ملكهم كورش يطبق عقيدة تخالف ما يوحى لليهود به ربهم : إله الجنود . الغضوب الذى ينتقم ويبيد .. عقيدة سمحت له بأن يعفو عن أسراه اليهود ، وان يأذن لمن أراد العودة الى فلسطين أن يعود ، ومن أراد أن يبني معبدا فله ما يريد ، مع رد أسلاب المعبد القديم .. وهنا يحسن أن نلقى نظرة سريعة على عقائد الفرس الذين بطوا سلطانهم على المنطقة :

كان زرادشت نبي الفرس ، والمعبر عن دينهم فى عصر نهضتهم معاصرا لنبيين من اليهود هما عاموس (تنبأ سنة ٧٥٠ ق . م فى اسرائيل) واشعيا (تنبأ سنة ٧٤٠ ق . م فى مملكة يهوذا) وصيغت رسالته فى كتاب اسمه الابستا (الأبستاق) . وتعتبر هذه العقيدة عن الصراع بين إله الخير (أهورا) وإله الشر أو الشيطان (أهرمان) : والفضيلة العظمى عند زرادشت تتلخص فى كلمتين : الصدق والأمانة .

وفى خلق الكون يقول « زرادشت » لإلهه « أهورا » : أسألك يا أهورا ، فأصدقنى الجواب : من الذى رسم مسار الشمس والكواكب ؟ ومن الذى يجعل القمر يتزايد ويتناقص ؟ ومن الذى حفظ الماء والنبات ؟ ومن الذى أجرى الريح والسحب ؟ ومن الذى برأ العقل خيرا .. من يا أهورا ؟ وللرب عند « أهورا » أسماء حسنى أجملها زرادشت فى سبع صفات هى : النور ، والعقل الطيب ، والحق ، والسلطان ، والتقوى ، والخير ، والخلود . وللرب فى دين الفرس ، ملائكة ، كل منهم مكلف بعمل ، وما لبث هؤلاء الملائكة ، أو القديسون الخالدون ، أن عبدوا مع الله واختص كل انسان بملك من هؤلاء يتولاه ويحرسه بعنايته . وإلى جانب هؤلاء الملائكة ، وجد الشياطين : شيطان لكل واحد من البشر . وإله الشر الذى يسيطر أعوانه هؤلاء ، هو الذى خلق كل سيئة من عمل الانسان ، وكل دابة على الأرض مؤذية مثل العقب والثعبان والجراد والنمل ، وبرد الشتاء القارس ، والظلام والجريمة .

وهذه العقيدة الفارسية ، التى اختلطت بكثير من الأغاني والقصص

- والأساطير ، كانت سهلة الفهم ، خيالاتها قريبة الى أمزجة الناس ومحسوساتهم . فهي تركز على النور وتعدده أكبر الخير ، وتحذر من الظلام وتعدده أكبر الشر ، ومن البشر لا يحب النور ولا يخاف من الظلام ؟ ولا سيما في بلاد تنضح أرضها بالبترول ، وتشمل اللهب تجعل قطعاً من الليل تتبدد وكأنها شياطين تهرب وتفر ؟!

وماذا تصنع اليهودية بازاء هذه الروحانيات والسبحات القادمة من آسيا :
أقصى أرضها وأوسطها ، وأدناها ؟ ..

كل هذه الأفكار ساورت اليهود بعد عودتهم . فراح الراشدون منهم ، من كاهن ، إلى نبي ، إلى راء يفتشون حولهم عن سر تعاستهم وهوان حالهم . ويراجعون عقائدهم ، ليدخلوا اليها ما يجعلها أداة صالحة لتقويم شعب ، لا لتقويضه .. يدخلوا اليها شيئاً يغنيهم عن معبودات وأوثان القبائل المنتشرة حولهم . وينجيهم من المذابح التي تثور فيها بينهم لسبب ، ولغير سبب .. انهم الآن أربعون ألفاً ، عادوا من أرض الفرات ، ليلتقوا بحطام ممزق من أهلهم ، لم يستطع الفرار الى مصر ، أو جزر البحر أو أى مكان آخر ..

وما تمناه أنبياء اسرائيل ، وصار يتردد على ألسنتهم هو انتظار نبي مسيح يحمل عنهم ما سلف من ذنوبهم ويظهرهم ، ويفتح أمامهم طريق الخلاص .. كانت أقوالهم ، بشارات بقرب ظهور المسيح عليه السلام . لأن الحاجة مست اليه والظروف أصبحت مهيأة لرسالة تكمل الشريعة وتوضح الناموس الموسوى وتعزز الدعوة الابراهيمية . بعد ان أخفقت أجيال بعد أجيال وأنبياء بعد أنبياء وكهان منهم العظيم ومنهم الصغير ، في أن يبدأوا مع الشعب اليهودى مجرد الوصية الأولى من وصايا موسى ، ونعنى بها نبذ عبادة الأوثان ، والاتجاه الى إله واحد أحد .

نسمعهم الآن يقولون على لسان مؤلف مجهول ، أضيف كلامه إلى سفر « اشعيا » ابتداء من الاصحاح الأربعين (ويوجد مؤلف ثالث أيضاً لهذا السفر مجهول أيضاً من الاصحاح ٥٦ إلى ٦٦) : « طيبوا قلب اورشليم ، ونادوها بأن جهادها قد كمل ، أى ائتمها قد عفى عنه ، انها قد قبلت من يد الرب ضعفين عن كل خطايا .. صوت صارخ في البرية ، أعدوا طريق الرب ضعفين عن كل خطايا .. صوت صارخ في البرية ، أعدوا طريق الرب ، قوموا في القفر سبيلاً لإلهنا . كل وطفء يرتفع . كل جبل وأكمة ينخفض ، ويصير المعوج مستقيماً والعراقيب سهلاً ، فيعلن مجد الرب .. » .

وفي هذا القسم من السفر للمؤلف المجهول ، تظهر كلمة الفداء في الآية ١٤ ، ثم تتكرر . ويظهر معنى الخلاص الذي هو لب المسيحية .
ومن أجل هذه الإرهاصات أو البشارات تمسك المسيحيون بعد ذلك بالتوراة أو بالعهد القديم ، لأن فيها ما يدل على قرب ظهور المسيح عليه السلام .

وسوف نعرض للصراع الهائل الذي دار بين اليهود ، وبين المسيح عليه السلام عندما ظهر . وكيف لجأت المسيحية الى شعوب أخرى تحمل اليهم عقيدتها ، وتركت لليهود عقيدتهم .

ولم تكن مجموعة أشعيا (١) هي وحدها التي تضمنت هذه البشارات ولكنها ترددت بعد ذلك في الأسفار التالية تاريخيا لفترة العودة ، وما بعدها .

الأحداث تتعاقب :

اقتصر الوجود اليهودي بعد العودة من الأسر على أورشليم وحدها ، وقرى قليلة حولها . وذلك لقلّة عددهم . ولأن أهل فلسطين الأصليين عادوا إلى ما كان بيد اليهود واستولوا عليه ، كما ان الآشوريين والبابليين أسكنوا من بلادهم قبائل هَجَرُواها من بلاد الرافدين . ولولا حماية الفرس لعودة هؤلاء اليهود القلائل ، لتخطفهم القبائل العربية في الطريق - والرحلة استغرقت ثلاثة أشهر بين العراق وأورشليم - أو لسحقهم قبائل فلسطين القوية .

ولما تولى دارا الأول حكم الفرس تابع حماية الوجود اليهودي في أورشليم . وقد عكف اليهود على توراتهم ، وعلى شئونهم الروحية يراجعون تفاصيلها ، بعد أن حمل عنهم الفرس مسئولية الإدارة ، وأصبحت أورشليم مستعمرة فارسية . ولنسجل الآن تواريخ الأحداث حسب تعاقبها في القدس وما حولها .

عام

٥٣٨ قبل الميلاد انتصر الفرس على البابليين .

٥٣٦ ق.م السماح لمن أراد من يهود السبي أن يعود إلى أورشليم وكان حاكمهم اسمه زروبابل ، ونبههم يوشيا .

٥٣٤ ق.م بدء بناء الهيكل في وجه معارضة السامريين (بقايا يهود الدويلة الشمالية) .

(١) توجد اسفار كثيرة تداخلت فيها افكار واوراق المؤلفين لا علاقة لهم بصاحب السفر . وربما فصلتهم عنه سنين ، وقرونا . وتجد هذه الظاهرة بوضوح في المجموعة التي وضع عليها اسم زكريا . فبعضها اقدم منه وبعضها له ، وبعضها جاء من بعده .

- ٥١٦ ق.م افتتاح المعبد المجدد للعبادة .
- ٥١٠ - ٤٦٠ ق.م كان يحكم مبعوثون من فارس أورشليم . وقد عادت العقيدة اليهودية إلى التدهور في نفوس اليهود .
- ٤٤٥ ق.م الفرس يوافقون على ترميم أسوار أورشليم . وقد قام نحميا بهذه المهمة ، تحت حماية فارسية .
- ٤١٥ ق.م موت نحميا ، وبداية عصر الحاخامات ، أو الكهنة . وكان كبيرهم يتولى السلطة الدينية في أورشليم ، ويحكم من خلال السلطة الفارسية .
- ٤١٥ - ٣٧٣ ق.م تولى ثلاثة من الكهنة المسئولية ، وآخرهم (يوحنا) قتل أخاه ليستأثر بالمنصب . وأوقع الفرس غرامة مالية كبيرة على أورشليم لخلافاتهم .
- ٣٥٠ ق.م قامت اضطرابات في أورشليم وفي سوريا فقدم جيش فارسي بقيادة ملك الفرس (ارتاكزسيس الثالث) ، ودمر المعبد ، وساق عديدا من سكان أورشليم وقرأها الى المنفى مرة أخرى .
- ٣٣٣ ق.م قدوم الاسكندر المقدوني بجيوشه الجرارة الى المشرق ، وتدمير دولة الفرس ، في معركة « أسوس » وبهذا وجدت اسرائيل نفسها تحت حذاء جديد .
- ٣٢٣ ق.م بعد وفاة الاسكندر ضمت أورشليم ويهوذا كلها الى امارة سوريا .
- ٣٢٠ ق.م قاد بطليموس ليجوس جيشا ، لتأديب أورشليم ، واستولى عليها ، ونفى الى مصر أعدادا كبيرة من كهانها وسكانها .
- ٣٠٢ ق.م عاد بطليموس بقوة مصرية لتأديب أورشليم ، وكل مكان كان يسكنه اليهود في يهوذا .
- ٢٨٥ ق.م أمر بطليموس فيلادلفوس بترجمة التوراة الى اليونانية ، وظلت أورشليم تحت حكم البطالسة .
- ١٧٥ ق.م أقام البطالسة ملعبا إغريقيا في أورشليم .
- ١٦٥ ق.م كان قد حدث نزاع فكري بين حكام فلسطين من خلفاء الاسكندر المقدوني واليهود . فقد حاول الاغريق فرض ثقافتهم في أورشليم ، وأمروا بجمع نسخ التوراة واحراقها ، كما فرضت عقوبة الاعدام على كل من توجد معه نسخة منها . وأقاموا في داخل المعبد تماثيل آلهتهم وطالبوا اليهود بعبادتها فحدث تمرد وعصيان قاده يهوذا الميكابي الذي تمكن من تطهير المعبد . وهذه أول مرة ينظم فيها اليهود قوة محاربة ، بعد أن

أعادهم الفرس من بابل إلى أورشليم . وبهذا بدأ حكم سلالة الميكابيين
الذى ظل حوالى قرن من الزمان .

وألف اليهود كتباً تدون أحداث هذه الفترة . ومنها ان جمعا من
اليهود أخذوا الى ملعب الاسكندرية الكبير ، وأطلق عليهم خمسمائة فيل
لتهلكهم تحت أقدامها . ولكن الاقيال رفضت واتجهت الى بطليموس
الرابع .. وهذه طبعا قصص ترفع روح اليهود المعنوية .

٦٥ ق.م استولى الرومان على سوريا . وبعد عامين استولى القائد بومباى على
أورشليم وأصبحت تابعة لروما ، ومن بعده أصبح يوليوس قيصر سيد شرق
البحر المتوسط .

ومن هذا الاستعراض السريع للقرون الخمسة التى تلت عودة بعض اليهود
من السبى البابلى الى أورشليم ، ومحاولتهم تعميرها بعددهم القليل ، نجد
المدينة المقدسة - مدينة داود - خضعت بالتوالى لثلاث قوى : السلطة
الفارسية ، ثم السلطة الاغريقية ، ثم السلطة الرومانية . ونجد المدينة خضعت
للغزو مرتين ، وحلت بمعظم سكانها من اليهود عقوبة النفى الى بلاد الرافدين ،
والى مصر أكثر من مرة .

وقد اقتنع اليهود بمرارة الواقع الذى فرض عليهم . فأثر فريق منهم
الاقامة والاندماج عبر الفرات ، وفى مصر ، وفى جزر البحر المتوسط . وعندما
أراد يهود أورشليم أن يشاركهم يهود مصر فى الاحتفال باعادة بناء المعبد بعد
تدميره أكثر من مرة ، تردد المدعوون ، ثم امتنعوا عن الذهاب . ويبدو أن
المصريين لم يطلعوا على ما كالتة لهم التوراة من الشتائم ، وما حملته سطورها
من الحقد الأسود على المصريين ، على أن مصر لم تقدم لهم الا خيراً سواء فى
قدومهم الأول عندما دعاهم يوسف الصديق ، وفى اقامتهم فيها أربعة قرون
وبعض قرن ، أو فى التجائهم اليها كلما داست سنابك الغزاة مدينتهم وقراهم
الصغيرة فى فلسطين .. إننا نجد التوراة فى مناسبات تكيل المدح للبابليين ، رغم
ما ألحقوه بهم من دمار وتقتيل ، وكذلك صنعت بالفرس الذين أفقدوهم
استقلالهم نهائياً ، وسنرى تذللهم للرومان بعد حين .. والموازنة بين موقف
فرعون وشعبه فى فترة عابرة من فترات التاريخ ، وهو مجرد الزامهم بالعمل ، لا
يقاس بما حل بهم بعد وجودهم فى مصر!؟ ستظل هذه الأحقاد اليهودية ضد
مصر والمصريين لغزا يحير الباحثين ، ولا تجيب عليه أى دراسة متعمقة متأنية
لتاريخهم منذ وجد هذا التاريخ حتى الآن . ونرى هذا الميراث من الكراهية

اليهودية لأبناء النيل يستمر على مر القرون والأجيال حتى ينفجر في القرن العشرين بالصورة الكريهة البشعة التي نشهدها الآن .

ربما قيل إن مصر بلد كبير ، وان قوته الضاغطة على مر التاريخ ، تكون حاجزا طبيعيا بين اليهود ، وتحقيق أطماعهم في تحقيق الدعوة التي دسوها في توراتهم ، وهى انشاء دولة لهم تمتد من النيل الى الفرات . ولكن هل كانت مصر البلد الكبير الوحيد الموجود في الشرق الأوسط ؟ لقد قامت في المنطقة دول عظمية كثيرة ، رأينا منها دول البابليين والآشوريين والحيثيين والفرس والإغريق والرومان والعرب والأتراك العثمانيين . ثم جاء إلى فلسطين بعد ذلك الانجليز والفرنسيون ، فما نقم اليهود على عهد من هذه العهود نقمتهم على مصر .

إن بعض التفسير - وليس كل التفسير - لهذه الكراهية اليهودية ، هى ان الدول التي ذكرناها بادت وزالت ، ولكن مصر ، كانت ولا تزال باقية ما بقى نهر النيل يجرى ، ويمد شعبه بمقومات الحياة . هذه معالم العقدة التي تسيطر على العقل اليهودى من أقدم عصوره . ولا قبل للمصريين بعلاج هذه الحالة إلا أن يكفوا عن أن يكونوا دولة كبيرة متحضرة ، قهادرة على مقاومة الغزاة واستيعابهم واذابتهم ، وبقائها من بعدهم تنمو وتنمو ، وهى فى مكانها الخطير ، قلب العالم ومركز مواصلاته الكبرى ، ومذرج حضارته ، ومعقد آمال المنطقة التي تتوسطها مصر فى حوض البحر المتوسط وشرق آسيا وافريقية كلها . اليها لجأت الأديان الكبرى ، وعلى شواطئها ، والى ربوعها هرع المتعبون المكودون من أبناء الشعوب القريبة ، بعد أن رزأتهم الاحداث وألمت بهم الغير . وكان اليهود معهم ، كما رأينا ، وكما سنرى ..



□ الفصل الثامن □

ظهور المسيحية

تركنا البطالسة في الفصل الماضي يبسطون سلطانهم على فلسطين ، ومنها أورشليم وقد ظلت هذه السيادة المصرية مبسوطه على الأقاليم والمدن المكونة للشام الكبيرة مدة ١٢٠ سنة (٣١٨ - ١٩٨ ق . م) . وقد ترك الحكم الاغريقي بصمات واضحة في الحياة اليهودية . فنشأت منهم ناشئة تسخر من الكهان ، ومن المعبد ، ومن حياة التقوى المزيفة التي يدعو اليها رب اليهود ، وأغرقوا في اللهو ، وفتنتهم فلسفة اليونان ، بما تحمل من شك ، ومن دعوة للمجادلة ، واغراق في اللذائذ الدنيوية ، والألعاب الرياضية .

وفي صراع السيادة بين السلوقيين أصحاب القوة في شمال فلسطين والبطالسة أصحاب القوة في جنوب غرب فلسطين ، أصابت أورشليم نكسة حادة . إذ كانت تنحاز لفريق دون فريق ، وكان المنتصرون القادمون من سوريا يذبحون ما طاله سيفهم من اليهود ، وينهبون المعبد ، ويخلونه من كنوزه . وفرضت على اليهود العبادة الاغريقية ، وتحول هيكل سليمان ، الى معبد افريقي . وكل من يضبط من الأطفال مختونا يحكم عليه وعلى أمه بالاعدام . وكم من أمهات وأطفال ألقى بهن من فوق الأسوار . وكل من احتفل بأعياد اليهود أو امتنع عن العمل يوم السبت يعدم .. واحرقت كل نسخة من التوراة ، وكل ورقة تتصل بها ..

وفي علاقة البطالسة باليهود ينبغي أن نذكر أنهم ساروا على سيرة الاسكندر المقدوني وشجعوا هجرتهم من أورشليم وما حولها الى الاسكندرية ، وأعطوهم حقوقا مساوية لما لليونانيين من حقوق ، وتبالغ بعض المراجع فتقول ان هذه

الهجرات اليهودية الى مصر توالى حتى بلغت في القرن الأول للمسيحية مليون اسرائيل كان معظمهم في العاصمة (الاسكندرية) وقد تعلم هؤلاء اللغة السائدة ، وهى اليونانية ، ونسوا لغتهم الأصلية . وكانت التوراة اليونانية بعد ترجمتها هى مرجعهم .

وهكذا نجد اليهود يعودون الى مصر ، لا فى مراعى الشرقية ، وشواطىء المنزلة كما كانوا عندما قادهم سيدنا موسى الى خارجها .. يعودون هذه المرة ، مطاردين من قوات غزو تكاثرت عليهم ، وفتن واضطرابات فيما بينهم كادت تطحن وجودهم طحنا .. ولم يعودوا رعاة منعزلين ، فقد تعلموا من الفينيقيين التجارة ، وأجبرتهم ظروفهم على الانزواء فى الحوارى الضيقة ، التى تساعدهم على حياة الخفاء بوصفهم غرباء عن البلاد ، وما تلبث أن تنقض عليهم قواتها النظامية ، أو تحركاتها الشعبية .

وإذا كنا شككنا فى عدد المهاجرين اليهود الى الاسكندرية مرة أخرى ، كما شككنا من قبل فى عدد الخارجين منها بقيادة موسى ، فإن هناك اتفاقا على أن عددهم كان كبيرا وكانت الاسكندرية تتسع لهم .

والقرن السابق لظهور المسيحية ، شهد تغييرا فى مراكز القوى العالمية ، ظل يأخذ وضعه فى عملية تطور استغرقت وقتا ليس بالقصير .

يقول كتاب : « مد التاريخ » (١) : فى أقل من خمسين سنة تغير ميزان القوى العالمية تغيرا عظيما . فقد انتصر البحر فى الشرق الأوسط على القارة . كانت العواصم الكبرى فى المنطقة هى منف ، وطيبة ، وبابل ونيوى . وقد انتهى دورها الآن ، وحلت محلها الموانى الكبرى : الاسكندرية ، وانطاكية ، وقرطاجنة ، وروما .

ان الحياة الاقتصادية للشرق ، لم تعد تعتمد على الطرق البرية ، التى تعبر آسيا وأفريقية وأوروبا ، كانت هذه الطرق من آسيا تعبر جزيرة العرب مساحلة من الجنوب شمالا ، أو تعبر العراق . فقد بدأت السفن تقوم بمهمة النقل من آسيا واليهما عبر السويس والبحر الأحمر . وفى أقصى الشرق تحرك العملاق الصينى ليأخذ مكانه . وفى وسط العالم قامت روما لتصبح دولة ثم امبراطورية هائلة .

وكانت الاسكندرية أكبر موانى البحر المتوسط ، أنشأها الاسكندر ونماها البطالسة وأخذت مكانها الآن فى صراع القوى العالمية . ومن أجل طرق التجارة ،

(1) The Tides of History by Jacques Pirenne .

بدأت المعركة بين الموانى الكبرى : انطاكية وصور وصيدا ، والاسكندرية ، والتسابق للسيطرة على جزر شرق البحر المتوسط ومنها قبرص ورودس .
وإذا بحثت عن اورشليم في المعركة الضارية الدائرة من أجل البقاء بين المدن والشعوب . لم تكن اورشليم قبيل ابتداء المسيحية ، ومنذ مربها ابراهيم الخليل قبل خمسة وعشرين قرنا الاكورة تتقاذفها اقدام الغزاة . وإذا كانت سيرتها تردت على الألسنة ، فلأن كتابا أورد اسمها ، وكرره ، وسجله .. أجل هذا الكتاب هو الذى عاشت فيه اورشليم ، ولكنها لم تعش أبدا فى مدونات الدول والمدائن الكبرى ، التى خلفها المصريون والبابليون والآشوريون والفرس والأغريق .. أجل كتاب هو صاحب الفضل فى وجود اورشليم على الذاكرة حتى هذه الفترة . وهذا الكتاب ألفه عشرات ، وربما مئات الأفراد : ان اسمه التوراة . وما لبثت اورشليم أن بدأت بداية جديدة من خلال مأساة هى أروع مأسى التاريخ كله .. مأساة ظهور السيد المسيح فيها لثلاث سنوات ، جددت ذكرى الأنبياء فيها ، واضافتها بعد ذلك لنبي كان فى ضمير الغيب وهو محمد بن عبد الله .

وإذا كنا قد أشرنا للهجرات اليهودية الكثيفة الى الاسكندرية ، فقد ألقى عليهم « ديورانت » نظرة فاحصة ، ووجد أن حياتهم الجديدة فى مصر (التى ابتلعت الاغريق واذابتهم فيها) لم تكن بغير فائدة . فقد أضافوا فيها الى التوراة بعض أسفارها الرائعة ، كسفر الجامعة ، ودانيال ، وأجزاء من الأمثال والمزامير ، والجزء الأكبر من الأسفار الابوكريفية (١) .

ولنعد الآن الى اورشليم .. لنجدهم ظفروا فى عام ١٤٢ ق . م بحاكم وكاهن له عزم قوى ، وهو سيمون المكابى ، الذى حاول أن يمد رقعة الأرض التى يعيش عليها اليهود بالسيطرة على مدن أخرى . فقد وصلت حروبهم الى أدوم ، ومؤواب ، والجليل ، وامتدت فتوحاته السريعة الى غزة ورفح وما لبث الأمر بعد سبعين سنة أن دب خلاف أدى الى احتكام وريثة الحكم فى اورشليم الى القائد الرومانى بومبى ، الذى كان واقفا على رأس جيوشه الجرارة فى دمشق . فوجد أن الحل الأمثل هو أن يتقدم هو جنوبا ، ويلتهم الغنيمة ، فاذا اورشليم تستسلم له بعد معركة يسيرة . والذى

(١) هذه الاسفار كانت اجزاء من التوراة اتفق على استبعادها من العهد القديم . وان كانت الترجمة اللاتينية تضمنتها ، وقد اعتمدها الكنيسة الكاثوليكية . ومعنى كلمة « الابوكريفيا » الخفية . ومنها سفر الحكمة وسفر المكابيين الاول والثانى ، وسفر اخنوخ .

سهل سقوط المدينة أن القائد الروماني كان يعلم أن اليهود لا يعملون يوم السبت ،
فهاجم حصونهم في هذا اليوم ووجدهم يصلون في الهيكل فذبح منهم ١٢ ألفا .
واختار الرومان لليهود حاكما منهم اسمه (هيروود) بن انتباتر .
ويعد مؤرخو اليهود هيروود هذا ثالث ملوكهم بعد داود وسليمان وكان هذا
الحاكم يهوديا بالاسم . ففي عروقه ، كانت تجرى دماء عربية ، ورثها عن أبيه وأمه
معا . فهو من سلالة أخلت بتعاليم التوراة ، وقت ان كان هذا النوع من الكفر مباحا
وتزاوجت مع أجناس أخرى منها العرب . وقد عاش هذا الحاكم في وقت كانت عبادة
الأوثان هي السائدة لدى الاغريق الذين خلفوا آثارهم في فلسطين ، ولدى الرومان
الذين يحتلون البلاد الآن ، وكانوا في طريقهم الى مصر ، لتبدأ قصة أنطونيوس
وكليوباترا كتابة فصولها الشائقة .

والطريقة عند هيروود للتمكين لنفسه من الحكم سهلة . فان حمل الألفاظ
والهدايا الى القادة والساسة في روما وفي مصر تذلل كل عسير . وكانت فلسطين وقتها
مليئة بقطاع الطرق واللصوص ، فأعد حملات بوليسية للقضاء عليهم . وليكون كل
مورد من حقه هو ، لا يفتصب منه لص شيئا . واذا كان هناك وارثون لحكم أورشليم
من الأسر القديمة أحد ، فعلاجهم ميسور ، وهو قطع رقابهم . وما دام الرومان قد
ضموا تحت حكمه كثيرا من المدن الفلسطينية التي تدين بالعقائد اليونانية ، فليعمل
على ارضائهم باقامة التماثيل لمعبوداتهم ، وتشجيع حفلاتهم وأعيادهم ، ودفع
اليهود دفعا للاشتراك فيها ، والقضاء على المتزمتين من الكهان الذين يرون ان
« يهوه » أحق بالرعاية ، وذبائح الهيكل أولى أن يحتفل بها . واذا كانت التماثيل
الاغريقية والرومانية العارية شعار الحضارة في ذلك الوقت ، فلماذا لا تقام في
أورشليم ، وان صدمت الاتقياء من اليهود .

والهيكل .. الهيكل الذي أقيم في أورشليم بعد عودة السبي البابلي ، كان ضيقا
تنقصه الفخامة ، فليهدمه ، ليقيم معبدا جديدا واسعا مزخرفا مكانه ، واذا احتج
أحد المتمسكين بتراث اقامة المعبد ، على طراز لم يكن سليمان يحلم به ، ولا الذين
جددوا البناء بعد هدمه أكثر من مرة . فنقلت اليه كتل الأعمدة الفخمة ، وأقيمت
بوابات مصفحة برقائيق الذهب والفضة ، ومن ورائها قدس الأقداس بستبائره
المزركشة . ونقل التابوت وفتح ، فلم يكن فيه شيء مطلقا باعتراف « يوسفوس »
مؤرخهم السكندري الذي كتب تاريخه ، وهو قريب الى حد ما من هذه الأحداث .
وقد دخلت زخارف العصر في البناء ، ومنها نسر في مقدمة البناء خلافا لما نصت عليه

الشريعة بمنع الصور المنحوتة . ولكن هذا النسركان شعار الدولة الرومانية ، فوجب وضعه زلقى وترضية .

ولكثره النساء اللاتي تزوجهن هيروء ، فقد أنجب أربعين ولدا . ولكنه قتل وسجن بعضهم لأنهم تآمروا عليه . ولما بلغ التاسعة والستين من عمره مات وهو مكروه من جميع الناس ، الا الرومان طبعاً ، وكان ذلك عام ٤ ق . م . وكان الهيكل وقتها لا يزال يبني . ولم يبق له من أبنائه الاربعين الا ثلاثة قسم بينهم مملكته قبل موته . وكان سكان أورشليم في أيامه قد قاربوا المائة ألف . وسكان القرى حولها يشتغلون بالزراعة ، ولغة الشعب اليهودى الارامية ، ولغة الموظفين اليونانية . أما الكهنة فكانوا يفهمون العبرية القديمة التي لم يعد يفهمها احد . . ويقول المؤرخ اليهودى يوسفوس عن ذلك الوقت : « اننا لسنا أمة تجارية ، فنحن نعيش في بلد عديم السواحل . ولا نميل الى الاشتغال بالتجارة » . وواضح من هذا الكلام أن حروب اليهود لامتلاك موانى على البحر المتوسط مثل صور أو أشدود أو غزة كانت كلها بالفشل . ان الفلسطينيين تمسكوا بهذه السواحل . وكانت صور بالذات معقلاً قويا ، تصد أى مغير عليها .

انقسامات :

كان من سلطة الحاخام الأكبر أن يختار من الكهنة سبعين شخصاً يكون مجلس « السنهدرين » وهم أصحاب السلطة على جميع اليهود ، سواء كانوا مقيمين في نطاق وجود هذا المجلس ، أم في أى مكان آخر . ولكن في حدود سلطة « السنهدرين » بمباشرة النظر في جرائم اليهود المتصلة بالدين فقط ، واصدار أحكام تصل الى الاعدام ، ولكنها لا تنفذ الا بموافقة السلطة المدنية ، أى الحاكم الرومانى . وفي هذا المجلس كان يوجد المحافظون . والصدوقيون ، نسبة الى الكاهن صدوق ، وهؤلاء كانوا يقصرون ايمانهم على أجزاء من التوراة الحالية دون أسفار الأحاديث والقصص الشفوية والأمثال . كما كان يوجد « الفريسيون » وهم الذين ارتابوا في خلود الروح ، وكانت دعوتهم الى التمتع وامتلاك ما تصل اليه أيديهم من مغنم الحياة . كما كان يوجد الصابئة الذين يكثر من الاستحمام ، وهذه الكلمة تحريف لكلمة السابحة ، من السباحة في الماء . وكان عددهم قليلاً ، الا أن عقائدهم كانت متأثرة الى حد ما بالبرهمية والمجوسية . وكانوا يعيشون عباداً زاهدين تطول أعمارهم الى مائة عام ، وثروتهم جماعية ، ومن تقاليدهم ألا يتكلموا أثناء تناول الطعام وملابسهم دائماً بيضاء ، ولغرابة عقائدهم ورد ذكرهم في القرآن الكريم ،

كأصحاب دين مستقل . مثل ماورد في سورة البقرة : « إن الذين آمنوا ، والذين هادوا ، والنصارى ، والصابئين ، من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا ، فلهم أجرهم عند ربهم » ، وتكرر ذكرهم في سورتي المائدة والحج ، وكانت دعوتهم الى السلام ، والمحبة خير تمهيد للمسيحية .

وقد انتخب كاهن اسمه « هلل » رئيسا لمجلس السبعين أو « السنهدرين » مدى حياته وظل الى العام العاشر الميلادي عندما توفى . وقد أجاز هيروود الحاكم اليهودي وجود « هلل » حاخاما أكبر ، لأنه كان يعارضه . ثم ظلت رئاسة هذا المجلس في سلالته بعد تشتت اليهود ، ولأربعة قرون تالية . وكان « هلل » هذا من الجراة بحيث غير في شريعة موسى الواردة في سفر التثنية . فقد نصت على سقوط جميع الديون بعد سبع سنوات . وهو مايسمى بحكم البراء . وبهذا تحول هيكل سليمان الى مصرف يقرض الناس ، ويضمن الديون ، ويقوم الكاهن بهذه المهمة . ومن هذه اللحظة بدأ تدريب اليهود على الأعمال المالية ، وظلو يتابعون عملية المصارف خلال الألفى سنة التالية ، بعد خروجهم من فلسطين ، حتى جمعوا ثروات هائلة .

وإذا كان واحد من كهنتهم قد وجد أن في استطاعته أن يغير الشريعة في ذلك الوقت ، فما ذلك الا لأنهم وقتها كانوا يعملون مصدرها ، أو بالقليل مصدر الكثير مما جاء في التوراة ، وأنه من صنع كهان مثلهم على مر خمسة عشر قرنا .. وربما كان جعل الكهانة العظمى ميراثا ، من الأمور « العاقلة » في تاريخ قليهود . فقد أدى التنافس بين اثنين على هذا المنصب ، أن قضم أحدهما أذن منافسه ليحول بينه وبين مايريد . وذلك لأن رئيس الكهنة لاينبغي أن يكون مشوها ، ومن التشويه أن يكون بأذن واحدة !!

* * *

في قرية تبعد بحوالى ثمانية كيلو مترات جنوبى اورشليم ، ولد طفل ولادة معجزة .. كان اسم القرية بيت لحم ، وكانت هى مريم ، وكان الطفل ، هو يسوع . وكان الاسم وقتها شائعا بين اليهود ومعناه يهوه . أو معين الرب .

وقيل ان أسرة السيد المسيح انتقلت الى الناصرة بأرض الجليل ويقول العقاد في كتابه عن المسيح ، ان الجليل كانت اقليما مفتوحا لجميع الأمم

الشرقية والغربية ، ولم يخلص سكنه للاسرائيليين وحدهم في زمن من الأزمان .
ومعنى الجليل بالعبرية : الدائرة لأنها اتسعت لكثيرين من الذين يحال بينهم
وبين الإقامة في بلاد أخرى من فلسطين ولا سيما الجنوب .

وكانت الجليل جزءاً من أقاليم الشاطئ الشمالي التي عرفت في التاريخ
القديم باسم كنعان ..

وقد امتازت كنعان قديماً بالموانى الصالحة ، منها صيدا وصور وحيفا .
وكادت تجارة المشرق والمغرب تنحصر فيها ، إذ لم تكن في الشواطئ الجنوبية
موانى ذا أهمية . وكانت العلاقة بين مملكة يهودا وبلاد كنعان علاقة حذر
وجفاء . وإن كان اليهود تعلموا منهم الكتابة وأوزان الشعر وأناشيد الصلوات
وحدثت غارات في مملكة يهودا على أرض الجليل لاسترداد اليهود المقيمين
فيها ، لأنهم سرعان ما كانوا يهجرون يهوديتهم وطقوسها إلى طقوس
الكنعانيين .

وقد اتفقت آراء المؤرخين على أن جمهرة كبيرة من أهل الجليل كانوا عرباً
يتكلمون اللغة الأرامية ، وكانوا اليهود منهم يلفظون اللغة العبرية بلهجة
أجنبية . وكان من الأمثال السائرة في أورشليم أنه « لاخير يأتي من الجليل »
وفي انجيل يوحنا أن رجال الهيكل في أورشليم ، عندما بلغتهم دعوة المسيح كانوا
يقولون متهمين : « انه لم يقيم نبي قط من الجليل » .. وقالوا أيضاً : « أمن
الناصره يجيء شيء صالح ؟ » .

وهكذا تبدو لنا البيئة التي ولد فيها المسيح أنها بيئة تسامح ، ورحابة
أفق ، ومحبة . وهذه صفات تختلف بطبيعتها عن مجاورى الهيكل أورشليم
الذين كانوا صورة للتعصب والجمود .

* * *

الا أن الأمور ، لم تسر هكذا بين سكان هذه المنطقة من فلسطين .. بين
متسامح ، ومتشدد . وذلك لأن الشام الكبير كان محتلاً بجنود الرومان ، ومركز
قيادتهم في دمشق . وكانت العبادة الوثنية التي تأتي بتطبيقها تعاليم من روما
تكون في نفوس اليهود غضباً مكبوتاً .. فإذا كان من طبيعتهم أن يتأثروا
بالمعبودات التي حولهم ، وهذا ما دل عليه تاريخهم خلال الخمسة عشر قرناً

الماضية ، الا أن فرض عبادة معينة عليهم ، كان أمرا آخر . ولهذا مالوا الى التمرد على سلطان الرومان .

وحدث في العام الرابع قبل ميلاد المسيح أن تحركت حملة تأديبية رومانية وانتهزت تجمع اليهود في أحد أعيادهم ، وهاجمتهم بأسلحتها هجوما عنيفا قتل فيه كثيرون من اليهود ، وأحرقت أروقة الهيكل ، ونهبت كنوزه . واختل الأمن اختلالا كبيرا ، فتحركت قوة كبيرة من سوريا ، اجتاحت مدن اليهود وقراهم ، وصلب قائدها ألفين من اليهود ، وأخذ ثلاثين ألفا أسرى باعهم في أسواق الرقيق .

يوحنا المعمدان .. أو يحيى المغتسل :

كل الظروف تهيأت للرسالة الكبرى التي توشك أن توجه لليهود ، تجديدا لرسالة موسى التي مضت عليها فترة من الزمن ، تبلغ خمسة عشر قرنا ، واكمالا لها بعد أن قامت دول وسقطت دول ، وتغيرت طبائع اليهود ، ولفظت قلوب معظمهم دعوة التوحيد ، وذابت الأغلبية الكبرى منهم في الشعوب المحيطة ، بعقائدها ومذاهبها ..

وظهر من بين اليهود ناسك صوفي اسمه يوحنا ، وأمه اليصابات قريبة مريم ، أم المسيح . وصف مرقس ومتى يوحنا بأنه كان يرتدى ثوبا من الشعر ، ويعيش على الخبز الجاف وعسل النحل ، ويقف على شاطئ الأردن ، يدعو قومه الى التوبة . ولم يكن يوافق على أن مجرد التعميد مرة واحدة يكفي لكي يكون الانسان صالحا .

وكان لسان يوحنا حادا ، ونذره قوية لاذعة .. كان يقول لليهود الذين يتجمعون حوله على شاطئ النهر :

يا أولاد الأفاعى ، من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتى . فاصنعوا أثمارا تليق بالتوبة . ولا تفكروا أن تقولوا في أنفسكم : لنا ابراهيم أبا لأنى أقول لكم إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولادا لابراهيم .

ويمضى يوحنا مبشرا بالمسيح وقائلا « كما ورد في انجيل متى » : « أنا أعمدكم بماء للتوبة ولكن الذى يأتى بعدى ، هو أقوى منى ، الذى لست أهلا أن أحمل حذاءه : هو سيعمدكم بالروح القدس ، ونار » .

وولد المسيح ، وهيروود ملك اليهود ، يدين للرومان بالطاعة . وقد سمع من المجوسى أن يسوع المسيح يوشك أن يظهر ، وأن مولده فى بيت لحم . والمجوس كانوا مشهورين بالسحر . حتى أن هذه الكلمة فى اللغة الانجليزية اشتقت من اسمهم . وصدق هيروود هذه النبوءة ، فأمر بجمع الأطفال الرضع حتى سن عامين وأمر بقتلهم ، ولم يكتف بأطفال بيت لحم ، بل ضم اليهم الجيرة القريبة .

وقد نجا يسوع من هذه المجزرة المنكرة .. أخذته أمه ، تركب حمارها وذهبت به الى مصر . وهذه الرحلة تثبت أن الحقد الذى حمله اليهود للمصريين كان من جانبهم . وهو حقد قاتل مخز . ذكرنا لمحات منه فيما مضى .. أما مصر ، فكانت كعهدا دائما ، رحبة الصدر ، مضيافة ، متسامحة ، شأن شعوب

الحضارة الأصيلة . وهذه هى تفسح صدرها لزائرين : المسيح وأمه ، يقيمان فيها وادعين ، ويتنقلان فى أرضها حتى الصعيد الأعلى .

وكما كانت مصر معتصما وموثلا لابراهيم وسلالته حتى موسى . وعلى أرضها تلقى رسالته . فنحن نراها هنا تحتضن داعى المسيحية ، حتى يأذن الله ، ويبلغ رسالات ربه ..

وكذلك صنعت بدعوة الاسلام ، عندما بلغتها أول مرة ، وعندما دهمت العالم دواهى الغزو الساحق من التتار فى مشرق الأرض ، وجاءته جحافل الصليبيين من مغرب الأرض .. بالصمود والتضحيات الغالية دفعت مصر الثمن ، وانتصرت عقائد السماء وتوفرت لها الحماية والرعاية .. وهذا قدر مصر ، ودورها على مر التاريخ .

ونجد كُتَّابَ الغرب ومؤرخى الأديان لايعترفون بأن المسيح جاء الى مصر ، ولا يوافقون على قول متى فى انجيله : ان يوسف النجار رأى فى المنام الخطر فقام وأخذ الصبى وأمه ليلا ، وانصرف الى مصر . وكان هناك الى وفاة هيروود . لكى يتم ما قيل من الرب : « بالنبي القائل من مصر دعوت ابنى » .

وفى عودة المسيح وأمه ويوسف النجار ، اتجهوا هذه المرة الى الناصرة ، لأن شبهاة الحاكم الجديد - وكان ابن هيروود - كانت لاتزال تحط على بيت لحم .

وتمضى فترة شباب المسيح لايعرف فيها الكثير عنه . ولكننا نراه وهو شاب يأتى الى نهر الأردن لكي يستمع من يوحنا وينال التعميد على يديه . وقد كشف يوحنا السر الإلهى الذى أودعه الله فى يسوع ، فصاح به دهشا : « أنا محتاج أن أتعمد منك ، وأنت تأتى الى !!» ولكن يسوع أصر على أن يعمده يوحنا . وما أن خرج من الماء حتى رأى روح الله نازلا مثل حمامة وأتيا عليه ، وصوت من السماوات قائلا : هذا هو ابنى الحبيب الذى به سررت .

ولم يمض وقت طويل على هذا اللقاء بين يوحنا والمسيح ، حتى أمر حاكم منطقة الجليل بالقبض على يوحنا لأنه انتقد زواجه من سيدة كانت زوجة لأخيه ، مع طلاق زوجته الأولى .

وهنا تأتينا فى إنجيل متى ومرقس ، قصة سالومى ، أو سلامة ، التى رقصت للحاكم رقصا أذهل ليه ، وكانت مكافأتها التى طلبتها رأس يوحنا المعمدان .. وقد كان . وذهب الرجل الصالح ، لأن واحدة من النساء كادت له كيذا محكما ..

لما سكت يوحنا عن وعظة وارشاده . ارتفع صوت جديد ، هو صوت يسوع المسيح . بادئا مواعظه بالناصره .. وكانت هذه البلاد كما رأينا من قبل ، قد خلفتها هجمات الرومان التأديبية ، أشبه بالخرائب . الأحياء من أهلها يئنون من جراحهم وجوعهم وعريهم . والقبور اتسعت واتسعت لتضم عشرات الآلاف .. والبؤس الشامل لاتخطئه عين ولاسمع .

بدأ المسيح يقول للناس مبشرا كما ورد فى انجيل لوقا : « روح الرب على ، لأن الرب مسحنى ، لأبشر المساكين . أرسلنى لأعصب منكسرى القلب ، لأنادى للمسيبين (العبيد) بالعتق ، وللمأسوريين بالاطلاق .. وللعمى بالصبر ، وأرسل المنسحقين فى الحرية » .. وقد لمح المستمعون لهذا الصوت تجديدا لما ورد فى سفر اشعيا ، وغيره من الذين بشروا بكلمة الله تأتيم لتنقذهم .

وتدرجيا أخذ صوت المسيح بين اليهود ، يحل محل صوت يوحنا المعمدان .. ويعلو ، ويتسامح به اليهود خارج منطقة الجليل . وقد

يتساءل بعض الباحثين ، عن سبب الحدة التي كان يخاطب بها المسيح قومه من اليهود .. والسبب واضح ، فعلى الرغم من الأرزاء والمحن التي حلت بهم جيلا بعد جيل ، لا تزال عبادة الأوثان أقرب إلى قلوبهم . واليها تهوى نفوسهم . ولا تزال المعاصي في كل نوع ولون ترتكب على الرغم من نذر من سبق من الأنبياء والكهان الصالحين ... إن المسيح لم يكن في انكاره هذه المعاصي ، الا واصفا ما يرى ، وما رآه من قبله .

ولنستمع الى بعض ما قال لهم :

عندما التقى المسيح عليه السلام بكهان اليهود في معبدهم بأورشليم ، دارت بينه وبينهم مناظرة حادة كشفت عن طبيعة هؤلاء القوم ، وما صاروا اليه بعد خمسة وعشرين قرنا من قيام ابراهيم بدعوة التوحيد ، وبعد خمسة عشر قرنا من قدوم موسى بوصاياه العشر .. قال المسيح لهؤلاء الكهنة :

- إنكم مراؤون لأنكم تأكلون بيوت الأراامل .. ويل لكم أيها القادة العميان ، القائلون : من حلف بالهيكل فليس بشيء ، ولكن من حلف بذهب الهيكل يلتزم !!

- أيها الجهال والعميان . أيهما : الذهب ، أم الهيكل الذي يقدر بالذهب .

- من حلف بالمذبح فليس بشيء ، ولكن من حلف بالقربان الذي عليه يلتزم أيها الجهال والعميان : أيهما أعظم : القربان أم المذبح الذي يقدر القربان . أيها القادة العميان . يصفون عن البعوضة ، ويبلعون الجمل . - ويل لكم أيها المراؤون ، لأنكم تنظفون (تنظفون) خارج الكأس والصفحة ، وهما من داخل حملوا اختطافا ودعارة . أيها « الفريسي » الأعمى نَقُّ أولا داخل الكأس ، والصفحة : لكي يكون خارجهما أيضا نظيا . - ويل لكم أيها المراؤون ، لأنكم تشبهون قبورا مبيضة ، تظهر من خارج جميلة ، وهي من داخل مملوءة عظام أموات وكل نجاسة ، هكذا أنتم أيضا من خارج تظهرون للناس أبرارا ، ولكنكم من داخل مشحونون رياء واثما . - أنتم تشهدون على أنفسكم ، أنكم أبناء قتلة الأنبياء .

- أيها الحيات أولاد الأفاعي كيف تهربون من دينونة جهنم ؟

- ها أنا أرسل إليكم أنبياء وحكماء وكتبة . فمنهم تقتلون ، وتصلبون . ومنهم تجلدون في مجامعكم ، وتطردون من مدينة الى مدينة ، لكي يأتي عليكم

كل دم زكى سفك على الأرض من دم هابيل الصديق ، إلى دم زكريا بن برصيا الذى قتلتموه بين الهيكل والمذبح . الحق أقول لكم إن هذا كله يأتى على هذا الجيل .

- يا اورشليم .. يا اورشليم .. ياقاتلة الأنبياء ، وراجمة المرسلين اليها كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ، ولم تريدوا . هوذا بيتكم يترك لكم خرابا . (كان هيرو د وقتها يبني معبدا هائلا) .
ولما أراد تلاميذه أن يصحبوه لمشاهدة الهيكل قال لهم :
- أما تنظرون جميع هذه . الحق أقول لكم انه لا يترك هنا حجر على حجر لا ينقض . (وقد حدث هذا فعلا بعد أعوام قليلة) .

ثلاثون من الفضة :

ولما أذنت حياة المسيح عليه السلام إلى انتهاء ، سخر له القدر تلميذه الثانى عشر - يهوذا الأسخريوطى - كى يشى به ويدل على مكانه مقابل ثلاثين من الفضة .

وقد أوفد رؤساء الكهنة وشيوخ اليهود مع يهوذا الخائن جمعا كبيرا يحملون السيوف والعصى ، وقبضوا على المسيح ، وهرب تلاميذه الأحد عشر . وساقوه الى « قيافا » رئيس الكهنة .

وبدأت محاكمة المسيح . فلما قال لهم : « الآن تبصرون ابن الإنسان جالسا عن يمين القوة ، وآتيا على سحب السماء » . مزق رئيس الكهنة ثيابا ، وحكم على يسوع بالتجديف دون الحاجة الى شهود .. وصاح اليهود من كل مكان : انه مستوجب الموت . حينئذ بصقوا على وجهه ولكموه . وآخرون لطموه . وكان الحاكم من قبل الرومان هو بيلاطس ، فدفعوا له يسوع موثوق الكتاف ليضى فيه الحكم .

ويبدو أن يهوذا ندم على خيائته فأرجع للكهنة الثلاثين فضة ، وانتحر . ولما أراد الوالى الأجنبى أن يطلق سراح المسيح ، لرؤيا رأتها زوجته . ولما يعلمه من أن رؤساء اليهود يتحركون ضده حسدا . ورفض الكهنة وصاحوا جميعا : ليصلب . ونادوا بأن وزر دمه يقع عليهم ، وعلى أولادهم . وهم لهذا قابلون . وهذا هو نص الانجيل الذى أراد اليهود المحدثون تحويره بموافقة الجامع الكنسية فى الفاتيكان ، يقول النص - انجيل متى : اصحاح ٢٧ - « فأجاب جميع الشعب ، وقالوا دمه علينا وعلى أولادنا » .

وظهر السيد المسيح عليه السلام بعد ذلك بثلاثة أيام ، وقابل أمه مريم البتول ، وتلميذته مريم المجدلية .. ثم قابل تلاميذه - أحد عشر تلميذا - ودعاهم للتبشير بدينه بين جميع الأمم . وذلك لأن شعبه اليهودى رفض الاستماع له ، وأراد له الهلاك ، ولولا هذه المجموعة الصغيرة من صيادى الأسماك ، لما بقى أحد يحمل عن المسيح رسالته .

الرسالة وموضوعها :

وكل دعوة دينية انما توجه نداءها لقوم ، أو لأقوام تحتاج يقظة ضميرهم ، وسلوكهم العام والخاص الى هذه الدعوة حقيقة ، ان كلمات الله منذ الأزل لا تبديل لها ، ولهذا قال المسيح صلوات الله عليه :

« لا تظنوا انى جئت لأنقض الناموس (الشريعة) أو الأنبياء . ما جئت لأنقض بل لأكمل . فانى الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل » .

وصلب الدعوة المسيحية ، هى دعوة الى الحب ، والتمسك بالفضائل . وأن تزول طبيعة الافتراس التى عاش بها ولها اليهود . انه كان رقيق الطباع ، شفاف الحديث ، ويريد لقومه أن تلين قناتهم ، ويهبط عدوانهم الى حده الأدنى .. فقد عاشوا بسفك الدماء ، وعاشوا لسفكها .. وتبدأ طقوسهم بسفك دماء البهائم ، وتنتقل الى الأطفال ثم الكبار رجالا ونساء ..

وقد أدت رائحة الموت التى نشرها حولهم بغير حساب ، إلى أن تسلط عليهم من لا يرحمهم ، وأذاقهم عذاب الهون بما كانوا يصنعون .

قال المسيح عليه السلام لقومه :

- القتل محرم من قديم .. ولكنه يضيف أن الغضب الباطل مثل القتل .. وأن الذى يرضى غيره بالحمق يكون كمن قتله .

- من أغضب أخاه ، وذهب يتقدم إلى الله بقربان عليه أن يترك القربان لا يقدمه ، ويعود ليصطلح مع أخيه .

- من كان عليه دين ، لا يتكاسل فى أدائه أو يأكله بالباطل ، بل يجب أن يؤديه إلى الفلس الأخير .

- لا تحلفوا بالسماء - لأنها كرسى الله - ولا بالأرض لأنها موطىء قدميه .. لا تحلف برأسك لأنك لا تقدر أن تجعل شعرة واحدة بيضاء أو سوداء بل ليكن كلامكم نعم نعم .. لا لا .

- العين بالعين والسن بالسن . والمسيح يقول لكم لا تقاوموا الشر . بل من لطمك على خدك الأيمن ، فحول له الآخر أيضا . ومن أراد أن يخاصمك ، وأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً . ومن سخرك ميلا واحدا فأذهب معه اثنين .
- من سألك فاعطه .. ومن أراد أن يقترض منك فلا ترده .
- سمعتم أنه قيل : تحب قريبك وتبغض عدوك . وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم . باركوا لاعنيكم . أحسنوا إلى مبغضيك ، وصلوا لأجل الذين يسيئون اليكم ويطردونكم .
- لا تعلنوا عن صدقاتكم . فمتى صنعت صدقة فلا تعرف شمالك ما تفعل يمينك . لكي تكون صدقتك في الخفاء .
- ابن الانسان لم يأت ليهلك أنفس الناس ، بل يخلص .
- سامحوا الناس ، واغفروا لهم حتى تستحقوا غفران الله .
- لا تكنزوا لكم كنوزا على الأرض ، حيث يفسد السوس الصدأ .
- لا تقدرين أن تخدموا الله والمال .
- الأمم الأخرى (غير اليهود) كانت تهتم بالمال ، والأثرياء . وقد دعا المسيح اليهود الى التقشف في اللباس ، ودعاهم الى تأمل زنايق الحقل وزهوره كيف تنمو في ألوانها وبهاء منظرها مما لم يتح لسليمان نفسه في كل مجده أن يلبس مثله « فلا تهتموا قائلين ماذا تأكل ! و ماذا تشرب . أو ماذا تلبس فإن هذه كلها تطلبها الأمم (الشعوب الأخرى غير اليهود) .
- إسألوا تعطوا ، واطلبوا تجدوا . وأقرعوا يفتح لكم . ان الله يهب خيرات للذين يسألون . فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا مثله أنتم أيضاً للناس .

- من جملة هذه التعاليم ، وما دار في نطاقها مما ورد في بقية الإنجيل ، نجد المسيح عليه السلام أراد أن يسير باليهود في طريق ممهد تنمو على جانبيه أشجار من نوعين :
- ١ - الحب الذي يتنافى مع الكراهية والأحقاد التي عاشها اليهود .. الحب بغير دماء وآلام ومذابح .. الحب الذي ينقى الجماعة اليهودية من هذا التناحر الذي عاشت فيه قرونا طويلة .
- ٢ - ألا يعبدوا مع الله المال .. الذهب والفضة .. وقد ارتكب اليهود في سبيله كل آثام الدنيا .

الحقد الأسود والذهب الأصفر هما العدوان اللذان حاربتهما الدعوة المسيحية في محاولة جريئة جادة لتطهيرها . ولكن قلوب اليهود كانت كالحجارة أو أشد قسوة فما قبلت شيئاً من هذا ، على بساطته ، ونقاؤه .. وهى لم تكتف برفض هذه الرسالة ، ولكنها صممت على أن تعاقب صاحبها بالموت ، بعد ما أصابوه من أذى ... ثم يأتى من بعد ذلك خلف من الكذابين يقولون : مالنا ودم المسيح .. إننا أبرياء ولسنا كما ورد في الانجيل !!

بعد المسيح بقليل :

وقبل أن ننتقل من رأى الانجيل فى اليهود ، نقف قليلا عند رأى بولس الرسول فيهم :

كان بولس (سانت بول) يهوديا من سبط بنيامين . ولد فى طرسوس . وكان اسمه شاول . وقد أرسله أبوه إلى اورشليم ليتعلم شرائع اليهود . وشارك فى اضطهاد المسيحيين الذين ساروا وراء المسيح عليه السلام . ثم اعتنق المسيحية ، وأصبح من أكبر دعاةها . وكتب ١٣ رسالة يتحدث فيها عن إيمانه ، وعن أحوال الناس ممن عرفهم . ومات عام ٦٦ م .

قال فى رسالة الى أهل روما : « ان اليهود واليونانيين (الوثنيين) أجمعين تحت الخطية ، كما هو مكتوب إنه ليس باراً ، ولا واحد .. حنجرتهم قبر مفتوح .. بألسنتهم قد مكروا . سم الاصلال (الثعابين) تحت شفاهم . وفمهم مملوء لعنة ومرارة . أرجلهم سريعة الى سفك الدم . فى طرقهم اغتصاب وسحق . وطريق السلام لم يعرفوه . ليس خوف الله قدام عيونهم » .

وتذكر بولس ما حدث للنبي ايليا مع هذا « الشعب المعاند المقاوم » فقال فى رسالته : « أم لستم تعلمون ماذا قول الكتاب فى ايليا ، كيف يتوسل إلى الله ضد إسرائيل قائلاً : يارب قتلوا أنبياءك . وهدموا مذابحك ، وبقيت أنا وحدى وهم يطلبون نفسى . لكن ماذا يقول له الوحي حين أبقيت لنفسى سبعة آلاف رجل ، يحنو ركبة لبعل (أحد الأوثان) ... أعطاه الله روح سبات وعيونا حتى لا يبصروا وأذانا حتى لا يسمعوا الى هذا اليوم وداود (النبي) يقول : لتصر مائدتهم فخا ، وقنصا ، ومجازاة ، لهم لتظلم أعينهم حتى لا يبصروا ، ولتحن ظهورهم فى كل حين » .

هذه شهادة واحد يصف فى صدق طبيعة قومه اليهود ، الذين انسلخ عنهم وأصبح من أكبر دعاة المسيحية .

نهاية اليهود في فلسطين :

كانت اورشليم في القرن الأول الميلادي أشبه بأتون يغلى . الحكم فاسد ، ويتولاه يهود تحت إشراف الرومان . والغلاء والبلاء والمرض والفوضى تسود كل مكان . وأخذت عصابات الجائعين تهاجم أغنياءهم ، حتى حدثت في يوم واحد من عام ٦٨ م مجزرة قتل فيها اليهود ١٢,٠٠٠ يهودى من أهل اورشليم تضم كل أغنيائها تقريبا . وسفك الدماء ، وصل بهم الى محاصرة حامية رومانية صغيرة وابدتها .

وفي نفس اليوم حدثت في بلدة قيصرية مجزرة أخرى ، وكانت تضم يهودا ، وغير يهود من أهل البلاد . وقد هزم اليهود ، وقتل منهم في يوم واحد عشرون ألفا ، وبيع آلاف غيرهم رقيقا . وفي دمشق ذبح أهلها عشرة آلاف يهودى .. ورد اليهود باحراق المدن .

وتحرك الجهاز الحربى الرومانى لقمع هذه الفتن . ولم يكن هناك سبيل لاقرار الأمن في فلسطين الا السبيل الذى حدث فعلا . فقد حاصر الرومان اليهود في كل مكان ، ومنعوا عنهم الطعام والماء ، وكل من حاول اختراق الحصار أمسك وصلب ، حتى سكان أرض فلسطين زرعت صلبانا ..

واستولى القائد الرومانى « تيطس » على اورشليم ، وأوقد النار في الهيكل الذى بناه هيرود ، وكان قسم كبير منه مشيداً من كتل الخشب . وما لبث المعبد أن تهاوى كتلا من اللهب والرماد . ومن يأس اليهود الباقين ، ألفوا فرقا تعدم الأحياء منهم ، لأن مصيرهم على أيدي الرومان لا يختلف .

وقد سيق منهم ٩٧ ألفا ، إلى ملاعب الرومان في روما ودمشق وبيروت وغيرهم ، لكى يتسلى بهم مشاهدو الأسود وهى تفترس الأدميين ... وقدماء المؤرخين - ومنهم اليهودى يوسفوس - أحصى الذين هلكوا في هذه المجاز بمليون ومائة وسبعة عشر ألفا . إلا أن مؤرخين أكثر احتياطا قدروا قتلى اليهود بنصف هذا العدد .

وحدث هذا المشهد الدموى الرهيب بين اليهود والرومان عام ٧٠ ميلادية واستمرت التصفية النهائية بعض الوقت . ولكن هدم الهيكل وتحريقه ، وشتات اليهود الباقين في أنحاء الأرض ، حولت اليهودية الى المعابد التى تصرح الدول المختلفة بإقامته فيها ..

وكان من أهم قرارات الرومان حظر عودة أى يهودى إلى فلسطين . ومنذ

ذلك التاريخ ، وحتى سنة ١٩٤٨ ، ظل اليهود مبعدين عن فلسطين إلا المتسولين منهم .

ولعل خير ما وصفت به حياة اليهود القديمة في فلسطين ما قاله عنهم هـ . ج . ويلز في مختصر تاريخ العالم أنهم كانوا أشبه بشخص أصر على أن يقيم في طريق مزدحم ، مهما احتاط أو صاح ، فلا بد من أن تطأه العربات والأقدام المسرعة .! ومن المبدأ إلى النهاية لم تكن مملكتهم في فلسطين سوى حادث طارئ في تاريخ مصر وسورية وأشور وفينيقيا .

وحدث في سنة ١٣٢ ميلادية أن حاول بعض المخلفين من اليهود ، أن يتسللوا إلى ما تبقى من خرائب أورشليم ، وأن يحاولوا الشغب على الحامية الرومانية ، وما لبث هؤلاء المتسللون أن أبيدوا وحتى يفقد اليهود كل أمل في عودتهم إلى المدينة ، فقد حرثها الرومان حرثاً ، ولم يبقوا فيها حجراً على حجر . وأقاموا على موقعها مدينة جديدة ، وأعطوا اسم الامبراطور الرومانى في ذلك الوقت (اليوس هارديانوس) . وقد أقيمت في المدينة الجديدة معابد للآلهة الرومانية : باكوس ، وفينوس ، وسيرابيس ، كما أقيم مسرح وحمامات وظل الأمر كذلك مدى قرنين .

إلا أن الرومان سمحوا للمسيحيين ، وإن كانوا من أصل يهودى أن يقيموا في المدينة . ومن هنا احتفظت المدينة باسمها القديم « أورشليم » فيما بينهم . وللوجود المسيحى فيها ، وسط هذه المظاهر الوثنية قصة سنفصلها فيما بعد .

وقد زرعت كراهية اليهود في نفوس الشعوب التى تكون الامبراطورية الرومانية . وعندما بدأت المسيحية تجهر بدعوتها بعد تفرق دعائها في الأمصار ، حل بالدعاة والمسيحيين الأول غضب السلطة والشعوب ، وكان ذلك امتدادا لكراهية الناس لليهود . وهكذا أشعل اليهود نارا احترقت المسيحية الناشئة بلظاها .

ولم ينس اليهود أن داعية المسيحية الأكبر كان من بينهم ، وأنهم انكروه ودبروا لصلبه ، بأمل القضاء على أفكاره . ولكن ما لبث مشتتوهم والسابقون منهم للهجرة في قبرص والإسكندرية وبرقة - وقد ذكرنا طرفا من أبناء هؤلاء من قبل ، أن دبروا بعد نهاية القرن الأول للمسيح ، مذبحه هائلة في سلامس كبرى مدن قبرص في ذلك الوقت ، وفي الاسكندرية عاصمة المصريين . وكان

المسيحيون هدف هذه المذبحة . ونجحوا في قتل ١٦٠ ألف مسيحي وهدم مدينة سلامس ، التي لاتزال بعض أثارها موجودة حتى الآن . وما حدث في الإسكندرية لا يقل بشاعة ، وإن كانت التواريخ لم تُفصّل كما فصّلتُ مأساة سلامس القبرصية .

وهكذا اليهود اينما وجدوا وملكوا فرصة على غيرهم ، من أى دين كان ، أن ينتقموا ويدسوا ، فإن استطاعوا قتلوا وأبادوا . وسنذكر بعد حين ما صنعوه في اليمن بأصحاب الأخدود .

وكانت جزيرة العرب هى أقرب الأماكن الى فرارهم من فلسطين ، كلما حلت بهم النوائب فيها وتذهب مراجع تاريخية كثيرة ، إلى أن هربهم من نكال الرومان لهم عام ٧٠ ميلادية ، كان إلى الجنوب .. إلى الحجاز .
والآن ، فلنسر معهم بعض الوقت فى شبه الجزيرة العربية ، لنرى كيف أصطدموا بالدعوة الاسلامية بعد خمسة قرون من استضافة الحجاز لهم - ومرة أخرى ، وليست الأخيرة ، كان صدامهم وبالا عليهم .

□ الفصل التاسع □

اليقظة .. في جزيرة العرب

مضت على جهاد المسيح عليه الصلاة والسلام ، خمسة قرون وبعض القرن ،
انتشر فيها تلاميذه ، يحملون رسالة المحبة ، إلى أنحاء الامبراطورية الرومانية ،
متصددين لبغيها وطغيانها . ووجدت الشعوب في هذه النسمات الندية روح دعة
واطمننان تحببهم إلى الحياة بغير بغي ، وبغير آلام .

وفي خلال ستة قرون إلا قليلا نرقت دماء للمسيحية أمام عسف اليهود ،
واضطهاد الرومان ، حتى جرت الدماء أنهارا . مما سنذكر بعض تفاصيله في
الفصل القادم .

واقترضت ارادة الله أن يشرق نور دعوة جديدة ، تناسب ما بلغته الأسرة البشرية
من نمو عقلي ومادى ، وأن تكون هذه المرة خارج الجماعة اليهودية ،
كان صاحب هذه الدعوة الجديدة ، هو سيدنا محمد بن عبد الله ، الذي ينتمى
إلى نسل اسماعيل بن ابراهيم الخليل ، وقد استوطن الحجاز .

ونمت أسرته وتكاثر بعبداً عن الفتن والمذابح التي كانت دائرة في أرض
الشمال وغذتها وزادت في سعيها هجرة باقى هذه الأسرة مع موسى الكليم من أرض
مصر .

وكان اسماعيل أبا لعرب الحجاز ، وأمه المصرية ، هاجر .. وثمة نسل عربى
آخر لابراهيم الخليل من زوجه قطورة ، عاش ونما عدده في الشمال وامتد الى العراق
وسوريا .

وكان العرب جميعاً ، وهم أهل الانساب ، عاشوا بها ولها ، يعلمون هذا

جيداً .. ويدركون أن اليهود ما هم إلا سلالة محدودة من نسل يعقوب الذي أصبح اسمه اسرائيل .

ولنسر الآن مع رحلة اليهود الى الجزيرة العربية ، حتى ظهور الاسلام واصطدامهم به ، كما اصطدموا من قبل مع المصريين والحبشيين والآشوريين والكنعانيين .

اليهود يتحفظون :

عرفت أديان فلسطين طريقها الى جزيرة العرب ، إلا أن كل دين استقر هناك بوسيلة تخالف صاحبه .. فأما اليهودية ، فقد نفذت الى شبه الجزيرة من الهجرة .. هجرة بنى اسرائيل وعلى وجه دقيق قبيلة شمشون طلبا للمرعى وبحثا وراء القوت . وكانت هذه الهجرة قديمة قبل ميلاد المسيح بقرون . ويقال إنها استقرت في المنطقة شمال يثرب ثم جنوبها .

وقد تسربت اليهودية من هذه الأماكن الى اليمن فاعتنقها ملوك حمير ولايهمنا أن نفصل في خصومات العلماء حول الأسباب التي دعت هؤلاء الملوك إلى اعتناق هذا الدين ، وهي أسباب سياسية قد ترجع الى خصوماتهم مع الدول القوية المحيطة بهم . وعلى الأخص دولة الرومان .

أما المسيحية فقد سارت في جزيرة العرب ، ولكن على أيدي دعاة ورهبان جدوا في نشر تعاليمها ، وتلقينها للعرب . وكانت نجران في جنوب الجزيرة أكبر موطن لهذا الدين .

ولما قوى شأن المسيحية واعتنقها أباطرة الرومان ، نكلوا باليهودية النكال الأعظم وشرذوا أهلها في أفاق الأرض بعد أن هدموا الهيكل ، ونزح الى جزيرة العرب عدد غير قليل من اليهود ونزلوا على المهاجرين السابقين من ذوى قرباهم ، في يثرب وما حولها . وكان من هذه القبائل الهاربة من وجه قيصر بنو النضير وبنو قريظة وبنو بهدل .

وإذا كان قدماء اليهود بعزلتهم عن العمران قد فقدوا الكثير من مزاياهم ، فرق دينهم وتطبعوا بطابع البيئة التي يأوون اليها ، جاءت هذه الهجرة تجدد دين بنى اسرائيل في الحجاز وتعيد له طابعه كله حادا قويا كما كان .. خصوصا ان المهاجرين كانوا فارين من وجه ظلم شديد واعنات بالغ يحل بهم ، فكانت بهم حاجة ان يحتملوا آلام التشرد بالايغال في التمسك بالعقيدة التي يفرون بها .

وقد وجدت اضطهادات المسيحية صدامها في اليمن حيث توجد دولة يهودية ، فعمد ملك حمير (ذونواس) الى التنكيل بنصارى نجران ، فدعاهم الى اليهودية ولما امتنعوا ، حفر لهم أخدودا ، وأعمل فيهم السيف وألقى أجداثهم في الأخدود وكانت النيران تشتعل فيه وقد ورد ذكر هذا الحادث في القرآن الكريم ، الذى ندد بمن حفروا الأخدود في قوله :

« قتل أصحاب الأخدود ، النار ذات الوقود ، اذ هم »

« عليها قعود ، وهم على مايفعلون بالمؤمنين شهود ، »

« وما نقموا منهم الا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد .. »

(البروج ٥ - ٨)

وقد انتقم نجائى الحبشة من دولة اليهود في اليمن فأزالها . ولم تقم لها قائمة .. ومضى الزمن وجزيرة العرب تشهد صراع الأديان على ظهرها وفيما حولها . فلا تتأثر به الا قليلا .. حقيقة لقد اعتنق بعض عرب الجنوب النصرانية ، ولكن انتقام اليهود حرقهم بالنار تحريقا . ولم يبق منهم الا أقل عدد . ولما زالت دولة اليهود من الجنوب لم يبق منها الا أخف آثارها .. ويهود الحجاز لم تكن لهم حاجة بالدعوة الى دينهم ، فقد كانوا في شغل عن كسب القلوب بكسب الجيوب .. بل لعل أموالهم التى اكتسبوها من الزراعة والتجارة زادتهم عزلة عن العرب ، فبنوا القصور والحصون في قمم الجبال ، واعتصموا بها ، وكونوا لأنفسهم شبه ارسنقراطية لاترى في بقية الناس الا أداة لكسب المال منها عن طريق الرياء والخداع في المتاجرة والزراعة .

وكان أكثر العرب الذين يسكنون يثرب من قبيلتين كبيرتين هما الأوس والخزرج . كما كانت تقيم بالقرب من القرية قبائل أخرى أهون شأننا وأقل عددا . وهذه القرون الخمسة التى أقامها اليهود الجدد . في الحجاز بعد طرد الرومان لهم ، وهذه القرون العشرة أو الأكثر التى أقامها من سبقهم الى الهجرة ، كانت تكفى لأن يتزاوج بعض اليهود من بعض العرب ، وأن تختلط الدماء ولكن في حذر واحتياط ، وبذا يمكن القول إن العرب الذين اعتنقوا اليهودية هم قلة لاتعد .. وظل بقية الوثنيين من الأوس والخزرج ينظرون الى اليهود نظرة حسد حينا وحيرة حينا آخر .. أما الحسد فلأنهم يجدون أنفسهم فقراء يتشاجرون ويقتتلون ، ومن حولهم هؤلاء اليهود يتاجرون ، ويصنعون السيوف والدروع ويكتزون الذهب والفضة . وأما الحيرة فلهذا الدين الذى

يعتنقه اليهود ، الذين يقولون ان نبيا جاء به من السماء ، ودون لهم في كتبهم الوصايا : كما أنبأهم من أمر الغيب بالشئ الكثير .

ولقد كانوا في أمس الحاجة الى معرفته . فان نفوسهم تعلن عن قلقها وشكها في هذه الأوثان التي لاتسمن ولا تغنى ، وأن هذا القلق ليزداد ، عندما يصل اليهم من أحاديث يهود أن في مسطور الغيب نبأ عجيب ، هو أن نبيا يوشك أن يظهر في قرية من قرى العرب ، يدعو الى الله الواحد الأحد ، ويبشر وينذر ، ويجاهد حتى يكون الدين كله لله .

ولقد جاء الوقت ، وانتقلت مع القوافل أحاديث عن رجل ظهر في مكة من أرفع قبائلها شأنا ، ومن أحسن أهلها خلقا ، ومن أوفرهم أمانة وصدقا يدعو الى دين جديد .. فأما عرب البوادي فقد تلقوا أنباء مكة كما تعودوا أن يتلقوها : بأذان مصغية وعيون مفتوحة ، وذاكرة واعية ، ولكن بعقول صامته جامدة لاتصل منها الأنباء الى منطقة التصديق أو التكذيب .

وصلت هذه الأنباء الى يثرب ، وتلقاها أهل يثرب بوجه آخر : فأما اليهود فقد عظم قلقهم ، وحسبوا لهذا الطارق الجديد والدين الوليد ألف حساب . وأما عرب القرية من أوس وخزرج فخفت قلوبهم ، فقد يكون هذا النبي من مكة هو الذى حدثهم عنه جيرانهم اليهود .. وقد يكون في دينه ما يعصمهم من الفتن الجامحة التى كثيرا ماتثور بينهم فتعصف بهم وتذهب بزهرة شبابهم ، واليهود يطلون عليهم من دورهم باسمين يشحذون السلاح ويبيعونه ليقتل به بعضهم بعضا ..

وكانت قوافل الحجيج تتخلف بين يثرب ومكة ، وتنقل الأنباء حتى كانت عودة النبي من الطائف بعدما لقي فيها من اعنات وارهاق ، وقرر أن يعرض نفسه على القبائل يطلب منها نصره وتأييده . وكانت وفود القبائل تسمع منه بقلوب مغلقة وتنصرف عنه كذلك . حتى لقي وفدا من يثرب قوامه ستة من الخزرج .

لقيهم النبي فيما يروى ابن اسحق فقال لهم من أنتم ؟ .
قالوا :

- نفر من الخزرج .. قال : أمن موالى يهود ؟ ، قالوا : نعم ، قال :

- أفلا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا : بلى

فجلسوا معه ، فدعاهم الى الله عزوجل ، وعرض عليهم الاسلام ، وتلى عليهم القرآن .

يقول ابن اسحق :

وكان مما صنع الله لهم به في الاسلام أن يهودا كانوا معهم في بلادهم ، وكانوا هم أهل كتاب وعلم . وكان العرب أهل شرك وأصحاب أوثان ، وكانوا قد غزوه في بلادهم . فكانوا اذا كان بينهم شيء قالوا لهم : ان نبيا مبعوثا الآن قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وارم ، فلما كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أولئك النفر ودعاهم الى الله قال بعضهم لبعض : -
- يا قوم .. تعلمون والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود . فلا تسبقنكم اليه . فأجابوه فيما دعاهم اليه . بأن صدقوه . وقبلوا منه ما عرض عليهم من الاسلام وما أن وصل هؤلاء الستة الى يثرب . وتحدثوا عما دار بينهم وبين محمد عليه السلام ، حتى كثر الحديث ، واشتد الجدل ، وتدخل فيه اليهود بين مكذب ومنكر . الا أن العرب الذين ذاقوا مرارة الذل من سطوة اليهود واعتزازهم بالمال ، وبهذا الدين الذي يعتقدون ، ما كانوا ليلقوا بالهم الى قول اليهود .

ومكثت يثرب عاما كاملا . ولا حديث لأهلها الا هذه الأنبياء التي جاءت بها ، ولم يبق بيت من بيوتها الا وفيه ذكر عن النبي ، وفرد يهيه نفسه لاعتناق الدين الجديد ، فلما كان الموسم القادم ، ذهب وفد جديد من الخزرج . وتمت بيعة العقبة الأولى ، وهكذا حيل بين اليهود وبين ما أرادوا من صرف أهل يثرب عن اعتناق الدين الجديد .
ولكن الأمر سار شوطا أبعد مما قدر اليهود . فقد كانت هذه البيعة الأولى . مقدمة لبيعة ثانية أحكم وأتم ، ثم كانت التمهيد الذي لا بد منه لهجرة النبي نفسه الى يثرب ليتخذها مقرا له ومركزا لدعوته .

وبدأت هجرة المسلمين من مكة الى المدينة بعد أن أذن لهم رسول الله بها ، واليهود يراقبون هذه الحركة مشفقين ، ويدبرون الأمر بينهم . فهم بازاء حدث جديد ، يوشك أن يبدل معالم الحياة في يثرب بل يوشك أن يبدل معالم حياة العرب جميعا .. ماذا سيكون من شأن هؤلاء المهاجرين معهم ؟ وماذا سيكون موقف النبي الجديد منهم وموقفهم منه ؟ . انه - كما بلغهم - جاء بكتاب . وهم أصحاب كتاب . وأنه يتحدث عن سير السالفين وهم أصحاب حديث عنها . وأنه يدعو الى عبادة وطقوس ، وأن لهم عبادات وطقوسا .

ووصل عمر بن الخطاب الى يثرب ، وقال : لم يبق بمكة غير ابي بكر وغير رسول الله . وانه يرجح أنهما قادمان في الطريق .. وهنا خفق قلب هذه القرية خفقانا شديدا ولم يكن اليهود بأقل لهفة من الانصار ، وتطلعا الى مشاهدة المهاجر العظيم وهو يختم رحلته من بلده الى بلدهم .

قال ابن اسحق في رواية عن أحد الأنصار : « حتى اذا كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله . جلسنا كما كنا نجلس حتى اذا لم يبق ظل ، دخلنا بيوتنا . وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخلنا البيوت . فكان أول من رآه رجل من اليهود ، وقد رأى ما كنا نصنع ، وأنا ننتظر قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم علينا ، فصرخ بأعلى صوته : « يا بنى قيلة (اسم جدة للأنصار) هذا جدكم قد جاء » .

وجها لوجه :

اشتد ضغط الدعوة المحمدية على أهل مكة واخذتهم قوتها من كل وجه من وجوههم ، وحاولوا أن يستعينوا باليهود لتعرف الحق من أمر محمد .. وكانت مكة . كما كانت القرى جميعا . تعرف من أمر اليهود ما ينبغي أن يعرف .. بل كانت هناك زيارات تترى بين أهل مكة وبين مستعمرات اليهود في يثرب وضواحيها . فقد ذكر الواقدي أن أسرة ابي الحقيق اليهودي تخصصت في صناعة الحلى وأدوات الزينة . وكان يفد اليها أناس من مكة يشترون منها الحلى لعرائسهم ونسائهم .

يروى ابن اسحق أن قريشا أرسلت وفدا من النضر بن الحارث وعقبة بن ابي معيط الى أحبار اليهود بيثرب وقالوا لهما : سلامهم عن محمد . وصفا لهم صفته . وأخبراهم بقوله فانهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء . فخرجا حتى قدما يثرب فسألا أحبار يهود عن رسول الله ووصفا لهم أمره ، وأخبراهم بقوله . وقالوا لهم انكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا . فقال لهما أحبار اليهود :

- سلوه عن ثلاث نأمركم بهن ، فان أخبركم بهن فهو نبي مرسل ، وان لم يفعل فالرجل متقول .. وقولوا عنه ماشئتم :

١ - سلوه عن فئة ذهبوا في الدهر الأول ماكان أمرهم .. فانهم قد كان لهم حديث عجيب ؟

٢ - وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبأه ؟

٣ - وسلوه عن الروح ما هي . ؟
فإن أخبركم بذلك فإنه نبي ، وإن لم يفعل فهو رجل متقول فاصنعوا في أمره ما بدا لكم .

فأقبل الرسولان حتى قدما مكة على قريش فقالوا :
- يامعشر قريش . قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد !! قد أخبرنا أخبار يهود أن نسأله عن أشياء أمرونا بها ، فإن أخبركم عنها فهو نبي وإن لم يفعل فالرجل متقول فروا فيه رأيكم .

فجاءوا رسول الله فقالوا :
- يامحمد . أخبرنا عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ، قد كانت لهم قصة عجب ، وعن رجل كان طوافا قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها .

وأخبرنا عن الروح ما هي :
قال لهم رسول الله :

- أخبركم بما سألتكم عنه غدا .
فانصرفوا عنه .. فمكث رسول الله خمس عشرة ليلة لا يحدث الله في ذلك وحيا ، ولا يأتيه جبريل حتى أرجف أهل مكة . وقالوا :
وعدنا محمد غدا ، واليوم خمس عشرة ليلة ، قد أصبحنا منها لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه .

وقد أحزن رسول الله امتناع الوحي عنه ، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة .
ثم جاء جبريل فتلقى محمد الوحي في لهفة المنتظر وقال له :
- لقد احتبست عني يا جبريل حتى سؤت ظنا ، فقال له جبريل آية من آيات سورة مريم (رقم ٦٤)
« وما ننزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك ، وما كان ربك نسيا » .

ثم لقن الوحي محمدا عليه الصلاة والسلام سورة الكهف .
« الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ، قيما ، لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا ، ما كثين فيه أبدا » .

وقد ردت سورة الكهف على السؤاليين الأولين من أسئلة اليهود الثلاثة ، فقصة نبي الفتية الذين أروا إلى الكهف ، وذكرت نبأهم بالحق . وسردت حديث ذي القرنين . وتلت عليهم منه ذكرا . ثم قالت سورة الإسراء عن الروح :

«ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي ، وما أوتيتم من العلم الا قليلا » .

واذن ، فقد كانت بين اليهود وبين رسول الله محاورات قبل الهجرة ، وكان عليه الصلاة والسلام يعرف من غير شك قوة هذه الفئة العاتية ، وما أحاطت به نفسها في مقامها بيثرب من منعة وترايط ، وما أذاعت عن نفسها من أنها الشعب المختار ، وأنها طبقة فوق طبقات الناس جميعا .

فلما جاء النبي الى المدينة ، لم يمهل اليهود حتى جاءوا يستطلعون نبأه ، ويحاورونه فيما رد به على أسئلتهم ، وخصوصا ما نزل به الوحي من قوله : « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » .

عن ابن عباس أنه قال : أما قدوم رسول الله الى المدينة قالت أحبار اليهود . - يامحمد .. رأيت قولك : « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » : ايانا تريد أم قومك .

قال : كلا .. قالوا : فانك تتلوف فيما جاءك انا قد أوتينا التوراة فيها بيان كل شيء .. فقال رسول الله .

- انها في علم الله قليل وعندكم في ذلك ما يكفيكم لو أقمتموه .
وأنزل الله تعالى قرآنا في هذا الحوار هو قوله في سورة لقمان (٢٧) :
« ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ، ما نفدت كلمات الله ، ان الله عزيز حكيم » .

وقد أثر النبي في أول الأمر أن يحاسن اليهود ويصافيهم ، وان لم يرغب عنه أنهم يضمرون له شرا ، وأنهم لا يمكن لهم أن يقبلوا دعوته ، وأن يسيروا في ركابها ، وهم المعتزون بما لهم ، المعتصمون بحصونهم وأطامهم :
وقد ذكر الدكتور ولفنسون (يهودى) في كتابه عن تاريخ اليهود في جزيرة العرب :

« كان يهود يثرب يتشوقون لرؤية الرجل الذى ينشر دعوة دينية تتفق في جوهرها مع عقائدهم ، وكانوا يعتقدون أن ظهور رجل ليس من بنى اسرائيل يدعو الى توحيد الإله والى تعاليم التوراة والى تمجيد ابراهيم وموسى انما هو ظاهرة غريبة في التاريخ البشرى .

« ولاشك انهم سمعوا من مصعب بن عمير بعض الآيات القرآنية ، وأنه كان لهذه الآيات وقع حسن في نفسهم جعلهم يؤملون في هجرة النبي الى يثرب أمالا كيارا » .

وكان يكون جميلا أن يتخلق يهود يثرب بهذا الخلق ، وأن يروا في نبي التوحيد الجديد هاديا ومنقذا للبشرية من ضلالات تردت فيها لا أول لها ولا آخر . ولكن هل كان يقبل « الشعب المختار » هذا الوضع . وهل يجيز العقل أن يكون موقف اليهود - محتكرى التوحيد اسما، كما يحتكرون التجارة وغيرها ، موقف ترحيب من النبي الذي ظهر في مكة ، وهو ليس من بنى اسرائيل . وقد جاء في التلمود أن الأنبياء ختموا ببني اسرائيل .

لم يذكر المؤلف سندا واحدا ، أو نصا واحدا يمكن أن يستند اليه في زعمه هذا . بل ان محاورات النبي مع اليهود ، منذ القدم ، تدل في وضوح شديد على أن اليهود قابلوا محمدا عليه السلام بروح التحدى البالغ ، وحاولوا أن يشككوا في كلامه وأن يزيفوا ما بين أيديهم من علم . وقد ورد في القرآن تقرير شديد لهم في أكثر من موطن يدحض هذا القول . ولكنها محاولة ناذجة من هذا المؤلف اليهودي ، تشبه محاولتهم الأخيرة تبرئة اليهود من العمل على صلب المسيح .

كان النبي يعلم ان اليهود لن يرضوا عن مقامه في المدينة ، ولكنه مع هذا أراد أن يحاسنهم وأن يضع نظاما يحقق وحدة هذه المدينة ، فيقضى أولا على العداوة بين الأوس والخزرج ثم يضم اليهود الى دائرة هذا الاتحاد الجديد كحلفاء .

ويورد ابن هشام وثيقة تتضمن عهدا كتبه النبي عليه الصلاة والسلام ليحقق به هذه الوحدة . ويجعل سكان يثرب جميعا ، أمة واحدة في مواجهة الوثنيين .

وقد وقع هذه الصحيفة اليهود الذين ورد ذكرهم فيها ، وثمت قبائل أخرى من اليهود أكثر قوة ومنعة ، مثل بنى قريظة وبنى قينقاع لم تشارك فيها ، ولعلها أرادت أن تظل بعيدا ، لترى ما يكون من قلب الأمور ، وسيرها . ولكنها على كل حال تحالفت مع النبي بمعاهدات خاصة .

ومضى رسول الله شوطا آخر في سبيل تأليف قلوب اليهود ، فأحل للمسلمين الأكل من طعام اليهود ، كما أحل لهم التزوج من بناتهم .. وجاء في القرآن الكريم نص على هذا في سورة المائدة .

« اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ، وطعامكم حل لهم ، والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من

قبلكم ، اذا أتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ، ولا متخذى أخدان
ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين .
ولم ير النبى بأسا من أن يتخذ بيت المقدس قبلته ، وهى قبلة اليهود ، كما
أنه أمر المسلمين بصوم عاشوراء وهو من أعياد اليهود . وكانت هذه الخطة
ترمى الى احتواء اليهود فى داخل الدين الجديد .. الإسلام !
الا أن اليهود أخذوا يسحبون يدهم التى مدوها للتعاهد وأخذوا يكيدون
للمسلمين بعد أن رأوهم وحدة واحدة لا أوس ولا خزرج ، وإنما إسلام
ومسلمون .

ولعل آخر ما كان يمكن لليهود توجيهه للنبى ، هو التشكيك فى دعوته فهم
أهل كتاب ، وهم يقولون إنهم يعلمون من أمر النبوة الجديدة ما لم يعلمه غيرهم
لأنه مسطور فى كتابهم .

ولقد كثر جدال اليهود للنبى وللمسلمين . واشتد عنادهم حتى ضاقت
الصدور بما يفعل بنو إسرائيل ، وحتى أخذ القرآن ينزل تباعا يرد عليهم
ويزجرهم زجرا شديداً لعلم ينتهون . فمن ذلك قوله تعالى فى سورة النساء :
« يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء ، فقد سألوا موسى
أكبر من ذلك ، فقالوا أرنا الله جهرة ، فأخذتهم الصاعقة بظلمهم » .
(النساء ١٥٣)

وقوله :

« وما قدروا الله حق قدره ، اذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ، قل من
أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس . تجعلونه قراطيس تبدونها
وتخفون كثيرا ، وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ؟ .. قل الله ، ثم ذرهم فى
خوضهم يلعبون » .

(الانعام ٩١)

وقوله :

« مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها ، كمثل الحمار يحمل أسفارا ،
بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ، والله لا يهدى القوم الظالمين » (يحملوها
أى يعملوا بها) .

(الجمعة ٥)

وقوله :

« فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا

به ثمنا قليلا ، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون .
(البقرة ٧٩)

وقوله :

« ان الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا ، أولئك ما يأكلون في بطونهم الا النار ، ولا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا يزكّيهم ، ولهم عذاب أليم » .

(البقرة ١٧٤)

وهكذا قضى القرآن في بيان واضح ان هذه الأجيال من اليهود التي لم تعترف بالاسلام لهم يوم القيامة عذاب أليم .. ومثلهم في هذا كمثل الكافرين . وهذا دليل قاطع على أن علو اليهود الذي ورد ذكره انتهى بسقوط دولتهم للمرة الثانية على يد الرومان عام ٧٠م .

ويظهر أن اليهود حاولوا أن يفتنوا بعض المسلمين عن دينهم ، كما قد وردت في القرآن قصة الأحزاب وقصة بنى قريظة :

« وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصبيهم(١) ، وقذف في قلوبهم الرعب ، فريقا تقتلون ، وتأسرون فريقا ، وأورثكم أرضهم ، وديارهم ، وأموالهم ، وأرضا لم تطؤوها ، وكان الله على كل شيء قديرا » .

(الأحزاب ٢٦ - ٢٧)

وكانت غزوة بنى قريظة نصرا كلها وغنما كلها ، وخسر المسلمون فيها البطل الفارس المؤمن سعد بن معاذ .

الى خيبر :

تقع خيبر في الطريق الشمالي الذي يربط المدينة المنورة بفلسطين .. وكانت حصنهم المنيع ، ومستقر جمعهم الكبير .. وكان حريا بهم بعد أن انتهى وجود اليهود في قلب المدينة وفي أطرافها القريبة ، أن يتحركوا للنار أو للفرار . وحتى لا يحسبوا أن حصونهم المنيعة مانعة لهم من أن تطولهم يد المسلمين ، فقد توجه خمسة من مسلمي الخزرج إثر الفراغ من أمر يهود المدينة ، واقتحموا حصن أكبر زعماء اليهود ، وأكثرهم ثراء ، في حركة جريئة ، وفروسية بالغة ، وهو سلام بن أبي الحقيق ، وأعملوا سيوفهم فيه ، ثم انسحبوا يخفيهم الليل ، والمطاردة بالمشاعل من ورائهم .. وحتى يتثبتوا من أن غريمهم قد هلك ، عاد

(١) صياصبيهم : حصونهم

أحدهم واندس وسط الزحام أمام الحصن حتى تأكد من هلاك سلام ، ثم عاد الى أصحابه بالنبا اليقين .

وكانت هذه الغارة السريعة على بيت من بيوت خبير شبه انذار للبقية الباقية ، من اليهود في الحجاز ، أن يهدأوا فالمسلمون بعد اليوم بخير ، وأن لهم من القوة ما يمكنهم من القضاء عليهم وعلى حلفهم مع المنافقين أصحاب وحدة المدينة التي أرادها رسول الله بثغرات كان لابد من سدها . وقد أحزنت النبي هذه الحال ، وسلمته الى تفكير طويل .

وقد عرض القرآن لهذه الحال فقال في سورة المائدة - ٤١ :

« يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ، ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك ، يحرفون الكلم من بعد مواضعه ، يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه ، وإن لم تؤتوه فاحذروا » .

ونهى القرآن المسلمين عن مخالطة اليهود والاستماع لهم :

« يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء .. » (المائدة ٥٧)
وقوله :

« ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل * والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا » .
(النساء ٤٤ - ٥٤)

وقوله :

« وقد نزل عليكم في الكتاب أن اذا سمعتم آيات الله يكفر بها ، ويستنهزا بها ، فلا تقعدوا معهم ، حتى يخوضوا في حديث غيره ، انكم اذن مثلهم ، ان الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا » . (النساء ١٤٠)
بل لقد صرح القرآن بأن أشد الناس عداوة للمسلمين اليهود وساواهم بالمشركين في قوله : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا : اليهود والذين أشركوا » ، ولا نريد أن نمضى في سرد الآيات التي جادلت اليهود ، وقرعتهم على كفرهم أعظم تقرير . فهي تستغرق من القرآن قسما كبيرا ، مما يدل على عظم الجهد الذي بذله الاسلام في الدفاع عن نفسه ضد الأكاذيب الاسرائيلية ، ومكائد هذا النفر منهم الذي كان يسكن يثرب وضواحيها .

ولم يبق بد بعد كل هذه الجفوة بين المسلمين واليهود ، الا أن يعدل النبي عن محاسنتهم ، فأخذ يدعو ربه حتى يهديه الى قبلة غير قبلة اليهود ، فولاه قبلة يرضاهما هي البيت العتيق ، أى الكعبة ، كما أمر المسلمين أن لا يكون لباسهم مثل لباس اليهود . وألا يكون تصفيف شعرهم وصبغه مثل ما يصنع اليهود . وأن يحذروا من سخرية اليهود في السلام عليهم والرد على سلامهم . وعدل عن اتخاذ البوق لدعوة المسلمين الى الصلاة ، وذلك لأن اليهود كانوا يستعملون هذا البوق فكرهه .

ولكن هذه الحرب الفكرية التي كان سلاحها اللسان لم تحل دون أن يقبل على الاسلام ويعتقه اثنان من أبحار اليهود المعروفين هما الحصين بن سلام ومخيريقي .

وكان اسلام الحصين بن سلام هذا سببا في شدة خوف رؤساء اليهود من أن تقبل بقية الطائفة على الدين الجديد فتمحى الاسرائيلية من الحجاز . ولذا كان دفاعهم ، الى جانب باعث الغرور الذي يحركه ، يستند الى غريزة حب البقاء والدفاع عن النفس ، وقد اتخذ اسلام ابن سلام هذا مظهرا رائعا .. فقد كان يعلم أن نبيا (١) يوشك أن يظهر ويعم هداه الناس مما وجده مسطورا في كتبه لأنه كان من الأبحار العلماء ، فلما جاء محمد عليه السلام الى المدينة ، ذهب إلى النبي وأسلم . ثم قال له :

يا رسول الله ، إن يهود قوم بهت ، واني أحب أن تدخلني في بعض بيوتك وتغيبنني عنهم ثم تسألهم عنى حتى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا اسلامى ، فانهم ان علموا به بهتونى وعابونى . فأخفاه النبي في احدى الحجرات ، ثم أقبل وفد اليهود فقال لهم النبي :

أى رجل الحصين بن سلام فيكم ؟ فقالوا :

سيدنا وابن سيدنا . وحبرنا وعالمنا .

فوثب اليهم الحصين ، وقال :

يا معشر يهود . اتقوا الله ، واقبلوا ما جاءكم به . فوالله انكم لتعلمون انه لرسول الله ، تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة باسمه وصفته ، فانى أشهد أنه رسول الله وأومن به وأعرفه . فقالوا : كذبت :

(١) من انباء التوراة الصلابة اكثر من بشرى بظهور المسيح ، واكثر من بشرى بظهور محمد عليهما الصلاة والسلام .

ثم أخذوا يعيبيونه ويجرحونه ، وأظهر ابن سلام إسلامه وتسمى عبد الله كما أسلمت أسرته .

وكان مخيريق من أغنياء اليهود وكبار أحبارهم . وقد اكتفى بمنايذة اليهود . وحبه للنبي . فلما كان يوم أحد وتخلف اليهود عن تنفيذ حلفهم الحربى مع النبي بحجة أن اليوم سبت . أنكر مخيريق عليهم تصرفهم ، وخرج للقتال ، وأوصى إن هو قتل أن تكون أمواله لرسول الله . وقد قتل فعلا ، وقال عنه النبي عليه السلام : « مخيريق خير اليهود » وورث النبي أمواله ونخله الكثير ورصده لصدقات أهل المدينة .

وعمد اليهود الى أسلوب من أساليب الدس والمكر فأوعزوا الى بعض دهاتهم أن يظهروا اسلامهم ليطلعوا على خطط النبي ويعلموا كلامه . ولكن النبي لم يكن غافلا عن هذا النوع من الجاسوسية . وقد تحدث ابن اسحق عنهم أنهم كانوا يحضرون الى المسجد فيسمعون أحاديث المسلمين ويسخرون منهم ويستهنئون بدينهم .

دعوة اليهود للإسلام :

ولقد ورد في صحيفة العهد الأولى ، التى أراد النبي أن يقر بها النظام السياسى فى المدينة ، أن يكون اليهود على دينهم ، ولم يفرض عليهم الجزية أملا فى أن تكون القدوة والمحافظة الحسنة هى التى تحببهم الى الاسلام فيدخلون فيه طائعين . فلما أغراهم شيطانهم بأن يسلكوا مسلك المعارضة للنبي فى أعزما جاء به . وهو رسالته .. لما تعذر أن يكون اليهود مع المسلمين أمة واحدة .. رأى النبي أن يدعوهم الى الاسلام ، وقد أورد ابن اسحق صورة كتاب النبي الى يهود خيبر مرويا عن ابن عباس وهذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

« من محمد رسول الله (ﷺ) صاحب موسى وأخيه . والمصدق لما جاء به موسى . ألا أن الله قد قال لكم يا معشر أهل التوراة وانكم لتجدون ذلك فى كتابكم : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعا سجدا ، يبتغون فضلا من الله ورضوانا . سيماهم فى وجوههم من أثر السجود . ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطأه (أنبت نباتا جديدا) فأزره ، فاستغلف فاستوى على سوقه . يعجب الزراع ليغيظ بهم

الكفار .. وعد الله الذين آمنوا وعلموا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما .
« وأنى أنشدكم بالله وأنشدكم بما أنزل عليكم ، وأنشدكم بالذي أطعم من
كان قبلكم من أسباطكم المن والسلوى ، وأنشدكم بالذي أبيض البحر لآبائكم
حتى أنجاهم من فرعون وعمله ، ألا أخبرتموني هل تجدون فيما أنزل الله عليكم
أن تؤمنوا بمحمد ؟ فان كنتم لاتجدون ذلك في كتابكم فلا كره عليكم ، قد تبين
الرشد من الغي فأدعوكم الى الله والى نبيه » .

وكانت هذه الدعوة الكريمة الى الله ونبيه التي احتكم فيها محمد عليه
السلام الى أسفار اليهود نفسها ، كأنما لم تكن ، فقد صموا عنها أذانهم ولجوا
في عتوهم وطغيانهم .

بل لقد جاء الى النبي أحد أبحارهم يرد على دعوتهم للاسلام بدعوته هو
 لليهودية فرد عليه القرآن بقوله :

« وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا ، قل بل ملة ابراهيم حنيفا ، وما
كان من المشركين قولوا آمنا بالله ، وما أنزل الينا ، وما أنزل إلى ابراهيم
واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى
النبيون من ربهم ، نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » .

(البقرة ١٣٥ - ١٣٦)

وكان من موضوعات النقاش أمام النبي عليه الصلاة والسلام البحث في
دين ابراهيم . قال أبحار اليهود : ما كان ابراهيم إلا يهوديا .. فكان رد
الاسلام قويا رائعا :

« يا أهل الكتاب لم تحاجون في ابراهيم ، وما أنزلت التوراة والانجيل إلا
من بعده ، أفلا تعقلون ؟ * ها أنتم هؤلاء حاجتكم فيما لكم به علم ، فلم
تحاجون فيما ليس لكم به علم ، والله يعلم وأنتم لاتعلمون * ما كان ابراهيم
يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما ، وما كان من المشركين * إن أولى
الناس ميا ابراهيم للذين اتبعوه ، وهذا النبي ، والذين آمنوا ، والله ولي
المؤمنين » . (آل عمران ٦٥ - ٦٨)

وكان النبي في جداله لليهود في مركز القوة دائما . لأنه لم ينكر رسالة من
قبله بل اعترف بموسى وبأنبياء اسرائيل . كما اعترف بالمسيح عيسى فكانت
دعوته بعيدة عن روح التحدى . وكان خصومه في الجدل لا يجدون حجة
يجابونه بها الا أنه ليس هو النبي المنتظر الذي تحدثت عنه الكتب السابقة
عليه .

لايهود بعد اليوم :

أخفق اليهود في منع العرب عن الاسلام ، فلجأوا الى أسلوب الجبناء !!
دبر اليهود أكثر من مؤامرة لقتل سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، ولكنهم
باعوا بالخذلان فلما كان نصر بدر تلقى اليهود أنباءه وهم أشد ما يكونون هما
وغما ، حتى أنهم كذبوا البشير الذي سبق بالأنباء .

وكان حى من اليهود . هم بنو قينقاع ، يقيمون وسط المدينة المنورة ، وقد
نشطوا في حرب الدعاية ، وإذاعة الأكاذيب ، كما كانوا يأوون بينهم المتآمرين .
وقد تعاهدوا على العمل مع كبير المنافقين عبدالله بن أبى بن أبى سلول ، وكان
لهم حلف قديم مع الخزرج وهم من الأوس القبيلتين العربيتين اللتين أسلمتا ..
وقد أسقط الاسلام هذه الأحلاف القديمة .

وكان لابد من عمل يرد على اليهود كيدهم ، فقرر النبي عليه السلام طرد
اليهود الذين يسكنون قلب مدينته ، وإجلاءهم عن الجزيرة العربية كلها . وكان
منهم سبعمائة رجل قادرين على حمل السلاح ، وأدى إجلاؤهم الى أن تخفف
الاسلام من عبئهم .. ولم تنم هذه الحركة الا بعد حصار لهم استمر ١٥ يوما .
وقد صادر المسلمون أسلحتهم وأموالهم التي خلفوها ، وكان رحيلهم الى بلدة
أذرعات بالشام .

وجاء دور بنى النضير من قبائل اليهود ، وقد بنوا لأنفسهم في ظاهر المدينة
حصونا منيعة ، وكان كبيرهم كعب بن الأشرف من أكثر الناس كيدا للاسلام
والمسلمين ، وقد أمكن لبعض الفدائيين من المسلمين استدراجه من حصنه ،
وقتله ، ثم أمنهم رسول الله عشرة أيام وحاصر دورهم بعدها ، ولم يجرؤ أحد من
حلفائهم على التعرض للمسلمين . فلما مضت ستة أيام على الحصار ، لاحظ
النبي أن حصون اليهود تعصمهم ، ثم أنهم في مدة الانذار كانوا قد جمعوا من
المؤونة ما يكفيهم مدة طويلة . فرأى النبي أن يرهبهم ويهددهم بحرق حصونهم
عليهم فأمر باشعال النيران في النخيل الذي يحيط بها . فما أن رأوا النار تعلق
رؤوس النخيل حتى دب في قلوبهم الرعب ، وأثروا النجاة بحياتهم ، وبعثوا
رسلهم بالأمان حتى يغادروا الحصون فأعطاهم الأمان بحقن دمائهم ، وأن
يحملوا من الأموال ما تطيق دوابهم ، على أن يتركوا السلاح وراءهم لياخذون
منه شيئا .

وقد تركوا ديارهم ، فسار قليل منهم الى خيبر ، منهم حى بن أخطب

وسلام بن الحقيق وما لبث يهود خبير أن دانوا لزعامه هؤلاء الوافدين وأما بقية بنى النضير فقد لحقوا بمن سبقوهم الى الشام .

وجمع النبي أموالهم الباقية وسلاحهم . وقد نزلت سورة الحشر تتحدث عن هذا الحصار ، وتنعى على كبير المنافقين والذين معه خذلانهم لجيرانهم . « هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ، ما ظننتم أن يخرجوا ، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، وقذف فى قلوبهم الرعب ، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار » .

(الحشر - ٢)

وكان النبي حريصا على أن يكثر السلاح فى أيدي جنوده ، اذ اشترط على اليهود أن يتركوا سلاحهم وراءهم ، وكان ما تركوه عددا غير قليل من السيوف ، وعددا آخر من الدروع أحصاها الواقدي فى مغازيه فكانت ثلاث مائة وأربعين سيفاً وخمسين درعا .

ومما يدل على روح الاسلام العظيمة أن اثنين من بنى النضير أعلنوا إسلامهما ، وكانا من أغنياء اليهود فأبقى لهما النبي جميع ثروتها ، ولم يمسها بسوء ، ذلك أنه من قال : لا اله الا الله ، فقد عصم نفسه وماله الا بحقه ، والله وحده بعد هذا ، يعلم سرائر النفوس وما انطوت عليه .

وحدث بعد حصار قريش للمدينة المنورة ، وحفر الخندق لصددهم عنها ، أن عاون يهود بنى قريظة المهاجمين ، ونقضوا ، فى أحلك ساعات الشدة ، حلفهم مع المسلمين . ولولا يقظة فائقة ، لانهار الدفاع عن المدينة ، وسقطت فى يد الكافرين وانتهى الاسلام والمسلمون .

هل كان يمكن أن يترك هذا الغدر بغير عقاب ؟ وهل تكون المدينة آمنة ، وهؤلاء اليهود يقيمون غير بعيد عنها ، ويضمرون العداة الأسود ، الذى لا يرضى بشيء الا باستئصال الاسلام والمسلمين ، وهو اللفظ الذى كرره اليهود أكثر من مرة وهم يتهيئون لغزو المدينة وحصارها .

لقد كان النبي حتى ليل أمس يدافع ، حراب وسيوف عشرة آلاف من الأعداء تألبوا عليه . أما اليوم فليهاجم ، وليكن هدفه هؤلاء الذين مزقوا صحيفته ، ونقضوا ميثاقه .

اجتمع المسلمون عند الظهر فى المسجد ، بعد أن رأى كل منهم أهله

وأبناءه ، فإذا هم في عافية وأمان ، وإذا البشر يعم الوجوه التي لم تعرف منذ أسابيع إلا الجهد في حفر الخندق ، والا الصبر في لقاء الأعداء ، وترقب الموت في كل دقيقة من دقائق النهار أو الليل .

ترى ماذا سيقول لهم رسول الله ، وهم يجتمعون به لأول مرة بعد انصراف الأحزاب ؟ وهل سيكون حديثه عن بني قريظة وخيانتهم كما رجح الالباء منهم : لقد كان الأمر كذلك .. فما أن صلى الناس الظهر وَهَمَّ بعضهم بالانصراف حتى أذن فيهم أحد الصحابة قائلاً ما لقنه رسول الله « من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر الا في بني قريظة » .

فأسرع المسلمون الى بيوتهم خفافاً يحملون سلاحهم ويلبسون دروعهم ، وعادوا بأسرع مما ذهبوا ، فاذا على بن أبي طالب يحمل راية القوم ، ويتقدمهم وهم وراءه .

وما أن أشرف على بن أبي طالب على حصون بني قريظة حتى أطل بعضهم منها ، وقذف رسول الله والمسلمين بأقبح الشتائم . فتراجع « على » ليرى هل وصل رسول الله فلمحه قادماً عن قرب . فقال له :

- يا رسول الله . لا عليك أن لا تدنو من هؤلاء الأختباث ؟ فقال النبي :

- لم ؟ أظنك سمعت منهم لى أذى ، فأجاب على :

- نعم يا رسول الله . فقال له النبي :

- لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً .

- ثم دنا النبي من حصونهم : وصاح بهم :

- يا اخوان القردة . هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته ؟

وهنا أدرك اليهود أن الموقف ليس موقف سباب يقذفون به محمداً وأصحابه .. لا ، وإنما هي ساعة القصاص قد جاءت . فهؤلاء هم المسلمون قد أقبلوا عليهم بسلاحهم يتقدمهم فرسانهم وشجعانهم ويقودهم رسول الله بنفسه .

وظاف رسول الله بحصون بني قريظة وظل أصحابه يتوافدون حتى وقت العشاء وهم غير قادرين على أن يصلوا العصر . فقد أمرهم النبي أن تكون الصلاة في بني قريظة .. ثم أمر عليه السلام بأن يحاصروا المكان كله وألا يتركوا منفذاً للمرور الى الحصون وألا يخرج واحد منها الا عاجلوه بحتفه . وكانت عدة جيش النبي في هذا الحصار ثلاثة آلاف . ولم يتخلف أحد .. وكانت خيل المسلمين في هذا الحصار ستة وثلاثين فرساً وكان بدء الحصار يوم

الأربعاء لسبع بقين من ذى القعدة سنة خمس هجرية . وظل مضروبا عليهم خمسة وعشرين يوما حتى استسلموا .

وقد ذكر الواقدي أنه حدث قتال بين اليهود وبين المسلمين أثناء الحصار ، حيث كان الفريقان يتراميان بالنبل والحجارة . كما يذكر ابن هشام أن بعض الأنصار من الخزرج وبنى الحارثة قتلوا ، ولم يجرؤ بنو قريظة أن يخرجوا من الحصون الا مرة واحدة طوال مدة الحصار لأن عدد المسلمين كان يربو على الآلاف (كان ثلاثة آلاف كما ذكرنا) . بينما كان عدد اليهود لا يتجاوز السبع مائة الا قليلا .

وانتهت هذه المعركة بانتصار المسلمين على بنى قريظة وحكم بالإعدام على المحاربين منهم ، والأسر على غيرهم وأرسلت نساؤهم الى نجد ، واشترى بتمنهن سلاح .

بعد انصراف الأحزاب مخفقين من حول المدينة كانت غايات المدينة السياسية قد تركزت وبانت معالمها ، وظهر للنبي بوضوح أنه لكي يفتح مكة : لابد له من التخلص من العدو الذي كان لا يأمن شره وهو اليهود . ورأى من ناحية أخرى ، أن من الممكن أن يعاود اليهود الاجتماع مع قريش ، فتكون أزمة جديدة قد لا تقل عن أزمة الأحزاب شدة .. ولذا أخذ رسول الله يراقب يهود خيبر بعناية وحذر . فرأى أنهم أعز اليهود نفرا ، وأكثرهم عددا ، وأوفرهم مالا ، وأنهم يكونون الخطر الفعلي على الاسلام اذا هم اتجهوا لكيدة متحالفين مع يهود شمال الحجاز ، ومع أعداء المسلمين من العرب كما أن وجودهم في هذه الحصون المنيعة في شمال المدينة وبالقرب من غطفان قد يكون سدا يحول دون ما يجول في ذهن النبي من الاندفاع بالاسلام والمسلمين صوب الشمال .. صوب هذه الامبراطورية التي تستعمر فلسطين والشام وهي امبراطورية الرومان . اذن لا بد أن يبدأ الزحف نحو الشمال بازالة يهود خيبر من الطريق .. ولا سبيل الى ازالة هؤلاء اليهود من غير أن يأمن النبي جانب قريش ولو الى حين حتى لا تفاجأ المدينة أثناء غيابه عنها في الشمال بغارة من مكة قد تخرب البلدة . وتهلك نساءها وأطفالها وثروتها ..

ولذا سار النبي الى مكة من غير قتال . وكان صلح الحديبية الذي أسكن ريح قريش وأطفأ نار عداوتها ، الى حين .

ولم تكن الأنبياء التي ترد من خيبر تحتل البطء في أمرهم ، فان أحد كبرائهم سلام بن مشكم كان دائم الاتصال بقبائل اليهود في أقصى الشمال التي

تسكن تيماء وفدك وأم القرى ، حتى يتعاونوا مع أهل خيبر للزحف على المدينة . وقد أراد يهود خيبر هذه المرة أن يستفيدوا من أخطاء بنى قريظة . فيكونوا أكثر جدا في الحرب وجلدا على القتال .. كما أنهم كانوا يختلفون عن غيرهم من اليهود بأنهم أهل حرب وصدام ، فقد كان مقامهم بجوار غطفان وغيرها من قبائل العرب التي كثيرا ما يغير بعضها على بعض ، سببا في تعودهم حياة الكفاح المسلح . ولم يكونوا مثل يهود يثرب يعتمدون في أكثر الأحيان على حلف الأوس والبعض الآخر على حلف الخزرج .

ولم يكن النبي في حقيقة الأمر يحتاج الى سبب جديد يحمله على المسير الى خيبر . فقد تذكر أنه في أثناء مفاوضات القبائل لكي تهجم على المدينة مع الأحزاب ، وعد اليهود غطفان بثمار خيبر مدة عام كامل ، مما يدل على أن يهود خيبر وإن لم يشتركوا في القتال الا أنه لم يكن لديهم ما يمنع من النزول عن ثروة النخيل مدة عام اذا هم خلصوا من الاسلام والمسلمين !!

وصلت الى النبي أنباء أخرى أكدت أن اليهود في الشمال يسعى بعضهم الى بعض للتآزر ، وجمع جيش يهاجم المدينة . وانهم عاودوا التفكير في تأليب غطفان . وهي من أقوى القبائل العربية ، للسير معهم . وأن كبيرا من اليهود - أسير بن رزام - هو الذي يتولى المفاوضة وقد تولى زعامة خيبر بعد قتل ابن أبي الحقيق .

تأكدت لدى النبي عليه الصلاة والسلام الأنباء من أكثر من مصدر ، حتى أن خارجه بن حسيل جاء يقول إنه ترك اليهود يجتمعون في كتائب ويزحفون . ورأى النبي أن يلجأ الى وسيلة أخيرة - كعادته دائما - يسكن بها هذه الريح التي توشك أن تهب . فبعث وفدا كبيرا من أصحابه عدته ثلاثون رجلا ، وعلى رأسه عبدالله بن رواحه ، لكي يفاوض اليهود في أن يرضوا بحكومة المدينة ، وأن يكون حاكمهم من دينهم يختاره النبي عليه الصلاة والسلام . وصل الوفد الاسلامي الى خيبر . وفاوض أسير بن رزام ، فقبل . وعارض بقية اليهود قائلين ان محمدا لن يرضى أن يتولى أمرهم يهودي ، ولكن أسيرا أصر على الذهاب الى المدينة ، لكي يفوز بإمارة رسمية على خيبر . وأخذ معه ثلاثين من أعوانه ، وبخلوا بدوابهم فلم يحضروها ، فأركب كل مسلم أحد اليهود على دابته حتى اذا كانوا في الطريق على بعد ستة أميال فقط من المدينة عدل أسير بن رزام عن رأيه ، وخشى أن يحبس عند المسلمين . ولم ير وسيلة يعود بها الا أن يتآمر مع قومه على قتل المسلمين على حين غرة . وكان عبدالله بن

رواحة متنبها فطنا فما بدأ اليهود في تنفيذ غدرهم حتى عاجل عبد الله كبير اليهود بضربة سريعة في ساقه أخلت توازنه ، وكان يركب معه ، ثم تواب المسلمون على اليهود فقتلوهم وعادوا الى المدينة بتفصيل ما حدث فقال لهم رسول الله : « لقد أنجاكم الله من القوم الظالمين » .
وكانت هذه الحادثة قبيل المسير الى خيبر مباشرة .

* تقع خيبر كما قلنا شمال المدينة المنورة ، وهي على مسيرة أربعة أيام منها بالسير المعتدل أو ثلاثة أيام بالسير السريع .
عند عودة رسول الله من الحديبية في ذى الحجة . أقام عشرين يوما . وفي الثلث الثالث من شهر المحرم سنة سبع للهجرة أمر بأن يجتمع أقوى رجاله وأكثرهم جلدًا وبصرًا بالحرب ، فكانت عدة جيشه ألفا وثمان مائة رجل ، ومائتي فارس - وقيل أقل من هذا قليلا .

وهذه هي المرة الأولى التي يزحف فيها النبي الى مكان بعيد بهذا الجيش . وانا نراه يترك في المدينة بقية جيشه الذي رأيناه في الخندق ، وعدته ثلاثة آلاف ، حتى لا يدهمها خطر وهو بعيد عنها . كما أننا نرى هنا عدد الفرسان يزيد ستة أضعاف عما كانوا عليه في حصار بني قريظة وذلك لأن النبي عنى بشراء عدد كبير من الخيل من نجد . ومما لا شك فيه ان جيشه هذه المرة كان كامل العدة والسلاح فهو مقبل على مهاجمة مواقع من أمنع حصون جزيرة العرب بنيت في الحال وسدت منافذها بالصخور ، وأقيمت على أطرافها الأبواب الضخام .

وَجَدَّ المسلمون في السير فلما أشرفوا على خيبر ، وبانت لهم حصونها من بعيد قال رسول الله :

« قفوا .. » ثم دعا ربه بقوله :

« اللهم رب السماوات وما أظللن ، ورب الأرضين وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن . ورب الرياح وما أذرين . نعوذ بك ونسألك خير هذه القرية ، خير أهلها وخير ما فيها . ونعوذ بك من شرها وشر ما فيها » ..
وهتف بجيشه :

« أقدموا باسم الله » .

وكان وصول النبي إلى خيبر ليلا ، فعسكر بعيدا عنها ، وأمر الجيش ألا يشعل نارا حتى لا يتنبه له من في الحصون ، فلما كان الصباح ، خرج زراع

اليهود فرأوا المسلمين ففروا هاربين ، فصاح النبي : « الله أكبر .. خربت خيبر .. إنا إذ أنزلنا بساحة قوم ، فساء صباح المنذرين » .
واختار النبي أن يكون الهجوم على خيبر ، ومقر معسكره بوادي الرجيع الذي يفصل غطفان عن خيبر حتى لا يأتي هؤلاء العرب المشركون مددا لليهود .
ويقول ابن اسحق ان غطفان همت فعلا بمساعدة جيرانها ، ولكن ما أن تحرك محاربوها وتركوا مساكنهم حتى أحسوا كأنما استعد المسلمون لتطويقهم واقتحام المساكن وهم بعيدون عنها ، فآثروا العودة وحماية دورهم وتركوا اليهود والمسلمين وجها لوجه .

كانت حصون خيبر كثيرة ومفرقة في سفوح الجبال المحيطة ، ولذا قسم النبي الجيش إلى وحدات ، وحاصرت كل وحدة حصتا : وبدأ الهجوم بشدة حول حصن يسميه الواقدي حصن نطاة ، فكان جرحى المسلمين خمسين مما يدل على مناعة هذا الموقع .

وحدث في أثناء الحصار أن مات كبير اليهود سلام بن مشكم ، فتولى مكانه الحارث بن زينب ، وكان أول حصن فتح هو حصن ناعم ، ثم القموص .
ويذكر ابن اسحق رواية تدل على شدة القتال ، وأن يهود خيبر كانوا غير يهود يثرب .. قال : خرج مرحب اليهودي من حصنه قد جمع سلاحه وهو يرتجز ويقول : من يبارز فقال النبي : من لهذا ؟ فانبرى محمد بن سلمة وقال : أنا يا رسول الله أنا والله الموتور الثائر قتل أخى بالأمس . فقال له النبي : « فقم إليه . اللهم أعنه عليه » فلما دنا أحدهما من صاحبه دخلت بينهما شجرة . فجعل أحدهما يلوذ بها من صاحبه كلما لاز بها منه اقتطع صاحبه بسيفه ما دونه منها ، حتى برز كل منهما لصاحبه وصارت بينهما كالرجل القائم ما فيها غصن ثم حمل مرحب على محمد بن سلمة فضربه ، فاتقاه بدرقة (درع) فوق سيفه فيها ، فعضت به فأمسكته وضربه محمد بن سلمة ضربة قتلته .

ثم خرج بعد مرحب أخوه ياسر ، فانبرى له الزبير بن العوام وكانت أم الزبير تشهد المعركة ، فقد خرجت مع الجيش ، وتمكن الزبير من قتل منافسه .
وكان النبي يرسل أصحابه واحدا واحدا لمهاجمة الحصون فكانوا يعودون ولم يفوزوا منها بطائل . أرسل أبا بكر فرجع ولم يفتح ، وأرسل عمر فكان نصيبه نصيب صاحبه . وكان علي بن أبي طالب مريضا بعينه . ولكنه لما رأى هذه الحال تقدم والمسلمون من ورائه يسرعون ، حتى وصل الحصن فركز رايته

وهجم عليه اليهود فأخذ يقاتلهم وهم يتراجعون امامه حتى احتموا وراء باب الحصن . فتكاثر عليه مع نفر من أصحابه حتى خلعه واقتحم عليهم مكانهم فرفعوا راية التسليم .

وكذلك فتح حصن الوطيح وحصن السلالم . وعفا النبي عن أهل هذين الحصنين وأمر بأن يتركوا أموالهم كلها وسلاحهم وأن يسيروا إلى الشام . وتنقسم حصون خيبر التي دانت للنبي إلى قسمين : قسم فتح عنوة وأسر من فيه وأزيل أهله عن مكانهم وقسم عرض الصلح قبل الهزيمة ، فأبقاهم النبي يزرعون الأرض لحساب ساداتهم الجدد من المسلمين . وذلك ان هذه القرى قسمت عليهم من مهاجرين وأنصار وشرط على من يقيم فيها من اليهود الذين عفا عنهم النبي ، أن يكون لهم نصف الثمار وأن يكون للمسلمين من أصحاب الأنصبة في الأرض النصف الآخر .

وقد أصاب سقوط خيبر بقية قوى اليهود في فدك وأم القرى وتيماء بزلزال شديد فقررت فدك أن تسلم دون قتال ، على أن يكون لها نصف أموالها ونصف غلتها كل عام والباقي جزية للمسلمين . فرضى عليه الصلاة والسلام بهذا . وكانت فدك كلها من نصيبه عليه السلام لأنها لم تفتح عنوة ولم يتكلف إخضاعها جهدا حربيا من الجيش .

وكان اليهود يحسون بمرارة بالغة من هذه الهزيمة العاتية التي حلت بهم . وقد ظهرت آثار هذه المرارة في بعض حوادث ساققتها لنا كتب السيرة منها أن زينب ابنة الحارث بن مشكم أهدت النبي شاة مشوية ، ووضعت السم في ذراع الشاة لما علمت أن النبي يحب هذا الجزء منها . ولكن الله صان رسوله وعصمه من أن يأكل هذا الطعام المسموم ، ودعا الفتاة اليهودية وسألها : ما حملك على ذلك ! قالت بلغت من قومي ما لم يخف عليك ، فقلت ان كان ملكا استرحت منه وان كان نبيا فسيخبر !!

وقد عفا رسول الله عن هذه الفتاة لأنه أعلم بطبائع النفوس وأعرف بحقيقة البواعث التي تحركها ، وقد مات من أكل هذه الشاة أحد المسلمين هو بشر بن البراء .

واختلف الرواة كثيرا في المدة التي أقامها النبي في خيبر وفي رواية لابن عباس ستة أشهر ، وفي رواية أخرى أربعين يوما ، وفي رواية ثالثة أقل من هذا ولا نستطيع الجزم بحقيقة المدة التي أتم فيها المسلمون فتح هذه الحصون ولكن نرجح أنها مدة ليست بالقليلة ، وقد تصل إلى شهور لأن النبي كان يهاجم

المواقع حصنا حصنا ، وبعضها كان يستعصى على الفتح ويكبد المسلمين عناء كبيرا ، وكانت هذه المواقع كثيرة ، وان لم يعرف لها احصاء دقيق لكثرة الأسماء التي ذكرت لها .

ولما ذهب النبي بجيشه إلى أم القرى ، وكان حريصا على دعوة يهودها إلى الإسلام فرفضوا هذه الدعوة بإصرار ، وعلى الرغم من أن جميع من خرج منهم للمبارزة قتل . (قتل منهم أحد عشر يهوديا) الا أنهم بقوا على دينهم . واستمر حصارهم أربعة أيام ثم فتح المسلمون منطقتهم عنوة وغنموا أموالهم وتركت الأرض والنخيل بأيدي اليهود . وذكر البلاذري أن النبي أمر عليهم عمرو بن سعيد بن العاص .

ولما بلغ أهل تيماء ما حل بوادى القرى ، نهجوا نهج أهل فدك فصالحوا المسلمين على الجزية الأولى ، وولى بلادهم يزيد بن أبي سفيان كما ذكر البلاذري .

وقد اختلفت كتب السير كثيرا فيما فتح عنوة وما فتح صلحا من مدن اليهود . وذلك لأن عمر بن الخطاب في أيام خلافته أخرج اليهود من ديارهم هذه . فلم يبق منهم أحدا لا في فدك ولا في خيبر ولا في تيماء . فقد رأى أمير المؤمنين أن بلادهم في طريق الشام ولا يوجد دليل واحد على أنها تقبل الاخلاص للحكم الإسلامي ، وطريق الشام كان طريق الامداد والجيش والرسول تغدو تروح ، ولا بد أن يكون طريقا آمنا تماما . وبهذا تطهرت الحجاز كلها من أي أثر لليهود فيها . وما زالت كذلك حتى اليوم وإن كان يهود هذه الأيام بدأوا يمدون أبصارهم إليها .

كانت غنائم المسلمين بعد فتح قرى اليهود وحصونهم في الشمال وفيرة جدا ، حتى أن سيرة ابن هشام تورد تفصيل قسمة المغانم في نحو ثمانى صفحات من القطع الكبير . ولا عجب ، فإن خيبر وما جاورها كانت من أغنى بقاع الحجاز وهكذا تخلص المسلمون بعد خيبر ، من أخطر خصم كان ينافسهم في جزيرة العرب لأنه كان مسلحا بعدة أسلحة . أولها كتابهم الذي كثيرا ما حرقوا آياته وهاجموا بنصوصه المسلمين . وثانيهما أموالهم التي كانت تضمن لهم صلوات قوية مع كثير من قبائل العرب . وثالثها قوتهم المادية ومناعة حصونهم وقدرة بعضهم على الحرب . وخصوصا أهل خيبر .

وفي رأينا في كل ما سبق أن رسول الله كان شديد الحرص على أن يصل إلى

اتفاق مع اليهود فلم يستطع . ولم يحص عليه في مرة أنه كان يغض من دين اليهودية أو يجرحه : اللهم ألا التزييف الذى أدخله الأحبار على أسفار التوراة بغية الكيد للمسلمين والدس لهم .. وفي تاريخ اليهود لولفنسون :
« وهناك أمر يستوقف النظر وهو أنه كان من بين المغانم التى غنهما المسلمون من غزوة خيبر صحائف متعددة من التوراة ، فلما جاء اليهود يطلبونها أمر النبي بتسليمها لهم » .

ويدل هذا على ما كان لهذه الصحائف فى نفس الرسول من المكانة العالية مما جعل اليهود يشيرون إلى النبي بالبنان ، ويحفظون له هذه اليد ، إذ لم يتعرض بسوء لصحفهم المقدسة . ويذكرون بإزاء ذلك ما فعله الرومان المتعصبون من النصارى فى اضطهاد اليهود فى الأندلس حيث أحرقوا صحف التوراة . هذا هو البون الشاسع بين الفاتحين ممن ذكرناهم وبين رسول الإسلام « أ . هـ » .

وفى فتوح البلاذرى أن النبي أوصى عامله معاذ بن جبل ، حين وجهه إلى خيبر « بأن لا يفتن اليهود عن يهوديتهم » . وكما ورد فى نفس المصدر أنه لم يكره يهود البحرين على ترك دينهم واكتفى منهم بالجزية .
وما لنا نترك صحيفة العهد التى كتبها النبي أول قدومه المدينة ونذهب بعيدا ، وفيها أنه يترك لليهود حريتهم الدينية .. اللهم قد أثبت نبى الإسلام فى جميع مراحل حياتهم أنه كان بعيدا عن التعصب ، وأنه نفذ مبدأ « لا إكراه فى الدين » تنفيذا حمل اليهود المتأخرين من أمثال إسرائيل ولفنسون على أن يكبروا هذه الناحية من تاريخ الإسلام أى إكبار .

وينبغى لنا أن نقف وقفة قصيرة عند ما جاء فى كتاب مارجوليوث (١) .
تعليقا على سقوط خيبر : « وقد عاش محمد هذه السنين الست بعد هجرته إلى المدينة على السلب والنهب ، ولكن نهب أهل مكة قد يبرره طرده من بلده ومسقط رأسه وضياع أملاكه . وكذلك بالنسبة إلى القبائل اليهودية فى المدينة . فقد كان هناك على أى حال سبب ما - حقيقيا كان أو مصطنعا - يدعو إلى انتقامه منهم . إلا أن خيبر ، التى تبعد عن المدينة كل هذا البعد لم يرتكب أهلها فى حقه ولا فى اتباعه خطأ يعتبر تعديا منهم جميعا ، لأن قتل أحدهم رسول محمد لا يصح أن يكون سببا يتذرع به للانتقام » .

(١) وقد ترجم النص الدكتور حسن إبراهيم فى كتابه « تاريخ الإسلام السياسى » .

وعلى الرغم مما في هذا القول من بذاءة وسوء أدب ، ففيه أيضا مجافاة لروح الصدق ولما ينبغي أن يتصف به العالم من أمانة ، فقد ذكرنا في أسباب فتح خيبر أن النبي كان يستند في تصرفه مع أهلها إلى ثلاثة أسباب رئيسية :

أولا - أنها كانت من أهم العوامل على انضمام غطفان إلى الأحزاب ، وقد وعدّها اليهود بنصف ثمار خيبر ، رشوة لها ، ولا يعقل أن يكون نصف الثمار ملكا لفرد حتى يقال إنه لا يعبر عن رأى خيبر كلها ، وإنما خيبر كلها اشتركت في هذا التحريض .

ثانيا - فضلا عن أنها أوت أعداءه من بنى النضير ، وولتهم زعامتهم وتركتمهم يسافرون في أنحاء الجزيرة ، يؤلبون على النبي ، فإن خيبر عاودت تأليب الأحزاب من جديد على أن تزحف هي ويهود أم القرى وقيماء وفدك ، لكي تستأصل « الاسلام » حتى أن شخصا جاء الى النبي يقول له إن كتائب اليهود في طريقها الى المدينة ولقد حاول النبي أن يفاوضهم ، ويأخذ ميثاقهم على طاعته ، فأوفد لهم وفدا كبيرا من ثلاثين شخصا وكاد الصلح أن يتم بينهم ، الا أن وفد اليهود هم بالغدر في الطريق فأبيد عن آخره .

ثالثا - ثم إن النبي ما كان يمكن أن يسكت عن بقاء اليهود وهم من غير شك يحملون له أكبر الضغائن ، بسبب ازالة يهود يثرب عن مكانهم بالنفى والقتل ، اذ المعروف أن اليهود شعب واحد ، وهامم هؤلاء قد اختاروا لزعامتهم بعض من نفاهم النبي من بنى النضير . نقول ما كان يمكن أن يسكت عن بقاء هذا العنصر المعادي وهو ينتقل بجيشه في القبائل المجاورة ويتجهز لغزو مكة .. ترى هل كان مارجوليوث يستريح لو أن النبي غادر عاصمته في رحلة بعيدة مع جيشه ثم أقبل اليهود من الشمال وخرّبوا له مدينته وسبوا نساءها وأطفالها؟! لقد كانت كل الغزوات الحربية توجب على النبي ، كقائد حربى بصير ، أن يؤمن المناطق التي حوله ويطهرها من العناصر المعادية حتى يشرع في عمل واسع النطاق ضد الشرك والمشركين .

وأخيرا ليس السلب والنهب والتلصص هو ما أثار مارجوليوث ، ولكن اثاره وضغط على أعصابه حتى كادت تتمزق ، النتائج الحاسمة لسياسة النبي مع اليهود ، ولولاها لما أمكن للاسلام أن يخطو في أعوام قليلة ، هذه الخطوات

الواسعة فتدين له العرب كلها . ومما يكشف عن السبب الحقيقي لحنق مارجوليوت قوله بعد قليل :

« .. وهذا يبين لنا ذلك التطور الذى طرأ على سياسة الرسول الأولى منذ كان فى المدينة عندما أعلن معاملة اليهود كمعاملة المسلمين ، وأن يترك الوثنيين (١) لا يتعرض لهم بسوء ماداموا يعيدين عن اظهار عدائهم للمسلمين ، أما الآن فإن مجرد القول بأن جماعة ما ، مشركة أو يهودية ، غير مسلمة ، يعتبر كافيا لشن الغارة . وهذا يفسر لنا تلك الشهوة التى سيطرت على نفس محمد والتى دفعته لشن غارات متتابة كما سيطرت على نفس الاسكندر من قبله ونابليون من بعده » .

وأكثر من هذا دلالة على عقلية ونفسية مارجوليوت قوله أيضا : « ان استيلاء محمد على خيبر يبين لنا الى أى حد قد أصبح الاسلام يهدد العالم !! » .

حقيقة لقد كان الاسلام خطرا يهدد العالم .. ولكن أى عالم ، عالم الشرك وعالم الاثم وعالم الظلم وعالم الخطايا .. عالم العرب فى أوثانهم حتى تحطم الأوثان ، وعالم اليهود فى أحقادهم حتى تنطفىء الاحقاد . وعالم الفرس والرومان فى ظلمهم واثمهم حتى يزول الظلم وتمحى الاثم . ولقد أدى محمد عليه السلام رسالته ورسم الخطة للذين جاءوا بعده فنفذوها كاملة يحدوها التوفيق الإلهى .. ولم يوقف سير الزمن سخفا كهذا السخف الذى انطوت عليه نفسية حقود باسم العلم أو آلاف الحاقدين مهما لبسوا من مسوح واختفوا وراء أستار ..

وإذا كنا قد عرضنا بتفصيل لموضوع خيبر منذ أربعة عشر قرنا .. فلأن يهود اليوم يعلنون من اسرائيل أن خيبر ، حقهم ، وانهم يستعدون للزحف عليها . أى الزحف على الحجاز ، واستعادة خيبر ، والثأر من المدينة المنورة .. هكذا يقدررون ، ولكن للاقدار حديث غير حديث اليهود بإذن الله .

الأنبياء والقرآن الكريم :

وليس هذا التفكير بغريب على اليهود . فانهم يزعمون لأنفسهم حقا فى فلسطين لأن فريقا منهم كان يسكنها قبل الاسلام بخمسة قرون . ويزعمون أن

(١) هذا خطأ فاحش ، فقد هادن النبى اليهود ، لانهم اهل كتاب ، اما المشركون فلم يتحول النبى قط عن عزمه على حربهم او يقبلوا الاسلام .

لهم حقا في العراق ، لأن ابراهيم الخليل ولد فيها منذ خمسة وثلاثين قرنا وعلى هذا فان خير ، وضواحي المدينة المنورة كانت آخر موقع قدم لهم في المنطقة العربية .. وما داموا يزعمون ان لهم حقا في أول مواقع أقدامهم ، فان أبصارهم ستمتد الى آخر ماكانوا يعيشون فيه من أرض ..

والحقيقة أن القرآن الكريم ، ونبي الاسلام عليه أزكى صلاة وتسليم بذلا أعظم جهد لكي يتحول اليهود الى قوم قابلين للتعايش السلمى مع بقية الناس ولكن أحدا منهم - باستثناء أفراد قلائل - لم يعدل عما سار فيه هو وأسلافه منذ فجر تاريخهم ، من العتو في الكفر ، والكراهية للبشر أجمعين .

لقد أنفق القرآن نحواً من ثلث آياته في استعراض تاريخ التوحيد وأنبيائه ، ومجادلة اليهود في عقائدهم ومايزعمون . وليست هناك وسيلة للمقارنة بين ما حشدته التوراة عن هؤلاء الأنبياء من حقائق قليلة ، وأباطيل كثيرة ، وهذا الأسلوب العف الأمين الذي عرض به القرآن لسيرة أنبيائهم وعقائدهم . ان القرآن يتحدث عن تأمل ابراهيم في الكون من حوله ، ويستهدى ملكوت السموات والأرض .. تأمل في الشمس والقمر ، والليل والنهار ، وأيقن ان لها جميعاً خالقاً فوق كل هذه المخلوقات . وبدأ حواراً مع أهله من عبدة الأصنام . وقد كان ابراهيم عفا ودوداً لمخالفه ، فلما هدده أبوه بأن يرجعه عن دين التوحيد ، لم يرتد الابن ، وقال : سلام عليك ، سأستغفر لك ربى إنه كان بى حقياً .

وما أجمل وأعذب ما عبر به ابراهيم عن احساسه بالذات الإلهية وهو يقول :

« الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقن ، واذا مرضت فهو يشفين ، والذى يميئنى ثم يحيين ، والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين ، رب هب لى حكماً وألحقنى بالصالحين ، واجعل لى لسان صدق فى الآخرين ، واجعلنى من ورثة جنة النعيم ، واغفر لأبى ، انه كان من الضالين ، ولا تخزنى يوم يبعثون ، بيوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم . »
(الشعراء ٧٨ - ٨٩)

ونرى ابراهيم فى هذا الدعاء يتحدث عن أمرين عامين :
أولهما : البعث بعد الموت ، وهو من الكلمات الأولى التى نزلت على لسان أبى الأنبياء . ولانجد للبعث ذكراً واضحاً على السنة أنبياء التوراة من قبل ابراهيم ، وبعده ، حتى ظهر المسيح عليه السلام .. وانما وردت

إشارات يصعب تأويلها عن الهاوية - أو جهنم - في سفر أيوب
اصحاح ١٩ :

« وبعد أن يفنى جلدى هذا ، وبدون جسدى ، أرى الله » .
وحتى في عصر المسيح كانت طوائف من اليهود - الصدوقيين مثلا -
تنكر البعث تماما .

وفي هذا نجد التوراة دونت عقيدة ينقصها ركن من أهم أركان
الايمان .

ثانيهما : أن ابراهيم ، دعا الله لخلفائه أن يكونوا من بعده لسان صدق ووصف
القرآن اسحق ويعقوب أجمل وصف .. اذ قال :
« وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ، وأوحينا إليهم فعل الخيرات ، وإقام
الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وكانوا لنا عابدين » .

(الأنبياء - ٧٢)

فأين هذا الاعداد السليم الكريم لحمل رسالة التوحيد ، مما أورده مؤلفو
التوراة عن ابراهيم واسحاق من انهما تاجرا بزوجتيهما إلتماسا للثراء والأمن .
وكيف خدع يعقوب أباه اسحاق لما كف بصره ، وأخذ منه عهد الولاية على قومه
بالكذب والغش ، على نحو ما مر بنا ، نقلا عن نصوص التوراة .

ولما دعا ابراهيم ربه ، بأن تكون ذريته أئمة للناس ، رد الله سبحانه وتعالى
في قرآن مبين : « قال لاينال عهدى الظالمين » . واذن فليس يكفي أن ينتسب أى
انسان لأب من الصالحين ، ولكن ينبغى أن يكون هو صالحا فالنبوة والولاية على
مناسك الناس ليست ارثا ، ولكنها عمل ومجاهدة .

واسماعيل أبوعرب الحجاز .. الذى أسقطته التوراة من حسابها ؟ لقد
وصفه القرآن الكريم انه كان من الأخيار وقال عنه :

« واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادقا الوعد ، وكان رسولا نبيا » .

(مريم - ٥٤)

هل أهمل كاتبو التوراة اسماعيل ، لأنه كان من أم مصرية ، وهم يحملون
للمصريين حقدا دفيئا ، وكيدا عظيما ؟ ربما كان هذا هو السبب ؟ .
ولماذا ينقم اليهود على المصريين ؟ لقد جاؤوهم أيام يوسف الصديق عشرات
قليلة حددتهم التوراة بأنهم كانوا سبعين فردا بما فيهم أطفال يوسف . وخرجوا
منها ، وقد تضاعف عددهم عشرة آلاف مرة !! .

لقد غذتهم مصر ، ووفرت لهم الحياة ، والعمل . ولكن العمل هو الأمر الذى

ظل يزداد عبئه على اليهود ، وهم رعاة غنم لا أهل انتاج .. فلما قسا عليهم المصريون ، ولم يوفروا لهم حرية الحياة على طريقتهم ، وألزمهم تحتمس الثالث وابنه ، بأن يشاركوا في بناء معابده - معابد لآلهة لا يدينون لها - كان هذا هو الظلم الذي وقفت السماء بجانبهم فيه ، وأنجبتهم منه وعاقبت ظالمهم . ان الله خلق الناس أحرارا في عقيدتهم ، وفي عملهم ، وفيما يملكون ، على ألا يكون في هذه الحرية مضرة وغبن للآخرين .

وهذا ما سارت عليه شرائع السماء من يومها الأول : معاونة الانسان الذي توفر له الحرية الهداية ، والايمان .. وتوفر له الحرية سبل العمل والسعى في مناكب الأرض .. وتوفر له الحرية الاحساس بحاجة الآخرين إلى الحرية ، فيعمل على أن يسود الأمن جماعته .

فكما اهتدى ابراهيم الخليل لربه بالتأمل والتفكير .. كذلك صنع واحد من نسله - وهو سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام - ان انقطع في غار حراء سنين طويلة يتأمل في الكون ثم يهتدى الى نفس النتيجة : إله واحد أحد . ولقد دعا ابراهيم قومه الى الرشاد بغير إكراه ، كذلك صنع المسيح عليه السلام ، وكذلك صنع محمد خاتم الأنبياء والمرسلين .

لا إكراه في الدين

لاظلم للناس .

وتمتعوا ودعوا غيركم يتمتعون .

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد في الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين » .
(القصص - ٧٧)

ولقد فتح الله باب رحمته في أول الأمر لليهود ، عسى أن يكونوا شعبا مختارا يسير الناس في أثره مهتدين ، ولكنهم لم يصلحوا لحمل هذه الامانة ، وغلب عليهم الشقاء ، كما غلب على ابليس في بدء الوجود .. وما أروع وصف القرآن الكريم لهم :

« ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة ، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وإن منها لما يهبط من خشية الله ، وما الله بغافل عما تعلمون » .

(البقرة ٧٤)

وقال :

« وضربت عليهم الذلة والمسكنة وبأثوا بغضب من الله » .

(البقرة ٦١)

وقال :

« لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون » .

(المائدة ٧٨ - ٧٩)



□ الفصل العاشر □

اليهود .. والحوالة الإسلامية

ذلك كان تاريخ اليهود في حياة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام .. وقد كرروا - كما رأينا - حربهم ضد المسيح والمسيحية ، مع الاسلام والمسلمين . وقبل أن نمضى الى مرحلة جديدة من تاريخهم معنا ، نقف قليلا عند شبهات لاحت لبعض الذين يقرأون القرآن الكريم ، ويسمعون قوله تعالى : « يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ، وأنى فضلتكم على العاملين » . ولا ينبغي أن نقف عند هذه الآية ، دون أن نتبين أسباب نزولها ، والميقات الذى تتحدث عنه ، والآيات الأخرى التى توضح معناها وتحدهه ، ونحن نعلم أن القرآن يفسر بعضه بعضا ..

فقد كانت محاولة من السماء ، فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد وما بعده ، أن يدل هذا الفريق من البشر من سلالة يعقوب على طريق الخير والفلاح ، عسى أن تكون منهم أمة صالحة ، يقتدى بها سائر الناس وما أكثر محاولات السماء لاصلاح ما أعوج من أمرهم . ولتبصيرهم وترشيدهم عن طريق الأنبياء ، وعن طريق الأحداث المتعاقبة ، ولكن لم تثمر فيهم كلمة الخير ، ولم تطرح شجرتهم الا مرا وحنظلا .. فماذا كانت نتيجة كفرانهم وعصيانهم ؟ .. كانت النتيجة فى قوله تعالى :

« سل بنى إسرائيل كم أتيناكم من آية بينة ، ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب » .

وكان تفضيل بنى اسرائيل ، على العاملين في وقت نصرتهم ، واخراجهم من مصر بقيادة موسى ، وارسال الألواح بوصاياها لهم . وانه تفضيل ينسحب على فترة بعينها وأحداث محددة .. وآية ذلك قوله تعالى :

« ولقد نجينا بنى إسرائيل من العذاب المهين . من فرعون إنه كان عاليا من المسرفين . ولقد اخترناهم على علم على العاملين . وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين » .

فماذا كانت نتيجة هذه الرعاية الإلهية ، التي خص بها هؤلاء القوم ؟ كانت صحائفهم السود ، من كفران بالله ، وعبادة للأوثان صاحبتهم طوال تاريخهم القديم وتحريفهم كلام الله وتبديله ، وقتلهم الأنبياء والمرسلين والهداة بغير الحق . واختلافهم بعضهم مع بعض ، وعبادتهم الذهب وخديعتهم ووضع كل طاقاتهم في خدمة القوى الأجنبية رعاية لمصالح عاجلة ، أو كسب قريب . وهكذا مهدت كل نفس منهم طريق دمارها ، وسوء حسابها في يوم أت لاشك فيه « ولا تنفعها شفاعاة ، ولا هم ينصرون » .

وهكذا نقول ان تفضيلهم كان بداية التجربة ، وعدم جدارتهم بحمل الأمانة ، كانت نهاية التجربة ، وخاتمة مطافها : « وضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وباعوا بغضب من الله ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون النبيين بغير الحق ، ذلك بما عصوا ، وكانوا يعتدون » .

وإذا نحن تابعنا ما حدث من تبديل وتحويل في صلب العقيدة اليهودية ، منذ استقر الاسرائيليون في جزء من فلسطين ، نجد الملامح الأولى تغيرت من صفاء التوحيد ، الى ذبذبات واضافات صادفتها على مر خمسة عشر قرنا بين موسى والمسيح . ولما جاءت رسالة يسوع لتقوم ما اعوج من أمر المعبد وكهانه ، كان التغيير المستمر قد تحجر ، وأحكمت على قلوب القوم اقفالها .. ومضت خمسة قرون وبعض قرن ، لتشرق الدعوة المحمدية بين « الاميين » أى الأمم الأخرى غير الاسرائيليين . وكما انكر اليهود ان يجيء خير من نبي ظهر في « الجليل » ، وهى على مرمى حجر من « ايليا » ، أو « اورشليم » ، كذلك كان الحال مع نبي ظهر في الحجاز أرض الاسماعيليين .

عادت الدعوة الاسلامية بالتوحيد الى صفائه ، كما جاء به ابراهيم الخليل . وطوى الزمن ثلاثين قرنا لكى يتصل ما بين أبى التوحيد ، وحامل شعلته من جديد محمد بن عبدالله .. وتركز الخلاف مع اليهود - كما مر بنا - في

انكارهم الرسالتين المسيحية والاسلام . وكان طعنهم أشد وأقسى على المسيح وعلى أمه مريم .

يقول الدكتور على سامى النشار (١) :

« إذا نظرنا الى طبيعة اليهود والإسلام ، فاننا نرى أنهما يتفقان في أشياء ويختلفان في أشياء : يتفقان في أنهما ناديا بالتوحيد ، ويختلفان في تجسيم اليهود للإله الواحد ، ونفى الإسلام للتجسيم . ظهر الإسلام ينادى بأنه دين وسط ، ويحاول أن يخفف من غلواء المادية اليهودية الطاغية .. ويختلفان في أننا نجد في اليهودية نظرا عقليا في الوجود . ولايحاول العهد القديم أن يربط الظواهر الكونية في وحدة فلسفية متسقة ، انما يصور حوادث الكون كلها خاضعة لقوة قهرية مادية تسيطر ، ولايستطيع العقل أن يتسامى الى كنهها . اما الإسلام فانه ربط الظواهر الكونية في وحدة فلسفية متسقة .

وقال : « ويختلف الإسلام مع اليهودية في صورة موسى - فموسى التوراة جبار عنيف يقتل ويغرم بالدماء . اما قصة موسى في القرآن ففيها أجمل المعانى النفسية والروحية . ومن العجب ان تلهم قصته بعد ذلك كثيراً من المعانى الصوفية الدقيقة « فخلع النعلين » في الوادى المقدس . « ومقام لن ترانى » اثارته أجمل النظريات الصوفية بل نرى الحلاج فيما بعد ينادى - وقد قطعت قدماه وذراعاه بسيف الشرع ، ينادى بأية موسى القرآنية : « وعجلت إليك رب لترضى » فموسى القرآن غير موسى التوراة . لقد وضعه القرآن في نسق الأنبياء الانسانيين الذين تنبثق منهم أغنيات الروح ، بينما وضعه اليهود منذ القدم ، وحتى الآن ، قاتلا جبارا ، يقتل من يشاء من غير اليهود ، ولاتحركه غير عاطفة اليهود ، ولايتجه الا إلى اليهود . جعله الإسلام « روحا » وجعله اليهود مادة .. جعله الإسلام نبيا انسانا ، وجعله اليهود نبيا صنما .

وهذا الرأى الفلسفى الناجح ، واضح مما قدمنا من مقارنات قبل ذلك .. ولعل السلام الذى خاض به اليهود معركتهم الثالثة ضد الإسلام ، هو اختلاق الأحاديث والمواقف ، ودهسها على الفكر الاسلامى ، والجماعة كلها . فمنهم من أسلم خداعا وزيفا .. وأخذ على الفرقة في الرأى والتأويل ، ويجند أعوانا يحارب بهم غيره . وعلى الرغم من المتاعب التى لقيتها العقيدة الاسلامية فيما بعد من

(١) استاذ الفلسفة الإسلامية في كلية آداب الاسكندرية وكتابه نشأة الفكر الفلسفى في الإسلام .

هؤلاء المندسين ، الا أنها كانت شديدة اليقظة عظيمة الحذر ، بحيث تغلبت على هذه الأضرار ومحتها مع مسيرة الزمن .

قبل الفتح الإسلامي :

هناك فترة من الزمن تبلغ خمسة قرون ، انقضت منذ خرج آخر يهودى من اورشليم حتى وصلت اليها جيوش أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . فلم يكدمضى على انتقال المسيح عليه الصلاة والسلام خمسون يوما حتى بدأ أصحابه التبشير بتعاليمه ، وقد زایلهم الرعب ، واتقنوا التخفى : فأنشأوا لعبادتهم مكانا ، يعد أول كنيسة في العالم .. ثم بدأت الدعوة تمتد بهؤلاء الذين خرجوا يبشرون ويكافحون عن دعوة الحب والسلام .

وإذا كانت اورشليم قد انتهت من حياة اليهود بعد دمارها . وإعادة بنائها كقرية رومانية ، على الأنقاض القديمة ، فان فئات قليلة ظلت مبعثرة في بعض المدن الفلسطينية ، ولاسيما في طبرية ، التي أنشأها اليهود بعد هيروود وحملت اسم الامبراطور الرومانى طباريوس ، تقريبا من اليهود اليه . وفي عام ١٨٠م بدأ كاهن منهم يحمل اسم « يهودا » في جمع وتدوين قوانين يسير اليهود المشردون بمقتضاها . واستمرت هذه المحاولة قرنا ونصف قرن بعد ذلك حتى جمعت « المنشنا » . وقد أضاف يهود بابل اليه « الجمارة » ، ومن الاثنى كان التلمود ، أى التعاليم وهى من خمسة عشر جزءا ، وتعد شروحا واضافات للتوراة ، ويحافظ اليهود قدر استطاعتهم على سريتها .

وهكذا كان انتزاع السلطة الزمنية منهم مفيدا لهم في عملية التدوين المستفيضة ، ومن القرن الثالث حتى الآن ، واليهود يعيشون في هذه الصحائف التى خلقوها في وحشة الهزيمة ، وقرون الضياع ، ثم ما لبثت هى أن خلقتهم ، وعاشوا بها ، مهما تباعد بهم المقام ..

التوراة والتلمود ، كتبا في العراق ، وفي فلسطين ، في سبعة قرون ، وهى أطول فترة في التاريخ دون فيها كتاب ، بأقسامه المختلفة ، وقد خلق الانجيل للمسيحيين روحا معنوية قوية ، جعلتهم يصمدون لكل أنواع الارهاب والعذاب ، حتى انتصرت عقيدتهم . والقرآن خلق للمسلمين عقيدة واعية ، وايماننا راسخا مكنهم في نصف قرن من أن يطيروا على أجنحته من قلب الجزيرة العربية الى المحيط الهادى في أقصى الشرق والمحيط الأطلنطى في أقصى الغرب ..

أما التوراة ، وتلمودها ، فلم تصنع لليهود الأول بعد سقوط أورشليم النهائى شيئاً يذكر . بل كان المخلفون منهم فى فلسطين يباعون فى سوق الرقيق ، وكان سعر الحصان أعلى من سعر اليهودى . وكانت سوق بيعهم تقام فى ضواحي حبرون التى هى مدينة الخليل .

وكان سقوط اليهودية ، مؤذنا بارتفاع أعلام المسيحية تدريجيا . اختفت اليهودية فى فلسطين بعد قرن أو قرنين من ميلاد المسيح ، وما أسفت عليهم أرض الكنعانيين ، ولا اهتزت فى جبل الزيتون شجيرة .. وأين هذا من وقت ، مدتهم السماء بعنايتها وموسى يقودهم ، وفرعون يفرق مع جنده .. ان ماينطبق على اليهود فى هذه الفترة ، هو ما انطبق على فرعون وجنده من قول كريم : « فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين » .

يقول « جييون » فى مرجعه الكبير : « اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها : ان المسيحية انتشرت ، لأنها صححت الكثير من تطبيقات اليهود لعقيدتهم فى الرب ووسائل عبادته » .. وبدلا من التدشين بالدم ، حل شئ أقل ضررا وهو التدشين بالماء .. وبعد أن كان الوعد برضا الله محصورا فى ذرية ابراهيم - تحيزا وتحزبا - أصبح فى المسيحية قدر مشترك للأحرار والعبيد ، واليونان والمنتبربرين ، واليهود والأمميين (الأميين) ... وكان تحرير الكنيسة من قيود هيكل بنى اسرائيل ، على أية حال ، عملا يتطلب وقتا ، كما أنه شاق نوعا .

وكان الأساقفة (المسيحيون) الخمسة عشر الأولون فى أورشليم من المختلفين . وجمع شعب الكنيسة الذى ترأسوه بين شريعة موسى وتعاليم المسيح . وأصبحت كنيسة أورشليم الأرثوذكسية هى الكنيسة الأم ، حتى قامت كنائس أخرى كبيرة فى انطاكية والاسكندرية ومدن اليونان وروما نفسها . وبعد أن كان أتباع المسيح من اليهود السابقين ، أخذت جموع كبيرة من أديان وثنية ، تستظل براية الايمان الجديد . وقد عاق دخولهم من قبل ثقل الطقوس الموسوية ، وفداحة تكاليفها النفسية والمادية . وأخذت الهوة تتسع بين المسيحيين واليهود . وزاد فى عمق الهوة ماكشفت عنه صحائف التوراة من المذابح الهائلة التى أجراها اليهود فى أرض كنعان على كل من قدروا عليه من البشر ، وأنه لايمكن لشعب ربانى أن يأتى مثل هذه الجرائم .

وكانت نظرية البعث والحياة الثانية وخلود الروح التي بشرت بها المسيحية سببا أقوى ، في ابتعاد الدين الجديد عن اليهودية ، التي لا تؤمن بشيء من هذا .

واستقلال العقيدة المسيحية بطقوسها ، وانفتاحها على الناس جميعا ، هزم الفلسفة الوثنية في جانب ، والعبادة اليهودية في جانب آخر . وبدأ ذلك كله بهدم الهيكل ، وكل مكان كان يجمع اليهود كقومية . وكانت قوة الدولة الرومانية أخذت تذوب ، وتتداعى . حتى أن سبعة وثلاثين رجلا نودى بهم أباطرة في فترة خمسة وثلاثين عاما من القرن الثالث الميلادي .

وفي عهد الامبراطور قسطنطين ، كانت مقاومة المسيحية لما حل بها من اضطهاد قد فاقت كل حد متصور ، وأصبح واضحا أن العسف يزيدها قوة ، ولا يطفىء لها نارا أبدا . وبدأت خطة التسامح مع المسيحية في أوائل القرن الرابع الميلادي ، فأعفيت أملاك الكنائس من الضرائب ، وجعلت الكنيسة وارثة لأملاك الشهداء الذين لم يتركوا ذرية ، الى جانب هبات الدولة للمسيحيين وانتهى هذا كله باعتراف قسطنطين الامبراطور الدين المسيحي .

وفي وسط الخرائب القديمة البيزنطية ، أقام قسطنطين مدينة جديدة تحمل اسمه ، مديرا ظهره لروما ، وكان ذلك عام ٣٣٠م . وانتهت بذلك قصة الدولة الرومانية ، التي حكمت العالم من وسط ايطاليا ، وشهدت انتصارات هائلة ، حولت البحر المتوسط الى بحيرة رومانية ، وضمت اليه بحر الشمال أيضا .. وكانت المسيحية عاملا هاما في هذا التطور^(١).

وكان رد الفعل في اورشليم لهذا التطور التاريخي عظيما . فقد أصبحت المدينة تابعة للدولة الجديدة . وفي سنة ٣٣٥م زارت الامبراطورة هيلانة المدينة ، وبنت كنيسة القيامة ، وكان على الصخرة بناء صغير ، هدمته ، وجعلته مقرا للقمامة ! ونكاية في اليهود المبعثرين هنا وهناك أمر قسطنطين اليهود أن يتنصروا ، ومن يرفض دين الدولة الجديدة يقتل ، أو يغادر البلاد . وهؤلاء اليهود المبعثرون الذين كانوا يتسللون الى فلسطين ، ثابروا على انتهاز فرصة ضعف في الدولة ، أو غفلة من الحكام ، لينشئوا في اورشليم هيكلًا جديدًا يتجمعون حوله .

(١) احتفلت روما عام ١٩٣٦ بمرور ٢٦٨٩ عاما على تأسيسها .

وجاءت الفرصة أيام الامبراطور جوليان ، الذى بدأ سيرة أخرى ، اذ أعلن ميله لمساعدة اليهود ، وحمايتهم ، ومساعدتهم على بناء الهيكل ، وذلك كراهية منه للمسيح والمسيحية .

يقول « جيبون » فى تاريخ سقوط الامبراطورية الرومانية إن ما جذب هذا الامبراطور الى اليهودية هو أنه كان شديد الشغف بالقرابين الدموية الى درجة أنه كان يريد أن يبرز الملك سليمان حين نحر فى عيد التقدمة ، ٢٢ ألف ثور و ١٢٠ ألف خروف . وحتى يغيظ المسيحيين وكنيسة القيامة التى أقامتها الملكة هيلانة ، فقد أمر باقامة معبد يهودى فوق مرتفع جبل مورية ، تتضاعل الكنيسة الى جانبه ، وكانت مقامة على تل كلفارى المجاور . وعلى عادة اليهود فى الاحتفال بمثل هذه الانتصارات ، فقد تقدم أغنياؤهم فى كل مكان بمعاول مصنوعة من الفضة ، وكانت الأتربة تنقل فى عباءات من الحرير .

وكان المسيحيون مغضبين أشد الغضب ، حانقين على هذا العمل ، يتمنون فرصة أو مناسبة تدمر ما يحاول اليهود إعادته . وحدث حادثان لا واحد : موت الامبراطور جوليان بعد ستة أشهر من ابتداء هذا العمل . ثم حدوث زلزال ، وثورة بركانية ، دمرت كل ماشيده اليهود لاعادة الهيكل . وبهذا زالت القيود والمصادر الرهيبة التى طبقها جوليان على المسيحيين . فالى جانب مصادرة الأموال ، حرم عليهم تعليم فنون النحو والبلاغة . قال فى مرسومه : إن أولئك الذين لا يجرون بديانة اليونان (الوثنية !) ويرفضون عبادة آلهة هوميروس وديموستين ، يجب عليهم أن يقنعوا بشرح انجيل لوقا ، وانجيل متى فى كنائس الجليليين . وشمل مرسوم جوليان علوم الطب والفنون الحرة . وبدأت حركة هدم للكنائس وكان من العقوبات التى طبقها الحكام فى هذه الردة الوثنية المفاجئة ، وطرب لها اليهود ، عقوبة وقعت على أسقف مسيحي اسمه مرقس عجز عن دفع غرامة كبرى وقعت عليه ، فبعد جلده بطريقة وحشية ، علقوه فى شبكة بين شجرتين ، وطلوا جسده بعسل النحل ، وترك عرضه للهواء والحشرات مدة ، فتحمل الأذى صابرا ، الى أن كفوا عن تعذيبه :

وكانت نهاية جوليان هذا عام ٣٦٣م عندما أصيب بجرح مميت فى حربه مع الفرس ، فهلك .. وأخذت المسيحية تعود تدريجيا إلى مجدها ، وينزوى اليهود ، منسحبين إلى حوارى العالم المظلمة . وأخذت الكنائس ترتفع مرة أخرى فى اورشليم ، التى أصبح اسمها « ايلياء » . ثم كان ما أشرنا اليه من توالى أباطرة

ضعاف على رأس الدولة ، فاستغل الفرس الفرصة ، وهاجموا مواقع الامبراطورية المسيحية في آسيا ، وسقطت فلسطين في أيديهم .

وفي سنة ٦١٤م احتل كسرى (ايلياء) أو « أورشليم » ، وأمر قائده « خزرويه » بذبح تسعين ألفا من سكانها المسيحيين ، وهدم الكنائس ، ومنها كنيسة القيامة . وكان اليهود عيوناً وجواسيس للفرس الوثنيين في هذه المجازر ، وساعدوا بدورهم على ابادة المسيحيين ، بل تقول مراجع كثيرة إنه هلك على أيديهم من المسيحيين أكثر من الذين قتلهم الفرس .

وفي هذه الفترة كانت الدعوة الإسلامية ، تكافح للظهور والانتصار في الحجاز ، وجاءت الأنبياء بما حل بالمسيحيين ، وكيف هزم الرومان وولوا مدبرين . وهنا نزلت آية قرآنية تتناول هذه الحرب ، وتتنبأ بمصير آخر ، وأطلق اسم الروم على السورة التي افتتحت بهذه الآية :

« ألم غلبت الروم في أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون ، بنصر الله ، ينصر من يشاء ، وهو العزيز الرحيم . وعد الله ، لا يخلف الله وعده ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .. »

واهتمام المسلمين ، وهم لا يزالون بعد في مكة ، لم يهاجر منها سيدنا محمد ، له دلالة عميقة ، على أن الحجاز لم يكن بمعزل عن الأحداث العالمية ، وتغلب الفرس وهم بعد وثنيون ، على المسيحية في منبع رسالتها واستيلائهم على الصليب ، وتذبيحهم لأتباع المسيح بهذه الأعداد الهائلة ، أنزل الله الوحي . بآيات تبدد جزع المسلمين الجدد ، من أن ترتفع رايات الوثنية على المنطقة كلها .. وكانت جيوشهم قد وصلت الى مصر ، بعد أن اجتاحت الشام وفلسطين ..

ولم يمض وقت طويل ، حتى استولى هرقل على الحكم في القسطنطينية ، وكان شاباً في الخامسة والثلاثين من العمر . وقد كافح كفاحاً مريراً حتى تمكن من هزيمة جيوش كسرى واسترد صليب المسيح الذي كان قد وقع غنيمة في يد الفرس وأودع في كنيسة « صوفيا بالقسطنطينية » ، كما أطلق سراح « زكريا » بطريق بيت المقدس .

وفي السنة التالية - ٦٢٩م - سار هرقل الى بيت المقدس ومعه صليب المسيح ، لكي يحج الى هناك . وعندما وصل الى طبرية ، تلقاه وفد من اليهود يحملون له أكداسا من الهدايا ، ربما فاقت كل ما حصل عليه من اسلاب

الحرب ، كى يأخذوا منه عهدا بألا يعاقبهم على تعاونهم مع الفرس .. فعلوا ذلك ، قبل وصوله الى بيت المقدس ، وقبل أن يسمع شكاة أهلها مما صنع بهم اليهود . وقد نجحوا فى الحصول على هذا العهد ، بعد تقديم الثمن . ولعل هرقل كان قد كفاه ما رأى وما سمع من سفك الدماء ولم يجد مبررا لمزيد منها .

يصف « الفرد بتلر » فى كتابة الشهير : فتح العرب لمصر ، وصول هرقل الى بيت المقدس على النحو التالى (١) :

« سار الامبراطور فى سبيله ، الى أن لاحت له المدينة المقدسة عن بعد ، ومن السهل أن نتصور سير موكبه فى خيل تلمع عدتها ، من حديد يبرق ، وألوية على الخيل تخفق ومن رماة بالنبال ، وكماة فى يد كل رمحه وعليه درعه ، وقد احتقب كنانته ، وفى وسطهم سار هرقل فى خاصته ، وهم جميعا كقطعة تتلألأ من الذهب ، وزاهى الألوان ، حتى اذا اقترب من المدينة ، خرج اليه موكب من القسوس والرهبان ، يحملون الأناجيل والشموع والمجامر ، كما كانت عاداتهم فى احتفالاتهم ، وجاءت من ورائهم جموع كبيرة من الأهلين . وهكذا سار حتى بلغ الباب الذهبى (٢) فى الجانب الشرقى من المدينة . وكان فى انتظاره هناك البطريق زكريا ، فسلم عليه ، وأظهر الخضوع ، ثم أخذ يعنفه على فخامة ملبسه ، وأمره أن يخلع رداءه الارجوانى ، وي طرح ما عليه من الذهب . وسار الامبراطور المظفر بعد ذلك فى لباس الحاج المنيب الى ربه . وكان يرى اينما ولى وجهه ، آثار الخراب الذى جره الفرس على المدينة منذ أربعة عشر عاما ، وشكر رجال الدين على ما بذلوه فى سبيل التعمير ، ولاسيما بناء كنيسة القيامة ، وكنيسة الرأس ، وكنيسة قسطنطين . ثم كان بعد ذلك الاحتفال الأكبر المشهور باسم - اعلاء الصليب - ولاتزال ذكراه الى اليوم تحييها الكنيسة الشرقية والغربية كلتاهما فى ١٤ سبتمبر من كل عام . »

وما كادت ضجة الاحتفالات تهدأ ، حتى بدأ أهل بيت المقدس يروون لهرقل ، ما صنعه بهم اليهود فى فترة تغلب الفرس ، وقد هالته الفظائع التى ارتكبوها ، فلم يحفل بالعهد الذى أعطاه لهم فى طبرية . وبدأت مذبحة الانتقام تحصد أرواح اليهود فى فلسطين وحدها ، ولكن فى كل مكان وجدت فيه المسيحية . وقد ذكر المقرئى ان مصارع اليهود عمت « حتى لم يبق منهم أحد

(١) ترجم هذا الكتاب المرحوم الاستاذ محمد فريد ابو حديد فى اسلوب أدبى رائع .

(٢) فى القرن الثانى عشر الميلادى اقتصر استعمال هذا الباب فى احد السعف تذكارا لمروء هرقل منه . *

في دولة الروم ومصر والشام الا من هرب واختفى « .. وكان ذلك عام ٦٣٠ ميلادية .

وأصدر هرقل مرسوماً بالألا يقترب يهودى في المستقبل من القدس الى مسافة ثلاثة أميال من أسوارها .

اليرموك :

وحدث بعد ذلك ، ماسبق أن شرحناه من صراع بين يهود الحجاز ، والعقيدة الاسلامية في فجر ظهورها . واذا كان القرآن الكريم ، والمسلمون حول رسول الاسلام ، والرسول نفسه ، قد اتجهت انظارهم الى فلسطين من اليوم الأول ، فقد تجلى ذلك في أمور :

١ - رحلات رسول الاسلام ، وتجار الحجاز الى فلسطين ، متاجرين وزائرين في رحلات الصيف والشتاء . وقد مكنتهم هذه الرحلات من معرفة تفاصيل مايدور في المنطقة التي تقع شمالهم .

٢ - وجود عرب كثيرين في الشام كله ، حتى ان حاكم دمشق من قبل هرقل كان عربياً ، هو جبلة بن الايهم . وساند بقوات من عنده الجيش الرومانى عندما بدأ الفتح الاسلامى ثم ما لبث قومه أن انحازوا لأهلهم العرب ، وبعد انتهاء المعارك في المنطقة أسلم جبلة ، وفي مفاجأة تطبيق قواعد الاسلام ، لم يطق ، ما أراد عمر بن الخطاب أن يلزمه به ، ففر الى القسطنطينية ، ولحق ببلاط قيصر مرة أخرى .

٣ - اسراء سيدنا محمد الى القدس ، وفي هذا الحادث ، نزل قرآن : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله .. » ، ورويت أحاديث ربطت القدس بالاسلام رباطاً لاينفصم ، ومنها قول النبى : « لاتشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدى هذا ، والمسجد الأقصى » .

٤ - كان آخر عمل حربى قام به رسول الله قبيل وفاته ، هو اعداد جيش يقوده أسامه بن زيد ، لكى يغير على تخوم فلسطين ، ويشتبك مع القوات الرومانية في فلسطين ، كرد على معركة « مؤتة » التى سبقتها وانتصر فيها الرومان . وقد أنفذت هذه البعثة العسكرية لاداء مهمتها بتصميم من أبى بكر الصديق ، ومعارضة من عمر بن الخطاب لم يؤخذ بها .

هـ - وكان هذا العمل العسكري ، تمهيدا لحركة الفتوح الكبرى ، واعطاء أولوية لهذه المنطقة . وقد نذب الخليفة الأول وأعظم رجال المسلمين بعد نبي الاسلام : أبو بكر الصديق .. أربعة من خيرة الصحابة لقيادة قواته الى هذه الجبهة ، وهم : عمرو بن العاص ، وشريحيل بن حسنة ، ويزيد بن أبي سفيان ، وأبو عبيدة بن الجراح ثم ما لبث أن امدهم من جبهة العراق بخالد بن الوليد عبقرى الحرب في ذلك الزمان .

وقد ظلت فتوح الشام مضطربة بين المراجع القديمة ، تقدم مكانا على آخر . حتى أزال هذا الغموض أخيرا ، رجل عسكري من خبراء الاستعمار الغربى المعاصر هو الجنرال باجت جلوب الذى كان قائدا لجيش الاردن لسنوات طويلة . اذ اقتضت ظروف وجوده في المنطقة أن يدرس تاريخنا القديم ، وأن يطبق على الطبيعة ، أى على الأرض نفسها ، تحركات الجيوش الاسلامية ، وبهذا أمكن استخلاص الحقيقة ، وازالة الغموض الذى صاحب الرواية القديمة للاحداث .

وكان السبب المباشر للدراسة ، ان القوات البريطانية في الحرب العالمية الثانية خشيت من هجوم ألمانيا على شرق البحر المتوسط عن طريق تركيا ، والوصول الى مصر عبر سوريا وفلسطين . وكان من أهم واجبات القيادة البريطانية أن تعثر على موقع تستطيع أن تصد فيه جحافل الالمان ودباباتهم ، في هذه الجبهة ، كما عثرت على موقع العلمين في موقع الصحراء الغربية المصرية . وكلف جلوب بارتياح الأرض ، في منطقة درعا ..

قال في وصفه :

« يعد نهر اليرموك المسيل المائى الذى يصرف مياه منطقة حوران . وقد قام هذا النهر مع مر ألوف السنين ، بحفر أخدود عميق ، يسهل فيه ليصب في وادى الاردن الذى ينخفض نحو من ثلاثة آلاف قدم عن سهل حوران . ويبدأ هذا الأخدود عند بلدة درعا . وتقوم الى الشرق ، والشمال الشرقى من هذه البلدة ، سلسلة ضخمة من الجبال التى ولدتها البراكين الخامدة ، والتى تكتظ سفوحها بكتل ضخمة من السوائل البركانية المنصهرة ، وتصعب الحركة في بعض الجهات في هذه المنطقة حتى على المشاة بينما يتعذر السير فيها على الدمال أو العجلات مهما كان نوعها . وتهبط هذه النتوءات البركانية نحو السهل ، ريجيا الى أن تصل تقريبا الى نقطة يصبح فيها نهر اليرموك ضيقا لا يصلح للمرور

مطلقا . وهذه الفجوة الصغيرة بين الأرض البركانية ، وبين اليرموك كانت تعتبر في عام ٦٣٤م ، وما زالت تعد الى يومنا هذا ، الطريق الرئيسي بين دمشق ، وبين فلسطين وعمان والعقبة .

ذكرنا هذا التفصيل ، الذي قد لا تكون له علاقة وثيقة بموضوع كتابنا ، ولكن علاقته لا تخفى بواقعا هذه الأيام .. ومراجع الفتح الاسلامي تتحدث عن الروم والعرب عند اليرموك ، ثم تذكر انفضاض اللقاء دون نتيجة . ويتكرر ظهور اليرموك في الروايات .

ويستأنف جلوب وصفه بقوله : كان المسلمون سريعي الحركة الى درجة هائلة ، وكان اسلوبهم المعنوي يتركز في هجوم عنيف شرس ، وفي حركات تقدم ، وتراجع ، والتفاف ، تتم بسرعة مع قطع طريق المواصلات والتموين . لم يكن في وسع القوات البيزنطية الثقيلة والبطيئة الحركة ، أن تصمد أمام هذه السرعة في التحرك في أراض فسيحة منبسطة .. وقد فزع البيزنطيون من حرب العرب الصاعقة ، فأقام جيشهم في عام ٦٣٤م (كما أقام الجيش البريطاني في عام ١٩٤١) معسكرا دفاعيا منيعا على مقربة من درعا في الثغرة الواقعة بين اليرموك والأراضي البركانية ، فكان العرب يقدمون على الاشتباك مع الروم أمام هذه المواقع الدفاعية ليعودوا ، فينسحبوا . وكانت عمليات خالد بن الوليد حول تدمر وقرب دمشق ، تهدف الى اقناع الروم بالانسحاب من درعا لحماية مؤخرتهم ، وهو هدف لم يتحقق على أي حال .

ولم يكن خالد من طراز القادة الذين يخلدون الى السكينة ، والى محاصرة موقع الروم على نهر اليرموك . ولذا فسرعان ما تحولت العملية الى حركة هجومية دائمة . وكان أول عمل قام به خالد ، هو احتلال مدينة بصرى ، وهي إحدى المدن الاغريقية العشر التي بناها الاسكندر المقدوني قبل عشرة قرون ، وكان عمرو بن العاص لا يزال يواصل غزو سهول فلسطين الجنوبية ، وجمع المغانم منها ، من القاعدة التي أقامها لنفسه في وادي عربة . وكان هرقل مقيما في حمص ، مشتغلا باعداد جيش جديد يبعث به الى جنوب فلسطين . ويبدو من فكرة ارسال هذا الجيش أن هرقل كان على ثقة من صمود تحصينات اليرموك في وجه العرب ، والا لما كان يغامر بارسال جيش الى ذلك المكان النائي عن طريق طبرية ، فالناصر ، فقيسارية ، للاشتباك مع عمرو بن العاص في منطقة بير سبع . ثم قطع مواصلات المسلمين مع الحجاز باحتلال العقبة . وبهذا يرغم المسلمين على التراجع من منطقة اليرموك .. وقد وقع التأثير المطلوب على قوات

المسلمين في اليرموك ، ولكن تحققت نتيجة اخرى . فبحركة انسحاب خاطفة من هذا الموقع ، وبزحف سريع مذهل ، أمكن أن يدرك خالد بن الوليد الجيش البيزنطي البليد المترهل بما يحمل من معدات الحضارة في ذلك الوقت . وفي شهر يوليو من عام ٦٣٤ م حدث لقاء القوتين بين الرملة وبيت جبرين ، عند موقع حملت اسمه هذه المعركة الحاسمة ، وهو أجنادين . وكانت المفاجأة تامة للروم ، وهزموا هزيمة ساحقة .

وهكذا أخفق الهجوم المضاد الذي رتبته هرقل ، وبمثله انتصر في الماضي على جيوش الفرس ، إذ هاجم عاصمتهم نينوى ، في العراق ، في الوقت الذي كانت جيوش كسرى تحاصر القسطنطينية ، مما أجبرهم على العودة مذعورين لإنقاذ عاصمتهم ، ولكن بعد فوات الأوان .

وفي الشهر التالي مباشرة - أغسطس - كانت جيوش المسلمين تعود الى مواقعها عند اليرموك ، يزيد من حماسها ويقظتها النصر المؤزر الذي فازت به في أجنادين . ولم يجد هرقل بدا من تجنيد جيش جديد ، ضم اليه عناصر من المسيحيين العرب في سوريا ، واضطر العرب لتقصير خطوطهم فسحبوا وحداتهم التي كانت تحمي فتوح خالد في سوريا عندما قدم اليها من العراق . واستغرقت عمليات هرقل للسيطرة على سوريا حوالي عامين الا قليلا .. ومرة أخرى تركزت العمليات كلها في منطقة اليرموك .. وتعززت قوات العرب بمن انضم اليهم ، وتخاذلت قوات هرقل بالانقسامات العنصرية التي تكونت منها . فضلا عن البقاء عامين في موقع واحد ، يورث الجنود الملل ، وهم لا يدافعون عن وطن وراياتهم ليست واحدة .

وفي الثلث الاخير من شهر أغسطس عام ٦٣٦ (بعد أجنادين بعامين كاملين) وجد العرب فرصتهم إذ هبت رياح عاتية في هذا الشهر القائن حملت سحباً من الرمال والأترية ، واغرقت بها معسكرات الرومان واحلافهم ، ومنعت الرؤية تقريبا ، وتحت هذا الستار الطبيعي الذي كان العرب يألفونه بحكم بيئته ، ومع حركة الرياح نفسها تسلل فريق من قوات العرب الى جسر درعا خلف مواقع الروم ، وانطلقت في وسط الريح المدوية صيحات الهجوم : الله أكبر .. الله أكبر ، وما استطاع الروم أن يفيقوا من دهشتهم الا وسيوف العرب تطيح برقابهم ، ورماحهم تغرس في قلوبهم وقائدهم « تيودوروس » يخر مجندلا .. وكانت نساء العرب مع رجالهم قوة دافعة ، في المعركة حتى أن هند زوجة ابي سفيان كانت من بين من عاون في القتال . وزوجها الشيخ حارب بعينه

الواحدة ، وابل احسن بلاء في صف الاسلام ، وكان من قبل قائد المشركين ضده ..

لم ينج من جيش الرومان انسان بين قتيل وجريح وأسير . وسمع هرقل ، وكان في انطاكية بالانباء المفزعة ، فلوى عنان جواده شمالا الى بلاده ، وهو يقول : « سلام عليك يا سوريا ، سلاما لا لقاء بعده » .

وبهذه المعركة فتح طريق دمشق وحمص وبعليك أمام ابي عبيدة بن الجراح ، ووصلوا الى المواقع التي سبق ان انسحبوا منها ، وكان استقبال الشام لأبناء عمومتهم حافلا ، وكان من رأى المسيحيين ان عدالة المسلمين احب اليهم من ظلم الكنيسة الرومانية لهم .

وبسقوط مواقع اليرموك ، أصبحت القدس هي الهدف الرئيسي للقوة التي كان يقودها عمرو بن العاص وتعمل في جنوب فلسطين وعلى المنطقة الساحلية ، وبدأت مفاوضات بين رسل ابي عبيدة بن الجراح القائد الأعلى وصفرونيوس بطريق القدس ، وأكبر رجل فيها وطالت المفاوضات وقد حرص المسلمون على أن يدخلوا المدينة صلحا لما لها من مركز القداسة في نفوسهم وخشية أن يحل بها دمار المعركة ، وحسبها ما حدث في معاركها بين الفرس والرومان ، واليهود والمسيحيين .

وكان شرط البطريرق صفرونيوس ، أن لا يتم تسليم المدينة الا لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب نفسه .

العهد المزيفة والصحيحة :

وهنا تبدأ الملحمة الانسانية الرائعة في زهاب عمر الى فلسطين ، يتبادل ركوب ناقته مع تابعه . فان المجهود الحربي استلزم تخصيص كل شيء للمعركة المصيرية التي دارت في الشمال وفي الشرق . والعرب أدركوا عن يقين أنهم اذا لم ينتصروا على الفرس والرومان معا ، وتأمينا لدعوة نبيهم ، ولدينهم الجديد ، فان القوات الشمالية قادرة على أن تزحف جنوبا وتنتهي الحياة في الحجاز كله . وفي مشاورات عمر لأصحابه في المدينة المنورة ، وافقوا على سفره ، لما « لايلياء » أو بيت المقدس من منزلة كبرى في نفسهم . فضلا عن أن قواده ما كانوا يستطيعون مغادرة مواقعهم لمشاورته في تدبير أمور البلدان المفتوحة ، وهي بلدان الحضارة ، ولأهلها من التقاليد والعادات ، ما يحسن معه أن يرى أمير المؤمنين بعضا منه بنفسه .

وكان من أول ما قابل الخليفة أول وصوله عبر حدود الحجاز ، الى اذرعات أهلها الذين خرجوا للقاءه مهللين منشدين وسيوفهم في أيديهم وخيلهم تركض تسابق الريح ونسأؤهم تدق الدفوف دقا عنيفا . ولم ير عمر منظرا كهذا من قبل . وكان أبو عبيدة على رأس مستقبليه عند هذا الموقع ، فرد أبو عبيدة قائلا إن منعهم يؤذى شعورهم ، وقد يحسبون ان عهدهم بالامان نقض . فسكت الخليفة على مضض .. ثم تأمل عمر قواد المسلمين ، وحرسهم وهم يلبسون ثيابا مزركشة ، وجيادهم تخب في الديباج ، ففزع من هذا الزي وقال انما شبعتم بعد سنتين ! وسألهم ماذا سيفعل خلفاؤهم بعد قرنين ! ولكنه اقتنع بأن هيبتهم في نظر هذه الشعوب الجديدة تحت الحكم الاسلامي لاتكتمل الا اذا أظهر لهم حكامهم الجد بما ألفوه من مظاهر الحكم . فسكت على مضض . وأخذ عمر بن الخطاب الى القدس طريق نابلس مارا بحقول القمح ومزارع الكروم ، وهناك فوق جبل الزيتون ، كان لقاءه مع البطريق صفرونيوس ، وقد حضر يحف به جمع من الاساقفة والقسس في ملابسهم التقليدية ، وجمع من الشمامسة يحملون الصليبان . وقد رحب بهم الخليفة ترحيبا حارا ، لم ينكر من هيئتهم شيئا .. ولا من تراتيلهم وهم في الطريق اليه يترنمون بصلواتهم . وتأمل الخليفة المدينة القديمة ، الجاثمة تحت سفح الجبل وشاهد كنائسها ومساكنها . وأسوارها وأبوابها . ولعل بعض أعوانه أخذوا يشرحون له المشهد ، ويشيرون الى مواقع جيوش الحصار .. وهذا مشهد يملأ نفس رجل عظيم الايمان مثل عمر خشوعا لله تعالى وعرفانا ، اذ أمكن بعد كفاح استمر أكثر من ثلاث سنوات ، أن يضم المدينة التي استقرت بها التوراة ، ثم الانجيل ، وقدر لها أن يحتويها ثالث كتب السماء ، وهو القرآن الكريم .

وقدم البطريق صفرونيوس لعمر كتابا سبق الاتفاق، عليه مع أهل المدينة وهذا نصه :

« هذا كتاب لعبدالله عمر بن الخطاب ، أمير المؤمنين ، من نصارى مدينة ايلياء .. انكم لما قدمتم علينا ، سألناكم الأمان لأنفسنا ، وذرائنا ، وأموالنا ، وأهل ملتنا . وشرطنا لكم أن لانحدث في مدينتنا ، ولا فيما حولها ديرا ، ولا كنيسة ، ولا قلاية ، ولا صومعة راهب « غير ما بها » . ولا نحبس منها ما كان في خطط المسلمين ، ولا نمنع كنائسنا أن ينزلها أحد من المسلمين في ليل أو نهار . وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل . وان نُنزل من مر من المسلمين ثلاث ليال نطعمهم . ولا نواري في كنائسنا ، ولا في منازلنا جاسوسا ، ولا نكتم غشا

للمسلمين ، ولا نعلم أولادنا القرآن . ولا نظهر مشركا ، ولا ندعو اليه أحدا . ولا نمنع أحدا من ذوى قرائبتنا الدخول في الاسلام ان اراده . وان نوقر المسلمين . وقال هذا العهد أيضا :

« ولا نتقلد السيوف ، ولا نتخذ شيئا من السلاح ، ولا نحمله معنا » وذلك لكي يأمن المسلمون أية ثورة مسلحة قد تثور في المدينة .. وأملى عمر بن الخطاب عهده على بطريق المدينة وأهلها ، وهذا نصه ، وقد أضيف الى ما ورد في كتاب صفرونيوس جملة هامة خاصة باليهود نلفت لها النظر ..

بسم الله الرحمن الرحيم

« هذا ما أعطى عبدالله عمر أمير المؤمنين أهل ايلياء من الأمان » . أعطاهم أمانا لأنفسهم ، ولكنائسهم ، وصلبانهم . سقيمها وبريئها وسائر ملتها.

انه لاتسكن كنائسهم ، ولا تهدم ، ولا ينتقص منها ولا من خيرها ، ولا من صلبهم ، ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم .

« ولا يسكن بايلياء معهم أحد من اليهود » .

« وعلى أهل ايلياء أن يعطوا الجزية ، كما تعطى أهل المدائن ، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص . فمن خرج منهم ، فهو آمن . وعليه مثل ما على أهل ايلياء من الجزية . ومن أحب من أهل ايلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ، ويخلى بيعهم وصلبهم ، فانهم آمنون على أنفسهم ، وعلى بيعهم وصلبهم ، حتى يبلغوا مأمنهم . فمن شاء منهم قعد ، وعليهم مثل ما على أهل ايلياء من الجزية . ومن شاء سار مع الروم ، ومن شاء رجع الى أهله ، فانه لا يؤخذ منهم حتى يحصدوا حصادهم .

« وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله ، وذمة رسوله ، وذمة الخلفاء ، والمؤمنين ، اذا أعطوا الذي عليهم من الجزية » .

كتب سنة ١٥ للهجرة :

« شهد على ذلك خالد بن الوليد وعبدالرحمن بن عوف وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان » .

وكل ما في هذا العهد تؤيده سماحة الاسلام ، وحب المسلمين وخليفتهم لهذه المدينة العزيزة عليهم . وتسامحهم بل معزتهم لاتباع المسيح عليه السلام وللكنائس التي أقيمت تمجيда له ..
ولكن النص على إبعاد اليهود عن مدينة القدس ، وعدم السماح لهم بسكنها أمر يلفت النظر .. انه ليس أمرا جديدا على المدينة . فهذا قضى هرقل ، قبل سنوات قليلة بل حدد ثلاثة أميال خارجها لايتخطاها يهودى كما ذكرنا من قبل .

ولم يرد في عهد البطريق صفرونيوس للخليفة عمر نص على ابعاد اليهود . واذن فقد استوحى المسلمون هذا النص بما علموه من عداوة اليهود للمسيحيين ثم المسلمين ، وما كان من وقائعهم ابان ظهور الدعوة الاسلامية .
وهذا النص من عمر بن الخطاب أمر ملزم لكل حكام المسلمين وحكوماتهم ، وهو شبيه بالنص على ألا يدخل مكة او المدينة من ليس مسلما . وقد احترم المسلمون القاعدة الثانية ، ولكن الأولى ظلت محترمة ، حتى أمكن بطريقة لا تزال غامضة ، أن يسحب من خزائن الكنيسة في القدس العهد الأصلي ، وكان مكتوبا على ورق من جلد ، ويوضع بدلا منه نص مزيف ورد بعد ذلك في كتب الكنائس ، وقدم الى السلاطين العثمانيين ورد فيه مايتى :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى شرفنا بالاسلام ، وأكرمنا بالايمان ، ورحمنا بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وهدانا من الضلال ، وأنقذنا من التهلكة ، ووحد قلوبنا ، ونصرنا على الأعداء ، وثبت أيدينا وجعلنا أخوة متحابين ، فاحمدوا الله يا عباد الله على هذه النعمة

أما بعد ، فهذا عهد منى أنا عمر بن الخطاب أعطى للشيخ الوقور بطريك الأمة الملكية صفرونيوس ، على جبل الزيتون بمقام القدس الشريف فى الاشتمال على الرعايا والقسوس والرهبان والراهبات حيث كانوا واين وجدوا وأن يكون عليهم الأمان ، لأن الذى اذا حفظ أحكام الذمة وجب له الأمان والصون منا نحن المؤمنين ، والى من يتولى بعدنا . وانقطع عنهم أسباب جوانحهم كحسب ما قد جرى منهم من الطاعة والخضوع . وليكن الأمان عليهم وعلى كنائسهم ودياناتهم وكافة زياراتهم التى بيدهم داخلا وخارجا وهى : القيامة وبيت لحم مولد عيسى (عليه السلام) والكنيسة الكبرى ، والمغارة ذات الثلاثة أبواب قبلى

وشمالى وغربى ، وبقية أجناس النصارى الموجودين هناك وهم الكرج والحبش والذين يأتون للزيارة من الإفرنج والقبط والسريان والأرمن والنساطرة واليعاقبة والموارنة تابعين للبطريرك المذكور ، ويكون متقدما عليهم لأنهم أعطوا من حضرة النبى الكريم والحبیب المرسل من الله ، وشرفوا بختم يده الكريم^(١) وأمر بالنظر اليهم والأمان عليهم ، كذلك تحن المؤمنین نحسن اليهم ، ويكونون معافين من الجزية والغفر والموجب . والمسلمين (كذا !) من كافة البلاد فى البر والبحر ، وفى دخولهم للقيامة وبقية زياراتهم ، لايؤخذ منهم شيء ، وأما الذين يقبلون الى الزيارة الى القيامة (كذا !) ، يؤدى النصرانى الى البطريرك درهم (كذا ..) وثلاث من الفضة وكل مؤمن ومؤمنة يحفظ ما أمرنا به سلطانا أم حاكما أم وليا يجرى حكمه فى الأرض غنى أم فقير من المسلمين المؤمنین والمؤمنات وقد أعطى لهم مرسومنا هذا بحضور جم الصحابة الكرام عبدالله ، وعثمان بن عفان ، وسعد بن زيد ، وعبدالرحمن بن عوف ! وبقية الأئمة الصحابة الكرام . فليعتمد على ما شرحنا فى كتابنا هذا ويعمل به ويبقى فى أيديهم ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وأصحابه والحمد لله رب العالمين ، حسبنا الله ونعم الوكيل .

فى العشرين من شهر ربيع الأول سنة ١٥ للهجرة النبوية . وكل من قرأ مرسومنا هذا من المؤمنین وخالفه من الآن الى يوم الدين فليكن لعهد الله ناكثا ولرسوله الحبيب باغضا .

ورد هذا النص فى دليل الأرض المقدسة للأرثوذكس بنيامين ، طبع سنة ١٨٧٧ ، ونقله عنه تاريخ كنيسة اورشليم الأرثوذكسية المطبوع عام ١٩٢٥ ..

ومن له أقل المام بتاريخ الفتوح العربية ، يعلم أن هذا النص الأخير مزيف ، وذلك لتضمنه أخطاء لغوية وأسلوبية .. فمثلا لم تكن كلمة « بطريرك » معروفة فى الأسلوب العربى القديم ، وإنما استعملوا كلمة بطريق بالقاف أو الكاف ، ولم يعرف العرب فى صدر الاسلام كلمات : الغفر والموجب ، فهذه ضرائب استحدثت أيام المماليك . وغنى عن البيان أن عمر بن الخطاب كان يعرف أن المبتدأ يرفع ، ولا يعقل أن يخطئ ويملى كلمة المسلمين ، وهى المسلمون . وتدل كلمة « سلطان » الواردة فى هذا العهد المزيف على الوقت الذى ابتدعت فيه الوثيقة ، وهو عهد السلاطين المتأخر جدا عن صدر الإسلام . ولم

(١) اشارة إلى العهدة الممنوحة من النبى الكريم ذاته ، عليه الصلاة والسلام لرهبن طور سيناء .

يكن عثمان بن عفان من شهود هذه المعارك ولكن لم يجد المزور بأسا من اضافة اسمه كشاهد . ويكفى أن هذه الوثيقة اسميت « مرسوما » وهي كلمة محدثة في عهد الأتراك .

وأما لماذا زور هذا العهد ، فهناك ثلاثة أسباب :

- ١ - حذف النص بمنع اقامة اليهود في بيت المقدس .
 - ٢ - بعض امتيازات مالية لرجال الكنائس مثل تحصيل رسوم على زوار الكنائس الأثرية ، والاعفاء من الجزية .
 - ٣ - تقديم هذه الوثيقة بامضاءات مزورة للسلطان العثماني سليم الأول ، لكي يقر ما زعموا أن عمر بن الخطاب أقره .
- ومنذ ذلك الوقت زالت أو اختفت العقبة الكبرى في تسرب اليهود الى بيت المقدس ، وهذه العقبة كانت عهد أمير المؤمنين عمر .
- وأصبح واجبا علينا الآن أن نصحح تاريخنا ، وأن نلفت نظر أخواننا الذين يؤلفون عن تاريخ الكنيسة في بيت المقدس إلى عدم التورط في نشر هذا النص المزور والنص الأصلي موجود في مراجع التاريخ الاسلامي الأصلية مثل الطبري ، وقد نقلناه هنا عنها .. وكذلك نلفت نظر الباحثين في تاريخ فلسطين الى ضرورة عدم نقل هذا النص المزور ، لأننا بذلك نساعد الصهيونية على تحقيق أهدافها .

ولقد سقطت في يد المسلمين بلاد أكبر وأعظم من « ايلياء » أو بيت المقدس ، مثل المدائن ودمشق وبيروت وحمص وسور والاسكندرية وقرطاجنة وغيرها . ولم يفكر خليفة من خلفاء المسلمين في أن يذهب بنفسه لاستلامها تلبية لرغبة كبير أو حاكم فيها . ولكن كان لبيت المقدس مركز خاص في عقائد المسلمين . فهي ثالث مدنهم المقدسة ، وكاست تكون الأولى حتى وجه الله تعالى رسول الله الى أن تكون مكة هي الأولى ، وتكون قبلة لهم .

وتحرك موكب عمر بن الخطاب الى داخل القدس ، تحف به كوكبة من جنوده تعدادها أربعة آلاف ، وهم يهتفون هتافا كالرعد مكبرين مهللين ، وسيوفهم مشرعة ، ووجوههم مستبشرة وكان أول مكان زاره عمر ، هو كنيسة القيامة . وحان وقت صلاة الظهر وهو في هذه الزيارة فأشار عليه البطريق بأن يصلى مكانه ، ولكن عمر بنظر ثاقب ، أبى أن يصلى في داخل الكنيسة حتى لايتخذها المسلمون من بعده مسجدا لهم ، وصلّى خارجها ، وغير بعيد منها ، في

المكان الذى أقيم عليه بعد ذلك مسجد يحمل اسمه . وقد قابل نصارى بيت المقدس عمله هذا بالشكر والعرفان ، وأدركوا أن عهدا جديدا سوف يظلمهم ، يمارسون فيه عباداتهم بغير تضيق ولا إعنات .. يَعد ستة قرون من المخاوف والمذابح .

وزار عمر مكان الهيكل ، (هيكل سليمان) وهيروود بعد ذلك ، فاذا الصخرة التى كان عليها تحولت الى مزبلة ، لا اهمالا ، ولكن بأمر من حكام الرومان المسيحيين .. فراح عمر يحمل التراب بنفسه ، وتبعه الصحابة والجنود ، حتى نظفوا المكان فى وقت قصير ، وبانت الصخرة وأمر عمر أن يقام فوقها مسجد ، فشرع المسلمون فى اقامة مسجد من خشب .

ثم طاف عمر بن الخطاب بشوارع المدينة وأزقتها ، ورأى بنفسه ما خلفته الحروب وآخرها الغزو الفارسى ، قبل ربع قرن من هذه الزيارة ، وأخذ مع رجاله من صحابة رسول الله ، يضع نظام حكم مستقر ثابت ..

أمر بأن يكون التاريخ الهجرى هو تاريخ البلد . ثم قَسَمَ البلاد المفتوحة إلى مناطق يقوم بأمر كل منطقة أمير (حاكم) . ثم رتب البريد بين المدن والقرى ، وبينها وبين المدينة المنورة . وعين قضاة يفتشون ويتأكدون من أن العدل مطبق والأمن مستتب وأسس ديوان الحسبة لمراقبة المكاييل والموازين . وعين من يقوم بنظافة الأزقة وازالة الفضلات ، ويرعى الرفق بالحيوان .

وكان لأبى عبيدة بن الجراح القائد العام لجيوش الشام كله ، منزل فى بيت المقدس فذهب عمر يزوره فيه ، فلم يجد له فراشا غير لبد فرسه ، وكان طعامه لقيمات يابسة فى كوة البيت وبعض ملح وانااء ماء من خزف ، وتقاسم الرجلان العظيمان هذه الوجبة .

وجعل عمر على حكم بيت المقدس يزيد بن أبى سفيان على أن ياتمر بأمر أبى عبيدة ، وقَسَمَ فلسطين إلى قسمين : شمالي وعاصمته الرملة ، وجنوبى وعاصمته ايلياء .

وكان بلال بن رباح الصحابى الجليل ، ومؤذن رسول الله حاضرا استلام القدس وكان قد عزم على ألا يؤذن لأحد بعد رسول الله . وفى يوم سفر عمر بن الخطاب عائدا الى المدينة نودى فى الناس للصلاة . قال عمر لبلال :
- يا بلال ألا تؤذن لنا رحمك الله . قال بلال :

- يا أمير المؤمنين ، والله ما أردت أن أؤذن لأحد بعد رسول الله ﷺ ولكن سأطيعك إذا أمرتني في هذه الصلاة وحدها .

لما أذن بلال ، بصوته العميق الخاشع النفاذ إلى مجامع القلوب ، حتى تبيته آلاف المسلمين المجتمعين للصلاة ، فتذكروا نبيهم ، وأيامهم معه ، فهطلت الدموع من مآقيهم لجلال الذكرى ، ولم يكن أحد أطول بكاء في هذه المناسبة من أبى عبيدة ، ومعاذ بن جبل ، حتى قال لهما عمر : حسبكما رحمكما الله .

وكان هذا الأذان آخر ما سمع من بلال ، وقد دل على عظيم مكانة القدس في نفوس المسلمين ، وعن رسول الله ﷺ أخذوا هذه المحبة ، وتوارثوها من بعده ، وإنهم لحاملوها في حبات قلوبهم حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

وكانت رحلة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من المدينة إلى القدس ثم عودته منها ، قد استغرقت ثمانية أشهر .. وحمل بعد عودته إلى الصحابة الذين انتظروه في لهفة الشوق ، أطيب الأنبياء عن اخوانهم الذين يرفعون رايات الجهاد في الشمال ، فقرت عيونهم وطابت نفوسهم جميعا بنصر الله ، ان الله منجز وعده ، وانه على كل شيء لقدير .

القدس بعد عمر :

في سنة ٢١ هجرية (٦٤١ م) تغير النظام الادارى للمنطقة ، بضم بيت المقدس إلى الشام ، وخضوعها لحكم مباشر من أمير الشام في ذلك الوقت معاوية بن أبى سفيان . وندب لها أميرا من قبله .

وباستتباب الأمن في القدس ، وانتهاء الصراع الدينى فيها ، تحولت إلى مركز تجارى كبير وأخذ العمران ينتشر فيها .. والمسلمون اذ تركوا الناس أحرارا في عبادتهم ، انما كانوا يصدرون عن نصوص صريحة في القرآن ، وتوجيه ثابت من رسول الله ﷺ ، ولا يزال عهدهم به قريبا .

فقد قال الإسلام في سرا . صريحة لا اكراه في الدين . وليس معنى هذا أن ينصرف المسلمون عن دعوة غيرهم للإسلام .. لا . فقد جاء هذا الدين خاتمة لدعوة السماء كى تبلغ للناس كافة .. لكن كيف يكون البلاغ ؟ ليس السيف ولا السجن ولا التخويف هو السبيل ، وانما بقول القرآن الكريم : « أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين » . وفى حساب الدعوة أن يكون لها رافضون .. فان حدث « فتول عنهم ، فما أنت بملوم » فإذا لحق الدعاء أذى

فالصبر أولى « وما لنا ألا نتوكل على الله ، وقد هدانا سبلنا ، ولنصبرن على ما آذيتمونا ، وعلى الله فليتوكل المتوكلون » .
وزاد الإسلام على ذلك ، انه اعترف بالأديان الكتابية ، عندما قال في سورة المائدة ، وفي مواضع أخرى كثيرة :
« ووقفنا على آثارهم بعيسى ابن مريم ، مصدقا لما بين يديه من التوراة ، وآتيناه الانجيل » .
« فيه هدى ونور ، ومصدقا لما بين يديه من التوراة ، وهدى وموعظة للمتقين » .
« وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه ، ومن لم يحكم بما أنزل الله ، فأولئك هم الفاسقون » .
بهذه السماحة الكاملة ، احتوى الإسلام التوراة الصحيحة ، واعترف بالانجيل وإذن فلماذا الخلاف ، ولماذا الكراهية ؟ ... لم يعد هناك مجال لأي نزاع ، بعد وصول المسلمين إلى فلسطين ، وإلى بيت المقدس .

بناء المسجد الأقصى وقبة الصخرة :

السلام ترقرف ألويته على المدينة الحبيبة ، ترتفع فيها صلوات المسلمين ، وصلوات المسيحيين ، والجميع أخوة ، والطرق إلى الله متعددة ، ولكن نهايتها واحدة . وتثور على الخلاف بين المدينة ودمشق خلافت ، وتثور حروب ، والقدس بعيدة عن هذا النزاع ، حتى إذا استتب الأمر للأمويين ، وبدأ ملكهم بمعاوية ، وفي سنة ٦٥ هـ (٦٨٤ م) آلت الخلافة إلى عبد الملك بن مروان . فنالت مدينتنا عناية كبرى في عهده .. فقد زار بيت المقدس ، يعد أن يعث إلى الأمصار يقول لولائه فيها ان الله وجهه إلى بناء قبة الصخرة والمسجد الأقصى ، وأنه لا يريد أن ينفذ هذا الأمر الا اذا أقرته الرعية . فجاءته الكتب من أنحاء العالم الاسلامي في ذلك الوقت تحبذ الأمر وتقول ان عليه أن يمضى فيما عزم عليه .
ويشير كتاب الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل (١) إلى أن عبد الملك بن مروان انما جد في بناء القبة والمسجد الأقصى لكي يصرف الناس عن الحج الى

(١) مؤلفه هو قاضي القضاة مجير الدين الحنبلي وقد ألف كتابه سنة ٩٠٠ هجرية اي منذ خمسمائة سنة |

مكة وقت سيطرة عبدالله بن الزبير على الحجاز . ويشير مؤلف هذا الكتاب إلى أن هذا الادعاء مرفوض لأن المنافسة بين ابن الزبير والأمويين هي التي أطلته .

جمع عبدالملك أمهر رجال الهندسة والبناء والزخرفة من أنحاء بلاد المسلمين .. وبدأوا فأقاموا نموذجاً لقية الصخرة ، عرض على الخليفة عبدالملك ، وشاور فيه أعوانه فأقروه . ورصد لهذا العمل الجليل مبالغ طائلة . إذ خصص خراج مصر سبع سنوات متوالية للانفاق عليه . وجعل واحداً من علماء عصره ، أمينا على الانفاق ، وهو رجاء بن حياة الكندي . وأشرف على التنفيذ مهندس من أهل القدس ، هو يزيد بن سلام . وكانت أوامر الخليفة الأموي ألا يضحى المشرفون على هذا العمل بمال مهما عظمت النفقة . فلما تم إنجاز البنائين : المسجد والقبة ، كتب بالحساب الختامى للعمل إلى الخليفة وذكر له : إن البناء تم ، ولم يبق لمتكلم فيه كلام ، وقد بقي مما أمر به أمير المؤمنين من النفقة عليه بعد أن فرغ البناء وأحكم مائة ألف دينار ، فليصرفها أمير المؤمنين فيما أحب .

رد عبدالملك ، وهو قرحان جذلاً يقول للرجلين :

- قد أمرت بها (١٠٠,٠٠٠ دينار) لكما جائزة لما وليتما من عمارة البيت الشريف المبارك - فكتبا إليه :

- نحن أولى أن نزيده من حلئ نسانتنا ، فضلا عن أموالنا ، فاصرفها (الجائزة) في أحب الأشياء إليك .

فرد عليهما عبد الملك يأمر بأن تسبك الدنانير ، وتفرغ على القبة . فسبكت ، وأفرغت عليها ، فما كان أحد يقدر أن يتأملها مما عليها من الذهب ، وصنع غطاء عظيم للقبة من جلود ولبود ، لتحمي ذهبها من الأمطار والرياح والثلوج إذا كان الشتاء .

وكان مما أضيف إلى مبنى القبة ، « درابزين » وزيين ما بين عمد القبة بأستار من الديباج . ومرتان في الأسبوع ، كل يوم اثنين وكل يوم خميس ، كان بعض خدم المسجد يعطرون الصخرة المشرفة تحت القبة ، بالمسك والعنبر ، ويطوفون بمجامر الذهب والفضة ، حول الأعمدة ، ورائحة البخور العبق تطوف بها ، وتتصاعد . وكانت الروائح الزكية تطير مع الريح فيشمها من كان في سوق القدس .

وكان ينادى في الناس عند رفع أستار القبة ، كي يهرعوا للصلاة عند الصخرة . وذكر القاضي مجير الدين ، أنه كان في السلسلة المدلاة من وسط قبة

الصخرة ، درة ثمينة ، وتاج كسرى . ونقلت الحليتان الثمينتان بعد ذلك الى الكعبة المشرفة في مكة . وقد استغرق بناء القبة والمسجد الأقصى سبع سنوات (٦٦ هـ الى ٧٣ هـ) .

وكان سقف المسجد الأقصى عند بنائه معروشا بستة آلاف كتلة من الخشب وأنشأوا له خمسين بابا . وقد أطلقت على الأبواب أسماء الأحداث التاريخية والشخصيات .. مثل باب داود ، وباب سليمان ، وباب محمد ، وباب التوبة ، وباب الرحمة ، وستة أبواب للأسباط وباب الوليد ، وباب الخضر ، وباب السكينة . وقد أقيم سقف المسجد على ستمائة عمود من الرخام ، وعدد المحاريب سبعة . وكان عدد السلاسل التي علقت بها قناديل الاضاءة في المسجد الأقصى ٢٣٠ سلسلة وفي قبة الصخرة ١٥٥ سلسلة طولها اذا مدت على الأرض : اربعة آلاف ذراع ووزنها ٤٣ ألف رطل . واذا أضيء المسجد أشعلوا لنوره خمسة آلاف قنديل وفي الأعياد وليلة الجمعة كانت تقوى الاضاءة بألفي شمعة . وحتى لا يتأثر سقف المسجد ، فقد صفع أعلاه بألاف من رقائق الرصاص . وكان يقوم على خدمة المسجد والقبة ٣٠٠ خادم يتوارث أبنائهم مكانهم من بعدهم . وقد أقاموا ٢٤ صهريجاً للماء ، تحمله اليها قنوات خاصة .

وتوفي عبد الملك بن مروان سنة ٨٦ هـ (٧٠٥ م) وتولى الخلافة بعده الوليد بن عبد الملك وكانت هناك اضافات للمسجد الأقصى أنجزها . وقد تلقى البيعة تحت قبة الصخرة ، وكان واليا على الرملة ، فرحل الى بيت المقدس ، وأخذت له البيعة في المسجد الأقصى . وكان من شغفه بالقدس وبمسجدها أن الناس ظنوا أنه سينقل اليها مقر الخلافة . فلما استخلف من بعده الخليفة العظيم عمر بن عبدالعزيز ، قالوا : يرحم الله سليمان افتتح خلافته بخير (البيعة في المسجد الأقصى) ، وختمها بخير (استخلافه عمر بن عبدالعزيز) .

القدس في عهد العباسيين :

حدث في عام ١٣٠ هـ زلزال خطير هدم جوانب من المسجد الأقصى في شرقه وغربه . وما كان في وسع آخر الأمويين أن يعمل شيئا ، لأن دولتهم دالت بعد عامين اثنين (١٣٢ هـ - ٧٥٠ م) . فلما تولى أبو جعفر المنصور الخلافة العباسية ، وكان منهما في بناء بغداد لتكون عاصمة الدولة ، لفت نظره الى ما حدث للمسجد الأقصى من عطب . وكانت ميزانية البلاد موجهة الى بناء

العاصمة ، فأمر بأخذ سبائك الذهب والفضة من أبواب المسجد ، وسكب دنانير وأعيد بناء ما تهدم من المسجد .

وتكرر حدوث الزلزال بعد ذلك ، وحدث تهدم جديد ، قام الخليفة العباسي المهدي بإصلاحه ، وجاء لزيارة المسجد وهو يقول لمن حوله سبقنا بنو أمية بهذا البيت ، لأعلم على ظهر الأرض مثله . وكان طول المسجد وقتها ٧٨٤ ذراعا وعرضه ٤٥٥ ذراعا .

وفي عهد الأمويين كانت معاملة الخلفاء والولاة للمسيحيين من أهل القدس طيبة جدا ، حتى أن بعضهم انضم إلى خدمة المسجد ، وكان أبناؤهم يتوارثون عملهم أسوة بالمسلمين . ويظهر أن أفرادا من اليهود تسربوا إلى القدس ، بل انضموا إلى الذين يخدمون المسجد ، فلما تولى عمر بن عبدالعزيز أمر بتنفيذ ما أمر به عمر بن الخطاب ، وأخرجهم من المدينة .

وفي صدر العهد العباسي - في أيام هارون الرشيد بالذات (٧٨٦ م) ، نشأت علاقات خارجية تتصل بالقدس . فقد تبادل الخليفة العباسي الشهير بعثات دبلوماسية وهدايا ، مع أكبر حكام المسيحية في ذلك الوقت وهو شارلمان . وذلك بعد أن قامت في الأندلس دولة أموية ، ما لبثت أن ازدهرت وكادت تنافس دولة العباسيين في الشرق . واقتضى التنافس بين دولتي المسلمين ، أن تجتذب بغداد مودة فرنسا .. ولهذا أذن هارون الرشيد أن يمول شارلمان ترميم كنائس القدس ، وأن ينفق على إنشاء كنيسة جديدة هي كنيسة العذراء . وسوف نفصل هذه العلاقة في الفصل القادم .

يحوى كتاب « تاريخ القدس » (١) أن العالم برنارد الحكيم ، وصف للبابا القدس في عام ٨٧٠م ، ونال رضاه . قال في وصفها :

« ان المسلمين والمسيحيين فيها على تفاهم تام . وأن الأمن مستتب للغاية ، حتى أن المسافر ليلا يفرض عليه أن تكون بيده وثيقة تثبت هويته . وإلا زج في السجن حتى يحقق في أمره . وإذا سافرت من بلد إلى بلد ، ونفق جملي أو حماري ، وتركت أمتعتي مكانها ، وذهبت لاكتراء دابة من البلدة المجاورة ، عدت فوجدت كل شيء على حاله لم تمسه يد . »

(١) تأليف عارف باشا العارف ، نشرته دار المعارف بمصر عام ١٩٥١ .

ووصف برنارد هذا ، الفندق الذى نزل فيه ، وهو معد للحجاج القادمين من بيزنطة أو إيطاليا ، فقال ان الذى أسسه هو الملك شارلمان . وكان بجانبه سوق يترقب على التاجر الذى يعمل فيه ، أن ينقد المحتسب قطعتين من الذهب كل سنة .

عندما قامت الدولتان الطولونية والأخشيديية بمصر كانت فلسطين تتبعهما . ولم يحدث شيء يستحق الذكر اللهم الا أن أمراء آل أخشيد كانوا يوصون بأن يدفنوا في القدس عندما يحين حينهم . حتى كافور الاخشيدي دفن فيها .

وفي عهد الفاطميين ، عين العزيز بن المعز لدين الله الفاطمى ، حاكما قبطيا لفلسطين هو الشيخ أبو اليمن قزيمان . وحتى هذا الوقت كانت فلسطين ، والقدس بصفة خاصة تتمتع برعاية كاملة وأمن مستتب حتى تولى من الفاطميين الحاكم بأمر الله . وفي عهده تبدلت أمور كثيرة ، تخالف ما ألفه الناس من متطق .

حدث سنة ١٠٠٧م أن انطلقت في أوروبا اشاعة مؤداها أن القيامة ستقوم في وقت معين : فتقاطر على القدس أعداد لا حصر لها من المسيحيين الأوربيين يريدون أن تنتهى حياتهم ، وهم في جوار كنيسة السيد المسيح عليه الصلاة والسلام . فلما انقضى الأجل المضروب للحدث العظيم ، ولم يقع طبعاً ، استشاط الحاكم بأمر الله غضباً ، وأمر بطرد الأوربيين من القدس ، ونسب لهم النقائص ، وهدم بعض الكنائس . وقد نفخ اليهود في نار هذه الفتنة ، وزادوا من تحريض هذا الخليفة الفاطمى . فأمر النصارى بلبس السواد ، ومنعهم من الاحتفال بعيد الشعانين .

وثاب الحاكم بأمر الله الى رشده (كان اسمه الأول المنصور) ، وتدخلت في الأمر أمه « ماريا » وأخته سيدة الملك ، وفطن الى سوء نوايا اليهود ، بما قدموه له من معلومات زائفة ، فعفا عن رعاياه من المسيحيين ، وأعاد لهم حرية العبادة ، وسمح لهم ببناء كنائسهم التى هدمت ، ورد أملاك الأديرة والكنائس . وقرعت النواقيس ابتهاجاً .

أما عاقبة اليهود الذين خدعوه ، فكان أيضاً على الطريقة (الحاكمة !) إذ أمر بعمل أقنعة يلبسونها على وجوههم على هيئة العجول . وقد اختار شكل العجل بالذات ، لأن اليهود عند خروجهم من مصر عبدوا عجلاً من ذهب .

وقد أنشأ الفاطميون في القدس مستشفى ، كان يسمى « بيمارستان »
رصدت له أموال طائلة . وكان أطباؤه يتقاضون رواتب ثابتة . كما أنشأوا دارا
للعلم رفعت من شأن الحركة الفكرية فيها .

وعلى ذكر المناخ العلمي الذي توفر للقدس ، نذكر ان فيلسوف الاسلام
الكبير ، ومفكرها الكبير الإمام أبو حامد الغزالي ، أقام في القدس فترة من
الزمن .. يقول الدكتور عبدالرحمن بدوي (١) ان الغزالي قدم عام ٤٨٩هـ الى
دمشق ، وأقام بها مدة قصيرة ، وزحل الى بيت المقدس ، وأخذ في تأليف كتاب
« الإحياء » في القدس . ثم أتمه في دمشق . وفي بيت المقدس كتب الرسالة
القدسسية في قواعد العقائد ، وجعلها قسما من ربيع العبادات في كتاب
« الاحياء » وقد كتبها لأهل بيت المقدس ، ومن هنا جاء اسمها . ومن القدس
توجه الى الخليل لزيارة مقام ابراهيم .

والاسم الكامل للكتاب المذكور هو : إحياء علوم الدين .

وصف السائح « ناصر خسرو » وفي كتابه سفرنامه القدس التي زارها عام
١٠٥٧م بقوله :

« يحج اليها السوريون وسكان البلاد المجاورة للقدس عندما لا تيسر لهم
وسائط الحج الى مكة . ويشبعون عواطفهم الدينية ، فيضحون الضحايا ،
ويصلون ، ويتقربون الى الله بجميع أنواع الصلاة والعبادة . ويصل عدد
الحجيج في بعض الأعوام الى عشرين ألفا .. وكثيرا ما يأتون معهم بأطفالهم
يختنونهم بالقرب من مساجدها .

« والقدس مزروعة زراعا جيدا ، ينبت حولها القمح والتين والزيتون . كما
تنبت أنواع كثيرة من الأشجار . أسعارها معتدلة ، وزيتها كثير ، ويحفظ الزيت
في الآبار والأحواض . ويصدر الى خارج البلاد . ويستعملون القار المجموع من
مياه البحر الميت في طلاء الأجزاء السفلى من الأشجار لحفظها من الديدان .
ويستعمله الصيادلة من أجل صيانة العقاقير من الحشرات . »

(١) الدكتور عبدالرحمن بدوي هو فيلسوف الامة العربية المعاصر . ويقوم الآن بالتدريس في السوربون
بباريس وكتابه الذي نقل عنه هذه الفقرة هو : مؤلفات الغزالي .

« يحيط بالمدينة سور منيع مبنى بالحجارة . وللسور أبواب من حديد .. يقطن فيها عشرون ألفا من السكان . بينهم صناع كثيرون . ولكل صنعة سوق خاصة بها . »

وحدثت بعد، هذا خلافات بين مراكز القوة في العالم الاسلامى : السلجوقيين والفاطميين .. ومهدت حروبهم ، وضعف، الروح العامة ، لظهور - الحركة الصليبية في أوروبا ، وبدأ الصراع الهائل الذى دار في المنطقة كلها . ثم تحرك الإعصار المغولى من أقصى الشرق ليزيد في البلاء الذى حل بشرق البحر المتوسط ، وفلسطين هدف من أهدافه .

اليهود في الاندلس :

ولكن قبل ان تنتقل الى مرحلة جديدة من هذه الدراسة ، نلقى نظرة قاحصة ، على مكان ابتعد عن منطقة الصراع العالمى لفترة من الزمن ، وهو الاندلس .

كانت اسبانيا من بين البلدان التى قر اليها اعداد من اليهود ، يعد أن طردهم الرومان من فلسطين في القرن الأول الميلادى . وما ان دانت اسبانيا بالمسيحية ، حتى بدأت تتحرك للثأر من القذائع التى عملها اليهود ضد المسيحيين في شرق البحر المتوسط . وفي سنة ٥٨٩ م وافق المجلس الكنسى الاسباني على القرارات الآتية (١) :

- ١ - منع استخدام اليهود للمسيحيين في أى نوع من الأعمال .
 - ٢ - ضرورة عتق أى مسيحي مملوك لليهودى .
 - ٣ - فصل كل اليهود الذين في خدمة الحكومة ، ومراعاة عدم تعيينهم مستقبلا .
 - ٤ - منع زواج المسيحيات باليهود .
 - ٥ - منع الختان الذى كان يفرضه اليهود على عبيدهم وخدمهم ومعاقبة أى يهودى يطبق ذلك بمصادرة أملاكه .
 - ٦ - ضرورة تعليق اليهودى شارة مميزة في مكان ظاهر حتى يعرفه الجميع .
- وزاد التضييق على يهود اسبانيا بعد ذلك ، بحيث أعطوا مهلة سنة ، لكى يعتنقوا المسيحية ، أو يغادروا البلاد . ومن بقى منهم كان عليه أن يحضر الصلوات

(١) كتاب اليهود في الاندلس تأليف الدكتور محمد بحر عبدالمجيد .

المسيحية ، ويتظاهر بخروجه من دينه . وكان أبناء اليهود يسلمون الى الكنيسة لتعميدهم . وايماء يهودى يظهر أنه ما زال على دينه يتحول الى عبد رقيق . ومن يضبط من اليهود ، وهو يمارس طقوس دينه سرا ، كان يقتل رجما ، أو حرقا . قلما دار همس بأن يهود اسبانيا المنتصرين رغم هذه الأوامر ، كانوا يحتفلون سرا بأعيادهم في بيوتهم ألزموا بأن يلازموا الكنائس طوال فترات أعيادهم تحت رقابة صارمة . وزاد من كرب اليهود المنتصرين أن صودرت أملاكهم ، وأصبحوا جميعا عبيدا دون استثناء .

وفي وسط هذا الظلام المخيف الذى عاشه اليهود في أواخر القرن السابع الميلادى ، ظهرت بارقة نور .. فقد كان العرب يكتسحون شمال افريقية ، ويرفعون رايات الاسلام على شواطئ المحيط الاطلنطى . وفي سنة ٧١١ م اجتاز طارق بن زياد المضيق الذى حمل اسمه وبدأ غزو اسبانيا .

وغنى عن البيان ، أن يهود اسبانيا ، الذين تنصروا ، واسترقوا ، طربوا لهذا الغزو ، ووضعوا أنفسهم في خدمة العرب الغزاة ، وكانوا جواسيسهم . وتطبيقا لتعاليم الاسلام : « لا اكراه في الدين » فقد أطلقت لليهود والمسيحيين بطبيعة الحال حرية التعبد ، وردت أملاكهم المصادرة . وشاع أمر الافراج العقائدى عن يهود الاندلس في كل أوروبا ، وكانت تعامل اليهود نفس المعاملة ، فهرعت أفواج منهم بعد أفواج للاقامة في الاندلس تحت ظل الراية الاسلامية السمحة .

وبدأ اليهود نشاطهم التجارى في استجلاب حريير الصين وتوابل الشرق الأقصى . ولكن تجارة الجوارى والعبيد ، درت عليهم ارباحا طائلة . وقد اتقنوها ، منذ كانوا هم عبيدا في اسبانيا ، وبلاد اوروبية أخرى .

وفي ظل الحرية التى لم يتمتع بها اليهود في أية فترة من تاريخ حياتهم قبل طردهم من فلسطين ، وبعد طردهم منها ، وفى ظل المال الوفير الذى بدأ يتدفق عليهم ، أخذوا لهم مركزا في الحياة الاجتماعية والثقافية والوظيفية . يذكر تاريخ الإندلس منهم : « حسداى ابن شفروط » الذى عينه خليفة الاندلس عبدالرحمن الثالث طبيبا للقصر الملكى ومترجما بينه وبين وفود البلدان الأجنبية التى كانت تفتد الى قرطبة . وقد انشأ هذا اليهودى مكتبة نافست مكتبات أعيان الاندلس ، وضمت كثيرا من المخطوطات العبرية . ومالبت هذا اليهودى أن عين حاخاما أكبر للاندلس . ووفد الشعراء يمدحونه ، على عادة شعراء العرب مع أمراء الأمة الاسلامية . واقتبس اليهود موازين الشعر العربى لينظموا أشعارهم العبرية على منوالها .

ولم تلق هذه الحركة ترحيبا كبيرا حتى أن أحدهم نقد هذا الأسلوب « لأنه أتلّف اللسان المقدس بوزنه العبرية بموازين أجنبية » .

وقد أشرنا من قبل الى عناية عالم عصره « ابن حزم » الأندلسي ، صاحب كتاب الفصل في الملل والنحل ، بتدوين مناقشاته للتوراة المتداولة . وفي وقته - أواخر القرنات الرابع الهجرى - كان اثنان من اليهود ظهرا في غرناطة ، هما اسماعيل ، ثم ابنه يوسف ابن النغريلة . وقد استوزرهما على التتابع ابن باديس . وقتل يوسف وكان سبب مصرعه (١) توسع شأن اليهود ، وتسلطهم على المسلمين في حكومته ، وحكومة أبيه من قبله ، ونفور المسلمين من دفع الجبايات لهم . وانتشار المؤامرات النسائية ونقده وتطاوله على الأديان . وقد هرب يوسف من ثورة الشعب الى داخل القصر ، فوجدوا اليهودى مختبئا في مخزن للفحم وقد سود وجهه حتى لا يعرف . ولكنهم ظفروا به وقتلوه . ومال الشعب على آخرين من اليهود في غرناطة ، فقتلوا منهم أربعة آلاف ، ونهبوا أموالهم ، وذلك ثأرا لدينهم الاسلامى ، وقرآنهم الذى قال اليهودى انه سينظمه شعرا .

ومن يهود الأندلس موسى بن ميمون الذى انتهى به المطاف الى مصر حيث عمل طبيبا للملك الأفضل بن صلاح الدين الأيوبي . وقيل انه ترك اليهودية آخر أيامه ومات عام ١٢٠٤ م .

وبانتهاى الوجود الاسلامى فى الأندلس ، انتهت أيام اليهود السعيدة فى القرون الوسطى ، والتي لم يتكرر لها مثل الا فى القرن العشرين الميلادى .
ونترك اليهود عند هذا الحد ، لنعود الى مدينتنا الحبيبة : بيت المقدس .

(١) كتاب الرد على ابن النغريلة اليهودى لابن حزم الأندلسى تحقيق الدكتور احسان عيسى الاستاذ بجامعة الخرطوم .

□ الفصل الحادي عشر □

المسلمون .. في قلب أوروبا

نمت العقيدة المسيحية في أوروبا ، وتأصلت جذورها . وكانت اليهودية تزداد إمعانا في التخفي ، والاستتار داخل الأزقة المغلقة عليهم ، فما من مدينة كبيرة ، الا عرفت فيها « حارة اليهود » وكانت تسمى الـ « جيتو » . وكانت فرصة اليهود الذهبية ، عندما تبدأ حرب بين بلد وآخر . فان اليهود يتقدمون ببيع المعلومات ، وغالبا ما يكون التجسس لصالح المهاجمين ، مقابل ثمن ، وقد ينالون الحظوة لدى المنتصرين مثلما رأينا في غزو العرب للأندلس ، فقد كانوا في ركاب المنتصرين ، وفعلا نالوا امتيازات كبيرة نتيجة خدماتهم .

وفي نمو المسيحية ، حدث ما كان لابد أن يحدث ، وهو انقسامها الى كنيسة غربية ، وأخرى شرقية . والكنيسة الشرقية تحمل لواء الاصلالة والعراقة ، لأن القدس مركز من مراكزها الكبرى ، وفي هذا ميزة لا تخفى وبابوات روما لا يستريحون لبقاء القدس بعيدة عن نفوذهم ، على الرغم من أن الحكم الاسلامي لم يعترض حجيجهم ، ولا وضع في طريقه أي عقبة من العقبات .

وهناك عامل هام زكى ربية الدول المسيحية في أوروبا ، هو الميراث الذي حفظته ، من غزو العرب لاسبانيا ، ومتابعة عملياتهما الحربية في جزر البحر المتوسط ، وفرنسا وايطاليا وسويسرا وألمانيا .. وكثير من كتابنا وقفوا بالعرب ، عند معركة تور أو بواتييه ، في حين أن النسر العربي لم يكف عن التحليق بعد هذه المعركة ، بل ظل يتراءى لأوروبا الغربية والوسطى عدة قرون بعد غزو أسبانيا . فلما جاء الوقت ، وتضعضع الحكم العربي في اسبانيا بهجمات جريئة وجهت له ، وبفعل

التفكك والتخاذل والتباغض والتحاسد بين الحكام العرب أنفسهم ، قررت أوروبا أن يكون ثأرها الأكبر في فلسطين .

ولنبدأ قصة الحروب الصليبية من أجل السيطرة على القدس ، بعرض شامل لما حدث بين الدولة الاسلامية ، ودول أوروبا ، لتكون الصورة كاملة أمامنا .
لم يكن الشرق شرقا والغرب غربا بالنسبة لأوروبا والبلاد العربية في القرون الوسطى .. لقد أحس الأوروبيون بقيام الدولة العربية الكبرى ، احساسا شغل ايامهم لقرون طويلة .

ان فرنسا وسويسرا وألمانيا وإيطاليا ظلت تتوقع وصول العرب الى مدنها وقراها . وتتربص هؤلاء الفرسان ، الذين يطلقون صيحة الحرب : الله اكبر .. أحد أحد ، ثم لا يقف امامهم أحد .

وانا لنجد تفاصيل التسرب العربي الى أوروبا ، في شكل حملات عسكرية ، مدونا في كتب علماء تلك البلاد .. ومن أشهر المراجع هذا الكتاب الذي ألفه جوزيف رينو ، وأطلق عليه اسما طويلا يدل على موضوعه هو :

« غارات العرب على فرنسا ، ومن فرنسا على سافوى وبيدمونت وسويسرا في القرن الثامن والتاسع والعاشر الميلادى حسب روايات المؤرخين المسيحيين والمسلمين » .

وكان هذا المؤلف يعرف العربية واللاتينية الى جانب اللغات الأوروبية المعاصرة ولهذا جاء بحثه شاملا .

ويهمنا ، ونحن نقدم للحروب الصليبية ان نستعرض هذه الغارات العربية الى قلب أوروبا ، وما تجمع في نفوس الاوروبيين من احساس بالخوف ثم بالمرارة ، ثم بالرغبة في الثأر التي توارثوها جيلا بعد جيل .. هذه الغارات التي جاءتهم من أفريقية ، وهي غير الحروب عند بابهم الشرقى في الأناضول . وبلاد الاغريق .
ونعود الى كتاب رينو الذي لخصه الأمير شكيب ارسلان ، فبعد أن استعرض المراجع التي اعتمد عليها في بحثه قال :

« في جميع البلاد التي احتلها العرب طويلا أو قصيرا بقيت لهم آثار ، وسرت عنهم أخبار . فهنا كنت ترى قلعة كانوا يعتصمون بها عندما يجتاحون تلك الأرض . وهناك كانت مخاضة نهر ، أو قنطرة كانوا يأخذون عندها رسما على المارين . وهناك كهف في واد كانوا يضعون فيه الغنائم . وعلى تلك الجبال أبراج كانوا يتبادلون منها الاشارات النارية لأجل توحيد حركاتهم .

معارك العرب في فرنسا :

أربونة هي أول المدن الفرنسية التي احتلها العرب مدة من الزمن . وقد صادفها حظ حسن حتى انها كانت تنافس مرسيليا وذلك قبل ميلاد المسيح بقرن من الزمان . يمر بالقرب منها نهر الأودر . ولا يزيد عدد سكانها الآن على ٣٠ ألف نسمة وحاصلاتها من الكروم والتين والزيتون .

وفي سنة ٧١٩ م هاجمها السمع بن مالك أمير الأندلس واستولى عليها بعد حصار استمر أربعة أسابيع .. وكان يفتن الى أهميتها الجغرافية . من حيث كونها رأس رمح الى جنوب فرنسا . وبعد معركة بواتييه (صد فيها شارل مارتل غزو العرب) حاول الفرنسيون الاستيلاء عليها دون جدوى . وفي سنة ٧٥٢ جرت محاولة ثانية عاون فيها أهل المدينة المهاجمين من الخارج ولم تسلم الحامية العربية حتى فنى آخر رجل فيها .. وكان حصار الفرنسيين لها قد استمر سبع سنوات كاملة .

ولكن في سنة ٧٩٢ م عاد العرب فحاصروا المدينة فبعث شربلمان - وكان ملكا لفرنسا قائده الفارس المشهور غليوم على رأس عشرين ألف مقاتل ، غير حاميتها الفرنسية . وتلقى الجمعان : العربي والفرنسي . واستأصل العرب الجيش الفرنسي ، وقد أبيد عن آخره ، ولم ينج منه الا هذا القائد وثلاثة عشر جنديا . ولكن غليوم عاد بجرح ظل شارة هذه المعركة طول عمره . اذ قطع أنفه . ولهذا سمي بذى الأنف القصير .

وفي كتاب نفع الطيب ان عساكر العرب استولوا في سنة ٧٧ هجرية على أربونة ومقاطعتي جيروند في جنوب فرنسا الغربي وبرتاني في غربي فرنسا (تقع مقاطعة نورماندى شمالها) (١) .

ويبدو ان مدينة أربونة هذه تداولها العرب والفرنسيون اكثر من مرة . ومضى هذا القائد الباسل السمع بن مالك الخولانى الى مدينة تولوز الفرنسية وحاصرها ، وضربها بالمنجانيق وسائر آلات الحصار . وأوشك أهلها أن يسلموا .. ولكن « أود » دوق مقاطعة اكيثانية خف لنجدة المدينة بجيش يسد الفضاء ، حتى قال مؤرخو العرب : ان العثير المتطاير من زحف أقدامهم كان يغطى عين الشمس من كثرتهم . فتلا السمع لعسكره الآية القرآنية :

(١) يشك الامير شكيب ارسلان في ان العرب وصلوا الى شمال فرنسا ، ويذكر ان هذا الاقليم كان مستقلا عن فرنسا وانضم اليها في منتصف القرن السادس عشر الميلادي ، وقد اعتمدنا على تحقيقات شكيب ارسلان في كثير من التفاصيل الخاصة بهذه المرحلة .

« إن ينصركم الله فلا غالب لكم » ولما تدانى الجمعان خيل للناس ان الجبال تلاقى بعضها ببعض . وكانت المعركة من أهول ما يتصوره العقل . وكان السمح يظهر في كل مكان كالأسد التائر يحمل على العدو ، فلا يقف أحد في وجهه . فما هو الا أن اصابته طعنة خربها صريعا عن جواده فلما رآه العرب مجندلا فت ذلك في عضدهم . ونكصوا على أعقابهم ، وتركوا قتلاهم في العراء . وكانت هذه المعركة في شهر مايو سنة ٧٢١ ميلادية (١٠٣ هجرية) ، وقد خسر فيها العرب كثيرا من فرسانهم المغاوير الذين شهدوا الفتوح السابقة . وقد تولى القيادة بعد مقتل السمح نائبه عبد الرحمن الغافقي - وعاد بالجيش الى الاندلس .

وهكذا خسرت هذه الغزوة قائدا باسلا عظيما هو السمح بن مالك الذي يقف في نفس الصف الذي وقف فيه الرواد الأول من بناء القومية العربية من أمثال خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص . وعقبة بن نافع . وطارق بن زياد . وبعد ثلاث سنوات أي في سنة ٧٢٤ م عادت جيوش العرب مرة ثانية الى فرنسا .. بقيادة عتبة الكلبى .

وكانت البلاد المفتوحة في فرنسا تدفع الضرائب للعاصمة « برشلونة » أو الخراج ، كما كان يسمى في ذلك الوقت . ولكن لم يستمر كفاح هذا القائد الباسل طويلا ، فقد لحق بسلفه السمح في سنة ٧٢٥ ، ولكن خلفه « جديرة » ، واصل المهمة وعادت ريح الاسلام فعصفت ببلاد النصرانية ، من كل جهة ، بحسب تعبير أحد مؤرخى العرب ووصلت قوات العرب الى حدود الرون . وصل العرب الى مقاطعة دوفينييه ، وعاصمتها جرينوبل ووصلوا أيضا الى مدينة « ليون » الشهيرة . وبلاد برجونيا .

وتذكر مراجع هذه الفترة قائمة طويلة بأسماء المدن التى وصلوا اليها ، وتهتم المراجع الفرنسية باحصاء الكنائس التى حرقت أو هجرها رهبانها . وربما اختلط الأمر على بعض المؤرخين الفرنسيين فأضافوا الى حساب هذه الحروب ، ما فعله الوندال المغيرون من ألمانيا على بعض البلدان . ولا سيما في مقاطعات الالزاس واللورين .

ويستطرد رينو في عرضه لتاريخ هذه الفترة :

« انه تحقق مجيء العرب الى فرنسا ، وتغلغلهم في احشاء البلاد .

ولم تكن لهم خطة مرسومة معينة في غزواتهم . ولم يجدوا أول الأمر من أهل فرنسا الامقاومة واهية . واذا كان الأهالى في أسبانيا قد انضموا الى العرب ودانوبديتهم ، فان الفرنسيين لم ينحازوا لهم . ولم يتخلوا عن دينهم ، باستثناء قلة قليلة من

الإشراف والنبلاء .

وفي كتاب نوح الطيب للمقرئ ، ان الفرنجة (الفرنسيين) اجتمعوا الى ملكهم أعظم قارله (هوشارل مارتل) فقالوا له :

- كنا نسمع بالعرب ونخافهم من جهة مطلع الشمس (المشرق) حتى أتوا مغربها ، واستولوا على بلاد الأندلس ، وعظيم ما فيها من العدة والعدد ، بجمعهم القليل ، وقلة عددهم ، وكونهم لا دروع لهم .
فقال لهم ما معناه :

- الرأي عندي الا تعترضوهم في خرجتهم هذه . فانهم كالسيل يحمل من يصارده ، وهم في اقبال أمرهم . ولهم نيات تغنى عن كثرة العدد ، وقلوب تغنى عن حصانة الدروع . ولكن امهلوهم . حتى تمتلئ ايديهم من الغنائم ، ويتخذوا المساكن ، ويتنافسوا في الرئاسة . ويستعين بعضهم على بعض .
فحينئذ تتمكنوا منهم بأيسر أمر .

ويستطرد المقرئ في كتابه : ' فكان والله كذلك بالفتنة التي طرأت بين الشاميين والبلديين والبربر والعرب والمضرية واليمانية ، وصار بعض المسلمين يستعين على بعض بمن يجاورهم من الأعداء !!

وهذه الحالة التعسة التي تجعل العربي يواجه العربي بالدماء ، ويستعين بالاعداء ، لمنافع عاجلة ، هي الحكم . هذه الحالة هي التي ما أن تصادف الأمة حتى يصيبها التخاذل والضعف ، وهي الحالة التي تحاول الأمة العربية أن تبرا من بقاياها في أيامنا هذه .

وفي سنة ٧٢٨ م (١١٠ هـ) تولى امارة الاندلس عبد الرحمن الغافقي - وهو من عكا وكان أميراً حكيماً ، وظل عامين يطوف في البلاد ، ويزيل المظالم ، ويعزل الولاة الجائرين ، وينفذ العهود ، ويعيد الكنائس للمسيحيين ، التي كانت من حقهم وفق العهود التي أبرمت معهم .

وحشد جيشاً قوياً ، وجاءه مدد من أفريقية ، وكان همه الأكبر أن يطبق على فرنسا ويضمها الى الاندلس .

وكان على مقدمته قائد اسمه عثمان بن أبي نسعة ، فأمر بالسير الى مقاطعة اكيثانية .. ولكن هذا الأمر لم ينفذ لأن عثمان هذا قد تزوج ببنت دوق هذه المقاطعة « أود » ، ووجد ان مصاهرته الجديدة تمنعه من الغزو ولهذا عقد معاهدة مع أبي عروسة تنص على السلم ، والهدنة !

فلما جاء أمر الزحف تردد ، ثم أخبر الأمير عبد الرحمن الغافقي بمصاهرته

ومعاهدته ، فسارعت قوة تقتص من تصرفه ، فهرب عثمان الى الجبال مع فتاته ، ولكن القوة ادركته وقتلته ، وأخذت الفتاة الفرنسية أسيرة ، لكي ترحل الى دمشق ، وتضم الى بلاط الخليفة الأموي .

وسارت كتلة الجيش الى بوردو ، وتابع زحفه شمالا ، وهنا دوى نداء عام في فرنسا ، بأن تتكفل ولاياتها وامراؤها لوقف هذا الزحف ، مهما كانت الخلافات بينهم .

وهناك عند مدينة « تور » التي تقع على نهر اللوار ، تجمع جيش كل الفرنسيين تحت قيادة شارل مارتيل .

وكان أفراد الجيش العربي مثقلين بالغنائم ، وهم قائدهم بأن يأمرهم بتركها ، ولكنه خشى ان تفر همتهم ، فتزكها على مضض ، ثم هاجم « تور » على مرأى من الجيش الفرنسي ، واستولى عليها عنوة .

وفي مكان لعله بين تور وبواتييه (على مسافة ٣٢٢ كيلومترا من باريس) دارت الموقعة الحاسمة في تاريخ أوروبا كلها ، لا فرنسا وحدها « وكان عبدالرحمن هو البادىء بالمناجزة ، فاستمرت المعركة مدة طويلة ، قبل أن يترجح النصر للفرنج ولما رأى عبدالرحمن الخلل قد ابتدأ يظهر في صفوفه ألقى بنفسه في وسط المعركة ، يصطليها بيده ، ودخل بين الصفوف يقاتل ، الى ان خر صريعا . وكما هي العادة ، ما ان رأى العرب مصرع قائدهم الأكبر حتى نكسوا على أعقابهم ، فأعمل فيهم الفرنسيون سيوفهم ، ومات منهم ألوف .

وقد دوى وقع هذه الهزيمة في انحاء الامبراطورية العربية كلها ، وكانت حديث أمصارهم كلها .. وصمم الجميع على الثأر لمقتل عبدالرحمن الغافقي ، وأمر الخليفة في دمشق بأن تؤخذ فرنسا كلها بأى ثمن ، وتخدم مقاومتها نهائيا .

ولكن نتيجة أخرى حدثت لهذه المعركة ، فقد ثار البربر في أفريقية ، وبعد أن كانت الجيوش تتأهب لزحفها الجديد ، وتنفيذ واجباتها التي عهد إليها الخليفة بها اضطرت الى الالتفات لما حدث في أفريقية من مشاكل .

ولو ان هذا الزحف تم حسب الخطة الموضوعه له ، لسهل سقوط فرنسا كلها ، لأن نصرها الأخير وغزوات العرب السابقة كلفتها الكثير من التضحيات والمتاعب ، بحيث كان يتعذر عليها الصمود طويلا .. ولا سيما ان القوات التي استعانوا بها من وراء نهر الراين ، لم تكن لتستمر طويلا في الحرب عند نهر الرون وفي سهول فرنسا . أما ومعركة الثأر لم تأت في وقتها ، فقد اعتز شارل بقوته ، وأخذ يغير على المقاطعات ، ويوحد تحت رايته المقاطعات الأخرى ، ويجلي العرب عن مواقعهم ،

ومات سنة ٧٤١ م ، قبل ان يتمكن من الاستيلاء على أربونة ، ولكن هذا تم في عهد ابنه « بينين » الصغير .

يقول « رينو » .. ان هدف عبد الرحمن الغافقى لم يكن فرنسا وحدها ولكنه كان يريد أن يتخذها طريق عبور الى ايطاليا والمانيا والقسطنطينية .

وفي سنة ٨٣٤ م كان حاكم أربونة العربى قد تعاقد مع دوق مرسيليا الفرنسى على حلف ، ألفوا بمقتضاه جيشا مشتركا ، وزحفوا في اقليم البروفانس حتى مدينة افينيون ، وظلوا أربع سنوات في هذه الانحاء .

ووصل العرب مرة ثانية إلى مدينة ليون واحتلوها ، وهنا عادت صرخات الفرنسيين تدوى لاداخل فرنسا ، ولكن خارجها طلبا للنجدة وقد سارع اليها الايطاليون من لومبارديا . ويبدو أن خطة العرب في احتلال ايطاليا والمانيا واليونان ، وتحويل البحر الأبيض المتوسط إلى بحيرة عربية ، أصبحت معروفة . وإذا كان هذا هو الموقف في مغرب الأرض .. في فرنسا التي تدفع عن حياتها غزوا خطيرا يتقرر فيه مصيرها ومصير أوروبا .

فإن شرق العالم العربى حدثت فيه أيضاً أحداث هامة ، فقد تولى العباسيون الحكم ، وانتقلت الخلافة من دمشق الى بغداد .

ويقول الأمير شكيب ارسلان في كتابه تاريخ غزوات العرب :

ومما يدلك على بعد المدى الذى تصل إليه أهواء النفوس - إذا استحكمت العداوة - أن أمراء قرطبة كانوا في نزاع دائم مع خلفاء بغداد وكان هم الفريقين النكاية بالآخر ، أكثر منه في الفتوحات ببلاد المسيحيين أنفسهم . وبينما كان ملوك قرطبة يرسلون قياصرة القسطنطينية الذين كانوا في حرب مع مسلمى الشام وفارس ومصر ، كان خلفاء الشرق يعقدون معاهدات مع ملوك الفرنسيين الذين كانوا في حرب مستمرة مع مسلمى الأندلس ، وكانت لذلك العهد قد بدأت العلاقات التجارية بين الشرق والغرب وسارت السفن بين مرسيليا ومرافئ سوريا ومصر ، تنقل تجارة البهارات والاعطور والمنسوجات الحريرية ، وانضمت الى هذه العلاقات التجارية أسباب دينية كان يستهان لأجلها بجميع الاخطار ، وذلك أن المسيحيين في الغرب كانوا في أثناء الحروب بينهم وبين العرب ، لايتأخرون ساعة عن أن يزوروا البقاع المقدسة في فلسطين .

وفي سنة ٧٣٣ م ذهب حجاج من الغرب الى بيت المقدس والناصره ، وكانوا يجولون آمنين في فلسطين والشام ، وزاروا قصر الخليفة نفسه في دمشق ، ولم يعترضهم أحد ، ولا خافوا ، ولا حزنوا !

وكان خلفاء الدولة العباسية يعاملون الدولة الفرنسية أحسن معاملة ويتبادلون واياها التحف والهدايا .

وعندما أرسل الخليفة العباسي المنصور إلى الأندلس أسطولاً لمقاتلة عبدالرحمن الأموي الملقب بالداخل ، سارع « بيبين » حاكم فرنسا إلى انشاء علاقات مع بغداد وفي سنة ٧٦٥ م أرسل رسلاً إلى العاصمة العباسية لبثوا ثلاث سنوات وعادوا الى فرنسا ومعهم رسل الخليفة . فنزلوا في مرسيليا ، وصعدوا إلى مقر « بيبين » فبالغ في الاحتفاء بهم ، وقضوا ذلك الشتاء في مدينة « ميترز » باللورين . ثم أمر باقامتهم في قصر على ضفاف نهر اللوار ، ثم أعيدوا إلى الشرق ، عن طريق مرسيليا ومعهم الهدايا إلى الخليفة .

وفي بدء القرن التاسع الميلادي زار فرنسا وفد من قبل هارون الرشيد ، إلى بلاط شرلمان ، وكان شرلمان قبل ذلك قد أرسل رسولا يهوديا اسمه اسحق مصحوبا باثنين من الفرسيين لأجل السلام من قبل الخليفة العباسي ، وقد أمر شرلمان هذا الوفد بأن يمر بالقدس قبل ذهابه الى بغداد وأن يتعهد أحوال زوارالمسيحيين لبيت المقدس ويتوسط لدى الخليفة في تسهيل هذه الزيارة حتى يزداد عدد الزوار والتجار القاصدين إلى البقاع المقدسة . وكان الفرنسيون من عهد هانيبال لم يروا في بلادهم فيلا ، فكان من جملة مهمة هذا الوفد ان يأتوا من الشرق بفيل يبتهج برويته أهل فرنسا . فلما وصل الوفد إلى بغداد استقبلهم الخليفة أحسن استقبال ووعده بتسهيل زيارة المسيحيين لبيت المقدس واعلاء مقامهم عندما يفدون عليه . ولم يكن في دار الوحوش التي عند الخليفة عندئذ سوى فيل واحد فبعث به هارون الرشيدى إلى شرلمان ومعه هدايا أخرى من منسوجات حريرية وقطنية لم يكن يوجد منها في فرنسا .. ومن طيوب ومعطرات وأشياء أخرى .. وكان من جملة الهدية شمعدان من نحاس أصفر ، عظيم الحجم ، وساعة من نحاس أصفر أيضاً تتحرك بالماء وتدق اثنتى عشرة مرة بعدد ساعات النهار . وكذلك أرسل له مفاتيح كنيسة القيامة والقبر المقدس وقد أشرنا إلى ذلك من قبل .

ونزل الوفد في عودته من الشرق ، في مدينة بيزه وحملت الهدايا بابتهاج عظيم إلى (اكس لاشابل) مركز الامبراطور شرلمان . ولما وصل الوفد قدموا للإمبراطور تحايا الخليفة . وأبلغوه ما قاله لهم من أنه يضع مودته فوق مودة جميع الملوك . وكان هذا الوفد قد صدر له الأمر من شرلمان بأن يتوجه إلى قرطجنة في أفريقيأ ويلتمس من ابراهيم الأغلبى (عامل الخليفة) الإذن بنقل

رفات القديس فيريانس المدفون في قرطجنة وغيره من القديسين المدفونين هناك .
فأذن لهم ابراهيم فيما طلبوه وبعث أيضاً رسولا وراءهم إلى الامبراطور يتودد
اليه . وقد كان لذلك في هاتيك الأيام وقع عظيم ، نظراً لانقطاع العلاقات تقريبا
بين الأقطار المتباعدة ، وكانت الناس تستدل به على عظمة شرلمان وأن الله أعطاه
في ذلك العصر صورة ترى كل ملك دونها يتذبذب .

وعلى الرغم من هذه الصلات ، التي تحمل طابع الالفة الدولية ، لم تكف
الحرب المسلحة عن فرض نفسها على هذين المعسكرين .

تولى حكم الأندلس بعد عبد الرحمن الداخل ابنه هشام فدعا الناس الى
القتال . ومواصلة ما بدأه « السمع » وأخوانه الأقدان .. وكان ذلك في سنة
٧٩٢م أي بعد ستين سنة من هزيمة العرب في تور أو بواتيه .. وفي العام التالي
دخل العرب فرنسا مرة أخرى ، وكان شرلمان يومئذ يحارب على ضفاف الدانوب
في وسط أوروبا ..

انتصر العرب في زحفهم بعد أن أوغلوا في جنوب فرنسا ، وظفروا بغنائم
ضخمة جداً .. وساقوا الأسرى الفرنسيين ، وقد حمل كل واحد منهم فوق ظهره
كمية من تراب الأرض الفرنسية ، لكي يبنى به هشام قسما جديدا من جامع
قرطبة الذي بدأه أبوه ..

وهكذا نجد فرنسا وإيطاليا - وربما ألمانيا - ظلت قرنا من الزمان يلقي عليها
النسر العربي ظل الكاسر ، وتعيش في خلال هذا القرن لا يغمض لها جفن ، ولا
سيما في المواقع القريبة من أرض العرب .

ومما يلفت النظر ، أن العرب القادمين من الصحارى والسهول المنبسطة ،
دربوا على حرب الجبال ، منذ وقائعهم المشهورة في جبال الأطلس الأفريقية ،
فلما وصلوا إلى جبال البرانس الفاصلة بين فرنسا والأندلس ، ولم تكن عائقا
يذكر بالنسبة لهم ، بل إن دروبها ومسالكها كانت خير معين لهم على الكر والفر ،
والاقبال والادبار كما يقول الشاعر العربي القديم ..

وننتقل الآن إلى ميدان آخر غير السهول والجبال .. فننتقل إلى البحر وما
حدث فيه ، وكيف كانت السفن العربية تضغط على جزره وموانيه ضغطا
شديداً .. وقبل كل شيء نحب أن نتحدث عن صلة العرب بالبحر ، فنقول إنها
كانت صلة خوف ورهبة ، حتى وصفه أحدهم لعمر بن الخطاب ، بأن راكبه اشبه

بدوذ على عود ، حتى وصل الأمر بالخليفة عمر إلى أن نهى الناس عن ركوب هذا الكافر ، ويعنى به البحر .. ولكن الأمر لم يستمر طويلا ، فقد تجرأ العرب على البحر ، بل أعطوه من لغتهم أسماء لإصطلاحات غريبة لا تزال شائعة حتى اليوم ، فقد ذكر الأمير شكيب أرسلان أن القائد البحري في أيام العرب كان يلقب بـ « أمير الماء » وهو لفظ اميرال الحالى مع تحريف يسير . وذكر ان لفظه « ارسنال » الأجنبية والتي حرفت في العامية إلى ترسانة ، ما هى إلا « دار الصنعة » وهى اللفظ الذى أطلقه العرب على المعامل التى كانت تبني السفن البحرية « فنرى مؤرخينا يقولون : كانت الصنعة فى صور ، أو أسس الأمير فلان دار الصنعة فى تونس ، أو كانت صنعة الأندلس بالمرية ، وما أشبه » ذلك .

وفى عهد معاوية غزا معاوية وهو أمير للشام بعد وفاة الرسول بخمسة عشر عاما فقط - جزيرة قبرص وذكرت المراجع العربية أن « أم حرام » زوجة أحد الصحابة ماتت فى غزوة بحرية لقبرص وفى سنة ٦٦٩ م غزا العرب جزيرة صقلية . وتكرر الهجوم البحرى على صقلية وأثر عن رسول الله أنه قال : إن الجهاد فى البحر فيه عشرة أمثال الجهاد فى البر ..

وقيل إن طارق بن زياد لم تكن لديه غير أربع سفن لعبور المضيق من أفريقيا إلى أسبانيا ، ظل ينقل عليها رجاله ، وعتابه ، على دفعات كثيرة . وفى سنة ٨٢٦ م أنشأ العرب ترسانة عظيمة فى تونس . وفى سنة ٨٠٦ ميلادية استولى اسطول عربى على جزيرة كورسيكا ، فقامت من جنوة(١) قوة بحرية ترد هذا الغزو ، فانسحب العرب فى البحر وأطمع هذا الإنسحاب أهل جنوة ، فانطلقوا وراءهم ، وإذا بالسفن العربية توقعهم فى كمين بحرى وتقضى عليهم . وتأخذ من سفنهم ٤٠ راھبا ، بيعوا فى الأندلس ، فدفع شلمان فديتهم وفك أسرهم .

ودارت معارك بحرية كثيرة بين الشاطيء الايطالى وجزيرة كوريسكا ، نزل العرب فيها إلى شاطيء الريفيرا فى نيس ، وشاطيء بروفنس ، والشاطيء المواجه لروما ..

(١) يورد كتاب تاريخ غزوات العرب ، ان كتاب تاريخ جنوة ذكر ان العرب فى سنة ٩٢٤ م حاصروا الميناء الايطالى حصارا شديداً ، ولكن الاعاصير بددت هذا الحصار . وبعد عامين عود العرب الهجوم وتمكنوا من الاستيلاء على الميناء ، واصابوا بغانم كثيرة حملوها الى سفنهم . وكان اسطول جنوة فى كورسيكا فلما بلغت ما حدث طارد السفن العربية واستنقذ منها الأسرى ثم حصن اهل جنوة مدينتهم تحصينا شديداً .

وينقل الأمير شكيب أرسلان عن بعض الايطاليين أنه توجد على مسافة أربعين كيلومترا من روما قرية « سراسينشو » أى العربية ، أصل أهلها من سلالة الغزاة العرب الأول ، لم يتمكنوا من الجلاء بحرا ، فوقعوا في أسر الايطاليين . ولاتزال ملامح وجوههم تدل على أصلهم العربى ، بل إن مآكلهم ومشربهم وألحان غنائهم تدل أيضاً على عروبتهم .. وكذلك توجد آثار عربية قرب نابلى .

ولكثرة الغارات العربية البحرية على شواطئ فرنسا ، سعى شارلمان الى عقد معاهدة أمان بحرية مع العرب ، فسافر إلى « اكس لاشابل » عاصمة شارلمان أمير الماء يحيى بن حكم لابرام الاتفاق الذى كفل الهدنة لمدة ثلاث سنوات . وفى أثناء ثورة حدثت فى قرطبة ، اضطر الحاكم لأن ينفى ١٥ ألف شخص من محدثيها فركبوا البحر إلى الاسكندرية ، ولكن الاسكندرية رفضتهم فتابعوا الابحار إلى جزيرة كريت حيث أقاموا فيها .

وفى دائرة المعارف الإسلامية أن العرب احتلوا كريت فى زمن مبكر (٦٧٣ م) ثم احتلها أهل قرطبة المنفيون فى سنة ٨٢٥ م وظل الحكم العربى فيها ١٣٥ سنة وأنشأوا فيها عاصمة سموها « فانديا » ثم حاصرها البيزنطيون واستولوا عليها ، ونقلوا حاكمها العربى إلى القسطنطينية ، وخضع العرب فى الجزيرة لحكم بيزنطة .. ويقول البلاذرى : إن كريت أو « اقريطش » كما كانت تسمى ، كانت « أعظم بلاد المسلمين نكاية فى الروم » ويظهر أن حنق بيزنطة كان شديداً عليها ، حتى أنها بعد سقوطها فى أيديهم خضعت لارهاب شديد ، فقد هدمت مدنها ، وحمل منها البيزنطيون ٣٠٠ سفينة من النفائس والمتاع والسبى والأسرى . والقوا حجارة المدينة المهدمة فى الميناء حتى لا تدخلها سفن العرب مرة أخرى (١).

ونعود مرة أخرى إلى ايطاليا وجنوب فرنسا ، فقد ذكر المؤلف « رينو » أن مرسيليا كانت هدفا لهجوم بحرى فى سنة ٨٣٨ م . وقد استولى العرب على الميناء الفرنسى الكبير ، وتروى كتب المسيحية قصة القديسة أو. زيبيا والأربعين راهبة ، اللاتى خفن من الغزو العربى ، وأن يؤخذن سبايا ، فقطعن أنوفهن ، حتى ينصرف عنهن الغزاة .

(١) ذكر من بين غزوات البحر ، انه كلن للعرب بلجة متناهية فى الكبر يظنها الراى من بعيد بناء عاليا سائرا فى البحر غزت مرة جزيرة « اوى » فى مقاطعة بريتانى الفرنسية عند مصب نهر اللوار .

يقول : ولم تكن ايطاليا بأحسن حالا من فرنسا لأن العرب استولوا على جزيرة صقلية ، وكان اثنان من الأمراء الايطاليين بقرب نابلي يتنازعان على الحكم ، فاستعان أحدهما بمدد من العرب في صقلية ، فجاءته نجدة من هناك ، ودخل العرب الى الأرض الكبيرة ، واستولوا على قسم كبير منها .
وفي سنة ٨٤٦م ، وصل الغزاة العرب الى روما عاصمة الكاثوليكية ، وأكبر مدن أوروبا الجنوبية ، وصعدوا في نهر التيبر ، ونهبوا كنائس القديسين بطرس وبولس .. ووصلوا الى جنوة ، وعطلوا سدود نهرها .

ويروى المسعودى في مروج الذهب أن الغزو العربى لاطاليا وصل الى تورنتو . ووصفها بقوله : ومدينة « طارينتو » ومدينة سيرين وغيرهما من مدنهم الكبار سكنها المسلمون مدة من الزمان ، ثم إن النور منديين أخرجوا العرب من مدنهم بعد حرب طويلة ..

ويذكر شكيب ارسلان أن العرب ظلوا في ايطاليا الى أيام فردريك الثانى امبراطور المانيا ، وملك صقلية الذى عاش في أوائل القرن الثالث عشر المسيحى ، وكان قد اتخذ جيشا من المسلمين ، وكان يعرف العربية معرفة جيدة .

وإذا كان الحكم العربى في بعض أنحاء ايطاليا - حتى شمالها - قد تراجع بعد مدة ، فإنه ظل أمدا أطول في جزيرة صقلية .

وقد روى محمد الخانجى البوسنوى (١) أن جزيرة صقلية فتحت بتمامها سنة ٢١٣هـ - على يد قاضى القيروان أسد بن الفرات ، وكان رجلا صالحا فقيها أدرك مالك بن أنس ورجل اليه (٢) . وبقيت صقلية في أيدي المسلمين مدة . واهتدى أهلها ، فصاروا مسلمين وبنوا بها الجوامع ، حتى أنه كان في مدينة واحدة من مدنها وهى « بلرم » (العاصمة) نيف وثلاثمائة مسجد . قال ابن حوقل : رأيت في بعض الشوارع من بلرم . على مقدار رمية سهم عشرة مساجد ، ودام ملك العرب لصقلية الى سنة ٤٦٤هـ . وبعد زوال ملكهم منها ، بقى الاسلام فيها مدة . وقد ظهر من صقلية من أهل العلم عدد كثير تراجمهم

(١) كتابه اسمه الجوهر الاسنى في تراجم علماء بوسنة .

(٢) يروى صديقنا الدكتور عبدالهادى ابو ريبة ان شمال افريقية كله يدين الى الآن بالمذهب المالكي ، وان المذاهب الشيعية لم تبق لها آثار رغم ان الدولة الفاطمية نشأت في المغرب وقد اقام الدكتور أبويدة ، سبع سنوات في جامعة ليبيا وأنشأ بها دراسة الفلسفة .

موجودة . وكان الاسلام جاوز البحر من صقلية الى بلاد ايطاليا .. وكانوا قرعوا
ابواب رومية مقر البابا رئيس النصرانية .

ومر ابن جبير الرحالة الأندلسي بجزيرة صقلية وهو قافل من الحج سنة
٥٦٠ هجرية ، وكانت خرجت من ملك العرب . ولكن كانت منهم بقية هناك ..
خصب هذه الجزيرة أكثر من أن يوصف وكفى أنها ابنة الأندلس في سعة
العمارة ، وكثرة الخصب مشحونة بالأرزاق على اختلافها ، مملوءة بأنواع
الفواكه وأصنافها . لكنها معمورة بعبدة الصلبان ، يمشون في مناكبها ،
ويرتعون في أكنافها ، والمسلمون معهم على أملاكهم وضياعهم ، قد أحسنوا
السيرة في عملهم .. وفي « بلرم » سكن الحضريون من المسلمين ولهم فيها
المساجد ، وسائر المسلمين بضياعها وجميع قراها ، وسائر مدنها .. وملك
صقلية يستعمل المسلمين (العرب) ، وهو كثير الثقة بهم ، وساكن اليهم في
أحواله ، حتى أن الناظر « المشرف » في مطبخه رجل من المسلمين وله جملة من
السود المسلمين وعليهم قائد منهم .

وهو يقرأ ويكتب بالعربية .. وعلامته « لقبه في التوقيع » : الحمد لله حق
حمده .. وكانت علامة أبيه : الحمد لله شكرا لأنعمه .

وروى ابن جبير عن شخص قابله هناك ، من ذوى الشأن أسر اليه أنه
وبعض قومه يكتمون الاسلام على أنفسهم (١) .

العرب في الألب وسويسرا :

وننتقل الى مرحلة جديدة من التغلغل العربى في قلب أوروبا ، وهى مرحلة
السيطرة على جبال الألب .

ففى سنة ٨٨٩م تسلل عشرون ملاحا عربيا من سواحل الريفيرا الى
الجبال المشرفة على اقليم بروفنس السفلى ، وهى أطراف الألب ، وأنشأوا فيها
معاقل ثم بعثوا يستدعون اخوانهم من عرب الأندلس وأفريقية ، وزادوا في
معاقلهم الجميلة الحصينة ، وأحسنوا استعمال الغابات ، وانتشروا في اقليم
السفواى وشمال ايطاليا وسويسرا .

(١) زار مؤلف هذا الكتاب جزيرة مالطة ، فوجد أن الكثير من الفاظ اللغة المالطية عربية ، متبقية من ايام وجود
العرب في الجزيرة ، مثل ذلك قول احدى صحفهم في عنوانها الرئيسى : « نريدى مالطة ايطالية ، مكتوبة بالحروف
اللاتينية ، وهى « نريد مالطة ايطالية ، بالعربية .

وكان أهم معقل جبلي في الألب لهؤلاء العرب البواسل اسمه « فراكسينتوم » وتبين من أبحاث تاريخية حديثة أن العرب انشأوا أكثر من مركز يحمل هذا الاسم .

يقول « ارسلان » وكان العرب يتقدمون يوما فيوما نحو جبال الألب ، تعلقا وتسلقا ، حتى وقفوا على أعلاها .. ثم ان العرب قطعوا المواصلات بين فرنسا وإيطاليا . واحتلوا جميع مضائق جبال الألب ، فصار مرور الناس عائدا الى إندهم سنة ٩١١م كان رئيس أساقفة أربونة يريد السفر الى روما لأمر عاجل فلم يستطع خوفا من العرب .. وكانوا لايسمحون لأحد أن يمر بدون أن يأخذوا منه رسما معلوما .. وكان من عادة أهالي فرنسا وأسبانيا وانجلترا أن يذهبوا حاجين الى روما ، ولو مرة في العمر .. ولكن معاير الألب صارت كلها في أيدي العرب .

وكان الأساقفة الذين فروا من وجه العرب في بروفنس ، قد لجأوا الى بلاد (فاليه) من سويسرا ، فجاء العرب ، ودخلوا هذا الوادي واكتسحوه ، وتقدموا في سويسرا الى مقاطعة « جزيون » .

« وازدادت جرأة العرب ، واستقرت قدمهم في البلاد ، وأصبحوا كأنهم سيلبثون أبدا في قلب أوروبا ، فأخذوا يتزوجون من بنات الأهالي ، ويحرثون ويزرعون كسائر الفلاحين . وكان أمراء النواحي يكتبون بأن يأخذوا منهم أتاة خفيفة .. أما سكان الجبال ، ولاسيما جبل سان برنار الكبير ، فقد كانوا واسطة الاتصال بين ايطاليا وسويسرا ، ولما استولى عليه العرب تمكنوا من سائر النواحي المجاورة .. وأقاموا على ضفاف بحيرة كونستنزا .

ويظهر أن أهل سويسرا وشمال ايطاليا ، جمعوا قوات كبيرة والتحموا مع العرب ، ليخلصوا منهم جبال الألب . كما يبدو أن قوات من المجر التي أغارت على اقليم الألزاس هبطت الى سويسرا والتحمت بهم أيضا .

وكانت أواخر المواقع في هذه الانحاء بين أهلها والقوات العربية حوالي سنة ٩٦٠م وبعدها لم ترد في مراجع التاريخ أخبار مواقع أخرى ، ولاسيما في سير القسيسين والكنائس الذين دونوا أخبارا عن العرب في هذه الانحاء من وجهة نظرهم .. والراجع أنهم انسحبوا منها الى أفريقية والأندلس .

بعد أن عرضنا هذه الصورة السريعة ، لامتداد الفتح العربي الى كل جزر البحر المتوسط ، وشواطئه « والأرض الكبيرة » الممتدة بعد هذه الشواطئ في فرنسا وإيطاليا وسويسرا . بعد هذا العرض نود لو أن مؤلفي الكتب الدراسية

في التاريخ لا يقفون بالفتوحات العربية في تلك الحقبة ، عند سنة ٧٣٢م ، حيث دارت موقعة تور أو بواتيه .. ويجب أن يمتد بحثهم وعرضهم الى هذه الصحائف التي كانت مطوية ، وَجَدَ مؤلفون من الأجانب والعرب في تمحيصها والكشف عنها .

واننا نريد أن نعيش لحظات بفكرنا وخيالنا ، عند هذه الحقبة ، مع هؤلاء الأبطال الصناديد ، الذين لم تقف جبال البرانس ، أو جبال الألب الشاهقة ، دون نشاطهم ، وعظيم مغامراتهم .. انهم رجال لم ير أبائهم نهرا ، ولم يعرفوا من الجبال الا هذه السلاسل الجرداء عند تهامة ، فاذا بهم يرتقون القمم الثلجية ، وينحتون في صخرها ، وجوفها بيوتا لهم ، كما تصنع النسور المطلقة في أجواء الفضاء ، اذا ما أن لها أن تستريح .

ولا نحسب أن سيطرة العرب على جبال الألب ، وعلى السهول والبحيرات المنبسطة في شمالها وجنوبها ، كان نزهة عسكرية ، أو مغامرة شخصية .. إننا نرجح أنه كان جزءا من الخطة العربية الكبرى ، التي تريد أن تصل إلى القسطنطينية من بابها الخلفى ، بعد أن ردت العرب عنها من بابها البحرى .. ولقد انتظر العرب من نسور هذه الجبال ، والقايضين على مسالكها شهورا وسنين ، كي تفد الجيوش العربية ، في طريقها الى الهدف المرجو .. ولكن هذه الجيوش لم تصل ، لأن الآفة الكبرى دبت في الوطن الام . آفة الخلاف على الحكم ، ثم امتدت إلى الاقاليم والأمصاير . وشغل الشعب بالتطلع إلى هذه المأساة الدامية .. مأساة التمزق التي تحجب في ضجتها الأهداف الكبيرة ، وتضيع فيها معالم الخلق والعزيمة ، وقوة الاندفاع ، التي شحنت بها القومية العربية أبناءها . منذ انطلق المثنى بن حارثة من شواطئ الخليج إلى أرض الرافدين .. دجلة والفرات .

ان صورة المجد العربي ، في ارتفاعه العظيم ، لا تتراءى لنا من قسم سانت برنار ، المتوجة بالثلوج فقط .. ولكن تبدو أكثر روعة وتأثيرا ، في هذه السفن العربية ، التي تسيطر على أمواج البحار وتنتقل فوقها من غزو الى غزو ، ومن نصر إلى نصر ، ولا ترى من حولها الا الزبد الأبيض يتكسر ، ثم ينحسر الى وراء ، ليخلى الطريق لهذه القوة العربية الاصيلية ، كي تنخر العباب وتتطلع الى الافاق .

اننا نسأل عن حدود القومية العربية ، ونراها تقف عند كل أرض خالطها الدم العربي .. ولكننا هنا نمد هذه الحدود ، مع السفائن المنطلقة ، والسواعد

المدرية ، التي تستخدم تيار الهواء وتيار الماء ، ومد البحر وجزره لكي ينفسح أمامها الأفق البعيد إلى مالا نهاية من المسافات والأبعاد .
كم من « أمير ماء » عربى ، وقف على مقدمة سفينته في خليج بسكاي ينظر إلى مياه الأطلنطى ليسأل الريح عما وراءها .. وكم من « أمير ماء » مد بصره ، ليرى اليابسة تقترب ، فيصيح في رجاله أن يستعدوا ليأخذوا برقاب مدن كبيرة وشهيرة مثل مارسيليا وجنوا ونابلى والبندقية .
ان كُتَّاب الفرنجة أسموا هذه القوة البحرية التي جعلت من البحر المتوسط والبحر الأحمر والمحيط الهندى مياها عربية ، أعمال قرصنة .. وما كانت كذلك .. انها كانت أعمال استاذية وارتياذ للمجهول . علمت أوروبا ما البحر وما الموج وما السفينة .. حتى إذا فت في عضد الأمة العربية ، ركبت أوروبا البحر من بعدنا بسنين وسنين ، وتابعت سيرنا ، وبحثت عنا ، فلم تجدنا ، لأن « لعبة » الحكم استغرقت وقت قادتنا ، ولأن « جرثومة » الخلاف تمكنت من جسم قوميتنا .

وسنرى بعد حين ، كيف انتهزت أوروبا وآسيا البعيدة هذه الفرصة ، لتضربنا ضربات في الصميم ، أخرت تقدمنا قرونا وقرونا .

لم تمض على هذه الوقائع غير فترة يسيرة - حوالى قرن واحد من الزمان - حتى كانت أوروبا قد استيقظت ، وتناولت الكرة بين يديها ، وأخذت ترد على العرب في الحملات التي استمرت قرنين من الزمان ، وسموها « الحروب الصليبية » .

وإذا كانت هناك أسباب مباشرة لهذه الحروب سنذكرها فيما بعد ، إلا أن أسبابها الأصيلة هي هذه الحروب التي شملت غرب وجنوب ووسط أوروبا وكان الطرف الأقوى فيها سواعد العرب ومهارتهم ودمائهم .



□ الفصل الثامن عشر □

الصلبيون في الشام الكبير

ارتفعت الشمس فوق طبقات الرذاذ التي غطت الحقول وعلت أصوات
الأجراس فرددتها أسوار مدينة (كليرمون) الفرنسية . وانتشر رنينها في الفضاء
قويا عميقا ..

ووقف رجل مهيب طويل القامة . على منصة الخطابة . وقد تجعدت خصلات
الشعر الأشقر في رأسه ولحيته .. وزاد مهابته رداؤه الأبيض الناصع ، والصلبيان
اللامعان اللذان ارتقعا الى يمينه ويساره . يحملهما رجلان في ثياب بيض .
والى جوار المنصة جلس الكرادلة . وتلاههم الأساقفة ثم الرهبان .. واجتمع
معهم بضعة آلاف من عامة الناس والأشراف والفرسان وانتشر بينهم بضع سيدات
من الأشراف مع وصيفاتهن وخادماتهن .

واتجهت أبصار الجميع نحو المنصة . يحملقون في ذلك الخطيب الأشقر ،
المديد القامة . البابا اربان الثاني . أو البابا الذهبي كما لقبه البعض .
وكانوا جميعا أذانا صاغية . وكان صوته يفعل فيهم فعل السحر . وأخذ يشعل
حماستهم وسخطهم فيقول :

« هؤلاء الأتراك والعرب . أسروا الكثيرين من المسيحيين . وهدموا كنائس ،
ووطئوا معابد بخيولهم . وأصبحت في أيديهم كنيسة ماري المقدسة ، حيث يرقد
جسدها الطاهر .

اسمعوا : هؤلاء المعتدون ينجسون مذابح العبادة بما تلفظه أجسادهم من
أقذار . اسمعوا .. إنهم يعذبون المسيحيين أشد العذاب . يقيدونهم بالأغلال ..
ويثخنون أجسادهم بالأسهم والحراب .. اسمعوا . انهم يكرهونهم على أن يسجدوا

ويحنوا رعوسهم كى يختبر هؤلاء الفجرة ، قدرة سيوفهم على قطع رقاب
المسيحيين ، بضربة واحدة ..

أنتم فرسان أقوياء .. ولكنكم تتناطحون وتتنابدون فيما بينكم . ولكن تعالوا
وحاربوا الكفار . يا من تنايذتم اتحدوا . يا من كنتم لصوصا ، كونوا الآن جنودا .
تقدموا للدفاع عن المسيح . لا تمنعكم عراقيل ، ولا تلهكم نساؤكم ، ولا
أولادكم ولا أموالكم عن القتال فى سبيل الله .

وهنا شاب صوت البابا ، نغمات الاغراء والترغيب وهوى يقول :
« تقدموا ، إلى البيت المقدس ، انتزعوا تلك الأرض الطاهرة ، واحفظوها
لأنفسكم فهى تدرسنا وعسلا .

انكم اذا انتصرتم على عدوكم ورثتم ممالك الشرق ، وان خذلتهم فستقضون
حيث مات يسوع ، فتخلدون فى النعيم الدائم .

اذهبوا الى القتال . وسنرتب أموركم وأموالكم فى غيابكم .
سأغفر لكم ذنوبكم وخطاياكم بالقوة التى زودنى بها الله .
فأعدوا أمركم واجمعوا جحافلكم . حتى اذا انقضى الشتاء وعاد الربيع ،
ابدأوا رحلتكم تحت رعاية الله .

ولم يكن قد انتهى من خطابه بعد ، ولكن صيحة دوت ، فغطت على كلمات
البابا ، وكان البعض ينتحبون ، والبعض يخبتون وجوههم فى أكفهم ثم رددوا جميعا
تلك الصيحة المدوية :

« انها مشيئة الله » .

وصممت الجموع ثانية ، فالبابا تتحرك شفتاه ليقول :

« لو لم يكن الله معكم ، وفى أفئدتكم ، لما هتفتم هكذا . انى أقول لكم ، لقد
أخرج الله هذه الصيحة من أفواهكم وقلوبكم . فلتكن صيحة الحرب . عندما تقفون
أمام العدو فلتكن شارة الصليب على أرديتكم وأعلامكم ولترفعوا هتافكم : انها
مشيئة الله » .

ويروى باركر فى كتابه « تراث الإسلام (١) :

ولم يكن الأمر ، أمر أناس من المسيحيين يعذبون ، فلم تكن هذه الدعوى
صحيحة ولكن ، قصدت البابوية من دعوة الاستغاثة توحيد الكنيسة فى الشرق

(١) ترجمة على احمد عيسى .

والغرب تحت سلطانها ، فضلاً عن استرداد بيت المقدس من العرب واستثمار أراضيهم . ولهذا أضحت قضية السلام الداخلي في غربى أوروبا مرتبطة بفرص الحرب المقدسة ضد المسلمين (الكفرة !) وكانت المجامع الكنسية على التوالي تربط في نفمة واحدة بين السلام الإلهي والحرب الصليبية المسيحية .
كان ذلك في أواخر سنة ١٠٩٥ ميلادية .

ولم تمض سنة ١٠٩٨ حتى كان الصليبيون قد اكتسحوا المسلمين أمامهم وامتلكوا منهم الرها ، وأنطاكيا ، وحصونا عديدة .
وفي ١٥ يوليو سنة ١٠٩٩ فتحوا أبواب أورشليم . وسرى في أعصابهم جنون الانتصار ، وانتابتهم حمى الفرح وزادتهم جنونا واشتعالا ، حرارة الشمس التي توسطت رقعة السماء .

وأخذت سيوفهم ترتفع وتهوى ، وتنسحب وتندفع تاركة دماء المسلمين تجرى وجثثهم تهوى . وحشرجات الموت تؤلف صوتا رهيبا !
ودخلوا البيوت ، يمزقون بسيوفهم أجساد النساء ، ويقطعون الأطفال كما تشرح الدجاجة عند أكلها ، ويتلذذون بفقاء عيون الفتيات الصغيرات .
وفي الطرقات والمساجد ، تناثرت الأشلاء . وتفجرت الدماء ، وكانت خيول الظافرين ، تجوس في لجج القتل ، وسيوفهم تزيدها تمزيقا وتمثيلا .
واجتمعت أسرات في المساجد ، لا لتقاوم ، بل تنتظر حتفها في رهبة . ووقف منهم الرجال المسنون ، في هدوء المؤمنين العاجزين ، يرون رؤوس أبنائهم وبناتهم تطاح ، فتندرج على أبسطة المسجد حتى جاء دورهم وهم يتمتمون :
أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ..

وبعد أن هدأت قليلا وحشية الظافرين ، أخذ بعض رؤسائهم يذرعون شوارع (القدس) ، فيرون كنائس هنا وهناك ، وقد دوت أجراسها ، فيهتفون من أعماق نفوسهم : « انها مشيئة الله » .
حقا ، لقد شاء الله وأراد .

وكتبوا إلى البابا « الذهبى » خطابا يهنتونه . وفيه يقولون : إذا أردت أن تعرف ما يجرى لأعدائنا . فثق أنه في معبد سليمان ، كانت خيلنا تغوص الى ركبتها في بحر من دماء الشرقيين .

ولكن الخطاب لم يصل اربان . فبعد أسبوعين من فتح أورشليم ، مات في روما قبل أن تصله أنباء الانتصار الأخير .

هكذا مشيئة الله .

وهكذا ، في نفس المكان المقدس الذي علم فيه المسيح الحب والرحمة حتى مع الأعداء . حدثت هذه المجزرة البشرية التي قتل فيها جنود المسيح ، أكثر من سبعين الفامن العرب (١) .

وفي كتاب تاريخ القدس لعارف باشا العارف :

يقول المؤرخون الذين بحثوا وضع القدس في ذلك الحين أنه كانت هناك أسباب للحملة الصليبية غير تلك التي ذكرها البابا في رسالته .. وأن المسيحيين في فلسطين كانوا يومئذ يعيشون مع المسلمين اخوانهم في الوطنية واللغة في سلام وصفاء وأن الأسباب الحقيقية تتلخص في :

- ١ - حب التخلص من الثقافة والفلسفة العربية ، تلك الثقافة التي تناقض الانجيل وكانت منتشرة في ذلك الحين .
 - ٢ - الحيلولة دون اصطدام الأمراء الاقطاعيين في أوروبا وتقاتلهم وشغلهم بمقاتلة أعدائهم المسلمين .
 - ٣ - جعل الأرض المقدسة لاتينية وملاشاة الارثوذكسية منها .
- وقال آخرون ان الغاية الحقيقية لاهذه ولا تلك ، وانما هي غاية تجارية بحتة .

ومهما تكن الأسباب فان الحملة الصليبية الأولى كانت مؤلفة من ثلاثمائة ألف مقاتل ينتمون الى مختلف الشعوب والأقوام الأوروبية من فرنسيين وألمان ونمساويين ومجريين وبولنديين وغير ذلك . واقترب هؤلاء في طريقهم الى الأرض المقدسة ألوان الفظائع والآثام . وذلك مما حدا بالأمم التي لاقوها في طريقهم الى مقاتلتهم . فقتل عدد كبير منهم . وعاد عدد آخر الى بلاده قبل أن يصل الى هدفه .

ولما وقفوا أمام أسوار بيت المقدس كان عددهم قد هبط الى خمسين ألفا . حاصر الصليبيون القدس من جهاتها الأربع ولاسيما من ناحيتها الشمالية وكان على رأسهم جودفري دوبيون أمير مقاطعة اللورين من أعمال فرنسا والكونت روبرت أوف نورمندی أمير مقاطعة نورمانديا والكونت روبرت أوف

(١) كتاب الشهر صلاح الدين للدكتور مصطفى الوكيل ومحمد صبيح .

فلاندرس أمير مقاطعة فلاندره والكونت نديريد ريموند أمير مقاطعة طولوز والكونت سان جيل ، وريكادوس أمير سالارنوس ، وكيرمونت وجراد ، وبلدوين ، وغيرهم .

بدأ الحصار في ٧ يونيو سنة ١٠٩٩م وكان في المدينة يومئذ « افتخار الدولة » يديرها باسم الخليفة الفاطمي المستعلي بالله . ولم تكن البلاد في الحقيقة قادرة على صد تيار الصليبيين بسبب تضعف الحكم السلجوقي بعد مقتل « نظام الملك ١٠٩٢ ، والتنافس القائم بين الطامعين في العرش ، وكانت قوة الدفاع عن المدينة مؤلفة من أربعين ألف مقاتل . ولم يترك أحد الفريقين وسيلة من وسائل التغلب على خصمه إلا لجأ إليها وكثيرا ما كانوا يتقابلون في ساحات الوغى وجها الى وجه فيقتتلون بالسلاح الأبيض .

ومضوا على تلك الحال في كر وفر أربعين يوما الى أن نفذ ما لدى المسلمين من عتاد وميؤن ، فانهارت مقاومتهم وتغلب الصليبيون عليهم فدخلوا المدينة في تمام الساعة الثالثة من بعد ظهر الجمعة ١٥ يونيو ١٠٩٩م .

وما كادوا يدخلونها حتى حكموا على كل مسلم بقي فيها بالموت وشرعوا من فورهم في تنفيذ الحكم . فقتلوا سبعين ألفا ، ولم يُجد المسلمين توسلهم ، ولا التجاؤم الى المسجد الأقصى ، ولم يختلف اثنان من المؤرخين ، لا من الفرنجة ، ولا من المسلمين في استفظاع المنكرات التي اقترفها الصليبيون . تلك المنكرات التي أقل ما قيل فيها انه يندى لها جبين الدهر . وإنها مناقضة لتعاليم السيد المسيح الذي زعموا أنهم انما جاءوا لنصرته .

ولم تكن خسائر العرب ماثلة في سقوط القدس وحدها ، ولكن المدن التي هبط فيها الصليبيون وهم في طريقهم الى هدفهم قاموا بنفس المذابح حتى يرهبوا أهل المنطقة كلها فيكفوا عن المقاومة وما أن وصلوا الى القدس وهدأت ضجة المعركة وسكنت كل حركة حتى راحوا يديرون المدينة كما يشاءون . فاستولوا على معظم المباني والممتلكات التي كانت فيها سواء في ذلك ممتلكات المسلمين ، أو المسيحيين المنتمين الى الكنيسة الشرقية ، ولقد حولوا قبة الصخرة الى كنيسة واستعملوا المسجد الأقصى لمصالحهم فأنقصوا من حجمه كثيرا وقسموه الى أقسام : فاتخذوا قسما منه كنيسة وقسما آخر مسكنا لفرسان الهيكل ، والباقي استعملوه مستودعا لذخائرهم ، واتخذوا السرايب التي تحت المسجد اسطبلا لخيولهم .

وأسس الصليبيون من القدس والبلاد المجاورة لها مملكة لاتينية جعلوا مقرها القدس ، وأقاموا عليها أميرا هو جودفري دوبريون ، فأخذوه الى كنيسة القيامة وتوجوه ، ولما مات دفنوه في داخل الكنيسة .

وفي زمن خلفه وأخيه (بلدوين الأول) ١١٠٠ - ١١١٨ م أصبحت القدس عاصمة مملكة تمتد من بيروت الى العقبة وكان لها في ميناء العقبة أسطول . وكانت تجبى الضرائب من القوافل التي تسير بين سوريا ومصر والحجاز . غير أن الأمن كان مفقودا . ولاسيما على الطريق الذي يصل اريحا بالقدس فقد كان يربط في هذا الطريق عدد كبير من الأشخاص وان سماهم الراهب الردوسي دانيال ، الذي زار القدس في عام ١١٠٦ م بقطاع الطرق الا أنهم هم الذين نجوا من المذابح ، فراحوا يتكثرون ويتحينون الفرص للانقضاض على الصليبيين .

وتعاقب بعد ذلك ملوك الصليبيين على كرسى الحكم فكان منهم ثمانية حكام في أقل من سبعين سنة ، وكان الشرق يومئذ قد أفاق من غفلته وصحح أغلاطه فاتحد ، وكان أمراء الصليبيين في القدس والكرك وفي عكا وكل مكان من الاختلاف على جانب عظيم .

وقبل أن نختم هذا الفصل نرى لزاما علينا أن نذكر بوجه الايجاز ما كانت عليه القدس تحت ظل المملكة اللاتينية فنقول :

كانت القدس والمدن الكائنة حولها ذات اهمية من النواحي السياسية والدينية والتجارية . اذ كانت تسيطر على طرق القوافل التجارية التي تربط الشام بمصر ولكنها لم تنعم بالراحة وهناء البال من ناحية الأمن لوقوعها بين أصقاع أهلة بالمسلمين وما تخلى هؤلاء عن غزو الصليبيين واقلاقهم بهجماتهم المتكررة وكذلك قل عن الأخلاق فقد انحطت يومئذ الى درجة لاتطاق والضرائب والرسوم التي فرضت على السكان والمسافرين كانت باهظة . وما كان هناك نظام مالي ولا طرق منظمة لجباية تلك الضرائب والرسوم ..

وأما الحكم فقد كان يومئذ قائما على أساس (الاقطاع) وكان أمراء الاقطاع من الاستقلال بدرجة أنهم ماكانوا يقيمون للملك الجالس على العرش في القدس وزنا .. بل كان بعض هؤلاء الأمراء يحارب البعض الآخر .. ونسوا الغاية التي من أجلها جاءوا هذه البلاد وفتحوا القدس .

وتكونت في القدس فرقتان ، فرقة أسموها فرسان الهيكل وكانت عند المسلمين تعرف بـ (الداوية) وأخرى أسموها فرسان المستشفى . وكان

المسلمون يلقبونها بـ (الاسبتارية) أما رجال الفرقة الأولى فقد حبسوا أنفسهم
لكفحة المسلمين . وأما رجال الفرقة الثانية فكان اهتمامهم في بادئ الأمر
منصرفا الى العناية بالحجيج والمرضى من المسيحيين .
ثم تحولت الفرقتان الى هيئة حربية ، واتخذتا المسجد الأقصى مقرا
لأعمالهما ، وجعلتاها مستودعا لأسلحتهما .
ولم تؤثر الحملة الصليبية على البلاد من حيث اللغة ، إذ ظل سكانها
يتكلمون اللغة العربية لغة عروبتهم .

ومن آثار الصليبيين في القدس : كنيسة القديسة حنة الكائنة بين باب
الأسباط وباب حطة ، وهي التي يسمونها في يومنا هذا بالكنيسة الصلاحية
وكنيسة القديسة مريم الكبرى التي بنى الألمان على أنقاضها كنيسة المخلص في
الدباغة . وكنيسة القديسة مريم اللاتينية على مقربة من أختها التي سبق ذكرها
عند مدخل سوق الدباغة ، وكنيسة الداوية جنوب كنيسة القيامة ويعتقد
المسيحيون أنها كانت في المكان الذي يقوم عليه الآن المسجد العمري . وكان
كنيسة القيامة مجزأة فجمعوا أجزاءها تحت سقف واحد وبنوا القبة المعروفة
الآن بكنيسة « نصف الدنيا » .

ومن آثارهم أيضا المستشفى المعروف بالمارستان فان هذا المستشفى الذي
بنى في زمن الفاطميين وسع على عهد الصليبيين توسعا كبيرا ومنها أيضا المنزل
الذي أقاموه إلى جانب هذا المستشفى ومن بقاياها السوق المعروف بسوق
البيزار ، وفيها تباع الخضر في يومنا هذا .

مولد صلاح الدين :

منذ أن فتح الفرنجة بيت المقدس ، قبل أربعين سنة من ميلاد طفل اسمه
يوسف صلاح الدين في الموصل ، لم تبد من المسلمين المتفرقين شيئا وأحزابا ،
أية بادرة عملية تكون صدق للثورة التي أوقدها في نفوسهم فقدهم بيت
المقدس . إلا من المصريين الذين بادروا فحاربوا الصليبيين في معارك سريعة
متتابة فكانوا ينتصرون تارة وينهزمون تارة .

وركدت الثورة في نفوس العرب ، ورضوا بالذل يقع على أخوانهم في البلاد

التي امتلكها الأجنب كالقدس والرها وانطاكية وغيرها .. ووقفوا جامدين امام الاعتداءات المتكررة التي كان يشنها الصليبيون على ماجاورهم من ولايات المسلمين .. بل لقد تحلت معنوية المسلمين حتى عدوا الامر قضاء مقضيا ، فبادلوا الإفرنج المعاملة والمتاجرة وتمت فيما بينهم المودة والمصاهرة .. بل لقد كان الأمير المسلم يحالف ويهادن الصليبيين ضد أعدائه من الأمراء المسلمين . ولكن نجدة قوية جاءت من حكام السلاجقة في شمال العراق وبحرقزوين . فقد زحف حاكمهم عماد الدين زنكى الى حلب ، ومنها تقدم الى « الرها » وحاصرها ، واستولى عليها من الصليبيين بعد معركة رهيبة وحصار استمر شهرا من الزمان .

ودارت مناقشات ، في بلاط روجر ملك جزيرة صقلية ، بينه وبين أحد زواره من المسلمين العرب .
سأل الملك مداعبا : أين كان محمد تيبك من فتح تلك البلاد المقهورة وأهلها ؟

فأجاب العربى : كان هناك يشهد فتح « الرها » وقد فتحها المسلمون الآن .

فضحك من كان هناك من الفرنجة ولكن الملك قال : لاتضحكوا فلعل الحق فيما يقول !

وكان الحق فيما قال ، ففي الثالث والعشرين من ديسمبر سنة ١١٤٤م دخل المسلمون « الرها » . وقد جنوا بالانتصار .. وجاء دورهم في الانتقام فقتلوا الرجال ، وخلعوا الصليبان وأخذوا يثأرون من الهزائم الماضية ومرارتها القاسية ..

ولكن لما دخل زنكى بنفسه مدينة « الرها » . أعجب بجمالها وبهجتها وأنه أن يحل بها الخراب على يديه . فأوقف طغيان جنوده .. وأمرهم أن يوردوا كل شيء مكاته فأعاد القادة والجنود كل شيء وكل نفس : البضائع الثمينة والفتيات الأقوياء والفتيات اليانعات .

وبعد عامين من فتح « الرها » مات عماد الدين زنكى في ميدان القتال قتل غيلة بأيدى أتباعه وأعدائه وأطلق الناس عليه لقب الشهيد .
وقسمت ممتلكاته بين ابنه سيف الدين غازى ، ونور الدين محمود وحكم غازى في الموصل ومحمود في الشام .

وبعد وفاة زتكى ، رفع الارمن والافرنج في الرها عصا العصيان . فهاجمها نور الدين بجنوده فدمروها تدميرا وقتلوا الثوار تقتيلا . واستولوا على كل ثمين .

الحملة الصليبية الثانية :

ثار المسيحيون في الغرب ، عندما سمعوا بتخريب الرها ، وتقتيل المسيحيين وانزعجوا من خطر نور الدين الزاحف . وانتبوا اليقافه عند حده . واجتمعت جيوش الحملة الصليبية الثانية في سوريا وعلى رأسها ملكان : كتراد امبراطور ألمانيا ، ولويس السابع ملك فرنسا .. وأراد الصليبيون الاستيلاء على دمشق ، وتجمعت للدفاع عنها قوات (انار) قائد دمشق نفسها وقوات سيف الدين غازي وقوات نور الدين محمود فانتصر المسلمون على الصليبيين اكبر انتصار . وعاد الامبراطور الى أوروبا ثم تبعه لويس ملك فرنسا ورجعت الحملة الصليبية الثانية تاجر اديال الحبيبة والخزى والعار .

وحدث بعد ذلك أن طلق لويس زوجته الفاتحة اليانور وتناقلت كتب القرنية عن سبب الطلاق انه كانت بينها وبين صلاح الدين علاقة ... ولكن هذه الاشاعة كاذبة لسبب بسيط وهو ان الطلاق حدث في سنة ١١٤٠م وكان صلاح الدين وقتها لايتجاوز الحادية عشرة . وكان بعيدا عن عسقلان مقيما في دمشق يتلقى هناك دروس العلم والدين .

وكان صلاح الدين مع ابيه ايوب الذي ظل يرتقى في المناصب حتى أصبح قائد قوات دمشق .

وقد تمكن نور الدين الوارث الجديد لهذه المملكة من تحقيق حلمه وحلم ابيه من قبل في الحصول على دمشق وجعلها مركزا لامبراطورية سورية متحدة ضد الغزاة الاوربيين .

وقد ظل الفتى صلاح الدين عشر سنوات يعيش مع ابيه في دمشق ويشهد هذا الصراع الهائل بين قوى الشرق والغرب .

وكان الملك نور الدين يحب العلم والعلماء .. جلب معه الى دمشق علما من اكبر العلماء ، وهو عبدالله بن ابي عمرو وشيد له المعاهد والكليات في انحاء سوريا ليحاضر فيها ، وكان صلاح الدين يستمع في الجامع الاموي بدمشق ، الى دروس هذا العالم الفاضل ، الشيخ الذي أصبح فيما بعد قاضي قضاة الجزيرة . ثم فقد بصره ، فأبت مروءة صلاح الدين ، وكان قد أصبح حينئذ

سلطان المسلمين ، أن ينتزع الشيخ الأعمى من منصبه ، بل قربه اليه وأنعم عليه .

واكتسب صلاح الدين ، التقوى والعدل ، والتقشف والزهد حتى انه لم يأخذ لنفسه شيئاً من أموال المسلمين وعاش من ماله الخاص القليل .
ورأى في نور الدين ، الملك المسلم الحريص على دينه المحارب الذي لا يكل في سبيل رفعة الاسلام ، وقهر الصليبيين الغاصبين . وقد اشترك صلاح الدين نفسه ، مع أبيه وعمه ، في بعض مناوشات وحروب صغيرة ضد الصليبيين ولكن لم ينتبه لذكر صلاح الدين الا عندما بدأ دوره العظيم في مصر .
وقد جاء هذا الدور سريعاً ، عندما حدثت خلافات على ولاية مصر وما كان اكثرها في ذلك العهد - فوكل نور الدين الى صلاح الدين قيادة وحدة من الجيش للقضاء على حلف نشأ بين أحد الأمراء وأحد الصليبيين ، وسارت جيوشهما الى يلبيس حيث ووجهت بالهزيمة . وكوفئ صلاح الدين على جده في أول معاركه الحربية بأن يقود حامية الاسكندرية .

ورأى صلاح الدين نفسه ، حاكماً لأول مرة في حياته ولكنه وقع بين أمرين . فقوات الإفرنج والصليبيين قد تكاملت من جديد ، وحاصرت الاسكندرية من البر ، بينما كان أسطول الصليبيين يهاجم الاسكندرية من البحر .

ولأول مرة في حياة صلاح الدين ، وقعت المسئولية الكاملة على عاتقه في أمر خطير . فأظهرت من الشجاعة والصبر والاستيسال في منازلة المحاصرين ما حببه الى قلوب الاهلين . ورفع في أعينهم .

وكان حصاراً شاقاً عنيفاً ، شاهد فيه صلاح الدين الأهوال ، وطال الحصار حتى زاد على سبعين يوماً .. وضائق الحال بأهالي الاسكندرية ونضبت المؤونة والذخيرة ولكن صلاح الدين استمر يدافع ويقاوم ويبث في الاهلين الحماسة والصبر .

وأخيراً اضطر أمريك الصليبي ، حاكم القدس أن يفك الحصار عن الاسكندرية ويطلب الصلح ويتعد عن التدخل في شئون مصر .
وقبل ان يغادر صلاح الدين مصر بعد انتهاء مهمته ، حل ضيفاً في معسكر أمريك بعد أن تم الصلح وبقي مكرماً هناك أياماً عدة . درس نظم الفروسية والجنديّة عند الصليبيين مما أفاده فائدة كبيرة في خطته المقبلة .

أما امريك الصليبي .. فكان يبارح مصر وقلبه يتوق الى امتلاكها ، ونفسه تطمع في الحصول على أموالها وثرواتها وقصورها وجناتها .. وفعلا لم يمض عام واحد حتى خالف الاتفاق الذي عقده ، وعاد من جديد تحت تأثير طمعه وجشعه ، وتحت تأثير قواده وناصحيه ، ليغزو مصر بأسرها .
وفي أيام قلائل ، كانت بلبيس ملكهم ، وأمعتوا في أهلها فتكا وقتلا ، وتمت مجزرة هائلة ، ذبح فيها الغزاة كل من وقع في أيديهم من الرجال والنساء والأطفال .

وعلم « شاور » حاكم مصر في ذلك الوقت بما حدث .. فأراد أن يعرقل امريك بأى الوسائل .. فحرق الفسطاط ، أولى عواصم مصر الاسلامية . وظلت النيران تشتعل فيها أكثر من خمسين يوما حتى تركتها قاعا صقفا .. وكذلك أخذ شاور يغرى امريك بالمال حتى تنتهى المفاوضات الى اتفاق يعقدانه . أو كما كان يسر شاور في نفسه ، حتى تأتي النجدة من الملك نور الدين في دمشق .
تطلع الشعب المصرى كله الى نور الدين ، حتى الخليفة العاضد الذى كان يقيم بمصر ، كتب بنفسه اليه ، مرفقا بخطابه خصلات من شعور نساء القصر ، قائلا هذه شعور نسائى فى قصرى يستقثن بك لتنقذهن من الإفرنج .
وكلف نور الدين شيركوه (عم صلاح الدين) بالسير ، وكان صلاح الدين حاضرا . فالتفت عمه إليه وقال : تجهز يا يوسف . فقال صلاح الدين : لو أعطيت ملك مصر ماسرت اليها . فلقد قاسيت فى الاسكندرية وغيرها مالا أتساه . فقال شيركوه لنور الدين : لا بد من مسيره معى ، فقد كان عونى فى الحملتين السابقتين ، فمره ، فأخذ يأمر صلاح الدين وهو يعتذر : لا بد من مسيرك مع عمك . وأعطاه ما تجهز به . وكان يخيل لصلاح الدين انه يساق الى الموت .
واختلى صلاح الدين بنفسه ، وهو غير راض ولا مستريح ، ولا يدري ما السبب فى انه كان يرفض الرحيل الى مصر ، فمهما كان قد لاقى فيها فليس هو بالجبان ولا بالرعيد وأحس صلاح الدين بأن شيئا ينقصه هذه الساعة .
وفتح المصحف الشريف ، وبدأ يقرأ السورة الأولى ، البقرة . وهنا وجد الراحة والطمأنينة .. وأخذ يقرأ ، ويقرأ وامتلات عيناه بالدمع .
وتلا :

« يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين ..
ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون »

واستمر يقرأ حتى تلا :

« وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم . ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين . واقتلوهم حيث ثقتوهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم . والفتنة أشد من القتل .. ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه .. فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين .. فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم .. وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله ، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين » .

واستمر يقرأ ، وعيناه تفيضان بالدمع فيسيل على خديه .
ثم تلا :

« كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ، والله يعلم وانتم لا تعلمون » .
وأضاء وجهه نور الايمان واليقين .

وبعد شهور قلائل ، تحقق قول الله عزوجل « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم » ، وأصبح صلاح الدين سلطان أكبر وأغنى دولة اسلامية في ذلك الحين .. أصبح سلطان مصر .

فقد اختار الخليفة الفاطمي صلاح الدين ليخلف عمه الذي مات ، وفي السادس والعشرين من مارس سنة ١١٦٩ ، نصب رسمياً سلطان مصر الأكبر .
ولقب « الملك الناصر » .

وفي ذلك اليوم ، انتصرت كلمة الجيل الجديد مرة اخرى .. اذ لم يكن عمر الملك الناصر ، صلاح الدين ، يتجاوز احدى وثلاثين سنة .

وفي نفس ذلك اليوم العظيم ، تكشفت امام صلاح الدين ، رسالته التي حملها له الله ، والتي بدأ يحس بها منذ غادر دمشق الى مصر في الحملة الأخيرة ، فهو يشعر اذا دانت له مصر ، بأن فلسطين أيضاً سوف تتحرر وان عليه طرد القرطبة من بيت المقدس ، وان يهب نفسه وحياته لهذا الجهاد الأكبر .

وبينما صلاح الدين يبدأ حكمه في مصر ، حدث حادث هام :

كان شخص رث الهيئة ، خلق الثياب ، يسير بشكل يدعو الى الريب فاستلفت نظر تركمان من رجال صلاح الدين فدقق فيه بصره . فلاحظ أنه يلبس في قدميه نعلين جديدين ، لا تتناسب جدتهما مع ثيابه البالية .. فأخذ النعلين الجديدين وصاحبهما الى صلاح الدين وفتق النعلين فتكشفا عن خطاب خطير

من « مؤتمن الخلافة » وكان خصيا اسود يدير قصر الخليفة الفاطمي العاضد ويتصرف فيه . والخطاب موجه الى الفرنجة يأتمر فيه مؤتمن الخلافة معهم على ان يهاجموا مصر ، حتى اذا ما غادر صلاح الدين القاهرة لمقاومتهم ، قام مؤتمن الخلافة والثائرون من المصريين ليهاجموا صلاح الدين من الخلف ، فيحصر بين نارين .¹

ولم يتعظ مؤتمن الخلافة بما لاقاه غيره من قبله نظير الاستعانة بالفرنجة ودعوتهم لمهاجمة البلاد . فكان جزاؤه ان قطعت رأسه عندما سنحت الفرصة لرجال صلاح الدين فظفروا به في بيته القروي ، بعيدا عن قصر الخلافة . واثار قتله عساكر الخليفة واكثرهم من السود حتى قام في وجه صلاح الدين خمسون ألفا منهم ، واشتد القتال عند « باب القصرين » وانتهى بهزيمة السود امام عساكر صلاح الدين .. وقام صلاح الدين ورجاله فأحرقوا محلقتهم عند باب زويلة .. وفيها نساؤهم وعيالهم .. فتشتت السود مخذولين وقتل منهم الكثير . ومن بقى منهم ارسل الى الجيزة ومن هناك شردوا الى الصعيد .. ومنذ ذلك الحين جعل صلاح الدين على القصر بدل مؤتمن الخلافة واحدا من رجاله يدعى بهاء الدين قراقوش ..

وكان مركز صلاح الدين دقيقا منذ ولي الحكم ، فهو وزير العاضد الخليفة الفاطمي ، وهو في الوقت نفسه نائب لنور الدين ، الملك السنّي التابع اسما للخليفة العباسي . وكان من المصريين السنيون والشيعة ولكن الشيعة كانوا الاكثرية بعد مائة عام من حكم الفاطميين . ولم يرد صلاح الدين ان يصدم المصريين فيغير من مذهبهم الشيعي مرة واحدة .. وينادي بالخلافة العباسية تنفيذا لرغبات نور الدين ، وهو في الوقت نفسه لا يريد ان يخسر نور الدين أو ينفره منه . فاكتفى بجعل خطبة الجمعة شاملة لاسم نور الدين بعد اسم الخليفة الفاطمي وانتظر حتى يتوطد مركزه في مصر ، وتقوى مكانته بين المصريين ، ليخطو الخطوة الحاسمة في امر الخلافة .

مغارك في دمياط وغزة والعقبة :

ولم يكن صلاح الدين مهتما بإرضاء امراء القصر ، أو كبار المصريين بل وضع همه ، في اسعاد الشعب ، ففتح أبوابه وخزائنه للناس . وجاءت الوفود من جميع أنحاء مصر لتراه فكان يعطيهم . وكان يستمع الى شكواهم بنفسه

ويحقق رغباتهم فأصبح بكرمه ، ودمائه خلقه ، وشخصيته الجذابة ، محبوبا من المصريين .

وزادت شعبيته في قلوب المصريين عندما بدأ كفاحه مع الصليبيين بانتصار هائل ..

فقد رأى الصليبيون في فلسطين .. انهم الآن بين دولتين اسلاميتين قويتين ، متحدثين ، واحدة في سوريا والأخرى في مصر . فاتفق امريك ملك بيت المقدس ، مع الامبراطور الاغريقي في القسطنطينية ، الذي كان يخشى أن يمتد توغل نور الدين من الشام الى آسيا الصغرى ، ثم يعبر البسفور الى أوروبا .. ولما كانت مصر في هذا الوقت هي قاعدة العمليات الحربية ضد الصليبيين في شرق البحر المتوسط ، لذلك قرر الصليبيون والبيزنطيون اخضاعها .. وفي نوفمبر سنة ١١٦٩ هاجم امريك وجنوده دمياط ، واتخذوا لانفسهم موقعا بين البحر والمدينة منتظرين وصول الاسطول الاغريقي ولكن صلاح الدين كان مستعدا . والطابية كانت مهجورة للدفاع وبعد ثلاثة ايام ظهر الاسطول الاغريقي ولكن حماة الطابية استطاعوا منع الاسطول من الدخول الى الميناء .. ولم يستطع جنود الصليبيين البرية شيئا ازاء عساكر صلاح الدين والامدادات التي توالى من الشام بناء على استتجاد صلاح الدين بتور الدين .. فاضطر امريك أن يفك الحصار بعد خمسين يوما من بدئه لقي فيها جنوده احوال العواصف وقاسوا الجوع والعذاب .

وبينما كان الاسطول الاغريقي في طريق العودة جاءتهم ريح عاصفة وجاءهم الموج من كل مكان .. واحيط بهم . وحطمت الانواء اسطوله كله وحمل الموج جثثهم الى الشاطئ الذي جاءوا ليمتلكوه ! .

واتبع صلاح الدين فوزه في الدفاع عن دمياط ضد الصليبيين بمحاولات موفقة هاجم فيها الجهات الجنوبية من فلسطين قاصدا بذلك ان يزيل الخوف الذي كان يستولى على القوات العربية من الافرنج وأن يعد جنوده للهجوم بدلا من الدفاع الذي اعتادوه . كي يصبحوا قادرين بعد ذلك على الجهاد المقدس القادم الذي شعر به من اول يوم تولى فيه الوزارة المصرية .

وخرج من هذه الهجمات ظافرا . فقد انتصر على الصليبيين في مدينة غزة . ثم أراد ان يستولى من الصليبيين على أيلة (العقبة) لموقعها الهام ، فهي مفتاح البحر الأحمر ، ومدخل طريق الحجاج المسلمين الى مكة . فبنى في القاهرة أجزاء السفن وحملها الى البحر الاحمر حيث ركبت هناك وبذلك استولى صلاح

الدين على حصن العقبة بهجوم الاسطول من البحر والجنود من البر .
وعاد يوسف صلاح الدين بعد هذه الانتصارات ضد الفرنجة فكانت مصر
كلها تهتف باسمه واحبه الجميع ، الشيعيون منهم والسنيون . المصريون منهم
والاتراك ، لانه انتصر على اعدائهم .
والتف الشعب حول زعيمه وازداد ايمانا به وعادت الروح الى المصريين ،
وامتلأوا ثقة واعتزازا .

وكان التاجر في السوق . والصبى في الشارع ، والفلاح في المزرعة ، والمرأة
في البيت ، والجندي في الجيش .. الجميع تهتف قلوبهم حبا واعجابا ..
يوسف .. يوسف .. السلطان يوسف ! فهو القائد الذى انتصروا به وارتفعت
رؤوسهم .

وفى طريقه إلى تحويل المصريين عن المذهب الشيعى ، فتح المدرستين
الكبيرتين الناصرية ، والكاملية ، لنشر المذهب الشافعى .
وكانت بمصر دار المشحنة ، يحبس فيها من يراد حبسه فى عهد الطغيان
الذى سبق صلاح الدين ، فهدمها وازال ما كان فيها من ظلم وبغى . وبنها
مدرسة للشافعية ، وكذلك استبدل القضاة الشيعيين بالقضاة السنيين .
وبدأت أفكار المصريين تبعد شيئا فشيئا عن الشيعة ، وتتجه رويدا نحو
السنة . وبهذا يتخلص الناس من ثنائية المذهب ، ويجتمعون للجهاد صفا
واحدا .

وأخذت الظروف تعمل وتهدى لصلاح الدين ، كى يحقق غايته .

بينما كان الخليفة الفاطمى العاضد مريضا فى قصره جمع صلاح الدين
امراءه وقواده ، يستشيرهم فيما اتواه من قطع الخطبة للعاضد .. وأخبرهم
بإلحاح نور الدين فى دمشق فى ذلك ، فمنهم من أشار بقطع الخطبة: ومنهم من
خشى غضبة المصريين .

وكان قد دخل إلى مصر موصلى عالم ، ورأى ما عليه القوم من الاحجام ،
وعدم تجاسرهم على الخطبة للخليفة العباسى فى بغداد فقال : أنا أبدا بالخطبة
له .

وأخذ سبيله إلى المسجد ، فى أول جمعة من محرم سنة ٥٦٧ هجرية (١٠
سبتمبر سنة ١١٧١) ، فدعا لخليفة بغداد ولم يثر ذلك أكثر من دهشة بدت
على المصلين ، ولم يحصل هرج ولا استياء .

ووصل النبا بغداد فامتلا الخليفة العباسي فرحا . وأمر باضاءة عاصمته وانعكست الأنوار على مياه دجلة فألقت منظرا خلابا .. وارسل الخليفة خلع الشرف لنور الدين وصلاح الدين . وبعد أيام قلائل ، عمت الخطبة لخليفة بغداد ونشرت على المنابر الأعلام السوداء ، أعلام العباسيين . وفي نفس الوقت كان العاضد يعاني الام الموت ولا يعلم أن اسمه هوى من أعلى المنابر ، قبل أن يهوى جسمه إلى حضيض المقابر ، فقد أمر صلاح الدين تابعيه وموظفى القصر ، الا يعرفوا العاضد آخر الخلفاء الفاطميين شيئا . وقال :

« ان عوفى فهو يعلم . وان توفى فلا ينبغى ان نفجعه بمثل هذه الحادثة قبل موته » .

وقال صلاح الدين يرثيه :

« ما رأيت أكرم من العاضد ، آخر خلفاء الفاطميين فى مصر ، أرسل إلى مرة ليعيننى على مقاومة الاقرنج عند دمياط ، ألف ألف دينار مصرية سوى الثياب والذخيرة » .

وقام صلاح الدين بمأتم العاضد ثلاثة أيام ، ونقله إلى قبره فى مشهد مهيب .

ولم يبارح ذهن الصليبيين أو أوربا كلها ، أن مصر هى المدافعة الحقيقية عن عروبة القدس ، وأنه اذا قام تنسيق للعمل العسكرى بينها وبين سوريا فلن تبقى للفرنجة باقية فى شرق البحر المتوسط (١) .

وجاء الدور هذه المرة على صقلية لكى تحاول ضرب مصر وتعهد ملكها بهذه المهمة فأرسل إلى الاسكندرية أسطولا كبيرا من ٢٨٢ سفينة وأخذ أهل الاسكندرية على غرة ، ولكنهم قاموا للدفاع .. ونزل الأجانب إلى البحر وتقدموا إلى المدينة ونصبوا عليها الدبابات والمنجنقات (آلات التدمير التى تقذف الحجارة) واضطر الاهلون أن يقاتلوا بلا كلل طول النهار الأول ، حتى غشى الليل ، ولم يكن معهم الا القليل من الجنود ولكنهم اشتدوا فى القتال ، حتى رأى الأجانب من شجاعة أهل الاسكندرية ما راعهم .

وفى اليوم الثانى زحف الغزاة بآلاتهم إلى أسوار الاسكندرية وهاجموا بشدة .. ولكن الاسكندريين استطاعوا رد الهجوم .. مستعينين بقوات اضافية جاءتهم من القرى المجاورة .

(١) نرجو ان يتامل المدافعون عن القدس فى ايامنا هذه - ١٩٧١م - هذا المعنى ..

وفي اليوم الثالث حدث ما لم يكن بالحسبان فقد فتح السكندريون باب المدينة وخرجوا منه وأغاروا من كل جانب على بحارة صقلية .. وهم يصيحون صيحات باطشة .. فارتاع الأجانب .. واستطاعوا أن يصلوا إلى آلات التدمير التي نصبها الأجانب فدمروها واحرقوها . واشتد القتال حتى آخر النهار ، فدخلوا مدينتهم فرحين بالانتصار . وما أن دخلوا حتى جاء رسول يعلن وصول صلاح الدين بالجيش .. وسرعان ما اندفعوا خارجين ثانية ، أكثر حماسة وقوة ، وقد غادرهم ما حل بهم من تعب .. وهوا على الاعداء ، وكل منهم يخيل إليه أن صلاح الدين يقاتل إلى جواره . فآلقوا بالاعداء إلى البحر .. فوصل بعضهم إلى السفن سالمين وهوى بعضهم إلى القاع مغرقين .

وكان عام ١١٧٤م حاسما في تاريخ هذا الصراع . ففي شهر ابريل قضى صلاح الدين على مؤامرة تحركت في القاهرة في يوليه في نفس الشهر الذي تم فيه خذلان الصقليين في الاسكندرية ، مات امريك ملك القدس .

ولكن قبل ذلك في ١٥ مايو ، رقد نور الدين مسجى على فراش الموت .. فاختلفى بموته ، أكبر منافس لصلاح الدين . هكذا تدخل القدر ليضع لمعركة القدس بطلها ، وهو صلاح الدين ، فقد أتاحت له الفرصة الآن لייسط قيادته على بلاد المنطقة العربية الشرقية وليكون منها امبراطورية شامخة ، متينة البنيان ، موحدة السلطة .. ففي الشام ، ولى الحكم الملك الصالح ، ابن نور الدين ، وهو طفل لايتجاوز عمره احدى عشرة سنة .. وفي فلسطين ولى مملكة القدس بعد امريك ، طفل مجذوم ، وهو أيضا في الحادية عشرة من عمره واسمه بلدوين ، ووصيه « ريمون » صاحب طرابلس الشام .

حرب التوحيد :

عندما تتغلب أطماع الحكام أو الطامعين في الحكم فلا بد للقوة الراغبة في تنفيذ عمل كبير أن تبادر بحروب صغيرة ، اسمها حروب التوحيد وهذا بالضبط ما صنعه صلاح الدين .

وذهب صلاح الدين إلى دمشق ، ولم يذهب غازيا أو معتديا في جيش كبير ، بل أخذ معه سبعمائة فارس فقط : ومر بقرب حدود الفرنجة فلم يعترضوه .. ودخل دمشق وسط التهليل والترحيب من أهلها .. ونزل في دار والده أيوب التي قضى فيها أيام الصبا فما كان أجملها وأحلاها .. ثم سلمت له قلعة المدينة ، فصعد صلاح الدين إليها .. وأخرج ما بها من أموال ، ففرق منها على الدمشقيين الذين أحبوهم وأسلموا له القيادة .. كل ذلك وهو يظهر الطاعة للملك الصبي الصالح .. وما زال مبقيا اسمه في الخطبة وعلى النقود .

واشتد الزمهرير ، واتشحت قمم الجبال برداء أبيض لامع من الثلج .. ولكن صلاح الدين ، لم يعقه برد ولا شتاء عن أن يؤدي مهمته ، ويخضع المدن الأخرى التي كانت تابعة لنور الدين ، ثم استقلت بعد وفاته .

وفي أيام استولى على حمص وحماه ، باسم الملك الصالح .. وباسم المعركة الحاسمة مع العدو التي لا تزال تنتظر .

وسار صلاح الدين إلى حلب .. حيث شمخت قلعتها فوق التل المستدير . وانزوى داخل أسوارها الحصينة ، الملك الصالح .. وأقام صلاح الدين الحصار على المدينة معلنا أنه يفعل ذلك ليخلص مولاة الملك الصالح من ناصحيه الشريرين .

ولكن الصالح كان يخشى مخلصه ، بقدر ما يخاف على حكم حلب فركب الصالح وكان في الثانية عشرة من عمره وجمع أهل حلب وقال لهم والدموع تتساقط من عينيه ..!

« قد عرفتم احسان أبى إليكم ومحبته لكم وسيرته فيكم .. وأنا يتيمكم .. وقد جاء هذا الظالم الجاحد احسان والذى إليه ، يأخذ بلدى ولا يراقب الله تعالى في الخلق » .

واشتد بكاءه فأبكى الناس .. وقدموا الأموال والانفس وصمدوا للقتال .. حتى عرقلوا صلاح الدين .

وصمم وزير حلب ، أن لا يقع في أيدي المصريين المهاجمين بل عزم على أن يتخلص من صلاح الدين .. بأى وسيلة .. فأرسل إلى الشيخ سنان رئيس الاسماعيلية الذى لقب « شيخ الجبال » وبذل له الأموال لاغتتيال صلاح الدين فأرسل « شيخ الجبال » أعوانه ليقتلوا صلاح الدين .. ووصلوا إلى خيمته وحمل أحدهم على صلاح الدين فقتل قبل أن يضرب ضربته .. ونجا صلاح الدين بأعجوبة .. لأن الله أراد له النجاة .

واستاء صلاح الدين من غدر الغادرين الذين التفوا حول الملك الطفل في حلب وزاد استياء عندما علم باستنجادهم بريمون حاكم طرابلس الصليبي ، وصى الطفل المجذوم ملك القدس ، فسار ريمون بجيشه إلى حمص ، فرحل صلاح الدين عن حلب إلى حماه .. ولما اقترب من حمص تركها الفرنجة .. ودخل صلاح الدين مدينة حمص من جديد .. واخضع قلعتها .

* * *

وبعد أسبوعين ، استولى أيضا على بعلبك .. بعلبك التي قضى فيها سنوات الطفولة الأولى .. وبذلك أصبح صلاح الدين سيدا لكل البقاع السورية التي ملكها نور الدين الا منطقة حلب في الشمال ..

وأخيرا أفزعت هذه الانتصارات سيف الدين حاكم الموصل . واثارت حقه على صلاح الدين .. فهو يعتبر سورية والجزيرة ممتلكات أسرة زنكى ، جده لأبيه وهو يحل لنفسه أن يطغى على ممتلكات ابن عمه منها بل وعلى ممتلكات أخيه .. ولكن كيف يسمح لهذا الرجل .. صلاح الدين ، الذي لا يحمل قطرة دم واحدة من دماء زنكى أن يقطع لنفسه أملاك الأسرة !

وجهاز جيشا كبيرا من أهل شمال العراق وأرسله إلى حلب وانضمت إليه قوات حلب . ففاق الجيشان المتحدان ، جيش صلاح الدين بالرغم من المدد الذي جاءه من مصر .. وعرض صلاح الدين الصلح على شروط تساهل فيها .. حتى لقد قبل أن يكتفى بالأراضي السورية حتى مقاطعة دمشق فقط .. وأن يسلم ما وقع شمالها بما في ذلك حماه وحمص .. ولكنهم تجبروا وركبوا رؤوسهم فرفضوا .. فنالوا جزاءهم عندما قابلهم صلاح الدين بجيوش القاهرة والشام .. فهزمتهم شر هزيمة .. وطاردهم حتى حلب .. وحاصروهم فيها حتى راسلوه في الصلح .. فقبلوا نادمين على ما فاتهم من قبل ، أن يكون لصلاح الدين ، فوق دمشق وحمص وحماه ، بعض المدن القريبة جدا من حلب نفسها .. وبهذا بات صلاح الدين السيد القوي المنتصر .

ورغم ما وصل إليه من قوة ونصر ، أراد بكل قواه أن يقنع الملك الصبي الصالح في حلب .. انه على استعداد لخدمته في اخلاص .. على ان لا يكون أحد من هؤلاء المنافقين معه حول عرشه .. ولكن الصالح المسكين ظن ، أو ادخل في روعه أن هذا معناه العبودية لصلاح الدين .. فلم يقبل .. وهنا اختلف اسم الصالح من خطبة الجمعة وارتفع اسم الملك الجديد على

جميع المنابر ، في مساجد مصر والشام .. وصدرت النقود من القاهرة تحمل اسم الملك « الناصر يوسف بن أيوب .. علا جاهه » .

ورحل صلاح الدين عن حلب ، وقصد بلاد الاسماعيلية ليقاتلهم بما فعلوه من الوثوب عليه ومحاولتهم اغتياله أكثر من مرة .. فخرب بلادهم وأحرق أعظم قلاعهم ولم يزل ينكل بهم حتى استغاث سنان شيخ الجبل بخال صلاح الدين صاحب حماه ، يسأله أن يتدخل فيشفع فيهم ..

فشفع فيهم .. وسأل صلاح الدين الصفح عنهم ..

فصفح .. ورحل عنهم ..

ثم عاد الى مصر .

الى مصر التي أحبها واشتاق اليها .

الى مصر وطنه ووطن أبنائه الصغار الذين ولدوا فيها .. والذين ملأوا

شغاف قلبه حبا وحنينا وهما الأفضل والعزيز .

وبعد عودته بدأ يشيد « القلعة » الشامخة ، على قمة « المقطم » الغربية ..

وفي نفس السنة ، أمر صلاح الدين ببناء مدرسة كبيرة بجوار الامام

الشافعي وبناء مستشفى ضخم .. فتم ذلك وأوقف على المستشفى والمدرسة

الوقوف الكبيرة ..

وسار صلاح الدين الى الاسكندرية .. في شعبان من تلك السنة نفسها ،

وأمر بتعمير الاسطول بها ..

وفي ذلك العهد ، كانت في القاهرة أحياء قديمة متهدمة تمتد من ضريح

السيدة نفيسة ، حتى باب زويلة .. فأزال صلاح الدين كل هذه الأحياء من

أساسها .. وجعل مكانها حدائق متسعة مترامية الأطراف .. بلغت من اتساعها

أن باب زويلة كان يرى من باب مسجد ابن طولون ..

وكانت هذه الحدائق الخضراء ، مرتعا للأطفال ، ومتنزها للسكان ، يقضون

فيها ساعات الراحة والبهجة والسرور .

ولبت صلاح الدين في مصر ، منذ عودته اليها في سبتمبر سنة ١١٧٦م بعد

حروب الشام ، ست سنوات ، دأب فيها على تنظيم البيت الكبير - أي مصر - من

الداخل ..

ولكن جنود الصليب ، بدأوا غاراتهم على المناطق الآمنة ، يحرقون قرانا ،

ويعودون مزهوين بالنصر ، محملين بما نهبوه من الغنائم ، يجرون معهم

ماسلبوه من مواش وأغنام ، وازدادوا طمعا وجشعا ، فهاجموا ضواحي دمشق وهزموا توران شاه أخا صلاح الدين ونائبه فيها .

ووجد صلاح الدين نفسه مضطرا قبل أن يمر عام واحد على استقراره في مصر ، الى أن يذهب في جيش ليهاجم الافرنج في جنوب فلسطين .. ولكن جنوده لم يلقوا مقاومة .. فظنوا أن الطريق خلا لهم ، فأغاروا بدورهم على البلاد .. ونهبوا وحرقوا .. وتفرقوا هناك في غير حذر ولا روية .. وفي الخامس والعشرين من نوفمبر سنة ١١٧٧ ، بينما كان صلاح الدين مع بقية قليلة من جيشه يستريحون قرب « الرملة » فاجأهم ملك القدس في أربعمئة فارس من خيرة الفرسان .

وكانت النتيجة هزيمة لصلاح الدين ، كانت أولى هزائمه وأشدّها نكرا ، وكاد يؤخذ أسيرا .. وعاد صلاح الدين ، مع فلول جيشه ، الى مصر ، ليبدأ من جديد جمع جيش قوى .. وكتب الى أخيه توران شاه في دمشق ، خطابا بين له فيه ما أصابه عند الرملة .. وقال فيه « لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة وما أنجانا الله سبحانه الا لأمر يريده » ..

وحقا أنجاه الله .. ليرد هذه الضربة التي سددها نحوه الصليبيون ، بضربات متتالية . كان ختامها الطعنة الكبرى عند (حطين) .. وبعد ثلاثة شهور من الهزيمة ، كان صلاح الدين قد أعد جيشه وغادر به مصر الى حيث يلقى الافرنج من جديد .

قبل أن يسافر يوسف بن أيوب الى مصر بأجيال عديدة سافر يوسف بن يعقوب اليها .. بعد أن غدر به اخوته ، ولبث يعقوب في بيته عند الطريق الى الأردن .. وقد اشتد به الجوى حتى ابيضت عيناه من الحزن . وفيما بعد ، اطلق على المنطقة التي تشمل بيت يعقوب (مخاضة الاحزان) .

ومرت قرون عديدة .. وفي نفس المكان بنى بلدوين ملك القدس حصنا على الحدود الفاصلة بين أرض المسلمين وأرض الصليبيين . فرأى صلاح الدين في هذا الحصن خطرا يهدده فعرض على بلدوين ستين ألف دينار للاستغناء عن هذا الحصن فأبى .. وارتفع العرض الى مائة ألف فأصر بلدوين على الرفض .. فعزم صلاح الدين على أن يحطم الحصن تحطيمًا .. وفي نفس الوقت ، كان أحد أقاربه يقود جيشا ضد الملك بلدوين ..

وبعد شهرين ، تقابل الملك الفتى بلدوين مع صلاح الدين يريد أن يمسخ

عن جبينه عار الهزيمة السابقة .. ولكنه منى بهزيمة أشد عارا ، وأوخم عاقبة ،
اذ أسرف فيها نفر من كبار القادة المسيحيين .. وفي خيمة صلاح الدين ، كان عماد
الدين الكاتب المشهور يكتب أسماء الأسرى العديدين ، على ضوء مشعل قوى .
وخلا الطريق أمام صلاح الدين الى « حصن الأحزان » وقد صمم على أن
يقتلعه اقتلاعا :

ورغب الملك بلدوين في الصلح ، خاصة وقد اشتدت عليه وطأة المرض ،
وأخذ الأسطول الذى أعده صلاح الدين ، يهاجم موانئ الصليبيين في
فلسطين .. فوافق صلاح الدين ، وتم الاتفاق على هدنة تستمر سنتين كاملتين ..
اقسم فيها الطرفان على ألا يحدثا طوال السنتين حربا ولا اعتداء .
بيد أن الظروف مازالت تهيأ .. ومنجل الموت مازال مسيطرا منشورا فمات
سيف الدين صاحب الموصل في نفس السنة ثم مات الصالح ، ابن نور الدين ،
ملك حلب ، في ديسمبر من نفس السنة فكان موتها مؤذنا بقرب خضوع حلب
والموصل لصلاح الدين .. ومبشرا بتحقيق ذلك الهدف الذى يسعى اليه ، وهو
توحيد المنطقة كلها تحت قيادته ..

ولكن صلاح الدين لم يشأ التسرع لاختضاع البلدان ، فقد كان مقيدا
بالهدنة التى لم ينقض أمدها بعد وهو فى حياته كلها لم ينقض عهدا ، ولم يخلف
وعدا .

ولكن الافرنج وبعض حلفائه المسلمين هم الذين كسروا الهدنة وخانوا
العهود .

وكان أول من قام بفسخ الهدنة من الفرنجة (ريجنالد) صاحب الكرك
فبينما كانت قافلة تجارية تسير آمنة سالمة فى طريقها قرب « الكرك » مطمئنة الى
الهدنة بين صلاح الدين والافرنج ، اذا بصاحب الكرك « ريجنالد » يباغتها
برجاله ، وينهبها ويأسر أهلها ..

وكذلك خان العهد ، الأمراء من أسرة زنكى ، الذين آلت اليهم الموصل
وحلب . فقد داسوا على كرامتهم ، وداسوا على دينهم ، بأن تعاهدوا مع
المسيحيين ، بل حتى مع رئيس الطائفة الاسماعيلية ، ليقاوموا معا ، عدوهم
المشترك صلاح الدين .

واذن وجب أن يسرع صلاح الدين الى الشام ليحمى أتباعه وليحفظ
بلادهم .

وفى ١١ مايو سنة ١١٨٢م تاهب صلاح الدين بظاهر القاهرة ، للسفر الى

الشام .. وخرج الناس لوداعه جموعا محتشدة .. واجتمع هناك كثير من العلماء والفضلاء .. وتناشد الخطباء والشعراء مايقال في الوداع .. وكان هذا آخر خروج لصلاح الدين من القاهرة .. ان لم يعد اليها بعد ذلك ابدا .. وعندما اقترب من حدود مصر ، كان يستنشق الهواء المصرى ، ويتأمل الأرض المصرية والرمال الممتدة في سيناء .. ويذكر رحلاته ، مع عمه شيركوه الى مصر . ويحس في قلبه الأسى وكأنه يصدق في نبوءة الوداع . وانه لن يعود بعد اليوم الى مصر العظيمة المحبوبة ..

ولكن رويدا ، رويدا ، تكشفت الغاية التي رسمها .. وملا الأمل قلبه الكبير .. فعليه أن يستولى على حلب عاصمة سوريا الشمالية .. وعليه أن يخضع الموصل .. ثم بعد ذلك يتجه بقوات المسلمين متحدة لملاقاة الصليبيين ..

وبعد حروب وحملات بين الموصل والشام .. استولى صلاح الدين على حلب بعد حصار قصير . قبل بعده صاحب حلب أن يتنازل عنها لصلاح الدين على أن يحكم إقطاعيات غيرها ..

وفتحت حلب أبوابها له فرحة مستبشرة بعد أن أستعصى عليه فتحها مرارا ودخلها في ١٨ يونية سنة ١١٨٢ وقد جن الأهلون سرورا وحبورا ، بهذا الحاكم صلاح الدين القوى ، العظيم ، العادل ، الكريم ..

وفي القلعة الغبراء ، التي طالما وقفت أمامه شامخة مستعصية ، احتفل أهل حلب باستقباله استقبالا حافلا .

وكان فتح القدس هو شاغله الأكبر .. فمهما استولى على حلب ومهما دانت له البلاد الاسلامية من الدجلة حتى بلاد النوبة ، ومن اليمن حتى طرابلس الغرب فما زالت أعلام الغربيين تحت رايات الصليب ترتفع في بيت المقدس ..

حطين :

في خلال سنة ١١٨٦ مرت قافلة غنية من قوافل العرب بالقرب من « الكرك » فلم يلبث ريجنالد صاحب الكرك أن انقض عليها كما فعل منذ سنوات .. وفي المرتين كان الفرنجة في هدنة مع صلاح الدين .. وكان هذا الأمير الصليبي جريئا مخاطرا لايهاب شيئا حتى لقد غزا سنة ١١٨٣ شبه الجزيرة العربية ، وكاد يدخل المدينة المنورة ليمتلكها ويحطم قبر النبي ، لولا يقظة القائد

المصرى لأولئ الذى أدركه بأسطوله ، وشتت شمله ، وأسر رجاله ..
وفى هذه المرة .. عندما باغت القافلة الغنية العظيمة ، نهب جميع أموالها
ومتاعها ، وأسر كل رجالها ونسائها وسجنهم وقيل : ان أخت صلاح الدين كانت
بينهم ..
وعلم صلاح الدين بما فعله ريجنالد .. وأقسم ليقتلن هذا الفاجر المخلف
للوعد بيده .

اتحدت قوات الصليبيين المتفرقة وتجمعوا من كل صوب على رأسهم ملك
القدس الجديد (جوى) .. وإلى جانبه زعماء الصليبيين وامراؤهم وكبار
رهبانهم وفرسانهم ، ومنهم ذلك الطاغية صاحب الكرك ، ريجنالد وكذلك ابن
همفرى ، بل كان فيهم أيضا ، ريمون صاحب طرابلس الذى تناسى ذلك الخلاف
الذى كان بينه وبين الملك جوى ، وتلك الصداقة التى كانت بينه وبين صلاح
الدين والتى نمت وترعرعت حتى كان يزور صلاح الدين ويلقى منه الحفاوة
والود .. حتى لقد أشيع أنه لولا خوفه من سخرية الأوروبيين لاعتنق الاسلام .
وكما تجمع الصليبيون ووقفوا يدا واحدة ، اتحدت كلمة العرب ، وسار
صلاح الدين على رأس جيشه الكبير الذى جمعه من أنحاء دولته المتماسكة ..
وتقارب الجيشان .. وحاول صلاح الدين الاشتباك مع الافرنج فلم
يتحركوا فأراد استدراجهم .. فهاجم مدينة (طبرية) - وكانت لهم - واستولى
عليها بعد معركة صغيرة غير أن قلعتها امتنعت عليه .. ولجأت اليها صاحبها
زوجة ريمون ، ومعها أولادها وحاشيتها .. وأرسلت تستنجد بالملك جوى ..
وجمع جوى مجلس امرائه وقواده .. واستشارهم .. فرأى ريمون ، عدم
الهجوم على المسلمين ، فخالفه كثيرون فيما رأى .. مع أنه هو صاحب طبرية ،
وزوجه هى التى تستغيث ، بل لقد ارتابوا فيه لسابق مودته وصداقته مع صلاح
الدين ..

وأختلف المجتمعون .. فريق ريمون ، يخاف عدد المسلمين الضخم ، وفريق
آخر يرى الهجوم والنزال وفى هذا الفريق ، ذلك العاتية الجرىء ريجنالد ، وهو
يصيح فيهم : لاخوف من كثرة عددهم .. فالحطب الكثير تأكله النار .
وبات « جوى » وفى نيته الهجوم .. وما أصبح الصباح حتى أصدر أمره
للجيش .. وساروا نحو طبرية .. وعلم صلاح الدين بتحركهم ، فاستعد
للموقعة ، وأسرع المسلمون الى أمكنة المياه ، فنزلوا عليها ، كى يمنعوا الافرنج
عنها .. ووصل الافرنج متأخرين ، ففقدوا أمكنة المياه ، وأصابهم التعب
والعطش ، وتحللت معنويتهم ..

وقضوا ليلة ليلاء .. أمضوا ساعاتها الطويلة وهم يصيحون الماء .. الماء ..
بينما تصلهم أصوات المسلمين في معسكرهم .. وهم يهللون ويهتفون الله أكبر ..
الله أكبر .

وطلعت تباشير الصباح - صباح السبت ٢٦ ربيع الآخر سنة ٥٨٣ - يوليه
سنة ١١٨٧ - وأسرع فرسان الصليبيين الى جيادهم .. ولكن المشاة كانوا
يتحرقون عطشا ، بينما كان المسلمون الذين امتلكوا ينابيع المياه ، يمتلئون ثقة
وعزما .

وتقابل الجيشان على بعد ميلين من « حطين » وبدأ القتال ، بسيل جارف
من سهام المسلمين فهوى كثير من الفرسان عن خيولهم ، صرعى .. كما جندلت
السهام جيادا كثيرة ، فخرت براكبيها الى الأرض تدكها دكا .. ثم هجم
المسلمون كرجل واحد ، هجمة جارفة ، وهم يصيحون صيحات التكبير ، وأخذوا
يقاتلون المسيحيين يدا بيد .. والتحمت السيوف وعلا صليلها ، وانتشرت
الدماء .. وكانت الشمس قد علت واشتدت حرارتها فتصيب العرق على وجوه
المحاربين ، وبدأ التعب والكلل على الصليبيين .. ولكنهم ثبتوا في الحرب
جاهدين .. وكان صلاح الدين يسير بنفسه بين صفوف المسلمين ينظم هجومهم
ويحثهم ، ويملا نفوسهم حماسة واقداما .

وجن مشاة الصليبيين من شدة العطش ، والشمس المحرقة وحرارة الدخان
الذى طغى على عيونهم من نيران أوقدها المسلمون .. واندفعوا يريدون الوصول
الى بحيرة « طبرية » وهم يتحرقون الى الماء .. ولكن صلاح الدين أسرع فوقف
أمامهم كالصخرة الثابتة . فلبثوا فوق التل مجتمعين كأكوام من اللحم ،
ومليكمهم « جوى » يدعوهم الى النزول ، وتأدية واجبهم نحو الصليب والعرش
ولكنهم أبلغوه أنهم يموتون عطشا ولا يستطيعون الحرب .. وحمل عليهم
المسلمون فأشبعوهم قتلا وأسرا .. وألقى كثير منهم أسلحتهم خاضعين واتجهوا
في ذلة نحو المسلمين وقد فغرت أفواههم وتدللت أسنتهم كالكلاب العطشى ، بل قد
جر اليأس نفرا من فرسان ريمون الى صلاح الدين يقولون له : أيها الملك ، ما
الذى يؤخرك .. انقض عليهم فهم عجزة أموات!

ولم يبق للصليبيين الا أمل واحد .. ان يعطى الملك جوى أمر الميدان الى
ريمون . فدفع بفرسانه الى الأمام في هجمة شديدة فتراجع أمامهم تقى الدين ،
ابن أخى صلاح الدين .. وفتح لهم طريقا يخرجون منه .. وبذلك فصلت فرقة
ريمون عن الملك ، الذى ثبت على التل والى جانبه مائة وخمسون من أكبر

الفرسان والنبلاء وقد التقوا حول خيمة الملك ، والصليب المقدس (صليب الصليبوت) ، يدافعون عنهم الدفاع الأخير ..

ولما صار ملك الافرنج على التل في تلك الجماعة القليلة حملوا حملة منكرة على من باداهم من المسلمين ، حتى الحقوهم بصلاح الدين ، وكان الى جواره ابنه الأفضل وهو وقتئذ صبي في السادسة عشرة من عمره - فرأى أباه وقد علتة كآبة واريد لونه .. وتقدم وهو يصيح : « كذب الشيطان » فعاد المسلمون على الفرنج فرجعوا صاعدين في التل وهم يلهثون والمسلمون يطاردونهم . فصاح الأفضل فرحا : « هزمتهم » فعاد الافرنج فحملوا على المسلمين ، فتراجع هؤلاء الى صلاح الدين ، فصاح بهم ثانية فكر المسلمون على أعدائهم والحقوهم بالتل من جديد .. فصاح الصبي أيضا : هزمتهم .. فالتقت والده اليه وقال : « اسكت .. لانهم حتى تسقط تلك الخيمة » ..

وفي تلك اللحظة ، هوت الخيمة ، ونزل صلاح الدين من على فرسه ، وسجد لله شكرا .. وهو يبكي من الفرح ويذرف دموع الحمد والتسبيح لله .. ووقف صلاح الدين عند خيمة كبيرة نصبت له في ميدان القتال ، وقد امتلأت بجثث الموتى التي تجمعت أكواما ، واختلطت بها صلبان محطمة .. وانتشرت وسط الميدان أذرع وسيقان ورؤوس مفصولة ..

وتوالى احضار الأسرى .. وجاء جندي مسلم واحد ، يجر معه ثلاثين أفرنجيا ، أسرهم بنفسه وربطهم جميعا بحبل متين ..

وأسر الملك نفسه ومن كانوا حوله في اللحظة الأخيرة ، فقد خالفوا مبادئ الفروسية من ضعفهم وخورهم ووهنوا عن أن يحاربوا حتى يموتوا فسلموا سيوفهم الى المسلمين وأسروا جميعا : الملك وأخوه ، وريجنالد الذي هزا منذ عام بمحمد وبالمسلمين ، وابن همفري .. ورؤساء الفرسان الراهبين وغيرهم من النبلاء والفرسان .. أما ريمون .. فبعد أن شق طريقه الى صفوف المسلمين ورأى الملك يؤخذ أسيرا ، أرخى العنان لفرسه ، حتى وصل سالما الى صور ومنها الى طرابلس حيث مات بعدها بقليل ، غارقا في الحزن والعار !

ودعا صلاح الدين الملك جوى وريجنالد صاحب الكرك الى خيمته ، واجلس الملك الى جانبه .. وعندما رأى عطشه أمر فجيء له بماء قد برد في الثلج فشرب منه وأعطى الملك ماتبقى منه لصاحب الكرك ، فصاح صلاح الدين للترجمان : « قل للملك ماسقيته أنا ، ولكنك أنت الذى سقيته » وقصد بذلك ان ريجنالد لم يصبح آمنا بعد أن شرب من ماء صلاح الدين .

وحل الوقت كى يفى صلاح الدين بقسمه ، فقام وأنب ريجنالد على تنكيه بقافلة المسلمين ، وتطاوله على مقام النبوة .. ثم هوى عليه بالسيف فأرداه .. وارتعد الملك ، وخشى أن يثنى به ، فأمنه صلاح الدين قائلاً : « لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك .. أما هذا فقد تجاوز حده .. فجرى ماجرى » ..

أما الأسرى من الفرسان (فرسان المعبد : وفرسان المستشفى) وكان عددهم مائتين .. فقد قتلوا جميعا .. لبأسهم فى الحروب .. وشدة عدائهم وكراهيتهم للمسلمين .. أما الملك جوى ، وكل من معه من النبلاء .. فقد أرسلهم صلاح الدين الى دمشق أمين مكرمين .

ومرت الأيام والشهور .. وظل ميدان القتال يحمل آثار المعركة الهائلة التى لم يهزم المسيحيون منذ وفدوا الى الساحل كما هزموا فيها .. والتى سقط فيها منهم ثلاثون ألفا ..

وتراكت أكوام العظام .. فكانت ترى من بعيد وكانت الذئاب والضباع تصيح صيحات طويلة مزعجة تملأ الفضاء وتردها التلال والوديان المجاورة .. قضى المسلمون ليلتهم فرحين مهلين بعد انتصارهم عند حطين .. وظلوا الى مطلع الفجر ، تدوى صيحاتهم وهتافاتهم لا اله الا الله .. الله أكبر .. الله أكبر ..

وفى اليوم التالى : عاد صلاح الدين الى « طبرية » ليستولى على قلعتها وكانت فيها زوجة ريمون وعرفت ما حل بقومهم ، وزوجها ، فسلمت القلعة وهذا صلاح الدين روعها .. وأوصلها الى حيث أرادت أمنة مطمئنة مع أولادها وحاشيتها .

ثم انتشر المسلمون فى أنحاء فلسطين .. يحاصرون البلدان والحصون التى فى أيدي المسيحيين فسرعان ماتخضع بلا مقاومة .. بل كان أهلها وجنودها يفرون قبل حضور المسلمين ، والذعر الذى خلفه « حطين » يطاردهم اينما ذهبوا ..

وعرف صلاح الدين كيف يستفيد من أثر انتصاره الحاسم عند حطين .. فلم يترك فرصة للفرنجية ، ليلموا فيها شعثهم .. بل أسرع فوصل « عكا » بعد اربعة أيام من معركة حطين ودخلها ظافرا منتصرا : بعد ان أمن أهلها المسيحيين ورحلهم بأموالهم سالمين .. واحتفل بصلاة الجمعة ، فى مسجدها الكبير ، الذى استعمل كنيسة منذ أجيال ، فكانت أول جمعة أقيمت بساحل

الشام بعد ان ملكه الفرنج في الحملة الصليبية الاولى ..
وتوالى فتح الحصون والمدن والحصول عليها من المسيحيين وعاونه أخوه
العادل الذى سار بجيشه من مصر ، وفي كل غزوة كان صلاح الدين يهب
المسيحيين شروطا نبيلة كريمة لحامية البلد وأهلها .. فكانوا يقبلونها راضين ،
واثقين أن صلاح الدين اذا وعد أنجز وعده ، وكانوا يرحلون الى « صور » حتى
تجمع فيها جمع عديد من المسيحيين ..

وفي شهرين ، خضعت مملكة اورشليم كلها .. ماعدا ثلاث مدن مهمة :
صور ، وعسقلان ، وأورشليم نفسها ..
أما صور فقد فات صلاح الدين ، أن يفتحها مباشرة بعد عكا حتى أصبح
فتحها الآن صعبا بعد ان اجتمع فيها خلق كثير من المسيحيين ، وبعد أن وجدوا
لهم قائدا شجاعا هو « المركيز كونراد » الذى قدم الى صور من القسطنطينية
فجمع شملهم وأعد المدينة للدفاع بعد ان كادت تسلم لصلاح الدين قبل
حضوره .

وأراد صلاح الدين أن يحصل بالحيلة على صور فأمر باحضار أبى
المركيز ، وكان أسيرا فى دمشق وعرض أن يفك أسره إذا سلم المدينة .. ولكن
كونراد ، تظاهر بصلاية القلب ، معلنا أن أباه قد عاش طويلا .. فليقتله صلاح
الدين ان شاء ولكنه لن يعطيه حجرا واحدا من « صور » ليفديه ..
ولم يقتل صلاح الدين ، الأب العجوز ، ورفع الحصار عن صور مرجئا
فتحها الى ما بعد ..

وتوجه نحو عسقلان ، التى وقفت ، عقبة فى طريق المواصلات بين مصر
والشام .. وفى طريقه اليها احتل « الرملة » وغيرها .. حتى وصل فى ٢٣
أغسطس أمام عسقلان حيث انضم اليه الجنود المصريون بقيادة أخيه
العادل .. وشدد المسلمون الحصار على المدينة .. ونصبوا المناجيق .
ورأى صلاح الدين أن يعيد التجربة التى فشلت عند صور .. فجىء بالملك
« جوى » ، وبعض قادة المسيحيين من دمشق الى عسقلان ووعدهم بالحرية اذا
اقتنعوا حامية المدينة بالتسليم ..

ورفضت عسقلان ، كما رفضت صور من قبل .. وظلت حاميتها تدافع
أسبوعين ثم راسلوا صلاح الدين ، والملك جوى فى الصلح فسمح صلاح الدين

أن يرحل أهلها بنسائهم وأطفالهم وأموالهم آمنين .. ثم دخل المدينة يوم الجمعة
٤ سبتمبر وأقام الصلاة ..

وتكرم صلاح الدين ، فبر بوعده مع الملك الأسير ، لوساطته مع الفرنجة في
عسقلان ، فأطلق سراحه بعد شهر .

وبينما كان ملك القدس ، أسيرا في دمشق ، ومعه كثير من الأسرى
المسيحيين ، كان كثير من الأسرى المسلمين يعيشون في ذل وهوان في بيت
المقدس .

وسار صلاح الدين ومعه الجنود المخلصون المؤمنون ، ليظهر « المسجد
الأقصى الذي باركنا حوله » .

وكان صلاح الدين يعرف لبيت المقدس ، قدسيته وكأنه أراد أن يفعل ما
فعله عمر بن الخطاب من قبل في فتحها ، فأوفد الرسل إلى أهلها يطلب منهم
التسليم بشروطه ، قائلا لهم « انى أعتقد كما تعتقدون أن القدس هى بيت الله ،
ولست أرغب في محاصرة بيت الله والاعتداء عليه . وانما أريدها في صفاء
وسلام » وكانت شروطه نبيلة سخية ولكنهم رفضوا قائلين إنهم بمشيئة الله ، لن
يسلموا المدينة التى مات فيها المسيح من أجلهم .. ولم يعد أمام صلاح الدين
الا أن يأخذها بالسيف ..

وكان في بيت المقدس غير النساء والأطفال ستون ألفا من الرجال .. فقد لجأ
إليها الكثيرون من مختلف الجهات . ومن هؤلاء اللاجئين ، قائد من أكبر
الصليبيين ، هو باليان .. وكان قد استطاع الفرار يوم حطين .. وبعد فراره طلب
من صلاح الدين ، الذى نشر سلطانه على فلسطين ، أن يسمح له بالذهاب إلى
بيت المقدس ، ليحضر زوجه وأولاده فقبل صلاح الدين على أن لا يبقى في المدينة
أكثر من ليلة واحدة ، وعلى أن لا يحارب بعدها ضد صلاح الدين ، ولكنه بعد أن
دخل بيت المقدس ، رحب به الجميع كمنقذ واضطروه إلى البقاء كقائد لهم ..
وقال له البطريرك ، انى أحرك من ذنبك .. ويمينك الذى أقسمته . بل ان ذنبك
في محافظتك على هذا اليمين أكثر من ذنبك في نقضه .

ولم يكتف باليان بهذا مع صلاح الدين ، بل كان على صلاح الدين أن يكون
معه أكثر صبورا ، وأعظم مروءة .. فقد أرسل باليان إلى صلاح الدين ، يطلب
منه أن يسمح بانتقال زوجته وأطفاله إلى طرابلس معتذرا بأنه أجبر على البقاء

وإخلاف وعده معه .. فلم يلمه صلاح الدين ، بل كان جوابه أن أرسل خمسين فارسا لحراسة زوجته وتوصيلها إلى وجهتها .

وفي ١٥ رجب (٢٠ سبتمبر) من نفس السنة التي انتصر فيها عند حطين ، وضم نواحي فلسطين تحت سيطرته ، وقف بجيشه أمام أسوار المدينة المقدسة .. فوجد جمعا غفيرا من المسيحيين قد أخذ يدافع عن أسوارها وقد نصبوا المناجيق لابعاد من يقرب منها .. فطاف صلاح الدين حول المدينة خمسة أيام حتى وجد أن جهة الشمال خير مكان لمهاجمة المدينة .. وظن القوم في القدس ، أن صلاح الدين قد رحل .. ففرحوا واغتبطوا .. وإذا بأعدائهم المسلمين ، يسقطون على مدينتهم وابلا من القذائف .. فتهاك الفريقان في القتال .. إذ اجتمع ممثلو الدول الاسلامية أمام ممثلي الدول المسيحية ، يتقاتلون ، حول المكان المقدس عند كليهما : بيت المقدس .

ولكن لم يلبث المسيحيون أن حل بهم اليأس ورجبوا في التسليم ولبست المدينة ثوب الحزن والهلع ، وأسرع الناس إلى الكنائس ليكون ويرجون رحمة الله .

وكان باليان نفسه ، هو الذي ذهب إلى خيمة صلاح الدين ليجري معه مفاوضات الصلح .. وشروط التسليم .. وقابله صلاح الدين في حفاوة .. وبعد أخذ ورد ، استقر الأمر على أن يدفع المسيحيون ثمنا لحريرتهم .. فجعلت ضريبة الحرية ، عشرة دنانير على الرجل ، وخمسة على المرأة ، ودينارين على الطفل .. فمن أدى ذلك إلى أربعين يوما فقد نجا .. ومن انقضت الأربعون يوما ولم يؤد ما عليه ، فقد صار مملوكا ..

ويشاء الله القوى القادر ، أن يسلم بيت المقدس للمسلمين في يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب .. الذي حدث في مثله منذ ستة قرون ، أن أسرى سبحانه وتعالى بعبده محمد عليه الصلاة والسلام من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ..

وارتفعت الاعلام العربية على أسوار المدينة وأخذ المسيحيون يبكون .. ويغسلون بدموعهم الأبنية المقدسة وأخذوا يستعدون للرحيل وقلوبهم تكاد تتمزق .

ولكنهم رأوا من صلاح الدين .. وكرمه ونبله .. ما رفعه في أعينهم وفي عين التاريخ إلى أعلى حد يمكن أن يصل إليه إنسان ..

فقد أوقف حراسه تحت قيادة أمراء مسئولين ، في كل شارع .. يمنعون وقوع أى اعتداء من المسلمين على المسيحيين .. حتى لم يسمع عن أى سوء يحل بالمسيحيين طوال أيام الاخلاء ، مما يحدث عادة في مثل هذه الظروف ، من الجنود المنتصرة ..

وبدأ المسيحيون يغادرون المدينة ، وقام باليان بدفع ثلاثين ألف دينار فدية لطائفة من الفقراء والمساكين ..

وتوالى خروج الأفراد والأسرات ، الأغنياء منهم والفقراء .. ولم يحاول صلاح الدين أن يقسو على الأغنياء ، فيحصل منهم على ضريبة أكبر .. ورأى صلاح الدين أن عددا كبيرا من الإفرنج ، يحمل على ظهره والديه الضعيفين ، أو أقاربه المرضى ، فأثر فيه ذلك كل التأثير فأمر بالمال فأعطى لهم .. وبالدواب فوزعت عليهم لتحمل أثقالهم إلى حيث يريدون ..

وكانت بالقدس إذ ذاك إحدى نساء ملك من ملوك الروم ، وقد ترهبت وأقامت تعبد الله .. والتفت حولها كثير من الخدم والحشم .. وكانت ذات مال وفير .. فأمنها السلطان على نفسها ومالها وأتباعها ..

وكذلك أطلق ملكة القدس - زوجة جوى - وأطلق معها حاشيتها وأتباعها .. واستأذنته في الرحيل إلى زوجها وكان حينئذ محبوسا في قلعة نابليون ، فأذن لها فزارته هناك ويعد ذلك أفرج عن الملك (جوى) نفسه ..

حتى زوجة ريجنالد ، الذى قتله صلاح الدين يوم حطين أخلى سبيلها وحفظ لها أموالها ..

وخرج البطريرك الكبير ، ومعه من الأموال والجواهر ما لا يعد ولا يحصى .. ومعه كنوز الكنيسة وكؤوسها وأوانيها الذهبية ، حتى الغطاء الذهب الذى كان على (الضريح المقدس) .. ولم يشأ هذا الرجل ، وهو أكبر ممثل للمسيحية في القدس ، أن يصرف من كل هذه الاموال الطائلة شيئا لفدية فقير أو عاجز أو مسكين .. وقيل لصلاح الدين أن يأخذ ما معه ليقوى به المسلمون ، فقال : « لا أغدر به » .. ولم يأخذ غير عشرة دنانير .

وكان على صلاح الدين أن يعطى البطريرك دروسا أخرى في السخاء والمروءة .. فبعد أن انقضت الأربعون يوما بقى آلاف من الفقراء ، الذين تركهم للعبودية مواطنوهم الأغنياء ! فطلب العادل من صلاح الدين أن يهبه ألفا منهم .. ففعل ، فأطلقهم جميعا . وكذلك جاء البطريرك وباليان وتوسلا ،

فأعطاهما ألفا آخرين .. ثم أمر صلاح الدين بفتح الباب لجميع الشيوخ الذين لم يستطيعوا دفع الفدية ..

واجتمع كثير من النساء اللاتي دفعن الفدية وخرجن فذهبن إلى صلاح الدين يتوسلن .. وقلن : انهن اما زوجات أو أمهات أو بنات لبعض من أسر أو قتل من الفرسان والجنود .. ولا سند لهن الآن ولا أرض .. وراهن صلاح الدين ببيكين فبكى تأثرا وشفقة .. وأمر بالبحث عن الأسرى من رجالهن فأطلقوا وردوا إلى نساءهم .. أما اللاتي مات أولياؤهن فعوضهن مالا كثيرا جعلهن يلهجن بالثناء عليه أينما سرن .

وهكذا كانت معاملة المسلمين للمسيحيين عند فتح القدس سنة ١١٨٧ . نقطة وضاعة في تاريخ الفتوحات ، تظل تلمع وتلمع ، لتبين للعالمين في كل العصور ، عظمة الاسلام وروحه وتسامحه .. بينما كانت معاملة المسيحيين عند فتح القدس نفسها سنة ١٠٩٩ سبة في جبين المسيحية والانسانية بما ذبحوا وقتلوا وعذبوا من المسلمين ..

ولكن الرواية لم تتم فصولا .. فقد لجأ بعض الفقراء المسيحيين الذين أطلقهم صلاح الدين الى انطاكية .. فأبى أميرها المسيحي ضيافتهم .. فساروا على وجوههم في بلاد المسلمين ، فقبلوا بترحاب ، وذهب بعض اللاجئين إلى طرابلس فلم يكتف أهلها بطردهم ، بل أرسلوا وراءهم من ينهب ممتلكاتهم التي أبقاها لهم المسلمون .

ووفد المسلمون من أنحاء الامبراطورية ، ليحتفلوا باسترجاع القدس .. وصلوا مع صلاح الدين في المسجد الأقصى جمعة الرابع من شعبان .. وقف قاضي حلب فخطبهم خطبة رائعة أشاد فيها بهؤلاء المحاربين الذين أعادوا ذكرى بدر والقادسية وذكرى خالد سيف الإسلام ، ودعا في ختامها لسultan الإسلام والمسلمين صلاح الدين .

وجلس صلاح الدين ، وقلبه ينبض بالايمان ، ووجهه يضيء باليقين وهو يدعو « رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والدي . وأن أعمل صالحا ترضاه . وادخلني برحمتك في عبادك الصالحين » .

وأزيلت من المسجد الأقصى آثار المسيحية ، وأعاد صلاح الدين إلى سيرته الأولى من بساطة وجمال . وأمر بصنع منبر له فقيل له لقد أمر نور الدين منذ

أكثر من عشرين عاما بعمل منبر فخم كى ينصب فى بيت المقدس عند فتحه ، ومازال المنبر فى حلب منذ صنعه ، فحمل المنبر من حلب وأصلح وأقيم فى المسجد الأقصى . وهكذا تحقق حلم نور الدين على يد إبنه صلاح الدين .
ومنذ أن فتحت القدس على يديه بقيت فى أيدي العرب حتى حدثت كارثة فلسطين سنة ١٩٤٨ واستولى اليهود على نصف المدينة . وكارثة ١٩٦٧ التى لاتزال معاركها مستمرة .

ريتشارد قلب الأسد .. وفيليب :

ويرى كتاب الحرب والسلام فى زمن العدوان الصليبي رأيا يهمنى اثباته هنا :

فبدلا من أن يسعى البابا وملوك الغرب إلى التفاهم مع صلاح الدين بشأن مبادلة الأسرى كما سبق أن طلبوا ، وتنظيم شئون الحجاج المسيحيين إلى بيت المقدس . وحماية رعايا الكنيسة الشرقية فان البابوية ترسل المنشورات إلى سائر أنحاء أوروبا وتعلن هدنة عامة بين ملوك أوروبا وأمرائها لمدة سبع سنوات ، تسمى « هدنة الرب » ينسون خلالها خلافاتهم الشخصية ويدفنون أحقادهم وتحرم خلالها الحروب الموضعية والعامة فى سبيل نشر السلام بين كافة الكاثوليك وفى سبيل الاشتراك فى حملة تخليص بيت المقدس من السلطان صلاح الدين .

هذا هو مفهوم فكرة السلام العالمى عند البابوية ، وسرعان ما استجاب لدعوتها ثلاثة كبار من ملوك أوروبا ، هم فيليب أغسطس ملك فرنسا ، وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا وفرديريك بربروسا امبراطور المانيا ، وهو الذى فيما يبدو كان على علاقة ودية مع صلاح الدين سنة ١١٨٧م ، حين أرسل الأمير جيرارد سفيرا له لدى بلاط صلاح الدين ، فاستقبل استقبالاً شريفاً كريماً بالقاهرة .

ومكث فترة طويلة بالشرق ، وأرسل بعدها صلاح الدين بدوره سفراء إلى المانيا ، ومكثوا فى بلاط ملكها فرديريك شهورا عديدة . وتفسير قيام تلك العلاقات الودية بين مصر ومانيا يرجع إلى ما كان بين المانيا ودول أوروبا من خلافات وأطماع اقليمية توسعية ، أبعدت بين المانيا وتلك الدول ، وقربت بينها وبين مصر ، غير أن فرص التقارب والتفاهم بين مصر ومانيا لم تتبلور وتؤتى ثمارها المرجوة بعد حتى نهاية الربع الأول من القرن الثانى عشر الميلادى .. إذ سرعان ما انكشفت تلك الفرص وذابت ، أما دعوة البابوية والاعراض الخيالية

الاستعمارية الواسعة في الشرق فلم يشأ فردريك أن يشذ عن ملوك أوروبا ، ويخرج عن طاعة الكنيسة . كما انه لم يشأ الخروج عن آداب الفروسية وتعاليمها وتقاليدها ويفاجيء السلطان صلاح الدين بحملة عدوانية ، فبعث اليه برسالة مطولة عام ١١٨٨ . أى قبل مغادرته المانيا عائدا إلى الشرق حملها سفير الأمير هنرى ، وطلب فيها الإمبراطور من صلاح الدين أن يتخلى عن بيت المقدس وكل ما استولى عليه من الصليبيين الشرقيين . وأعطى فردريك صلاح الدين مهلة عام من تاريخ هذا الانذار ، والا أعلن عليه الحرب وخوف فردريك صلاح الدين من نتائج هذه الحرب لأن شعوبا أوروبية عديدة - ذكر اسمها - سوف تقف الى جانبه . وتشاركه العدوان على الشرق . وتلك معازل العرب وحصونهم . وتخرب ديارهم وحقولهم وترمل نساءهم وتيتم أطفالهم .

وأجاب صلاح الدين على الانذار الالمانى فى نفس العام (١١٨٤م - ١١٨٨م) ، برسالة مطولة ، تفيض حماسة وقوة وثقة بالنصر . وتدل على دبلوماسية رفيعة ، والملم واسع بالسياسة الدولية المعاصرة جاء فيها « لا يمكن حصر المسلمين ، وفى قدرة البدو وحدهم مواجعتكم وعلى التركمان ابادتكم ، واذا دعونا الفلاحين حاربوكم بشجاعة » .

وذكر صلاح الدين فردريك بسوء المصير الذى لقيه الحملات الصليبية السابقة التى قصدت دمياط والاسكندرية فى عامى ١١٦٩ ، ١١٧٤م وحاولت عبثا اقتلاع سلطان صلاح الدين من مصر واحتلال اراضيها بالاتفاق مع المتآمرين والخونة من أنصار البقايا الفاطمية الشيعية .

وؤكد صلاح الدين لفردريك تصميمه على استرداد صور وطرابلس وانطاكية وغيرها من القلاع الصليبية الباقية فى الشرق عنوة ، اذا لم يستسلم قادتها فورا للمسلمين ، وأشار عليه بنصيحة أولئك القادة بذلك مقابل ارجاع خشبة الصليب التى استولى عليها صلاح الدين غداة استيلائه على بيت المقدس وتحرير جميع الأسرى المسيحيين وعودة الرهبان الى أديرتهم ، والسماح للمسيحيين بالحج والزيارة الى بيت المقدس . وأشار صلاح الدين كذلك الى عزمه على عبور البحر المتوسط ليغزو أوروبا نفسها ، اذا أصر فردريك على تهديد السلام والأمن فى منطقة الشرق الأدنى بعدم الموافقة على تلك الشروط . وكتب صلاح الدين فى الوقت نفسه الى ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا يحذره ، ويبلغه انه على استعداد لملاقاته ما دام مصرا على المجيء الى الشرق ، ويخبره انه سبق أن خبر قتال الانجليز يوم أن اشتركوا بقيادة والده هنرى

الثانى فى الحملة الصليبية المعروفة بالثانية ١١٤٩م حين كان صلاح الدين يوسف ضابطا صغيرا فى جيش نور الدين محمود سلطان الشام ، وكلف بالاسهام فى دفع خطر تلك الحملة عن مدينة دمشق . وتركت شجاعة صلاح الدين ودفاعه عن وطنه أعمق الأثر وأبلغه فى نفس الملكة البانورة والدة الملك ريتشارد التى اشتركت مع زوجها فى تلك الحملة . فلما عادت الى بلادها أخذت تتحدث عن اعجابها الشديد بذلك البطل المسلم الصغير ، وتفخر به كما لو كان واحدا من رعاياها البريطانيين .

الحق ان اسم صلاح الدين غدا كالرعد ، يثير الرعب والخوف فى نفوس الأوربيين حتى ان الأمهات كن يخفن أطفالهن بترديده لهم كى يحملنهم على النوم .

وقد تحققت بعزيمة صلاح الدين هذه الانتصارات الكبرى كما رأينا .

لم يبق للصليبيين فى فلسطين ، الا (صور) من المدن الهامة ، وبضعة حصون فبعد أن لبث صلاح الدين شهرا فى القدس ينظم أمورهما ، توجه بجيشه نحو صور حيث تجمع المسيحيون وأصبحوا قوة هائلة . حتى لقد خرج من صور وحدها ذلك الجيش الكبير الذى حاصر (عكا) ، حصارها المشهور .
والذى صلاح الدين ، المدينة وقد حصنت بجهود المركيز كونراد تحصينا منيعا . وقاومته المدينة مقاومة عنيفة .

ولقى المسلمون ويلات شديدة ، من ذلك الفارس الذى لبس قميصا أخضر ، وحمل على ذراعه اليسرى ترسا أخضر اللون .. وكان يقود المسيحيين المحصورين ، فيندفع بهم مهاجما العرب ، فيزحزحهم الى الوراء . وأعجب صلاح الدين (بالفارس الأخضر) . لأنه كان يجب الفارس الشجاع . مسلما كان أو مسيحيا .

وجاء الشتاء بالأمطار والأوجال . ومل بعض القواد وأشاروا بفك الحصار وأرجائه . ومع أن صلاح الدين كان يرى البقاء حتى النصر . الا أنه نزل عند مشورتهم ورحل عن صور . ولو أنه نفذ رأيه ، وتغلب على ملل القواد ، وتعب الجنود ، حتى فتح المدينة لما كان حصار عكا الذى استمر سنتين طويلتين .
واقام صلاح الدين الشتاء فى عكا ، ودعا بهاء الدين قراقوش ، ليحصنها ويقوى دفاعها . ثم غادر الساحل فى الربيع الى الشمال ، ودخل دمشق فى ١٤

مايو سنة ١١٨٨ ، واجتمع بالعساكر الكثيرة ورحل بهم الى بلاد الافرنج في سورية وهي طرابلس وانطاكية .

وأسرع كونراد الى تجدة طرابلس ، وجاء معه (الفارس الأخضر) ، وأعجب صلاح الدين من جديد بشجاعته الفائقة ، ودعاه الى خيمته ، فجاء . ورحب به صلاح الدين ترحيبا كبيرا ، وأهداه خيولا وجواهر وعرض عليه الأراضي والممتلكات اذا قبل العمل معه ولكن الفارس الأخضر رفض كل شيء .. وقال انه لم يحضر من بلاده ليعيش مع العرب ، ولكن ليحاربهم ويقهرهم .. وهذا ما سيقوم به كلما استطاع الى ذلك سبيلا .

وافترق الفارسان وكل منهما يحمل نحو الآخر صادق الاحترام .. وفي يوم الجمعة ، الذي يحبه صلاح الدين ويحب الجهاد فيه ، بدأ حملته في الشمال ، وتوالى فتح الحصون حتى لقد حصل على ستة حصون في ستة ايام جمعة متتالية مما أكد للمسلمين ان دعوات المؤمنين ايام الجمعة يستجيبها الله . وعندما فتح حصن (برزيه) أسر صاحبه وأسرته . ثم اخلى سبيلهم وسير معهم من صاحبهم الى قريبتهم صاحب انطاكية ، وكان من بينهم عروس قد فصل عنها عريسها حيث أخذ أسيرا في القتال .. فتأثر صلاح الدين لتكيتها فأمر بمجيء الزوج ورده الى عروسه .

وبعد فتح حصون أخرى ، سار صلاح الدين الى حلب ومنها الى دمشق في اواخر شعبان . فهب اهله جميعهم يستقبلونه بقلوبهم التي امتلأت بحبه . ومكث اياما تعد على الاصابع مع أسرته وأولاده . ثم غادرهم جميعا في اوائل رمضان ومن أجل الجهاد في سبيل الله لم يلتفت الى فراق الاهل والاولاد في شهر الصيام .

وقدم الى (صفد) وقال : ما ننام حتى تنصب المناجيق الخمسة ، وظل طوال الليل ساهرا ، يشرف على العمل وسط الأوحال والأمطار ، حتى طلع الصبح وقد تم نصب المناجيق فقال له سكرتيره بهاء الدين ما قاله رسول الله : « عينان لاتمسهما النار ، عين باتت تحرس في سبيل الله ، وعين بكت من خشية الله » .

وكان صلاح الدين يملك العينين . فقد بات الليل ساهرا في سبيل الله ، ودمعت عيناه عند سماع الحديث ، من خشية الله .

وفي نصف شهر رمضان ، كان العادل بجيشه المصري قد اخضع (الكرك) ، التي ظلت سنين لاتخضع ولا تلين . وقاومت الحصار مرات . أما

هذه المرة فقد اشتد الحصار وطال حتى اضطر رجال حاميتها أن يخرجوا نساءهم وأطفالهم منها من شدة ما هي فيه من الضنك ، وأكلوا لحوم الخيل ، ثم اضطروا الى التسليم .

وعلم صلاح الدين بأمر هؤلاء النفر من النساء والأطفال ففتش عنهم وردهم الى أهلهم أجمعين .

وإثناء هذه الفتوحات السالفة الذكر . أطلق صلاح الدين سراح الملك هجوى وأخذ عليه عهدا أن يغادر الشام الى أوروبا ، وألا يجرد ضده سيفاً مرة أخرى .. وكان رد هجوى على هذا التسامح الكبير ، الذى يمكن أن يلام عليه صلاح الدين ، أن ذهب الى (صور) فاختلف هناك مع كونراد فرحل عنها الى طرابلس وجمع جيشاً وذهب به لمحاصرة عكا ليحررها من صلاح الدين الذى حرره من الأسر منذ قليل .

وخاف كونراد أن يحصل هجوى وحده على فضل محاصرة عكا . فلحق به بجيشه .. انضمت قواتهما .. وبدأت حصار عكا يوم ١٢ رجب سنة ٥٨٥ (٢٨ أغسطس سنة ١١٨٩) . وبعد يومين اثنين كان صلاح الدين عند عكا يحاصر المحاصرين ..

وتريث الطرفان . وكانت تأتيهما الأمداد من حين لآخر وقامت بينهما بضع متاورشات حتى جاء ٥ أكتوبر . قهاجم الصليبيون جيش صلاح الدين . واستطاع فريق منهم أن يسرع فيتقدم عن بقية الجيوش ، ويصل الى معسكر صلاح الدين ، وأمر صلاح الدين فصاح المنادى : يا لاسلام وهجم بكل قوته هجمة صادقة شنتت شمل المهاجمين ثم نكص بقية الجيش على أعقابهم .. وقتل منهم ومن رؤسائهم عدد كبير ..

وجاء الشتاء ، وهطلت الأمطار ، وكثرت الأوجال وتعب كثير من قواد صلاح الدين مرة أخرى . فخالفوه في رأيه .. وكان رأيه ، رغم مرضه ، أن يواصل هجومه ، مستبشراً بالانتصار الذى كسبه . حتى يقضى على البقية الباقية من الأعداء ورأى الكثيرون من القواد أن ينسحبوا الى التلال المجاورة للراحة ، ثم يعودوا الى القتال . وكما فعل في المرة السابقة . نزل عند رأى قواده . ولو انه نفذ رغبته لأكمل انتصاره في اليوم التالى .

وانسحب صلاح الدين بجيشه الى التلال ، وبذلك أعطى الفرصة للأفرنج أن يستعدوا ويحصنوا مواقعهم وهم مطمئنون .

ومما أعد الأفرنج أثناء الشتاء ثلاثة أبراج عالية كالجبال ، من حديد

وخشب والبسوها الجلود التي طليت بدهان يمنع النار من احراقها وكان المسلمون يزدادون فزعا كلما قرب انتهاء الافرنج من اقامتها . وكلما تصوروا ما ستقذفه بهم هذه الابراج من (نار اغريقية) وقذائف جهنمية . فجمع صلاح الدين الصناع والنفاطين المحنكين وحثهم على الاجتهاد في احراقها ووعدهم بمكافآت ثمينة ولكنهم فشلوا وضاعت بهم الحيل .

وتقدم شاب من دمشق ، كان يشتغل في صناعة النحاس يعلن أنه يستطيع احراقها . فهاذا به القوم . وقالوا : أين تذهب أنت أيها الشاب الصغير ، أمام هؤلاء الشيوخ المجربين ولكن صلاح الدين كان يؤمن بالشاب وبقدرته . فأفسح له الطريق وأعد الشاب الدمشقي العربي ، ذلك النوع من النار الاغريقية الذي اخترعه ، أو بعبارة أخرى ، أعد (النار العربية) وأطلق قدرا منها على أحد الأبراج ، فاشتعل وتحول الى جبل من نار وقد ارتفعت ذؤابته نحو السماء ، وفزع الصليبيون ، وصاح المسلمون وهلوا . ورمى البرج الثاني فاشتعل كسابقه ، واشتد الضجيج من الجانبين ، ثم ضرب الثالث فالتهب . وغشى المسلمين سرور شديد ، حتى قفز شيوخهم قبل شبابهم من الفرح . وأعجب صلاح الدين بعبقرية الشاب الدمشقي . وازداد اعجابا به عندما أراد مكافأته بمال وفير ، فأبى الشاب المؤمن قائلا : لا أخذ مكافأة لعمل قمت به في سبيل الله .

وضاعف سرور المسلمين انتصار الأسطول المصرى تحت قيادة لؤلؤة وتمكنه من الوصول الى ميناء عكا وامداد أهل المدينة المحصورين بالمؤونة والذخيرة .

ووسط هذا السرور ، وصلت صلاح الدين أنباء مفزعة عن اقتراب جيوش الألمان الضخمة بقيادة امبراطورهم فردريك برباروس ، فأرسل جزءا من جيشه الى الشمال ليرابطوا على منافذ الشام للالمان القادمين ، وانتهز الافرنج المحاصرون لعكا ، فرصة نقص الجنود الاسلامية ، وهاجموا الجهة التي نقصت جنودها . وهى الميمنة ، وكان عليها الملك العادل ، فدارت المعركة شديدة انتصر فيها المسلمون انتصارا عظيما ، وقتلوا من الإفرنج بضعة آلاف ، وكان بين قتل الافرنج بعض النساء اللاتي حملن السلاح وحاربن به جنبا إلى جنب مع الفرسان .

وفرح المسلمون بالنصر ، وازدادوا فرحا اذ جاءت الأخبار تعلن فشل حملة الامبراطور فردريك لما لقيه جنوده من مرض وتعب وجوع . ومن مقاتلة مملكة الروم

الاسلامية لهم وعلى رأسها فلج ارسلان ، وأخيرا من غرق فردريك نفسه في مياه نهر صغير .

ولكن سرعان ما تغير الموقف بقدوم طلائع الحملة الصليبية الثالثة مكونة من عشرة آلاف جندي غير الفرسان والاشراف وعلى رأسهم الكونت (هنرى دى شمبانيا) ابن أخت ريتشارد ملك الانجليز . وتولى هنرى قيادة الميدان عند عكا . واستمر القتال سجالا ، أظهر فيه المسيحيون ثباتا وإقداما ومهارة في تدمير أسوار عكا بمختلف المدمرات كما أن شجاعة المدينة لم تقل أمام هجمات الافرنج بل كان رجالها يردون عليهم بالقذائف المدمرة والنار الاغريقية المحرقة وكانوا يخرجون المرة بعد الأخرى مندفعين على العدو ، ويعودون بعد ان يوقعوا به خسائر جمة بين اسروقتل .

وصعب الاتصال بين المسلمين المحاصرين في عكا ، والمسلمين محاصري الفرنجة خارجها .. واستعمل الحمام الزاجل في المراسلات .

ومن طريف ما تم لتوصيل المؤن والذخائر الى أهالي عكا أن جماعة من المسلمين ركبوا سفينة من بيروت . وتزويوا بزى الافرنج . فاستطاعوا بذلك أن يختلسوا طريقهم الى ميناء عكا بين أسطول الافرنج .

وكان عوام مسلم يسمى عيسى ، يغوص في الماء ، فلا يظهر الا في الجانب الآخر من مراكب العدو ، وهو يحمل حول وسطه ما يراد توصيله من كتب وحاجيات . وذات ليلة شد على وسطه رسائل للعسكر وثلاثة أكياس فيها ألف دينار ارسلها صلاح الدين نفقة للمحاربين وعام قاصدا المدينة وكانت عاداته أن يطلق حمامة زاجلة عندما يدخل عكا . فانتظر المسلمون وصول الطائر فلم يصل واستشعر القوم هلاكه . وبعد أيام بينما كان بعض المسلمين من عكا على الشاطئ ، اذا بالبحر يقذف غريقا ، فتفقده فوجدوه عيسى العوام ، ووجد على وسطه الذهب .

وهكذا أدى الأمانة ميتا . كما كان يؤديها حيا !

واستمر الحصار ، ومرض صلاح الدين . ولكنه ثبت في الحرب لا يكل ولا يلين ، يجالد المرض ويرتب الجنود بنفسه ميمنة وميسرة وقلبا ، ولا يهتم بمشورة الأطباء ، ونصح الناصحين .

واعتراه مرض شديد ودمامل كثيرة ظهرت عليه من وسطه الى ركبتيه حتى أصبح لا يستطيع الجلوس ، حتى اذا كان في خيمته رقد على جنبه متألما . ومع ذلك كان يركب من بكرة النهار الى صلاة المغرب ، ويطوف على الجنود وكان يقول للمتعبين : اذا ركبت يزول عنى الألم ، حتى أنزل !

ودخل الشتاء الثانى على حصار عكا . وصرف صلاح الدين أكثرية جيشه الى
أوطانهم حتى تنقضى شهور الأمطار والأحوال . وتوقف القتال بين الفريقين الا من
مناوشات صغيرة ..

وفي احدى هذه المناوشات أسربضع عشرات من الافرنج وجرىء بهم الى صلاح
الدين ، وكان بينهم شيخ هرم ، وقد تهدمت أسنانه ، وضعف جسمه ، فقال
للترجمان : قل له ما الذى حملك على المجيء ، وأنت فى هذه السن وكم من ههنا الى
بلادك ! فقال بلادى بينى وبينها عدة أشهر . وأما مجيئى فانما كان للحج الى كنيسة
القيامة فرق له صلاح الدين وأطلقه . وأعادته راكبا على فرس الى معسكر العدو .
أما معسكر العدو فقد قضوا هذا الشتاء فى أشد حالات البؤس والجو ..
فذبخوا الخيل ليتخذوا منها طعامهم . وأكلوا من جثث الحيوانات التى ماتت من
الضعف أو المرض .. وتغذوا على الحشائش كالبهائم والأنعام .. وقرضوا العظام ،
التى خلفتها الكلاب ؟ حتى النبلاء منهم لجأوا الى السرقة والغش والختل ..
واشترى جماعة منهم بآخر نقود فى جمعيتهم ١٣ حبة من الفول ثم وجدوا احداها
فاسدة ، فعادوا مسافة طويلة الى البائع الجشع ليستبدلوا بها حبة طيبة ! هذه كانت
حالهم طوال الشتاء ، حتى تملص نفر منهم مما هم فيه بأن اعتنقوا الاسلام ! ولولا
سفينة قمح جاءتهم أخيرا لماتوا جوعا .

ولكن الشتاء انقضى ، وانقضى معه الكرب الذى كانوا فيه ، فقد أشرفت حملة
ريتشارد (قلب الأسد) على الوصول .

ووصل أولا فيليب ملك فرنسا فى عيد الربيع فى ابريل سنة ١١٩١ ، فقابله
الافرنج بالأغاني والتراتيل ، كأنه ملك من السماء جاء لانقاذهم .

واشتد الحصار ، واشتدت المناوأة ورجحت كفة الافرنج ، وتضاعفت الويلات
على اهل المدينة ولكنهم صبروا على المقاومة صبورا محمودا ، وكانت جنود صلاح
الدين تغير بقدر طاقتها على الافرنج المحاصرين حتى تعرقل تقدمهم نحو احتلال
المدينة .

وفي احدى هذه الغارات ، سرق رجل مسلم طفلا رضيعا له ثلاثة شهور . ولما
فقدته أمه طار عقلها وخرجت الى معسكر المسلمين تصرخ وتساول . وأخلى لها
الطريق . فأسرعت نحو السلطان وكان راكبا ، وبكت بكاء شديدا . فسأل عن
قصتها فأخبروه فرق لها حتى اغرورقت . يميناه بالدمع ، وأمر باحضار الرضيع

فوجدوه قد بيع في السوق ، فاسترده وأمر بدفع ثمنه الى المشتري . وظل في مكانه حتى جىء بالطفل وسلمه الى أمه . فأخذته وهي تبكى وتضمه الى صدرها . ثم أرضعته ، ثم أمر بها فحملت على فرس وألحقت بمعسكر الافرنج مع طفلها . ويحدث هذا كله ، والحرب قائمة ، والمسلمون في عكا يلاقون الشدائد من جراء ذلك الحصار الذي طال وطال دون أن تظهر له نهاية .. ولكن النهاية قربت عندما وصل ريتشارد ملك انجلترا الى عكا في ٨ يونيه .

وبمجرد وصول ريتشارد طلب أن يجتمع في مقابلة خاصة مع صلاح الدين الذي سمع عن شجاعته وعظمته الكثير ، ولكن صلاح الدين رفض قائلا : « ان الملوك لا يجتمعون الا عن قاعدة ، ولا يحسن منهم الاجتماع وقت الحرب في مقابلة ودية ، قبل أن تقرر القاعدة » .

وجاء رسل لريتشارد من جديد ، وحددت مقابلة بينه وبين العادل في الميدان الواقع بين المعسكرين ولكنها أرجئت لمرض ريتشارد ، ورغم هذا المرض كانت المفاوضات تجري بين العادل ورسل ريتشارد الذين تبادلوا مع العادل دعايات عن الصور التي حملوها معهم هدية من ريتشارد الى صلاح الدين ، والدجاج الذي طلبه ملك الانجليز فأرسل اليه .

وجاء رسل ريتشارد يوم ٤ يوليه ، يطلبون فاكهة وتلجا . وفي اليوم التالي جاء رسل ثلاثة وتفاوضوا مع العادل ، واستؤنفت المفاوضات في اليوم الذي بعده ولكن شروط المسيحيين كانت جائزة فلم يتم شيء . وفي الوقت الذي كانت تدور فيه المفاوضات كانت تدور رحى الحرب ، وتشتد وطأة الحصار وينحدر أهل عكا نحو اليأس .

وأخيرا خضعت حامية عكا . وقبل رجالها أن تسلم المدينة للفرنجة بما فيها من الآلات والعدد ، على أن يدفع المسلمون مائتي ألف دينار ، وان يطلقوا أسرى الافرنج وبذلك يخرجون من عكا سالمين لا يمسهم سوء .

وقبلت الحامية هذه الشروط دون رأى صلاح الدين ، الذي يادر عندما علم بها في اعداد هجمة شديدة لانقاذ عكا .. واذا به يرى أعلام المسيحيين ترتفع على أسوار المدينة .. ووقف صلاح الدين كالأم الثكلي والأسى يقطر من فؤاده المكلوم .

وجمع صلاح الدين المال ليعطيه للافرنج وطلب ضمانا كافيا منهم أن يطلقوا أسرى عكا عندما يوفى بشروطهم .. ولكنهم قالوا : اعطنا ما عليك ، ولك عهدنا أن

نعطيك رجالك بعد ذلك . ولكنه كان قد عرف وعودهم ، وجرب عهودهم فتردد عن الدفع الا بعد الضمان ..

وإذا بالوحوش الضواري ، يفتكون بأهل المدينة ، وارتكب ريتشارد قلب الأسد خطأ ظل نقطة سوداء في تاريخه . فقتل ألفين وتسعمائة من المسلمين . في نفس الساحة التي كان يريد أن يقابل فيها الملك العادل للصلح .
أما صلاح الدين فقد ظل نبيلاً ثابت الجأش .. فلم يقتل ما لديه من أسرى المسيحيين ، بل أرسلهم الى دمشق سالمين .

وارتفعت صلبان الافرنج في المدينة ، وعلا رنين الأجراس ، وكذلك ارتفع صخب الفاتحين وانغمسوا في الشهوات والملاذ ، وجاءت النساء من الجزر المجاورة يعرضن أجسادهن ففرق الرجال في العبت والفجور .

وخفت صوت الاسلام في عكا ، وظل خافتاً مائة عام حتى يسر الله لمصر من جديد أن تلعب دورها العظيم فتتهزم الصليبيين في المنصورة ، وتقضى على التتار المخربين وترسل ملكاً آخر لها يدعى صلاح الدين .. هو الملك الأشرف صلاح الدين خليل . فاستعاد عكا بعد مائة عام من خضوعها للفرنجة ، وظل الأشرف صلاح الدين يستولى على مدن الفرنجة في الساحل حتى اختفى آخر صليبي من بلاد المسلمين . وانتقم الأشرف لقتلى المسلمين فدخل دمشق وهو يستعرض رؤوس الصليبيين على أسنة الحراب .



وسار جيش الصليبيين الكبير بحذاء الشاطيء .. وعلى رأسه ريتشارد وحده بعد عودة فيليب الى بلاده يريد عسقلان ليستعيد بعدها اورشليم ، فيحقق حلمه الأكبر . وسار جيش صلاح الدين بازائه . حتى تقابل الجيشان عند (ارسوف) فانهمز المسلمون انهزاما شنيعا . وفروا هاربين . الا صلاح الدين الذي لا يعرف اليأس قلبه الكبير ، فثبت في جماعة قليلة . ثم جمع بسرعة فلول جيشه وتحدى بهم الافرنج فأبوا منازلته وواصلوا طريقهم الى (يافا) . أما هو فعاد الى الرملة كي يحفظ الطريق الى القدس ويحصنه . ثم أمر بهدم عسقلان حتى يجدها الفرنجة قاعا صفصفا فخربت وصلاح الدين يقول : « والله لان أفقد اولادى بأسرهم أحب الى من ان أهيم حجرا واحدا . ولكن اذا أراد الله ذلك لحفظ مصلحة المسلمين ، كان » .
ويوم أن تهدمت عسقلان الجميلة مرض واعتكف من الأسى ، وعلم بمرض سكرتيه بهاء الدين . فلم يكن منه رغم ما فيه من مرض وأسى ، الا أن بعث يسأل عن صحة سكرتيه في ذلك اليوم ثلاث مرات .

ووصل الفرنجة الى يافا ، ولبثوا هناك يستريحون ويعبثون فقد جاءتهم من عكا النساء اللاتي منعهن ريتشارد عند مغادرتها من السير مع الجيش . وانهمك جنوده في يافا في الشهوات مرة أخرى . وكان ريتشارد يحترق الما للهوهم وتحللهم وأخذ يحصن يافا ويبنى امامها المعقل . ولكن المسلمين كانوا يغيرون عليه الفينة بعد الفينة . وكاد قلب الأسد يقع أسيرا في أيدي المسلمين في احدى غاراتهم ، لولا ان فداه أحد فرسانه المخلصين بأن ادعى انه هو الملك . فأسر بدلا منه .

ورغب ريتشارد في الصلح ، لأنه رأى صعوبة في الحصول على بيت المقدس . وشاهد تفكك رجاله ، رغم كثرتهم ، فجرت المفاوضات بينه وبين الملك العادل .. على أن يتزوج العادل من أخت ريتشارد وهي أرملة ملك صقلية . وأن يحكم الزوج والزوجة معا في القدس يفتحان أبوابها للمسلمين والافرنج على السواء . وقد روت الأساطير قصصا عن مقابلات ريتشارد وصلاح الدين ، وعن مبارزاتهما الفردية . وعن عرض ريتشارد على صلاح الدين زواج أخته . ولكن الحقيقة ان البطلين الفارسين ، لم يجتمعا مطلقا في مقابلة وانما اجتمع ريتشارد مع العادل مرات . وكانا اذا اجتمعا ، تجاذبا الحديث في سمرودعابة كأنهما نسيا أنهما في حرب ضروس . وخرج العادل وريتشارد من هذه المفاوضات صديقين حبيين .. وسار الافرنج نحو القدس ، هدفهم الأكبر . وكان العرب يناوشونهم ويأخذونهم من كل جهة .

وفي احدى مناوشاتهم ، رفع ريتشارد عينيه فجأة ، فلمح المدينة المقدسة عن بعد ، وكان ورعا مؤمنا . فحجب بذراعه المدينة عن عينيه ، وبكى تضرعا الى الله .. وهو يدعو : « أتوسل اليك يا رباه ، ألا ترينى مدينتك المقدسة اذا لم أخلصها من أيدي أعدائك » ..

ولكنه لم يخلصها ، ولم يرها بعد هذه المرة ، فلم يكن المسلمون أعداء الله ، ولم يكن صلاح الدين أقل حرصا على بيت المقدس . وكان هو الآخر يصلى ويتضرع فقد اختلف قواده وبات الليل كله ساهرا حتى طلع فجر الجمعة . وفي المسجد صلى ركعتين ودموعه تتساقط على السجادة . وفي المساء جاءت الأنباء ان الفرنجة بعد ان ركبوا عادوا الى معسكراتهم . وفي الصباح جاءت رسالة أخرى تنبئ أنهم رحلوا متقهقرين .

وركب صلاح الدين على رأس رجاله لمشاهدة ابتعادهم وامتلات قلوب المسلمين غبطة وأحس صلاح الدين أن الله قد أجاب دعواته .
وفي الصيف دارت مفاوضات ، ودارت حروب وكانت يافا ميدان هذه الحروب .
وعند يافا ، استطاع ريتشارد بحفنة من الفرسان الأشداء ، أن يهزم جيشا للمسلمين فتوج حروبه في الشرق بهذا النصر المبين .. وعند يافا أيضا هجم المسلمون ثانية على ريتشارد ، ولكنه أبدى فروسية هائلة في المعركة .. واستطاع صدهم بقليل من الفرسان .. وفي هذه المعركة قتل فرسه ، فحارب راجلا ، يضرب ذات اليمين وذات الشمال برمحه - أو بفأسه الدانمركية التي اشتهر بها - وإذا بفارس مسلم يعد ونحوه على فرس أصيل يرغى ويزيد ، ويجر معه فرسا آخر .. معلنا ان صلاح الدين رأى الملك راجلا فبعث اليه بهذين الفرسين السريعين اذ من العار أن يحارب بطل شجاع مثله على الأقدام ! وازداد ريتشارد اعجابا بهذا الرجل الذي لا يحقد عليه وهويقاتله ، فقبل الجوادين ، واستأنف القتال ..

وتوالت الامدادات لجيش صلاح الدين من مصر والموصل وشمال سوريا ..
بينما غادر الفرنسيون ريتشارد الى بلادهم ، واضمحلت معنوية الباقين .. وجاءته الأنباء من انجلترا تعلن ان أخاه يعمل لاغتصاب الملك منه ومرض ريتشارد مرضا شديدا .. ازاء ذلك كله كان لامناص من الصلح ..

واشتهى الملك المحموم الفواكه الثلجة .. فأخذ صلاح الدين يرسل اليه بانتظام ، الكمثرى والخوخ .. والثلج الذي يؤتى به من أعالي الجبال وفي ٢ سبتمبر سنة ١١٩٢ أمضيت معاهدة (الرملة) لتظل نافذة ثلاث سنوات .. ومن شروطها أن تبقى البلاد التي فتحها ريتشارد من عكا الى يافا في أيدي الافرنج .. وأن يسمح للحجاج الفرنج بدخول بيت المقدس وللعرب أن يدخلوا ما شاءوا من بلاد الافرنج ، ولهؤلاء أن يدخلوا بلاد العرب .

وكان يوما مشهودا غشى الناس من الطرفين فيه الفرح والسرور .. واختلط المعسكران ، وذهب المسلمون الى يافا في طلب التجارة وفتحت القدس أبوابها للحجاج الأجانب ..

ولم يكن للعرب قبل حطين ، شبر واحد من الأرض غربي الأردن ، أما بعد صلح الرملة ، فقد أصبحت كل الأرض ملكهم ، إلا رقعة صغيرة عند الساحل من صور الى عكا .. وكانت هذه الرقعة - التي استعادها المصريون فيما بعد - هي نتيجة تلك

الحروب التي دامت قرنين ، وتجمعت لها أوروبا بأسرها ، ومات في سبيلها مئات الألوف من الصليبيين .. واذن فكان لصالح الدين أن يرضى بهذه المعاهدة .. ولكنه لم يقنع بها ، بل مازال ينظر الى الأمام يتطلع الى طرف الاقرب جميعها من بلاد العرب عندما تحين الفرصة .. بل لعله كان يتطلع الى أكثر من ذلك ..

فما زالت تدوى في ذاكرة سكرتيره بهاء الدين .. تلك العبارات التي قالها له وهما في سيرهما على شاطئ البحر من عسقلان الى عكا .. وكان البحر هائجا وموجه كالجبال حتى تخوف بهاء الدين منه .. وفجأة قال لصالح الدين : « أما احكى لك شيئا في نفسى .. انه متى يسر لي الله فتح بقية الساحل ، قسمت البلاد ، وأوصيت وودعت ، وركبت هذا البحر الى جزائره وما وراءه من الأرضين ، واتبعتهم فيها حتى لا أبقى على وجه الأرض من يكفربالله أو أموت » ! فقال بهاء الدين « ليس في الأرض أشجع نفسا من المولى ولا أقوى منه نية في نصردين الله .. ولكن المولى يسير في البحر العساكر .. ويبقى هنا سور الاسلام ومنعته فلا ينبغي له أن يخاطر بنفسه ، فقال لصالح الدين : « أنا استفتيك .. ما أشرف الميتات ؟ » قال : « الموت في سبيل الله .. » فقال لصالح الدين : « وغاية ما أريده أن أموت أشرف الميتات » .

كان صلح الرملة بين لصالح الدين والصليبيين هو آخر عمل قام به لصالح الدين .. وقد فصل « بهاء الدين - ابن شداد » أمين سره مفاوضات الصلح في كتابه المشهور « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسيفية » (١) .
وقد ذكر هذا المؤلف القديم ، ونقل عنه بلغته :

« وكتبت المواضعة (المعاهدة) وذكر فيها شروط الصلح ثلاث سنين من تاريخها ، وهو الأربعاء الثاني والعشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين وخمسائة ورأى السلطان ذلك مصلحة ، لما عرى الناس من الضعف وقلة النفقات ، والشوق الى الأوطان ، ولما شاهد من تقاعدهم عن - يافا - يوم أمرهما بالحملة (الهجوم) فلم يحملوا ، فخاف أن يحتاج اليهم ، فلم يجدهم .. فرأى أن يحييهم (يستبقهم) مدة حتى يستريحوا ، ويتبعوا غير هذه الحالة التي صاروا اليها ، ويعمر البلاد ، ويشحن (يسلح ويحصن) القدس ، بما يقدر عليه من الآلة ، ويتفرغ لعمارتها .

« ... ثم أمر المنادى ينادى في الوطاقات (المعسكرات) والأسواق ، الا أن

(١) حقق هذا الكتاب اخيرا الاستاذ محمد محمود صبيح ونشرته الدار القومية ، وهو من اهم الوثائق التاريخية عن تاريخ هذه الفترة ، وان كانت لها مراجع أخرى كثيرة مثل كتاب الكامل لابن الاثير ومفردج الكروب لابن واصل (حققه المرحوم الدكتور جمال الشيبان) والفتح القدس للعماد الاصفهاني .

الصلح قد انتظم في سائر بلادهم .. فمن شاء من بلادهم أن يدخل في بلادنا فليفعل .
ومن شاء من بلادنا أن يدخل الى بلادهم فليفعل » .

« وأشار رحمة الله عليه (أى صلاح الدين) أن طريق الحج قد فتح من الشام ، ووقع له عزم على الحج في ذلك المجلس (١)، وكنت حاضرا ذلك جميعه .. وكان يوما مشهودا ، غشى الناس من الطائفتين فيه من الفرح والسرور ما لا يعلمه الا الله تعالى ..
ويستطرد ابن شداد :

« والله العظيم ، إن الصلح لم يكن من اثاره (برغبة صلاح الدين) فانه قال لي في بعض محاوراته في الصلح أخاف أن أصالحه ، وما أدري أى شيء يكون منى ، فيغوى هذا العدو وقد بقيت لهم هذه البلاد (الساحلية) فيخرجوا لاسترداد الباقي » ..

« وكان مصلحة في علم الله تعالى ، فانه اتفقت وفاته بعد الصلح ، ولو كان اتفق ذلك في أثناء الوقعات (الحروب) لكن الاسلام في خطر ، فما كان الصلح الا توفيقا وسعادة له » ..

« ... واختلط العسكران (العرب والفرنجة) وذهب جماعة من المسلمين إلى يافا (كانت بقيت في يد الصليبيين) في طلب التجارة ، ووصل خلق عظيم من العدو (أى الصليبيين إلى القدس للحج ، وفتح لهم السلطان الباب ، وأنفذ معهم الخفراء يحفظونهم حتى يردهم إلى يافا » ..

واستدعى صلاح الدين ابنه الملك الظاهر ، وأوصاه وصية عميقة المغزى ، فيما يجب أن يكون بينه وبين الشعب .. روى ابن شداد هذه الوصية بقوله :

حضر الظاهر واستحضرنى ، وأخلى المكان ، ثم قال له :

« أوصيك بتقوى الله تعالى ، فانه رأس كل خير .. وأمرك بما أمر الله به ، فانه سبب نجاتك .. واحذر من الدماء (الانتقام) والدخول فيها ، والتقلد لها ، فإن الدم لا ينام ..

« وأوصيك بحفظ قلوب الرعية ، والنظر في أحوالهم ، فانت أمينى ، وأمين الله عليهم ..

« وأوصيك بحفظ قلوب الأمراء ، وأرباب الدولة والأكابر ، فما بلغت ما بلغت ، الا بمداواة الناس (عدم التعرض لهم) .. والأتحد على أحد .. فان الموت لا يبقى

(١) مات صلاح الدين قبل ان يتمكن من السفر الى مكة حاجا ، وذلك اثناء وجوده في دمشق ، ودفن فيها .

على أحد ..

« وحذار ما بينك وبين الناس ، فإنه لا يغفر الا برضاهم .. وما بينك وبين الله ، يغفره الله بتوبتك اليه ، فإنه كريم » (١).

ونختم رواية ابن شداد بقوله :

« أقام السلطان في القدس يقطع الناس ويعطيهم ، ويتأهب للمسير إلى الديار المصرية .. ولم يزل كذلك حتى صبح عنده اقلاع مركب الانتكار (سفن ريتشارد قلب الأسد ملك الانجليز) متوجها إلى بلاده (انجلترا) . فعند ذلك حرر السلطان عزمه على أن يدخل الساحل ، ويتفقد القلاع البحرية الى بانياس (على ساحل سوريا) ويدخل دمشق المحروسة يقيم بها أياما قلائل ، ويعود إلى القدس الشريف ، سائرا الى الديار المصرية يتفقد أحوالها .

ولكن القدر لم يمهله لاتمام هذه الجولة ، فكانت زياته لدمشق هي آخر عهده بالحياة ..

أجاب المرحوم الدكتور نظير سعداوى في كتابه الحرب والسلام ، على السؤال : هل حقق صلح الرملة السلام بين العرب والصليبيين ؟ .. قال :

والاجابة على هذا السؤال تستوجب معرفة ثلاث حقائق : الأولى أن هدنة الرملة كفلت السلام العالمى لفترة موقوتة حددتها بثلاث سنوات وقليل من الأشهر ، وأجازت لكل من المتعاقدين عليها ، وهما الجانب الإسلامى والجانب المسيحى حق اعلان الحرب على الجانب الآخر بعد انقضاء مدة الهدنة وتتضح هذه الحقيقة من تصريح الملك ريتشارد للسلطان صلاح الدين ، حين دعاه صلاح الدين لزيارة مدينة بيت المقدس قبل أن يغادر الشرق يوم ٩ أكتوبر سنة ١١٩٢ عائدا إلى بلاده ، فرفض ريتشارد الدعوة ، بحجة أنه لا يستطيع رؤية المدينة التى غلقت أبوابها في وجهه ، غير أنه وعد صلاح الدين بأنه سوف يعود مرة أخرى إلى الشرق لمحاربته ، واستخلاص مدينة بيت المقدس من المسلمين بعد انتهاء أجل الهدنة ..

وثانى تلك الحقائق ، أن الكنيسة البابوية وهى المسئول الأول عن هلاك البشرية ، واشعال نيران الحروب الصليبية بين الشرق والغرب لم تقر امتلاك المسلمين للمدينة المقدسة ولم تنزل تنادى بضرورة استرجاعها منهم .. فغداة وفاة السلطان صلاح الدين بعث البابا أنوسنت الثالث رسالة للسلطان الملك العادل

(١) هذا المعنى من اجل المعانى ، فإن الله تعالى بفضله وكرمه ، يغفر ذنوب الناس إذا تابوا . أما النفس فلا يسامح احدهم احدا إلا إذا خلصت نفوسهم وصفت .. وخلص النفوس وصلاحها امر صعب المنال .

خليفة صلاح الدين راجيا فيها معاملة الأسرى المسيحيين بالحسنى ، ومبديا أسفه لفقدان بيت المقدس ، وناصحا العادل بإعادتها الى المسيحيين .. اذ لا فائدة ترتجى من بقائها تحت سلطان المسلمين ، مادامت تكبدهم خسائر فادحة وتعرضهم لأخطار لا قبل لهم بها .

وكانت الحقائق وأخرها ، بقاء شريط ساحل ضيق من أرض العرب والمسلمين بالشام في قبضة الصليبيين أملا لا يتفق وطبيعة الأشياء ، إذ صحت عزيمة العرب على تحرير كل شبر من أراضيهم وعودة المشردين منهم إلى أوطانهم ومنازلهم التي اغتصبها الصليبيون وارجاع الأوضاع السياسية ببلادهم إلى ما كانت عليه قبل ١٠٩٦م « فالبلاد في الأصل بلادهم واستيلاء العدو كان طارئاً عليها لضعف من كان فيها من المسلمين وقتذاك » على قول السلطان صلاح الدين ..

وفي مستهل سنة ١١٩٥ أي بعد انتهاء المدة التي حددها صلح الرملة ، مضى البابا كلستيان الثالث في تعبئة الشعور العام الأوروبي ضد الشرق ، والدعوة للقيام بحملة مقدسة لاستخلاص مدينة بيت المقدس من المسلمين ، ولم يستجب لدعوته أحد سوى هنرى السادس إمبراطور ألمانيا صاحب الأطماع التوسعية وسياسة السيطرة العلمانية والعدوانية ضد الشرق البيزنطى وكنيسته بنوع خاص ..

وصلت حملة هنرى السادس عكا في سبتمبر سنة ١١٩٧م ولم تجد ترحيبا من الصليبيين الشرقيين ، ولم تحرز انتصارات حاسمة على القوات الأيوبية ، فأسرعت إلى عقد الصلح مع السلطان الملك العادل في فبراير سنة ١١٩٨ لمدة ثلاث سنوات وعادت خاسرة إلى أوروبا ..

وخيم السلام العام بين الشرق والغرب إلى ما بعد فوات تلك المدة بقليل أى حتى عام ١٢٠٣م ، وهى السنة التى خرجت فيها الحملة الصليبية المعروفة بالرابعة الى الشرق ، وتحولت عن هدفها الحقيقى وهو مصر ، واتجهت الى مدينة القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية واستولت عليها فى ١٢ أبريل سنة ١٢٠٣ .. ثم وصلت فلولها عكا .. ومنها رجعت الى القرى العربية الواقعة غربى نهر الأردن وحالت القوات المصرية السورية دون تقدمها نحو بيت المقدس ، ولما كان الملك العادل قد بلغ من الكبر عتيا ، ومن طول وثقل الجهاد ضعفا ، فانه مال الى اقرار السلام ، وعقد صلحا مع الصليبيين فى سبتمبر سنة ١٢٠٤م (٦٠٠ هـ) استردوا بمقتضاه يافا ورام الله والرملة ..

وإزاء هذا الفشل المتكرر المخزى فى محاولات استرداد بيت المقدس ، تجلت للعدو حقيقة تاريخية جغرافية هامة أكدتها سابق تجاربهم وخبراتهم بالشرق

العربي ، وهي أن مصر ومصر فقط مفتاح الشرق وقاعدته الحصينة ، التي تمد جيوشه بالمؤن والامدادات المادية والمعنوية وأنه لا فائدة البتة من محاولات استرداد بيت المقدس طالما كانت مصر خارج نطاق النفوذ الصليبي .. على أن التفكير في غزو مصر قديم قدم الحملات الصليبية على الشرق ، يرجع إلى أيام الملك جعفرى مؤسس مملكة بيت المقدس الصليبية ، الذى وضع مشروعا لغزو مصر ، وود فى عام ١١٠٠ بأن يتنازل عن بيت المقدس الى البطريرك متى تم له فتح مدينة القاهرة .. لكنه مات فى نفس العام ، وترك تنفيذ مشروعه لأخيه بلدوين الأول ، المعروف فى التواريخ العربية باسم بردويل ، والذى مهد السبيل للوصول إلى هدفه القاهرة بالاستيلاء على ثغرايله المشرف على البحر الأحمر .. وشيد سنة ١١١٦ م حصن الشوبك الواقع فى منتصف الطريق ، بين ذلك الثغر جنوبا والبحر الميت شمالا ، للسيطرة على طريق القوافل الممتد من القاهرة الى دمشق مارا بالبحر الأحمر ، ثم أمعن بلدوين هذا ، عام وفاته (١١١٨ م) فى سيره على امتداد ساحل مصر الشمالى ، وأوغل فى الأراضى المصرية فعلا حتى بلغ مدينة الفرما ، وتشهد بذلك أرض سبخة البردويل التى بين غزة وبورسعيد الحالية والتى جاء اسمها من اسم ذلك الملك الصليبي الذى هلك عندها من أكلة سمك (٥١٢ هـ) وبعده تسلفت محاولات صليبية برية عديدة عن طريق الوديان فى شبه جزيرة سيناء ، حيث الآن مكان اسمه الأربعين اشارة الى أربعين فارسا صليبيا هلكوا فى هذا المكان وهم فى طريقهم الى غزومصر ..

ودلت الأحداث المتتالية والمعارك الدائرة ، بين المسلمين والصليبيين فى بلاد الشام ، على عهد السلطان نور الدين محمود والملك أمورى على أهمية امتلاك مصر فى تقرير نتائج ذلك الصراع ، وجرى التسابق بينهما منذ ١١٦٣ على دخول القاهرة ، وكان طبيعيا أن يتحقق حلم المصريين والسوريين فى قيام وحدة بينهما ، قادرة على تنسيق عمليات الجهاد والكفاح ضد الصليبيين وصار نور الدين سيد البلدين سنة ١١٧١ م بعد وفاة الخليفة الفاطمى العاضد .. ثم مات نور الدين سنة ١١٧٤ م وقبض صلاح الدين على زمام الوحدة فى الجبهة العربية الاسلامية وبزت على عهده أكثر من محاولة صليبية لغزومصر وامتلاكها .. سلكت طرق البحر حينا ، وطرق البر حينا آخر .. نزل أولها على دمياط « عقيلة الاسلام وثغر الديار المصرية » فى أكتوبر سنة ١١٦٩ .. وطمع الصليبيون فى أن يملكوها ويتخذوها « ركابا للاستيلاء على مصر » .. على قول المراجع .. فاجتمعوا عليها وحاصروها لأول عهد صلاح الدين بالوزارة المصرية ، فأفسد الأمر عليهم بحسن تدبيره ، واتحاد السوريين معه ، إذ سير نور الدين اليه العساكر ارسالا يتلو بعضهم بعضا .. وشبه ابن الأثير تلك

الحملة في فشلها بالنعامة « خرجت تطلب قرنين فرجعت بلا أذنين » وقصدت المحاولة الثانية ثغر الاسكندرية مركز الاكبار من ولاية الحرب في يونيو سنة ١١٧٤م في أسطول كبير .. ونزل قدوم صلاح الدين الى الثغر على العدو نزول الصاعقة ، فولوا هاربين في عرض البحر ، وتعتبر مصر الهدف الذي تطلع اليه الزعماء الثلاثة الكبار للحملة الصليبية المعروفة بالثالثة ، عملا بنصيحة المجلس البابوى .. ويبدو أن ريتشارد الأول كان أكثرهم تحمسا لفكرة غزو مصر ففى يوليو سنة ١١٩٢ تلقى النصيحة من مستشاريه بأن القاهرة لا بيت المقدس ، هى الجبهة التى ينبغى مهاجمتها ، بعد أن درسوا التقارير الواردة اليهم من جواسيسهم وبعد أن وقفوا على غنى مصر الوفير من القافلة المصرية الكبيرة الذاهبة من القاهرة الى القدس والتى انقض عليها ريتشارد أثناء استراحتها على ماء الخويلة فجر يوم الأحد ٢٣ يونيو ١١٩٢ ، على أن محاولة ريتشارد لم تتعد مرحلة التفكير والدراسة بسبب التسوية السلمية التى تمت بينه وبين صلاح الدين حول المشكلة الصليبية في صلح الرملة في سبتمبر سنة ١١٩٢م ..

وكيفما كان تاريخ المحاولات الصليبية لغزو مصر ، فإن ميادين القتال الفعل بين الشرق والغرب ، تحولت من الشام ومدنه منذ نهاية الربع الأول من القرن الثالث عشر الميلادى الى وادى النيل وشواطئه وظلت كذلك حتى نهاية الحروب الصليبية في منتصف القرن الخامس عشر .. ولئن تنفست مدن الشام قليلا من ويلات تلك الحروب فانها رزئت بالفتن الأهلية والانقسامات والحروب الداخلية بين ملوك بنى أيوب .. وكان طبيعيا بعد وفاة صلاح الدين ، أن ينصرف خليفته السلطان الملك العادل - ومقره دمشق - وولدى الملك الكامل ونائبه بمصر الى الاصلاحات الداخلية وتنمية موارد البلاد الاقتصادية وخاصة التجارية منها ، فعقد عدة معاهدات تجارية مع المدن الايطالية زاد بفضلها عدد التجار الوافدين من تلك المدن الى مصر سنة ١٢١٥م على الثلاثمائة تاجر .. ويدل هذا الرقم على ما اتصف به السلطان العادل الأيوبي من حسن النية ، وسياسة التسامح .. والصدأقة الصافية التى جرى عليها مع تجار الجمهوريات الايطالية والرغبة الصادقة في تنشيط التجارة معهم ..

رددت أجواء دمشق .. أذان الفجر .. عميقا حزينا في يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة ٥٨٩ (٤ مارس سنة ١١٩٣م) .. بينما رقد الملك الذى ساد العالم الشرقى بأسره يلفظ أنفاسه الأخيرة ..

وكان الى جانبه الشيخ أبو جعفر ، يردد « هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة ، هو الرحمن الرحيم » .

فتمتم صلاح الدين « صحيح » .

وأضاء وجهه ، وسلم روحه لربه ..

ومات وعمره خمسة وخمسون عاما .. وكان له سبعة عشر ولدا ، وبنت واحدة .. ولكنه صرف كل أمواله فى الاحسان وفى الجهاد .. فلما مات وجد أنه لم يخلف الا سبعة وأربعين درهما من الفضة ، وجراما واحدا من الذهب .. ولم يخلف دارا ولا عقارا ولا مزرعة ولا بستانا .

فى عام ٦١٤ هـ (١٢١٧ م) اجتمع بعض أمراء الفرنجة فى روما مقر البابا وفى غيرها من البلاد المسيحية ، وتعاهدوا على انتزاع مدينة القدس من المسلمين .. فخرج الملك العادل من مصر على رأس جيشه ونزل لدى نابلس ، فسار اليه الفرنجة .. ولما لم يكن بصحبة السلطان من الجند ما يقوى على مقاتلتهم ، فقد اندفع أمامهم الى عقبة فيق .

وعندما استقر العادل بمرج الصفر كتب الى أمراء الشرق الاسلامى ليقدموا اليه .. فكان أول من قدم منهم أسد الدين شيركوه ملك حمص . ولقد نازل الفرنج قلعة الطور على مقربة من عكا ولكن لم يتمكنوا من الاستيلاء عليها فانصرفوا عنها الى عكا .. وعزموا على التوجه الى مصر فركبوا بجمعهم البحر وانطلقوا الى دمياط فى (٦١٥ هـ - ١٢١٨ م) . وليس من موضوعات كتابنا أن نؤرخ للحروب الصليبية كلها . ولكن يهمنى هنا ما اتصل بفلسطين ، والقدس بصفة خاصة . ولكن هذه المرحلة وكل مرحلة سبقتها وكل مرحلة تليها ، ربطت بين القدس والقاهرة . وكلما عزت القاهرة توفرت الحماية للقدس وابتعد عنها الطامعون .. هذه حكمة أزلية .. وقدر ومصير ..

ويكفى هنا أن نذكر وصفا لمرارة الهزيمة التى لحقت بالصليبيين فى دمياط .

يروى « جوانفيل » قصة اعتقال الملك لويس التاسع كما سمعها من شفقتى مولاه ، فيقول :

« تخلف الملك عن فرقته ، وانضم الى فرقة السير « والتر دى شاتيلون » الذى يقود مؤخرة الجيش ، وكان ممتطيا صهوة جواد صغير ، ولم يكن معه من رجاله سوى ذلك الفارس الأمين « سير جيوفرى سيريجين » الذى دافع عنه

حتى بلغ الاعياء بالملك مبلغا قاتلا .. فتوقف الملك ومن معه على مقربة من بلدة تدعى « منية أبى عبدالله » مسيرة بضعة فراسخ فى الشمال من المنصورة ، وهناك أحاط بهم العدو ، وأصبحت المقاومة اذ ذاك عبثا .. فسلموا أنفسهم بعد أن أمنهم العدو على حياتهم ، وكان عددهم يربو على الخمسمائة ، ومعظمهم من الفرسان النبلاء .. وفى الحال أخذ المصريون الملك على احدى السفن ونقلوه الى المنصورة حيث اعتقل فى دار ابراهيم بن لقمان كاتم سر السلطان .. وهناك ألقوه مقيدا بالسلاسل ، وأبقوه فى حراسة الخصى صبيح الذى أمر بأن يعامله بما يليق بمقامه من التجلة والاحترام » ..

هذه الدار التى أسرف فيها الملك لويس التاسع لاتزال باقية بالمنصورة بجوار مسجد الشيخ المواقى ..

وتذكر المصادر العربية أن السلطان أرسل عباءة الملك الى نائب دمشق جمال الدين موسى بن يغمور فلبسها ..

وحدث بعد ذلك أن اغتال أحد المماليك البحريين السلطان . وبموت توران شاه ، انتهى حكم الأسرة الأيوبية فى مصر ، وقد خلفها فى حكم مصر سلاطين المماليك - ولم يكن مبدأ الوراثة قاعدة متبعة فى ولاية العرش بينهم ، فكان الحكم لأعظمهم نفوذا ، وأكثرهم أتباعا .. وان حدث أحيانا أن تولى العرش عدد من أفراد أسرة واحدة كأسرة قلاوون مثلا .

وقرر المماليك أن لايسمحوا للملك لويس بمغادرة مصر الا اذا دفعت زوجته الملكة - وكانت لاتزال فى دمياط - مبلغ أربعمائة ألف دينار (تساوى حوالى ٢٣٠٠٠٠٠ جنيه) فدية له .. وضممانة لذلك قرروا الاحتفاظ بجميع المرضى الذين كانوا فى دمياط بالاضافة الى المخازن والأسلحة التى تخص الملك .

ومرة أخرى يبدو للصليبيين كأنما المخاوف قد انتهت .. ولكن كان الخطر مع ذلك لايزال قائما ، اذ علق المسلمون رضاهم بالصلح على أن يقسم الملك بصيغة معينة على الشروط التى انتهوا اليها .. فلما سمع الملك هذه الصيغة التى وضعت بواسطة بعض المسيحيين المرتدين هالته بعض جمل فيها وبادر الى رفضها رفضا باتا .. اذ جاء فيها « ان الملك لويس اذا نكث عهده ، فانه يعتبر قد حلف زورا ، ويكون ملعونا كمسيحى أنكر الله والمعمودية والاخلاص و الايمان » .

ثم يقول جرانفيل فى مرارة « لا أدرى ان كان الملك قد فاه بالقسم أم لا » .. ولكن كيفما كان الأمر ، فقد وافق القواد وأمراء الأسطول على ما أقسم به

الملك .. وأرسل « السير جيوفرى دى سيريجين » الى دمياط أمرا باخلاء المدينة للعرب فلما تم الجلاء ، كان من المتعين بعدئذ أن يطلق سراح الملك مع الأسرى الآخرين ..

وكان من الشروط التى قبلت بمقتضى القسم ، أن يدفع الملك قبل أن يغادر وادى النيل مبلغ مائتى ألف دينار ، أما الباقي وقدره مائتا ألف دينار أخرى فيسدد من عكا ، وضمانا لدفع هذا المبلغ قرر المسلمون الاحتفاظ بجميع المرضى الذين يعالجون في دمياط .. أما كل المخازن والأسلحة وآلات القتال واللحوم المملحة الموجودة فيها ، فاشتراط ألا تعاد هذه كلها الى الملك الا اذا دفع باقى الفدية .

والظاهر أن بعض أمراء المسلمين ترددوا في قبول الفدية من الملك الأسير .. ولكن تم الاتفاق أخيرا على تسليم دمياط بكل ما فيها .. وعلى أثر إبرام هذا الاتفاق ، نقل الملك وفي معيته بعض النبلاء الى فارس كور وتسلم المصريون دمياط ، بعد أن ظلت في يد الفرنجة أحد عشر شهرا وتسعة أيام .. وأفرج عن الملك لويس بمجرد أن فدى نفسه بأربعمائة ألف دينار ، كما أدخل سبيل أخيه وزوجته ومن بقى من أصحابه وسائر الأسرى الذين بلغ عددهم حوالى ١٢٠٠٠ أسير(١) .

أصبح الملك في أمان .. غير أن شقيقه « الكونت دى بواتيه » كان لا يزال في يد العرب ، وكان لويس متلهفا على أن يدفع الفدية في سبيل إطلاق سراحه ... وفعلا أرسل المال من لدن الملكة التى غادرت دمياط قبل الجلاء عنها .. وقد استغرق دفع هذه النقود سحابة يومين كاملين .. وكان تقديرها بالوزنات ، وكل وزنة تبلغ عشرة آلاف قطعة من الذهب (حوالى ٥٧٥٠ جنيها) .. وفي مساء اليوم التالى وجد أتباع الملك أنه مازال باقيا عليهم ثلاثون ألف قطعة ذهبية ناقصة من مبلغ الفدية .. فنصح جوانفيل للويس بأن يقترض هذا المبلغ من فرسان المعبد ، ولكن « الأب دى تريكور » رئيس هؤلاء الفرسان اعترض مؤنبا جوانفيل لآبائه مثل هذا الاقتراح فأخذ باقى النقوية بالقوة وسلمها للعرب .. فلما توردت بأكملها تم عندئذ تنفيذ القسم الذى قطعه لويس على نفسه ، فأبحر على سفينته الخاصة الى عكا في ٧ مايو سنة ١٢٥٠ .

(١) كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك .

وفيما كان الأمراء يتفاوضون مع الملك سأله حسام الدين عن عدد جنوده ، حينما نزل الى دمياط ، فأجابه بأنهم كانوا تسعة آلاف وخمسمائة فارس ومائة وثلاثين ألفا من المشاة ، غير الخدم والعمال ، ويرى عبدالرحمن زكى ان هذا التعداد مبالغ فيه جدا فاما ان يكون الملك لويس قد أراد تضخيم قوته ، واما ان المؤرخين العرب بالغوا في عدد أعدائهم ليزيدوا من قيمة انتصارهم . وعلى أى حال فان تلك الحملة الصليبية الكبيرة التى نزلت الى أرض مصر فقدت معظم قواتها فى وادى النيل .. فقد ذكرت المصادر التاريخية أن الأسرى الذين أطلق سراحهم لم يزيدوا على اثنى عشر ألف رجل وعشر نساء .. وحتى هؤلاء لم يطلق سراحهم كلهم سريعا ، بل ان بعضهم ظل راسفا فى اغلال الأسر وقتا طويلا ، ومن المحتمل أن عددا كبيرا من الجنود الصليبيين قد اعتنقوا الاسلام واستقروا بأرض مصر .

تلك كانت نتيجة هذه الحملة الشهيرة ، وقد كانت الروح الصليبية - فى ذلك الوقت - تكابد طور التزع الأخير ، فلا عجب أن عجلت هذه الحملة بموتها . وسبب مصرعها أن المملكة اللاتينية فى الأرض المقدسة مالبثت بعد فترة وجيزة ان تقلص ظلها ثم زالت .. وكان من أهم أسباب زوالها النهائى نشاط سلاطين المماليك فى قتال الصليبيين وامعانهم فى العمل على طردهم من الشرق الأدنى .

فما مرت احدى واربعون سنة على نزوح لويس التاسع من مصر ، حتى قام سلطانها الاشرف خليل باحتلال عكا فى ١٨ مايو سنة ١٢٨١ ، وقضى على البقية الباقية من سلطة الفرنجة فى بيت المقدس .

كان بين الوثائق التى يمكن أن ترسم صورة لجوتلك الأيام ، خطاب كتبه لويس التاسع الذى قاد أولى الحملات الصليبية نحو الشرق - الى البطريرك المارونى فى ذلك الوقت ، وهو البطريرك سمعان ، ونص هذا الخطاب ، كما رواه المطران دربان فى كتابه المشهور عن أصل الطائفة المارونية هو كما يلى : الى بطريرك هذه الطائفة وأساقفتها ..

لقد أفعم قلبنا سرورا عند رؤيتنا ولدكم سمعان ، أتيا الينا من قبلكم على رأس ٢٥ ألف رجل يبلغنا مشاعركم ويقدم الينا الهدايا فضلا عن الخيل الكريمة التى أرسلتموها الينا ، فنؤكد لكم ان المودة الصادقة التى أخذنا نشعر بها بحرارة الموارنة قد زادت فينا ، ونحن على يقين من أن هذه الأمة التى

وجدناها قائمة تحت اسم القديس مارون ، انما هي قسم من الامة الفرنسية ، لأن اخلاصها للفرنساويين أشبه باخلاص الفرنسيين بعضهم لبعض ، ومن ثم فمن العدل أن تتمتعوا أنتم وسائر الموارنة بنفس الحماية التي يتمتع بها الفرنسيون لدينا وان تقبلوا في الوظائف نظيرهم تمامًا .

ونحن نحرصك أيها الأمير الشريف على بذل الغيرة والجهد في سبيل سعادة سكان لبنان وعلى العناية باقامة اشرف من الأكثر أهلية بينكم كما يعمل عادة في فرنسا ، وأنتم أيها السيد البطريرك والسادة الاساقفة وسائر الاكليروس ، الشعب الماروني ، مع أميركم الشريف أيضا فاننا ننظر بمزيد من الرضا الى تعلقكم الثابت بالديانة الكاثوليكية والى احترامكم لرئيس الكنيسة خليفة القديس بطرس . ونحضكم على حفظ هذا الاحترام وعلى الثبات على ايمانكم بلا انقسام .

أما نحن وكل الذين يخلفوننا على عرش فرنسا فنتعهد بأن نوليكم أنتم وشعبكم نفس الحماية التي للفرنساويين أنفسهم وأن نعمل على الدوام كل ما هو ضروري لسعادتكم .

لويس التاسع

٢١ مايو ١٢٥٠

كانت فرنسا في ذلك الوقت تحاول ان تخفى مطامعها ، وراء ستار انها حامية الدين وان ملوكها هم سيوف الكاثوليكية (١) . ولكن القرن السابع عشر يجيء ومطامع فرنسا في الشرق لم تتغير ، وصلاتها به لم تنقطع ومحاولتها التسلل اليه لم تتوقف . ففي عهد لويس الرابع عشر كانت فرنسا تدعى لنفسها أنها حامية التجارة الأوروبية في المشرق ، نجد انها مازالت تتجه الى الطائفية لتدخل في جبل لبنان تحاول ان تتخذها ركيزة ورأس جسر وذلك باسم الدين . هكذا نجد لويس الرابع عشر يعلن الحماية الفرنسية على الطائفة المارونية ، ويسجل هذا في وثيقة رسمية نقلها بالنص عن مجموعة الوثائق التي نشرها معهد دراسات الشرق الأوسط في جامعة كولومبيا سنة ١٩٥٦ .

ونص هذه الوثيقة كما يلي :

نحن لويس بعناية الله ، ملك فرنسا ونافار

(١) عن بحث لمحمد حسنين هيكل في جريدة الاهرام بتاريخ ٣/٣/١٩٦١ .

الى كل من يصله هذا

ليكن معلوما أنه بنصحية الملكة الوصية ، أمنا الشريفة ، نضع تحت حمايتنا ورعايتنا الخاصة - من ساعة توقيع هذا - بطريك ورعايا واكليروس المارونية المسيحية الذين يعيشون ويعملون في جبل لبنان ..

واننا لنرغب اليهم أن يعرفوا ذلك في كل الأوقات ، ومن أجل ذلك فقد أمرنا مستشارنا وسفيرنا في سوريا ، وكل من يليه في منصبه لكي يظهر لهم كمجموعة أو كأفراد كل عناية وكل اهتمام وكل حماية ، سواء أمام الباب العالي أو أمام أية جهة أخرى ، بحيث يتأكد أنه لايمسهم ضرر ، بل العكس ان تكون لهم دائما الحرية لممارسة شعائر دينهم وأعمالهم .

واننا نعهد الى قناصل فرنسا ونواب القناصل في كل موانئ سوريا أو الى غيرهم ممن يحملون راية فرنسا ، الآن أو في المستقبل ، أن يظهروا كل مودة في طاعتهم الى البطريرك والى المسيحيين الموارنة في جبل لبنان وان يساعدوا على ركوب السفن كل مسيحي ماروني يريد السفر الى الاراضي المسيحية سواء للدرس أو لأى عمل آخر ، دون تقاضى أية رسوم الا ما يقدرون عليه ، وأن يعاملوهم بمنتهى الرقة والاحترام .

ونحن نطلب ، بل ونريد ، الى جميع سادة وباشوات وضباط صاحب السمو ان يظهروا مودتهم ومساعدتهم لبطريك الموارنة ورعاياه ، ونتعهد ان نعامل بالمثل ، من يحملون الينا توصيات منهم (١) ..

لويس الرابع عشر

٢٨ أبريل ١٦٤٩

وفي تاريخ الأمير حيدر أن الافرنج بعد صلح الرملة عادت اليهم طبيعة سفك الدماء فلما استتبأ ريتشارد قلب الأسد رد الصليب اليه ، أخذ ألفين وسبعمائة من أسرى المسلمين وقتلهم على رأس تل في عكا .. وكان عسكر الانجليز يبقرون بطون المقتولين ينيشون فيها عن شيء من الجواهر والذهب لما أشيع بينهم أن هؤلاء الأسرى ابتلعوا ثرواتهم واختزنوها في بطونهم .. ومن الواضح ان حربا طويلة الأمد امتدت كل هذه السنين ، لم تخلف وراءها الا الخراب والدمار في معالم الحضارة من مدن وزراعات وصناعات ..

(١) اذا كان هذا هو اتجاه فرنسا ونيتها . في الماضي فما لاشك فيه انه اتجاه من جانب واحد . فطائفة المارون صنادقون في عربيتهم .

ولعل مكاتبات صلاح الدين الى ريتشارد تدل على معنى الوطن العربى فى قلب هذا الحاكم العظيم .. يقول صلاح الدين :

« القدس لنا كما هو لكم .. وهو عندنا أعظم مما هو عندكم .. فانه مسرى نبينا ، ومجتمع الملائكة : فلا يتصور أن نازل عنه .. ولا نقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين .. واما البلاد فهى أيضا لنا فى الأصل واستيلائكم كان طارئا عليها لضعف من كان فيها من المسلمين » ..

ولقد أدرك العرب من هذه الحروب .. كيف انه عندما اتحدت همتهم وقيادتهم تمكنوا من تحقيق أغراضهم والنصر فى هذه المعارك الكبرى .. وان السبب الأقوى والأهم الذى أدى الى هزيمة هذه الغارة الاستعمارية الكبرى ، هو عدم وحدة وتجانس القائمين بها .. فقد كانت تحفهم المطامع وكانت هذه المطامع بذاتها تفرقهم ..

يقول جوستاف ليبون فى نتائج الحروب الصليبية :

انها كانت عميقة من حيث غايتها الأولى ، وهى الاستيلاء على فلسطين .. فان الصليبيين على ما أراقوا من الدماء ، وبذلوا من الأموال رجعوا بعد قرنين بخفى حنين .. اما من حيث النتائج المباشرة فى هذه الحروب ، فيمكن ان يقال ان ثقافتها عظيمة .. وذلك انه كان الاختلاط بالشرق ٢٠٠ « مائتى » سنة من العوامل القوية فى انتشار المدنية فى أوروبا .. ونحن نعرف أن الشرق بفضل العرب كان ينعم اذ ذاك بمدنية زاهرة ، على حين كان الغرب غارقا فى التوحش .. وقد استنتجنا من مجموع أعمال الصليبيين انهم كانوا فى كل مكان متوحشين حقيقة ، ينهبون ويذبحون لافرق عندهم بين عدوهم وصديقهم .. خربوا فى القسطنطينية أثمن كنوز العاديات اليونانية واللاتينية ولم يربح الشرق باحتكاكه بهؤلاء البرابرة من الصليبيين ، بل خسر وأثمرت الحروب كراهة العرب للغربيين كراهة دامت قرونا ..

وهكذا ارجع ليبون الخلافات الدينية الكبرى فى أوروبا بعد ذلك ، وماجرت اليه من مذابح الى هذه الحروب فى الشرق ومعاركها الوحشية ..

وما ان انتهت الحروب الصليبية الى هذه النتيجة ، بهزيمة حربية ، دفع الغرب ثمنها ، كما دفع العرب ثمن نصرهم ، حتى تعالت صيحات ، ورسمت خطط أخرى ، بأن تبدأ حركات تسرب غربى حول العالم العربى من الخلف .. من آسيا .. وان تسعى الى ذلك بعثات تنشر دين المسيح ، حتى اذا أقبلت وثنية

آسيا ، أمكن حشد القوات التي تغزو العرب ، وتضع يدها على كل الأماكن المقدسة .. وهذه الأماكن هي : بيت المقدس لابعاد العرب عنها والاستيلاء على مكة والمدينة لتخريبهما !!

يجمل الأستاذ باركر مؤرخ الحروب الصليبية هذه الخطة ، فيقول : « لم تجد أوروبا في الحروب الصليبية سبيلا للاتحاد الداخلي فحسب ومؤثرا جديدا في شتى مرافق حياتها الداخلية ، ولكنها كسبت عن سبيلها نظرة جديدة واسعة للحياة .. وقد كان هذا الاتساع في مدى النظر أكبر ما كسبته أوروبا من الحروب الصليبية ، اذا أضفنا اليها نمو روح الكشف وتقدم الجغرافيا .

« بدأ عصر الكشف الآسيوي الزاهر في القرن الثالث عشر وهو يعادل عصر الكشف الأمريكي في القرن السادس عشر - ان لم يساوه - وانتهى بعد ذلك بقرن من الزمان .. وكانت آسيا أثناء هذه الفترة تجمع امبراطورية مغولية مفككة القوى تمتد من القرم وتبريز وبخارى ، وسمرقند الى بكين وهنكاو .. وان المغول الذين احتفظوا بعقيدتهم الشامانية متسامحين مع العقائد الأخرى لم يكونوا هم أنفسهم مسيحيين ولكن بلادهم ضمت نفرا من هؤلاء فرجا المتفائلون من المسيحيين تحويلهم الى النصرانية وعزز هذا الرجاء ميل الاوربيين التجارى الذى دفع بهم الى البحث في بلاد المغول عن مراكز التجارة الآسيوية .. وقد كانت البعثات التبشيرية التي أرسلت الى بلاد المغول ترجو من وراء رحلتها أن تحقق أمل الصليبيين وتستعيد بيت المقدس الى الأبد .. وقد كان بين أعضاء هذه البعثات أفراد واسعوا الخيال يقدرون أن البعثة التبشيرية أبعد أثرا من الحملة الحربية ، ومن هنا أصبح تنصير آسيا غاية قائمة بذاتها يرمى من ورائها أمثال هؤلاء المتفائلين أن يملأوا الدنيا بعلم الله كما هي مملوءة بماء المحيطات .. وقد وجدت هذه البعثات عونا طيبا في تسامح المغول وفي وجود مدارس النسطوريين في آسيا ، فاستطاع جون مونت كورفينو مؤسس الكنيسة اللاتينية في بكين - في أوائل القرن الرابع عشر ان يصبح أسقفا لبكين وكان معه ثلاثة من الرهبان الفرنسيسكان المساعدين وسار التاجر الايطالى في ظل البعثة التبشيرية كما كان ملاحو الموانىء الايطالية يرافقون الحملة الصليبية ، ولم يسفر ذلك عن رحلات « آل بولو » وحدهم بل استطاعت شركة ملاحه جنوبية أن تمخر مياه بحر قزوين ، واستقر قنصل بندقى في تبريز .. بيد ان كل هذا الامل المفقود قد تهدم عن آخره ، وتلاشى ذلك الحلم الخادع الذى يرسم لأصحابه في الخيال صورة آسيا وأوروبا المسيحيتين يحصران بينهما الاسلام ، فلا يصبح

بعد ذلك الا عقيدة متضائلة محصورة في فئة قليلة من الناس في ركن اسبانيا وفي جانب من شرق البحر الأبيض ذلك ان خانات فارس دخلوا الاسلام سنة ١٣١٦ ، وأسلم أهل وسط آسيا في منتصف القرن الرابع عشر ، وتربعت على عرش الصين أسرة منج الشهيرة بين سنتي ١٣٦٨ - ١٣٧٠ وأقفلت أبواب الصين في وجه التجارة الأجنبية ، فكانت النتيجة انقطاع السبيل بالمسيحية واتساعا بعيدا في رقعة الاسلام الذي أدرك شأوا بعيدا من الانتشار بفضل الأتراك العثمانيين .. ولكن أملا جديدا تراءى للغرب الذي لا يئس ، وكان هذا الأمل الجديد سببا في أكبر انقلاب عرفه التاريخ .. تساعل الأوروبيون : اذا كان طريق البر قد أقفل ، فلم لاتسلك أوروبا طريق البحر ، لماذا لاتبحر الى الشرق وتهاجم الاسلام من الخلف وبذلك يستعاد بيت المقدس .. كان هذا امل الملاحين الذين حملوا الصليب على صدورهم واعتقدوا أنهم برجلتهم الى بحار الهند يعملون لتخليص الأراضي المقدسة ، واذا كان كولومب قد وجد الجزائر الكاريبية بدلا من الهند .. فانه يمكننا ان نقول إن المسيحيين الذين قاموا بهذا العمل (أى بالالتفاف حول الشرق ومهاجمته من بحار الجنوب) قد كسبوا قارة للمسيحيين وان الغرب استطاع ان يعيد ميزان الأمور لما فيه خيره عن طريق لم تكن تخطر له على بال ..

ويمكن في ختام هذا الفصل ان نجل الحروب الصليبية في ستة سطور ، وستة تواريخ هي :

- بدأت أولى الحملات الصليبية عام ١٠٩٧ وكانت وجهتها فلسطين والشام .
- وبدأت الحملة الثانية عام ١١٤٧م وكانت وجهتها فلسطين والشام .
- وبدأت الحملة الثالثة عام ١١٨٧م وكانت وجهتها فلسطين والشام .
- وبدأت الحملة الرابعة عام ١٢٠١م وكانت وجهتها مصر .
- وبدأت الحملة الخامسة عام ١٢١٨م ، وكانت وجهتها ايضا مصر .
- وبدأت الحملة السادسة عام ١٢٤٨م تحت قيادة لويس التاسع ملك فرنسا .

تقييم الحروب الصليبية :

يقول « جون لامونت » (١) في بحثه عن الدوافع للحروب الصليبية ، وحروب المسلمين ضد اللاتين في الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ما يأتي :

أغلب الظن أن اتباع قادة الحروب الصليبية قد اشتركوا في الحملة لأسباب عديدة . فقد ذهب بعضهم مدفوعين ، بحماسة دينية المحضة ، وذهب بعضهم فرارا من رقابة حياتهم المملة ، أو تخلصا من السنة زوجاتهم السليطة ، وحمل بعضهم الصليب حبا بالمغامرة والمخاطرة ، وذهب بعضهم لمجرد ان الآخرين قد فعلوا ذلك . ولكن لنا أن نفترض بأن عامة المحاربين يومذاك ، كما هم في زماننا هذا ، كانت تحفزهم الأهداف المثالية التي ينادى بها قادتهم أيضا ، وأن الحملة الصليبية الأولى كانت ، في نظر جمهور المشتركين فيها ، حملة دينية في جوهرها . ولكن ما شأن المسلمين الذين سار الصليبيون لحربهم ؟ لقد كان للمسلمين ، حربهم المقدسة المسماة بالجهاد . وقام المسلمون بفتوحاتهم الأولى ، التي كانت توسعا محتوما للشعب العربي النشيط ، تحت ستار نشر الدين . وقد حمل المسلمون أيضا « الكتاب » إلى جميع الأمم ، وفتحوا البلاد وكان المسلمون في عهد الخلفاء الأولين ، يهاجمون بلاد الكفار ، وقد حمل الجهاد راية الرسول من مضيق جبل طارق إلى حدود الهند . ولم تكن الحروب الصليبية سوى هجوم مضاد شنه النصارى . ومن المعقول جدا أن يتوقع المرء أن ينهض المسنمون ويتحدوا ليصدوا الهجوم الموجه إلى ديار المسلمين . ولو كان هو الدافع المسيطر على عقول المسلمين ، كما يزعم كثير من الكتاب ، لما فعل المسلمون غير هذا . ولكن ما حدث في الحقيقة كان على الضد من هذا تماما .

لم تكن الحروب الصليبية في نظر المسلمين ، سوى حوادث مزعجة في تاريخ الصراع الطويل من أجل الاستيلاء على الشام . كانت الحروب الصليبية حروبا كبرى ، وعلى هذا فقد احتلت مكانا بارزا في تواريخ المسلمين من تلك الفترة . ولكن هذه الحروب لم تكن تتمتع بالأهمية العظيمة التي يحاول المؤلفون الغربيون أن يضيفوها عليها . لقد تجاهل الخلفاء الحملات الصليبية في بادئ

(١) بحث « الحروب الصليبية والجهاد » (في كتاب دراسات اسلامية باشراف الدكتور نقولا دياب) .

الأمر ، ولم تستطع تلك الحملات ان تقلقل مراكز القوة في الاسلام كما فعلت الغزوات التركية والمغولية . ولم تكن تلك الحملات عامل توحيد ؟ لقد كانت الحروب الصليبية اعظم أهمية للنصارى منها للمسلمين ، ومع ذلك فانها لم تنجح في توحيدهم .

وسرعان ما تعلم الغربيون الذين استقروا في الشام كيف يسايرون جيرانهم العرب ، او على الأقل أن يتعاملوا معهم كما كانوا يتعاملون مع ابناء ملتهم . وتعلم أبناء الديانتين أن يحترموا بعضهم بعضا لما عندهم من صفات وفضائل . لقد كيف اللاتينيون أنفسهم لأساليب الحياة الشرقية وتبنوا العادات الشرقية ، واختاروا الملابس الشرقية . وتلطفت عادات الافرنج الخشنة باختلاطهم بشعوب الشرق . وكانت اللقاءات الودية شائعة بين أمراء الملتين . أما اتفاقيات الصيد والمباريات الرياضية فيعرفها جيدا قراء كتاب « الاعتبار » لاسامة بن منقذ . وقد محت العلاقات التجارية والمعاملات اليومية بين الطبقات الشعبية من الفريقين كل عداة دينى بينهما . ومحا الزواج المختلط الفوارق العنصرية والدينية بين الفريقين ونشأ في المدن التي حكمها الافرنج مجتمع عالمى النزعة ما زالت الشواهد قائمة في آثار الكنائس الفوطية المحاطة بالأبنية الشرقية . وقد أنتج هذا المزج بين الشرق والغرب حضارة فاقت ، في كثير من النواحي ، كل الحضارات القائمة آنذاك . وقد يلمح في تلك الحضارة بذور أجمل جوانب لحضارة عصر الأحياء الأوروبى .. ا . هـ .

كان .. ويكون :

ونحن لانريد أن نسرف في استعمال كلمة « كان » والافعال الماضية ، فنقول ان احتكاك أوروبا بالعرب والمسلمين في الحروب الصليبية ، وفي اسبانيا ، وفي الغارات على أوروبا هو الذى أخرج هذه القارة الهمجية إلى عصر النور .. هذا التاريخ وحده لايعزينا ، عن تخلفنا الحاضر ، فنحن أمة لها ماض - هذا صحيح - ولكن يجب أن يكون لها الحاضر والمستقبل ، وأن تتصل هذه الأبعاد الزمنية بعضها مع بعض متجاوزة فترات التخلف والضعف ، والتي لم نعثر لها الا على سبب واحد ، وهو طغيان الحكم ، وشهوته التي تذلل أفراد الأمة ، لتخضعها لارادة طامع واحد أو اسرة بعينها .. ففى ظل حرية الارادة للأفراد ، نمت مواهبنا ، وأنتجت وأبدعت .. وتكونت حضارات لا حضارة واحدة ، كل

منها يناسب البيئة والزمان والمكان . وهذا هو ما يجب أن نعود إليه ، ما دامت « خامتنا » البشرية صالحة للرقى والتفوق ، وهى كذلك والحمد لله .
ولكن اصلاح أخطاء الحاضر ، وتطلعنا إلى المستقبل بايمان واطمئنان لايمنعنا أن نقف على لمحات مما وصلنا إليه ، وتعلمته منا أوروبا ، به استعلت علينا لفترات من الزمن .

وقد ذكرنا « البحر » وسفائنه التى اندفع بها العرب والمسلمون فوق الموج وحملهم إلى كل أفق بعيد . ويجب أن نعود عليه بنفس القوة والجسارة .
وفى باب العلم ، وتطويع الطاقات الطبيعية لخدمة الانسان ، وصلنا إلى كثير حمله معهم الصليبيون فى عودتهم إلى أوطانهم ، وحملوه من الأندلس لفترة وجودنا هناك وهى ثمانية قرون كاملة .

وقد عرض الدكتو عبدالرحمن بدوى فى كتابه : « دور العرب فى تكوين الفكر الأوروبى » لكثير من لمحات النشاط الحضارى للعصر العربى الوسيط ، وهو كتاب يجب أن يدرس فى معاهدنا جميعها ، لأنه وثيقة علمية نرى فيها أنفسنا على ضوء واقع نسيناه أو جهلناه ..

وإليك أمثلة : علم اللوغاريتمات ، وضع جداوله الخوارزمى ، ونسبت إليه ، وحرف على النحو الذى نراه ، وان كان اسم مبدع هذا الفرع من الرياضيات فى اللغات الافرنجية ، لا يزال أقرب إلى سلامة النطق الاصلى ، منه فى العربية Alguarismo .

وكلمة « الصفر » العربية ، نقلت إلى اللاتينية ، تحمل نفس الحروف تقريبا ، ومنها أخذت كلمة الشفرة ، أى لغة الرموز . والمترجم الايطالى « جيرردو » هو الذى نقل عن العربية سبعين كتابا فى الفلك والجبر والحساب والطب .

والألواح الفلكية التى وضعها ابن كثير الفرغانى ، هى التى ترجمت إلى اللاتينية والعبرية وعن طريقها قدروا مقياس قطر الأرض . ومن علم الفلك تكون حساب المثلثات ، ونشأ التقويم . وكان ابن الهيثم هو واضع علم البصريات أو « المناظر » . وقد ترجم أيضا ، وطبقت نظرياته عن المرايا المستوية والمخروطية والاسطوانية والكروية والبيضاوية « وفى الانحراف والانكسار والابصار ، والغرفة المظلمة لرصد الخسوف ... الخ » .

ونقلت أوروبا فى حروبها معنا واحتكاكها بنا كنوز الكيمياء وعلومها ، وكان

اسم جابر بن حيان من الأسماء اللامعة المحلقة في ذلك الزمن (توفي سنة ٧٧٦م) . وقائمة الكشوف العربية في هذا الميدان طويلة ، وان بدأت بحمض الزرنيخ واكسيد الزئبق ، فهي لاتنتهى بمشتقات النشادر وكلورود الذهب وبنترات الفضة .

وظلت أوروبا أربعة قرون كاملة تعيش على طب العرب ولا تضيف له شيئاً . وبعد الرازي (المتوفى سنة ٩٢٣م) أكبر الأسماء العربية في أوروبا ، يليه ابن سينا (المتوفى سنة ١٠٣٧) . وفي الجراحة كان الزهراوي علما مفردا في ميدانه . أما « ابن النفيس » فهو مكتشف الدورة الدموية . ودراسات الدكتور « بول غالينجي » عالمنا المعاصر ، وثيقة هامة من وثائق العلم العربي . وعن العرب ، أخذت أوروبا الصابون ، والسكر المصنوع من القصب ، والورق (١) والحبر العادي ، والحبر السري ، والحبر الذهبي . وكذلك صناعة الأصباغ واللآلئ الصناعية . ومن العرب تعلمت أوروبا شرب القهوة من نبات البن اليمني .

ويقول عبدالرحمن بدوي : « كان لكتب العرب في الفلاحة والنباتات أثر هائل في تقدم الزراعة في أوروبا » وما أكثر أنواع الزهور والفاكهة التي انتقلت اليهم .. حتى زراعة القطن أخذوها من مصر ، وكانت معروفة هنا قبل محمد علي بزمن طويل .

وصناعات المعمار تأثرت كثيرا بالطراز العربي ، حتى أثاث المنازل ، والأقمشة الحريرية الفاخرة عشقتها أوروبا . فاذا وصلت إلى التسلية فمن بلادنا نقلوا لعبة الشطرنج حتى بألفاظها ، ورياضة الصيد والموسيقى ولا تزال آلة العود تحمل نفس الاسم في الافرنجية ، وكذلك الرياضة .

وفي التصوف نقل يوحنا الصليبي سبحاته الصوفية عن أبي الحسن الشاذلي ، وفي الأدب نقل دانتي عن قصة المعراج الاسلامية ورسالة الغفران لأبي العلاء تصوره للجنة والنار في أكبر أثر أدبي أوروبي ، وهو « الكوميديا الإلهية » .

(١) اخذ العرب من الصين ، وفي الصين : بنى اول مسجد اسلامي . القامته البعثة التي بعث بها سيدنا محمد بكتاب منه لامبراطور الصين فالتفت هناك لنشر الدعوة ولم يرد عنها نبا في المراجع الاسلامية . ولكن المصادر الصينية تحدثت عنها ثم المصادر المسيحية .

وابن خلدون رائد علم الاجتماع ، وعلمه الأكبر اسم عرف في أوروبا ، وأخذ
حظه من التكريم والاحترام ، مثله كمثل ابن رشد الذي طاردت الكنيسة اسمه
لفترة طويلة من الزمن ..

وهكذا تمضي بنا الأمثلة ، وفي كل وقت تظهر أدلة جديدة على مقدار
ما حملته النهضة الأوروبية من تراثنا بفضل الحروب الصليبية والاسبانية
وحروب العرب في أوروبا نفسها .

ولا بأس علينا من أن نعطي لأوروبا ، وأن نأخذ عنها ، ولكن ستبقى هناك
نقطة هامة ، وهي أن العصور الوسطى ومشروعاتها قد انقضت . كان العرب قد
خططوا للاستيلاء على القسطنطينية ، بأن يدوروا لها حول البحر المتوسط من
اسبانيا ولم ينجح المشروع بسبب صراع دولتي الاسلام في العراق والاندلس ..
وكذلك فكرت أوروبا ، بعد أن فشلت في الاحتفاظ بالقدس ، أن تدور لها دورة
طويلة من آسيا (بعد أن تحول شعوبها إلى المسيحية) . وقد أخفق هذا
المشروع أيضا ، لأن الاسلام سبق واستقر في أجزاء الامبراطورية المغولية ..
كل ذلك كان فكر ألف سنة مضت أو نحوها .. فما بال هذا الفكر يتجدد
الآن ، لا باسم الصليب الذي رفعت الحملات القديمة ، ولكن باسم آخر هو
الصهيونية التي اختفى أصحابها ، ومعتنقوا دينها قرابة تسعة عشر قرنا . وفي
فترات الصراع الأكبر بين ديني المسيح ومحمد ، لاتكاد تحس لهم بأثر ، على
أمل أن ينتهي الأمر بالقضاء على الاثنين معا . وهؤلاء أيضا في القرن العشرين
يحملون الشعار القديم : إلى القدس !

فلنتابع مسيرتنا مع مخلفات الصليبية القديمة ، حتى نصل إلى الصيحة
الجديدة ... وتجدد الصراع الكبير تحت أعلام أخرى .. وعلى وهج الحريق
الهائل : حريق المسجد الأقصى ، سوف نتمكن من المتابعة جيدا ، وقراءة ما بين
سطور الماضي والحاضر ، لنحاول أن نصل إلى لب المعركة وجوهرها وإنا
لواصلون بإذن الله .

.. « ولا يزال الكتاب مفتوحا » !! ..

الفهرس

الموضوع	الصفحة
■ محمد صبيح .. الرائد والمعلم	٥
■ تقديم	٩
■ مقدمة	٢١
■ الفصل الأول :	
إبراهيم الخليل .. أبو التوحيد	٢٣
■ الفصل الثاني :	
مصر .. منها وإليها	٥٥
■ الفصل الثالث :	
موسى .. يقود إسرائيل	٩٣
■ الفصل الرابع :	
إسرائيل .. في فلسطين	١٣٣
■ الفصل الخامس :	
داود وسليمان .. في القدس	١٥٧
■ الفصل السادس :	
التوراة .. والمزامير .. والأمثال	١٧٣

	■ الفصل السابع :
١٨٩	إنقسام .. وإبادة
	■ الفصل الثامن :
٢١٩	ظهور المسيحية
	■ الفصل التاسع :
٢٣٧	اليهود .. في جزيرة العرب
	■ الفصل العاشر :
٢٦٩	اليهود .. والدولة الإسلامية
	■ الفصل الحادى عشر :
٢٩٩	المسلمون .. في قلب أوروبا
	■ الفصل الثانى عشر :
٣١٥	الصلبييون في الشام الكبير



هذا الكتاب

هذا الكتاب .. « القدس ومعاركنا الكبرى » هو أحد « الثلاثية » التي كتبها الكاتب الكبير « محمد صبيح » عن اليهود ومعاركنا معهم منذ فجر التاريخ .

أما الكتابان الآخران فهما « المعتدون اليهود من أيام موسى إلى أيام دايان » و « إن عدتم عدنا » . وقد ركز مؤلف هذا الكتاب كل جهده ، وكل دقيقة من وقته ، وسخر قلمه للمساهمة في المعركة الضارية التي تدور بين الأمة العربية والإسلامية .. والصهيونية وأعوانها من المستعمرين .

وفي تقدير المؤلف أن معرفة العدو ، والكشف عن خلفيته التاريخية وعقائده ، جزء هام من أدوات النصر عليه . وقد ثابر اليهود على دراسة ظروفنا ، ولغتنا وعقائدنا طوال ألف سنة أو تزيد .. لكي يصلوا إلى الثغرات التي ينفذون منها إلينا .

إن الجهد الذي بذله الكاتب الكبير « محمد صبيح » وهو واحد من أكبر المدافعين عن القومية العربية لا يمكن إنكاره .

وهذا الكتاب الذي يعيد طبعه « كتاب التعاون » في طبعة ثانية لهو كتاب لا تستغنى عنه المكتبة العربية .

« كتاب التعاون »

١٠ جزيئات

Biblioteca Alexandrina



0644476